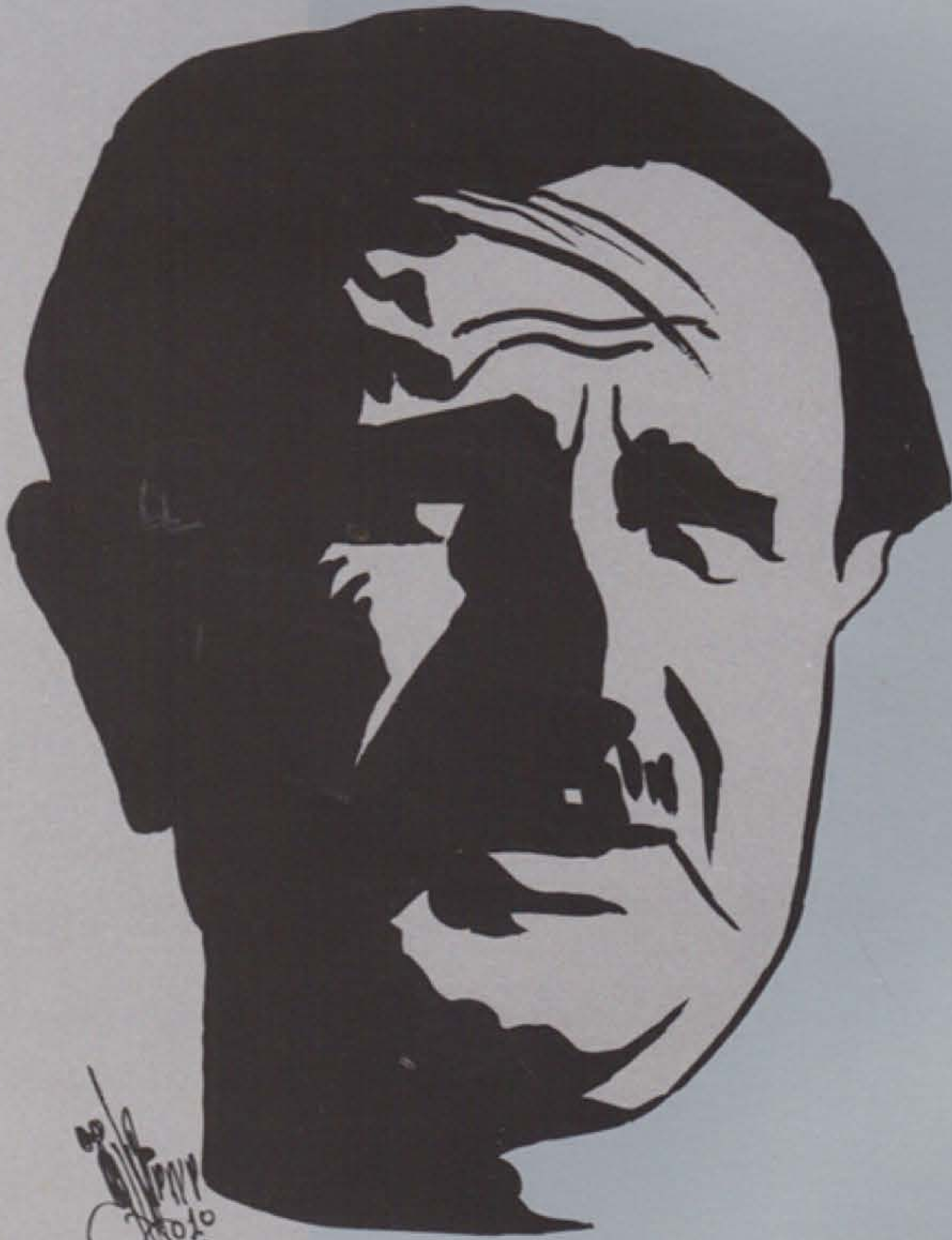
عزيز المتني

كمال جنبلاط

أسئلة وحقائق







عزيز المتني / كمال جنبلاط: أسئلة... وحقائق

الدار التقدّمية

المختارة ـ الشوف ـ لبنان

هاتف: ٩٦١ـ٥/٣١٠٥٥٥ ـ ٩٦١ـ٥/٣١١٥٥٥

E – mail: moukhtarainf@terra.net.lb
http://www.daraltakadoumya.com

الطبعة الأولى، ت٢ ٢٠١٠

عزيـز المتـني

كمال جنبلاط
أسئلة... وحقائق

الغلاف

بريشة الفنّـان بيار صادق

الدار التقدّمية

الإهداء

إلى وليد جنبلاط

الذي كان البرّ بتراث كمال جنبلاط الثقافي

فأوجد مؤسّسات تُعنى بجمعه وتحقيقه ونشره

ليبقى للأجيال

مصابيح نورٍ ومعرفة

تضيء دروبهم

نحو الأفضل والأكمل والأسمى.

عزيز

أمجد أنشودة إنسان

بدأ نضال العائثين العابثين،
وكان اللحم والدم أكبر وجودهم
ليظلّوا حكاية ديدان في مدرجة أكفان.
وصرعوا فيه اللحم والدم، وكان أصغر وجوده،
ليظلّ حكاية نسورٍ وعقبان على مرّ الزمان.
فالتقى فيه المبتدا على خبر كان،
في أمجد أنشودة إنسان...

* * *

في هذا المنحنى الأرضي،
ستظلّ مواطئ أقدام لعابر غريب تقول:
من هنا مرّ إنسان يدلّ على الطريق...
ولكن هيهات لأبناء الطيّن
أن يدركوا الحقيقة في أبناء اليقين
إلا خيال رؤيا...

العلاّمة الشيخ
عبد الله العلايلي

من هنا مَرَّ إنسان يَدُلُّ على الطريق

من عِبَر التاريخ

المعلّم بطرس البستاني:

أما شربتم ماءً واحدًا وتنشّقتم هواء واحدًا؟

عام ١٨٦٠ أصدر المعلِّم بطرس البستاني صحيفة "نفير سوريا" إثر الحرب الأهلية في برّ الشام، وجعلها على شكل رسائل وطنية، تتضمّن نصائح مفيدة لشدّ عرى الإلفة بين السكّان، ثمَّ أوقفها بعد استتاب الراحة في البلاد.

كتب المعلِّم بطرس البستاني فقال:

"يا أبناء الوطن

إنَّ الفظائع والمنكرات التي ارتكبها أشقياؤنا هذه السنة كسرت القلوب وعكّرت صفاء الإلفة، وأضاعت حقّ الجوار.

أما تمالح الجاران؟ أما شربتم ماءً واحدًا؟ أما تنشّقتم هواء واحدًا؟ أما رأيتم العقلاء ساعين في تشييد أركان الإلفة ورفع منار العلم رغبة منهم في ارتقاء البلاد وسعادة أبنائها؟

اعلموا أنكم بعملكم المنكر قد أرجعتم الوطن إلى الوراء نصف قرن.

هدانا الله وإيّاكم إلى سواء السبيل...

وهنا نذكر قول الشاعر:

إذا احتربت يومًا ففاضت دماؤها   تذكّرت القربى ففاضت دموعها

* * *

أشعار أحببتها وحفظتها

كتب شاعر الأرز شبلي الملاّط إلى صديق مقرّب منه، وشبلي غالبًا ما كان يكتب شعرًا، فقال:

ألـم نكـن نحن الأُلـى إذا زأروا ... لأجل لبنان راعوا الأسد في الأُجُمِ
ألـيس نحن مَنْ أدّوا رسـالتهم ... فـي منـطق ٍعـربـيّ غيـر مُتَّهَمِ
عشنـا كفـافًا وما بعنـا لـنـا قلمًا ... من أجـنبـيّ ولا من أيّ مُحتكمِ
لبـنـان، لـبـنـان واسـتقلالـه أبـدًا ... عندي وعنـدك كلّ المال والنّعمِ

وردّ سعيد عقل التحية لشاعر الأرز فأنشد في مهرجان تكريم شبلي الملاّط في قصر الأونسكو ببيروت، بتاريخ ١٠ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٦١، فقال:

أخذتُهـا عنك أهلي النور منبتُهم ... عالون كالأرز جار الله ما رُغموا
مـا نـكّسـوا هـامـةً إلاّ لخـالـقهـا ... إلاّ للبنـان مـا دانوا ومـا احتكموا
ساررتها الشمس أيُّ الخمر يُسكرها ... حتَّى أصُبّ فقالت يُسكر الشمم

نحن عُـربٌ بِـديْـن تـغلـب دِنَّـا

ومن شبلي الملاّط هذين البيتين المعبّرين:

نـحـن عُـربٌ بِديْـن تـغلب دِنَّـا ... وسـكـنّـا لـبـنـان دهـرًا فـدهـرا
نحفظ الضاد والضيافة والعِرض ... ونـبـنـي بـالـشعـر مجـدًا وفخـرا

ومن وديع عقل:

واخلعْ نعـالَـك قبل دوس تـرابـه ... فـتـراب لـبـنـان رفـات رجـالـه

* * *

خير الكلام...
وفاءً لوعد... ونزولاً عند طلب

اللهمّ، أشهد أنني قطعت عهدًا ووعدًا، وها أنا أفي بهما...

قطعت عهدًا لكمال جنبلاط، قبل استشهاده بستّة أيام، ووعدته، نزولاً على طلب منه، بأن أكتب، وبأن أصحّح وبأن أصوّب، بعدما زوّدني هو بكلّ المعلومات والوقائع والأسانيد التي ساعدتني في أداء هذه المهمّة الصعبة، ووفّرت لي كلّ الأجواء والمناخات المؤاتية لأن أؤدّي هذا الواجب الذي تحتّمه الشهادة للحقّ، وكنه الحقيقة، والسعي الدؤوب لنشرها وإيصالها إلى الناس.

في هذا الكتاب سلكنا طريق الحقيقة وحدها. وأجبنا على العديد من الأسئلة التي طرحتها كتب وكتابات نُشرت من قبل، بروح التجرّد والصدق والأمانة والوفاء، وفاقًا لما أدلى به كمال جنبلاط إلينا في حوارات ولقاءات أجريناها معًا حتَّى الأيام الأخيرة من استشهاده المضيء.

ولأننا رأينا أنه لم يعد مسموحًا لأحد أن يزوّر تاريخنا، أو أن يحاول اغتيال شهدائنا مرّتين... فالقضية، متى كانت حقًّا، لا تموت، لأنها روح متجسّد أبدًا... يتحطّم الجسد وينهض الروح حيًّا لا يموت.

ولا مناص من التنويه والتأكيد على أنَّ كلّ ما ورد في هذا الكتاب إنّما يعبّر عن رأي ووجهة نظر كاتبه ومؤلِّفه وحسب. وعن وجهات نظر كمال جنبلاط في العديد من المواضيع والمحطّات التاريخية التي عرفها لبنان في حقبات معقّدة ومفصلية من تاريخه الحديث.

وهو لا يلزم الحزب التقدّمي الاشتراكي، أو رئيسه الأستاذ وليد جنبلاط أو جريدة «الأنباء»، بأية تبعة أو مسؤولية.

وحسبنا أنّنا نعيش زمن المنطق المغيَّب والذاكرة الوطنية المفقودة.

المؤلّف

تقديم لا بدَّ منه:
٦ كانون الأول سنة ١٩١٧ تاريخٌ غيَّر التاريخ!
قَدَر كمال جنبلاط الالتصاق بقضية فلسطين منذ المولد وحتى المصير

"كان كمال جنبلاط يواكب لبنان ويراه في برعم زهرة،
وفي جناح فراشة"

الشاعر أدونيس

قالوا: من زمن آخر أتى، ولزمن آخر هو وأفكاره وتعاليمه والمبادئ. وقالوا: فيه عَبَقٌ من روح الله، وشذىً من نقاوة الأولياء، وتلاوين من جباه الحكماء، وحكمةً من أفواه الفلاسفة والعارفين والواصلين، وصفاءً وضياءً من نورانية النسّاك والزهّاد والمتصوّفين...

وقالوا: فيه من أرستقراطية الإقطاع ومن تواضع الفلاّحين، ومن صلابة الصنّاع وإشراقة المتنوّرين...

وقالوا: في عالم السياسة كان عملاقًا بين أقزام، وراعيًا صالحًا في غابة ذئاب. وعلى مثال ما قال سقراط لتلميذه أدرك كمال جنبلاط أنَّ القائد يُفترض فيه أن يكون رجل فكر وثقافة وسياسة في الوقت نفسه. فحصّن نفسه بثقافة ولا أشمل، وبروحانية ولا أعمّ وأنبل، وبتجرّد ينتصر على الذات ويرتفع بها إلى مصاف الشهود والمشاهدين المتحقّقين، وقد كان هو الشاهد والمشاهد حتَّى اصطفاه المولى شهيدًا...

وما همّ في ما قالوا ويقولون...

فعندما سُئل: أيُّ واحد من هؤلاء يحبّ ويتوق إلى أن يكون، أجاب:

أنا إنسان، وكفى...

والإنسان على صورة الله ومثاله هو، مهما تبدّلت الأزمنة وتعدّدت وتنوّعت.

ويوم أراد أن يُقرن القول بالفعل والشعار بالتطبيق فوزّع أراضيه على الفلاّحين والفقراء اتّهموه بتبديد ثروة العائلة... وما أدركوا أنه هو هو ثروة العائلة والوطن والناس، وأنَّ بأمثاله يكبر الوطن وتصل العائلة والوطن والناس، إلى آفاقٍ إنسانية لم تحلم بها من قبل...

ويوم سلك دروب التصوّف والمعرفة والعرفان فعايش الحلاّج وابن عربي والجيلاني، وفيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو، وحكماء الهند، وصفوه بأنه إنسان غير سويّ، وفاتهم أنه هو الإنسان السويّ العارف الواصل، وهم هم الجهلة والمتخلّفون والمنحرفون...

ويبقى السؤال:

هل كان كمال جنبلاط نبيًّا، أم كان مشروع نبيّ؟!

وهل من قبيل المصادفة أن يُولد عام ١٩١٧، أي في السنة التي شهدت إعطاء اللورد الإنكليزي بلفور وعده الشهير للصهيونية العالمية، بشخص روتشيلد، بإنشاء دولة يهودية على أرض فلسطين العربية، أرض القدس والمقّدسات والصلب والجلد والقيامة، ومعراج النبيّ وقبلة المسلمين.

وأن تكون تلك الحقبة من التاريخ نهاية الحرب العالمية الأولى التي خلّفت الويلات والنكبات، وغيّرت وجه المنطقة بعقد معاهدة سايكس بيكو وقيام كيانات ودول جديدة فيها.

وأن يصادف دخوله المعترك السياسي عام ١٩٤٣ والعالم يعيش ذيول ونتائج الحرب العالمية الثانية المدمّرة، ولبنان يشهد حركة استقلالية للتخلّص من الانتداب الفرنسي وقيام سلطة تمكّن اللبنانيين من حكم أنفسهم بأنفسهم، لو أحسنوا استغلال الفرص واقتحام منافذ النور والهداية.

وسرعان ما انخرط كمال جنبلاط في الحركة الاستقلالية، وأدرك منذ عام ١٩٤٤ أنَّ ما يعيشه لبنان هو أزمة حكم وأزمة نظام تتطلّب للخروج منها تعديلات في الدستور وسنّ قانون عصري للانتخابات يؤمّنان إعادة تكوين السلطة وتحقيق المشاركة الحقيقية العادلة بين المسلمين والمسيحيين... فدعا إلى بناء دولة الاستقلال على أسس العلم والكفاءة والنزاهة والعدالة والحرّية، وإلى اعتماد اللامركزية الإدارية وإعادة توزيع الثروة بين المواطنين بحيث

يتاح لكلّ مواطن فرصة تملّك بيت وتحصيل العلم وتأمين عمل مع ضمانات صحّية واجتماعية للجميع... وإنشاء جيش وطني يدافع عن الاستقلال والحدود والكرامة الوطنية.

ويوم قرّرت الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ تقسيم فلسطين إلى دولتين: يهودية وعربية دعا كمال جنبلاط العرب إلى مواجهة المحنة المقبلة عليهم بروح العلم والعصر، وبوحدة الصفّ والسلاح، فواجهوها بروح البداوة وعقلية الجهالة والجاهلية... فخسروا فلسطين، وما زالوا يخسرون...

ويوم كتب بخطّ يده في الواحد والعشرين من شهر أيلول سنة ١٩٥٢، الوثيقة الشهيرة التي وقّعها نوّاب الجبهة الاشتراكية الوطنية وتعهّد كميل شمعون المرشّح للرئاسة وأقسم بشرفه وبمعتقده التقيّد بنصّها، ضمّن كمال جنبلاط الوثيقة بندًا يقول: «رئيس الجمهورية يلي الأحكام ولا يحكم»، وهو مبدأ شرحه كمال جنبلاط لنا بأنه يهدف إلى قيام نظام جمهوري برلماني ديمقراطي في لبنان يؤمّن التوازن بين سلطات الحكم والمشاركة الحقيقية بين أبناء الوطن... ولو سمعوا من كمال جنبلاط منذ العام ١٩٤٤ و١٩٥٢ لوفّروا على البلاد والعباد انتفاضة عام ١٩٥٨ وأحداث ١٩٧٥ـ١٩٩٠ والتي لا زالت ذيولها وحلقاتها وانعكاساتها حتَّى يومنا، بدون حلول جذرية مطمئنة.

وعلى الرّغم من أنَّ «اتّفاق الطائف» الذي صار دستورًا للبنان حقّق تقدّمًا كبيرًا في هذا الاتّجاه وأرسى أسس المشاركة بين العائلات الروحية اللبنانية، فإنَّ التجاذب بين فقهاء القانون والأطراف المشاركة في الحياة السياسية اللبنانية ما زال قائمًا حول صلاحيات رئيس الجمهورية وحول مبدأ الفصل بين السلطات الذي يؤكّد العديد من هؤلاء، أنه يبقى وفق هذه القاعدة ملتبسًا ومتعذّرًا.

وباَسم نكبة فلسطين ومحنتها المستمرّة، وبذريعة استعادة الأراضي العربية المحتلّة، قامت في المنطقة العربية انقلابات عسكرية تحوّلت في ما بعد إلى أنظمة حكم، تفتقر إلى أبسط قواعد الحرّية والعدل والديمقراطية والحفاظ على حقوق الإنسان. وأنشأت هذه الأنظمة جيوشًا لها، لكلّ نظام جيش على قياسه مهمّته الأساسية حماية النظام وامتيازات أهله، وليس الدفاع عن حقوق الشعب وكرامة الوطن والمقدّسات...

ثمَّ ظهر جمال عبد الناصر وثورة مصر في ٢٣ تموز (يوليو) عام ١٩٥٢، فقابلها العرب بالفتور والترقّب... وما أن بلغ العام ١٩٥٥، عام كسر الاحتكار في منع السلاح

الغربي عن العرب، وبدء عبد الناصر استيراد هذا السلاح من تشكوسلوفاكيا، ثمَّ تأميم قناة السويس وإعادة حقوقها إلى الشعب المصري، فالعدوان الثلاثي الإسرائيلي البريطاني ـ الفرنسي على مصر عام ١٩٥٦ وصمود عبد الناصر والشعب المصري في مواجهته، ثمَّ جلاء الجيوش الغازية عن بلاد النيل نتيجة لموقف لافت من الجبّارين الدوليين عهد ذاك: الولايات المتحدة الأميركية ورئيسها الجنرال أيزنهاور والاتحاد السوفياتي.

وبدأت مرحلة صعود جمال عبد الناصر وتعلّق الجماهير العربية بزعامته وقيادته، فراحت تهتف له في شوارع مدن المشرق العربي ومغاربه: «من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر لبيّك عبد الناصر».

وفي شهر شباط سنة ١٩٥٨ توحّدت مصر وسوريا في إطار دولة واحدة اسمها: «الجمهورية العربية المتحدة» بقيادة عبد الناصر فألهبت هذه الوحدة مشاعر العرب القومية وحلمهم الدائم في التوحّد والتضامن في وجه أطماع إسرائيل والغرب المؤيّد لها على الدوام... وكان عهد كميل شمعون قد أثخن لبنان وشعبه بالجراح والانقسامات، والفساد والانحراف، ومحاولة زجّه في الصراعات العربية وفي الأحلاف المناوئة للعرب والمؤيّدة لمصالح الغرب ومن خلاله لدولة العدوان «إسرائيل»... ثمَّ جاء تزوير الانتخابات النيابية ربيع عام ١٩٥٧ في محاولة مكشوفة لتجديد رئاسة كميل شمعون ولاية ثانية، ورافق ذلك كبت الحرّيات وسجن الصحافيين احتياطيًّا... إلى أن حلّ أيار سنة ١٩٥٨ فاغتيل الصحافي الوطني المناضل نسيب المتني على أعتاب بيته في بيروت... فانفجر الوضع، وكانت ثورة ١٩٥٨ بقيادة كمال جنبلاط والزعامات الوطنية فشملت لبنان من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه إلى أعماق بقاعه إلى عاصمته بيروت بالتأكيد...

وفي ١٤ تموز ١٩٥٨ قامت ثورة العراق ضدّ حكم فيصل ـ عبد الإله ـ نوري السعيد وسُحِل الثلاثة في شوارع بغداد، فخشي الغرب والشرق انضمام العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة وقيام دولة عربية كبرى قوية وقادرة، تهدّد مصالح دول الغرب وعلى الأخصّ في النفط العربي «مستعبد الشعوب»، كما أسماه كمال جنبلاط، فنزلت قوّات أميركية على شواطئ بيروت الجنوبية وأنزلت قوّات بريطانية في عاصمة الأردن عمّان... وأدخل شمعون لبنان في «لعبة الأمم» من بابها الواسع...

ومن خلال توافق أميركي أوروبي مع جمال عبد الناصر انتُخب اللواء فؤاد شهاب

قائد الجيش، رئيسًا للجمهورية صيف ١٩٥٨، وتسلّم سلطاته الدستورية في ٢٣ أيلول وسط حالة الطوارئ المعلنة، والبلاد محتلّة من الجيش الأميركي ومنقسمة على نفسها تعاني آثار الثورة والنزاع المسلّح والفساد والطائفية...

حاول فؤاد شهاب إرساء أسس دولة الاستقلال من خلال حكم متوازن نوعًا ما، حقّق المناصفة في عدد النوّاب وفي وظائف الدرجة الأولى في دوائر الدولة، وأنشأ مؤسّسات تتولّى إدارة شؤون الموظّفين والقضاء، ثمَّ أنشأ المصرف المركزي والضمان الاجتماعي. وتألفت "سيبة" الحكم في عهده من ثلاثة: رشيد كرامي وكمال جنبلاط وبيار الجميّل.

ثمَّ جاء شارل حلو عام ١٩٦٤ فكان عهده مرحلة الانتكاسة لما أُنجز وتحقّق، وتبعه عهد سليمان فرنجية عام ١٩٧٠ فكان حكم الرِدّة والانفجار...

وجاءت هزيمة الجيوش العربية في حرب حزيران ١٩٦٧ تفوق كلّ المراهنات والتوقّعات: احتلّت إسرائيل سيناء ووصلت إلى قناة السويس، واحتلّت الضفة الغربية من الأردن ووضعت يدها على مدينة القدس التي طالما حلمت بها عاصمة أبدية للدولة اليهودية. واحتلّت مرتفعات الجولان في سوريا وباتت دمشق العاصمة تحت مرمى مدفعيّتها...

أذهلت الهزيمة الشارع العربي والشعوب العربية كافّة ونشرت في صفوف أجيالها الإحباط واليأس، والتفكّر والتفكير بردّات فعل وبحركات مقاومة. وجاءت أحداث أيلول ١٩٧٠ في الأردن، أو ما أسمي "أيلول الأسود" أولى التباشير: فانعقدت القمّة العربية في القاهرة وجهد جمال عبد الناصر، صاحب القلب المتعب جرّاء نتائج هزيمة ٦٧ وانعكاساتها في محاولة ترطيب الأجواء ورأب الصدع على الأخصّ بين الملك حسين وياسر عرفات. وبعدما ودّع الملوك والرؤساء في مطار القاهرة توقّف قلبه الكبير، وغاب، ورحل...

كان عبد الناصر قد انصرف إلى إعادة بناء الجيش المصري على أسس حديثة وتزويده بالأسلحة العصرية منذ هزيمة ٦٧ وحتّى وفاته في ٢٨ أيلول سنة ١٩٧٠. ولعلّ أبرز ما تميّزت به سياسته في تلك الفتره رفضه لكلّ الضغوط الأميركية والغربية (وربّما السوفياتية) التي مورست عليه لعقد صلح منفرد مع إسرائيل يعيد إلى مصر سيناء والقنال بضفّتيها. لكنّه كان يصرّ على رفض الصلح المنفرد. وكان يقول لكمال جنبلاط، خلال لقاءاتهما المتعدّدة أنَّ هذه "الكماشة" القائمة حول إسرائيل: مصر من الجانب الجنوبي الغربي أو ما كان يسمّى

«الجبهة الغربية»، وسوريا والأردن ولبنان وفلسطين من الشمال والشرق أو ما كان يسمّى «الجبهة الشرقية» يجب أن تبقى وتستمرّ إلى أن نصل إلى حلّ عادل وشامل يضمن قيام الدولة الفلسطينية القادرة على الحياة والاستمرار، ويعيد للعرب أراضيهم المحتلّة؛ وكان يشدّد على القدس وما تمثّله للمسيحية وللإسلام.

في تلك الفترة من تاريخ لبنان والمنطقة العربية كانت الأرض تهتز من تحت الأنظمة العربية والحكّام. فالغليان الشعبي يتصاعد، والثأر للهزيمة مطلوب ومنشود، ولو عن أيّ طريق جاء وبأية وسيلة. والضغوط تقوى وتشتدّ على مصر وعلى عبد الناصر، ومن ثمَّ على أنور السادات ونظام حكمه، ولبنان على شفير الانفجار من داخل. وكمال جنبلاط يكتب ويناشد العرب، وعلى الأخصّ عرب النفط والثروات الخيالية: أن، انقذوا مصر حتَّى قال لهم في مقال له: اشتروا مصر يا عرب وأغيثوها قبل أن ينهار اقتصادها وتنفجر أوضاعها من داخل، أو يضطرّ حاكمها لعقد صلح منفرد مع العدوّ... ولكن على من تقرأ مزاميرك يا داود؟

... وكأنّ المنطقة العربية انتظرت رحيل جمال عبد الناصر لينفجر بركانها فتصيب شظاياه كلّ أقطارها وكياناتها... فبعد أقلّ من شهرين قام حافظ الأسد بانقلاب عسكري في دمشق أطلق عليه اسم «الحركة التصحيحية» أطاح الأسد بحكم رفاقه في الحزب: نور الدين الأتاسي ويوسف زعين وصلاح جديد وكلّ مجموعتهم ووضعهم في السجون والمعتقلات حتَّى قضوا... وبدأ أنور السادات، خليفة جمال عبد الناصر في مصر، يتحرّك باتّجاه مفاوضات مباشرة مع إسرائيل وتحقيق حلم حكّامها الصهاينة بفكّ «الكماشة» العربية المعقودة من حولها والفلسطينيين يتحرّكون في جنوب لبنان وفي عاصمته بعدما حصلوا عام ١٩٦٩ على ما سمّي: «اتّفاقية القاهرة» التي اتاحت لهم التحرّك في الجنوب ومن الجنوب، وخصوصًا في البقعة التي أطلق عليها: «فتح لاند» أو أرض فتح والمقاومة... وبطريرك الموارنة بولس المعوشي يردّد في عرينه في بكركي العبارة المأثورة: «استضعفوك فوصفوك، فهلاّ وصفوا شبل الأسد»؟

وأخذ صوت كمال جنبلاط وخصوصًا بعد حرب تشرين ١٩٧٣ ومعاهدة فكّ الاشتباك على جبهتي مصر وسوريا، يعلو مردّدًا: أغيثوا مصر يا عرب وساعدوها ولو بعشرة مليارات من الدولارات، وألوف مليارتكم المكدّسة من أموال النفط تنفق في غير

ساحها الأصيل، وهي في النهاية ملك الشعوب العربية مجتمعة... ولمّا لم يستجب أحد طرح كمال جنبلاط السؤال الكبير: إلى متى يبقى النفط العربي مستعبد الشعوب وليس مصدر قوّتهم وإسعادهم وتقدّمهم أو سلاحًا مصدر قوّة يستعملونه لرفاه شعوبهم وللدفاع عن الكرامة العربية والمقدّسات؟

لكنّ العرب أداروا الأذن الصمّاء... فيما انصرف نظام الأسد في سوريا إلى تثبيت موقعه في السلطة فأخلى ثكنات الجيش من بقايا خلايا الضبّاط الناصريين والبعثيين والمستقلّين، وراح يحلّ مكانهم ضبّاطًا من لون مذهبي واحد وينشئ جيشًا شعبيًّا رديفًا للجيش، جميع أفراده من لون مذهبي معيّن لحماية النظام والأسرة الحاكمة...

وشيئًا فشيئًا أخذ الوضع في لبنان يتّجه نحو الانفجار الكبير. ميليشيات فلسطينية وميليشيات مؤيّدة لها ومتحالفة معها، وميليشيات مناهضة لها ومعادية ترفع شعارات الحفاظ على الدولة ـ أية دولة؟ وعلى الكيان ـ أيّ كيان؟ وعلى أمن المسيحيين وكأنّ لكلّ طائفة أمنها الخاصّ الذي يمكن أن ينفصل عن أمن المجتمع المتنوّع ضمن وحدة يرعاها ميثاق حضارات وثقافات يكرّس لبنان وطن رسالة ومختبرًا لصهر الثقافات والديانات وانصهارها في بوتقة القيم والحفاظ على حقوق وكرامة الإنسان.

... ووجد حافظ الأسد فرصته التاريخية لتحقيق هدفين رئيسيين: الأوّل وضع اليد على لبنان ومحاولة ابتلاعه، والثاني الإمساك بالورقة الفلسطينية واستخدامها لتحقيق مخطّطه الكبير فراح يرسل السلاح والرجال إلى لبنان ويقوّي نفوذ ما سمّي منظّمة الصاعقة الموالية لنظام حكمه ولمخابراته... ثمَّ دفع بلواء كامل من ألوية الجيش السوري أفراده من الفلسطينيين واسمه "لواء اليرموك" إلى داخل الأراضي اللبنانية لاستخدامه عند الحاجة والاقتضاء. هذا اللواء هو الذي قام في ما بعد باحتلال بلدتنا الدامور وبتهجير كلّ أهاليها، وبنهب وإحراق بيوتها، وبارتكاب المجازر بحقّ العجز والأبرياء بشكل أخصّ... وسجّلت في دفتر مذكّراتي نهاية كانون الثاني ١٩٧٦: "زارتنا جحافل المماليك تؤازرها عصابات هولاكو وألوية جنكيزخان وتيمورلنك... وسقط ياسر عرفات سقطة لن يغفرها له اثنان: ربّه والتاريخ. واعتبرنا مع كمال جنبلاط أنَّ مأساة الدامور هي: "جريمة حرب"، بكلّ ما لهذه الكلمة من معنى، لم يتمّ الاعتذار عن ارتكابها ولا التعويض على أهلها بعدل.

وانتظر حافظ الأسد موافقة إسرائيل لإدخال جيشه إلى الأراضي اللبنانية. وتمَّ له ذلك

يوم اتّصل به هنري كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة اليهودي قائلاً: تفضّل، فنحن ورابين موافقون. ولم يكن الاتحاد السوفياتي وفرنسا وبريطانيا ببعيدين عن هذا القرار. فقد كان المطلوب يومها من الجميع: رأس المقاومة الفلسطينية ورأس ما سمّي "الحركة الوطنية"، والتي كان لمعظم دوائر مخابرات الدول العربية والـ KGB السوفياتية والـ CIA الأميركية ممثّلين ومندوبين على طاولة اجتماعاتها...

واشتهر عن الرئيس المصري أنور السادات أنه قال أكثر من مرّة لكمال جنبلاط عندما زاره في القاهرة خلال تلك المرحلة:

ـ إيه دا يا كمال بك؟ الحاوي والشاوي والواوي حيودّوك بداهية... (وكان يقصد بذلك جورج حاوي ونقولا الشاوي ومحمود الواوي من أركان الحزب الشيوعي اللبناني).

... ولأنّ الضدّان لا يلتقيان: الخير والشرّ، الحرّية والبطش والتسلّط والقمع... فقد كان لا مناص من أن يقتل هولاكو الشام كمال جنبلاط، المفكّر التحرّري والمتصوّف والمتجرّد بعدما كان قد هدر دمه علنًا وفي أكثر من مناسبة ومقام... وأن يسلّم كمال جنبلاط بعض ممّن حسبوا أنفسهم تلاميذ له ورفاق. فحكاية يهوذا الاسخريوطي ماثلة للأذهان وللعيان... في عالم عربي يُحكم بالحديد والنار، أو بروح البداوة والجهالة والجاهلية...

... وفي ذمّة الله والتاريخ يبقى كمال جنبلاط: مشعلاً من النور والمعرفة والنورانية والحرّية والتجرّد والحكمة... وشعلة من قيم الحقّ والحقيقة والعدل لا تنطفئ.

ونظلّ نردّد مع الشاعر الجنوبي شوقي بزيع:

كأنما أمّةٌ في شخصك اجتمعت ... وأنت وحدك في صحرائها المطرُ
أظنّها طلقات الغدر حين هوت ... تكاد لو أبصرت عينيك تعتذرُ

* * *

أربعة أجيال
من الزعامة الباقية المتجدّدة

« إنَّ عقل المجتمع يكون في عقل المفكّر المصلح ودماءه في دمائه.
لذلك يجيء وهو في قوّة مجتمع كامل: يناهضه ثمَّ يقوده،
ودائمًا تكون نفسه أكبر من الألم، وهذا سرّ نجاحه».

العلاّمة الشيخ عبد الله العلايلي

عرفت أربعة أجيال من الزعامة التي تعاقبت على دار المختارة، مركز الزعامة الجنبلاطية في التاريخ منذ بنى بشير جنبلاط (عمود السما) الدار الشامخة على تلك التلّة المشرفة على قرى وبلدات عدّة، والتي لعبت الدور البارز في تاريخ لبنان ومجريات الحكم والأحداث فيه.

الستّ نظيرة التي ملأت أخبارها البلد وشغلت الناس، خلال ربع قرن من الزمن وما يزيدَ اخترقت القاعدة المعروفة والمألوفة في زمنها، وفي غير زمنها والقائلة: « لكل زمان دولة ورجال» فكانت السيِّدة الأولى في تاريخ العائلة الجنبلاطية ولبنان التي سارت إليها مقاليد الزعامة فحافظت عليها وأعطتها رونقًا مميّزًا وسماتٍ خاصّة، حَفظت كلّ الإرث الجنبلاطي وطنيًا ومناطقيًا: سياسيًا واجتماعيًا وثروة اقتصادية، وصانت العيش المشترك في أدقّ الظروف وأصعبها ما بين الموحّدين الدروز والمسيحيين وسائر الطوائف الإسلامية في منطقة اعتبرت وتعتبر مثالاً صغيرًا عن لبنان، جمعت على أرضها الرحبة المعطاء كلّ الديانات والطوائف والمذاهب، وما تُمثّل من غنًى روحي ومن حضارات وثقافات، خصّ الله لبنان بها لتعيش تعاليم المحبّة والتآخي والتعاون والتعاضد، فيكمّل بعضها البعض الآخر في أروع سمفونية وتناغم وتآلف بين قيم الحقّ والخير والحرّية والعدل والجمال.

وتحدّث شاعر الأرز شبلي الملاّط في شعره عن الستّ نظيرة حامية العرين فأنشد يقول:

تَشْتَدُّإنْ خَشُنَ الزمانُ وإنْ يَلِنْ ... لاَنَتْ كواحدةِ الظِّبَاءِ العِيْنِ

عَصَمَتْ نظيرةُ شِبْلَهَا ومَهَاتَهَا بشمال ذات مَنَاعَةٍ ويَمين ِ
وغذتهما وكستهما وسقتهما ما شِئتَ من أدبٍ ومن تمدين ِ

عَرفتُ الستّ نظيرة في السنوات الأخيرة من حياتها. زرتها برفقة خالي الصحافي الشهيد نسيب المتني مرّتين أو ثلاث فإذا هي السيِّدة التي تنضح مهابة ولمحات جمال وإباء وتنطق حكمة ووطنية ووفاء. ومشيت في يوم تشييعها في المأتم الوطني الجامع الذي أقيم لها يوم ٢٨ آذار سنة ١٩٥١، مع أبناء بلدتي الدامور الذين حملوا نعشها على الأكتاف من حدود البلدة الشمالية مع الناعمة وحارة الناعمة وحتَّى جسر نهر الدامور جنوبًا، مدخل الشوف. ووراءها مشى وحيدها الزعيم التقدّمي كمال جنبلاط والجموع، وشاعر الدامور الشعبي عهدذاك بولس رشيد الغريِّب يُنشد ندبته الرائعة التي مطلعها:

ماتت ستّ الحراير بالحراير كفّنوها

والجموع المشيّعة تردّد وراءه هذا المطلع المحبّب والمؤثّر.

أمّا كمال جنبلاط الذي تسلّم مقاليد الزعامة رسميًّا عام ١٩٤٣ فرافقته منذ إطلالته وحتَّى يوم استشهاده المضيء يوم السادس عشر من آذار ١٩٧٧. رافقته فكرًا وطنيًّا إنسانيًّا متقدّمًا، وربطتني به قيم الحقّ والحقيقة، والمعرفة المتنوّرة، وقيم المحبّة والخير والحرّية. ولعلّ الانطباع الأول الذي انغرس في عقلي ووجداني عنه يوم وقفنا أولادًا نصفّق للطائرة التي استقلّها عام ١٩٤٦ و١٩٤٧ وراح ينثر على تلال بلادي بذور الصنوبر والأشجار لينبت منها لبنان الأخضر والبيئة الصحّية الجمالية النظيفة. ثمَّ واكبت إطلاقه الحزب التقدّمي الاشتراكي في الأول من أيار سنة ١٩٤٩، ثمَّ شاهدته وتعرّفت إليه عن كثب يوم زار منزلنا في الدامور خلال عام ١٩٥٠ مبشّرًا بمبادئه التقدّمية الاشتراكية الجامعة.

ثمَّ عرفته أكثر فأكثر عن كثب أيام كان يزور مكتب جريدة «التلغراف» ومنشئها ورئيس تحريرها نسيب المتني.

وشاءت الأقدار أن أتولّى في شباط ١٩٥٩ رئاسة تحرير «الأنباء» وإدارتها المسؤولة وإدارتها العامّة التي وفّرت لها الموارد المالية والاكتفاء الذاتي، واستمرّيت حتَّى نهاية شهر شباط سنة ١٩٧٥، يوم اتّخذت قراري بالانكفاء لأني لم أكن مؤمنًا بما يعدّ من مشاريع حروب ستؤدّي إلى خراب لبنان. لكنّي حافظت على صداقته الحميمة الصادقة حتَّى الأيام

الأخيرة التي سبقت استشهاده برصاص الغدر والخيانة... وأسهمت في جمع تراثه الفكري وفي نشر سيرته تلفزيونيًا، وفي الدفاع عن حقائق مواقفه ومقاصده عبر مقالات وأبحاث نشرتها في «الأنباء» وفي «النهار». وها أنا أفي بوعدي له فأكتب وأنشر هذا الكتاب الذي كلّفني جهدًا كبيرًا لتصويب ما اعتور ما كتب ونُشر عن كمال جنبلاط، وحسبي أنّي وفيت بالعهد وأدّيت الأمانة. وفي كمال جنبلاط الشاب المؤهّل للزعامة وللقيادة قال شاعر الأرز شبلي الملاّط:

للجنبلاطُ سجيّةٌ خلقيّةٌ ... قد نُزِّهَت عن شبهةٍ وظنونِ
ما طار فرخُ نسورهم إلاّ وفي ... منقادِهِ غصنٌ مِنَ الزيتونِ

أمّا العزيز الغالي وليد جنبلاط فلقد واكبته مذ كان في التاسعة من سنّي عمره يدخل صباحًا غرفة نوم الكمال وهو يتأبّط حقيبة كتبه المدرسية، يتلقّى القبلة الأبويّة المملؤة حنانًا وعاطفة صادقة ومحبّة خالصة، قبل أن يتوجّه إلى مدرسته (الليسّيه الفرنسية في محلّة زقاق البلاط) عهدذاك. ولا أحد ربَّما يعرف، مثلما عرفتُ أنا عن كثب، كم أَحبَّ كمال جنبلاط وحيده، ومقدار ما كان متعلّقًا به، معلّقًا عليه أكبر الآمال وأعرقها. كان يقول لي: أنا راحلٌ في الستّين، فإيّاك أن تترك وليدًا أو تبتعد عنه. قد يكون نسخة مختلفة منّي وعنّي، لكنّه سَيُوَفَّق في تأدية المهمّة وحمل الأمانة.

ورافقت وليد جنبلاط وهو يشبّ ويكبر عامًا بعد عام. وكنتُ أهتمُّ أحيانًا، وبناء على طلب من مربيته الفاضلة الآنسة إيفون، في الإعداد لعيد ميلاده. فقد كنّا نرى فيه جميعًا، كمال بك والمقرّبون الأقربون، الأمل الواعد في استمرار زعامة إنَّما وُجِدَتْ لخدمة الناس. ويوم فاز في الشهادة الابتدائية الأولى (السرتفيكا) نشرتُ صورة له في الصفحة الأولى من «الأنباء» مع كلمة نتبعة من القلب، فأعجب بها الوالد كمال جنبلاط لكنّه قال لي: كان يجب أن تنشرها في الصفحات الداخلية من «الأنباء» أسوة بباقي التلامذة الذين يفوزون بمثل هذه الشهادة. ويوم ألبسوا الوليد عباءة الزعامة، في أقسى الظروف وأسوئها ربَّما، وقالوا له: عسى تكون خير خلف لخير سلف، وأمامه في ساحة دار المختارة ثلاثة نعوش: نعش والده الكبير، ونعشي رفيقيه فوزي وحافظ، وفي البلدات المجاورة عشرات من القتلى الأبرياء، ضحايا الجهل والجهالة والانفعال، لم أرَ مناسبًا إلاّ تلاوة صلاة قصيرة متمنّيًا له التوفيق في المهمّة الصعبة وشبه المستحيلة التي حملها على منكبيه.

ولربّما كانت المدّة الزمنية التي تولّى ويتولّى فيها وليد جنبلاط مقاليد الزعامة هي الأصعب والأعقد أو الأكثر تعقيدًا، ولقد امتدّت حتّى أيامنا هذه زهاء ثلاثة وثلاثين من السنوات الطوال الطوال... من المبكر جدًّا ربّما الحكم عليها أو تقويمها بموضوعية وتجرّد وسط كلّ الضباب والغبار والتجاذبات والمزايدات أحيانًا.

لكنّ الذي عرف عن وليد جنبلاط واتّصف به أنه إنسان « براغماتي » عملي يؤثر الاهتمام بالقضايا العملانية الإنمائية المتّصلة مباشرة بمعيشة الناس وبحياتهم اليومية بعيدًا عن التنظير والجدالات الفلسفية أو ما يطلق عليه أحيانًا البحث في جنس الملائكة... ولقد أولى شؤون البيئة وشجونها اهتمامًا خاصًّا وكان هدفه أن يعيش الناس وسط بيئة صحّية معافاة تسودها النظافة والحدّ الأدنى من الحضارةوالرقي والجمال، فأنشأ أو استحدث محميتين طبيعيتين رائدتين هما « محمية الباروك » و « محمية معاصر الشوف »، وأنشأ « المكتبة الوطنية» في بعقلين فحوَّل السجن الذي كان إلى مؤسّسة ثقافية حضارية مميّزة. وأولى الأوضاع الصحّية جانبًا لا بأس به من اهتماماته فكان مستشفى عين وزين المتوأم مع مستشفى أوتيل ديو في فرنسا، ومستشفى سبلين الحكومي وسواهما من المستوصفات والمؤسّسات الصحّية والاستشفائية في الشوف وعاليه والمتن الأعلى وسواها.

ولعلّ كبرى إنجازاته كان في إعادة صياغة وحدة العيش والمساكنة بين أبناء الجبل من خلال عقد المصالحات وتوفير المناخات الإيجابية لطي ملف التهجير والمهجّرين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وجاءت زيارة البطريرك صفير إلى الجبل عام ٢٠٠١ تتوّج هذا الإنجاز.

أمّا القاموس التعبيري المستحدث منذ سنوات وسنوات حول « التموضع » وإعادة التموضع، أو الانتقال من صفّ إلى صفّ ومن موقع سياسي إلى آخر... فهي تدخل كلّها ضمن السياسة المتحرّكة التي اتّبع وينتهج... وهو ما يعود في العمق وفي الأساس إلى أنَّ وليد جنبلاط هو زعيم طائفة قليلة العدد والتعداد، كبيرة الطموحات، متجذّرة في تاريخ لبنان، وعلى الأخصّ جبله أو جباله.

وهي حقيقة تاريخية قد يحيط البعض بكل منعرجاتها وتفاصيلها. وقد يجهلها البعض وقد يريد أو يتمنّى بعض آخر أن يتجاهلها أو يمرّ بها مرور الكرام...

وفي هذا المنحى كتب كمال جنبلاط فقال: « معظم اللبنانيين يجهلون أو يتجاهلون تاريخ بلادهم: إمَّا لأنهم لم يتعلّموه في المدارس، وإمَّا لأنهم تلقّوه على غير حقيقته ففقد

روعته وجوهر اتّجاهاته. وإمَّا لأنهم لا تعلق في ذهنهم المكتئب إلاَّ هذه المرحلة من سيرتنا التي تعتبر في الحقيقة نكسة عابرة أو مؤامرة على البلاد سافرة. والكثرة قد لا ترى الوطن الملجأ يستضيفه المضطهدون والضعفاء والمشرّدون من مختلف الأقوام والعقائد، ونكاد نقول الأجناس...

«والذي ينحني، ولو إلى حين، على صفحات النضال الاستقلالي المستمرّ الذي كتبه أُمراء الغرب والبلاد ـ من آل تنوخ، ثمَّ المعنيّون والشهابيون والعائلات والعشائر التي تعاونت وتضافرت معهم وارتكز إليها كفاحهم في وجه الفرنجة والعثمانيين، ومختلف جيوش الولاة المرتزقة ومن ثمَّ الفرنسيين ـ يدرك أنَّ لبنان كان على مرّ سبعماية إلى ثمانماية سنة من التاريخ الذي طغى فيه الأعاجم على حضارة العرب وسلطانهم، كان مرتكز انطلاق الحركة التحرّرية الاستقلالية وموطن الكفاح والطموح والقوّة، ومستقرّ النهضة العربية في الحقلين الأدبي والسياسي، يوم كان لبنان بدون وجه ولا صفة، لأنه كان كلّه هذا الوجه وهذه الصفة، وهكذا يجب أن يعود».

وكتب كمال جنبلاط مشدّدًا على الخلق اللبناني الذي اشتهر به أبناء هذا الجبل الأبيض قال: كأنَّ هذا الوطن في النهاية عائلة واحدة أو مجموعة من العائلات... أو هكذا على الأقلّ نشعر نحن الذين يقطنون هذا الجزء من لبنان ـ هذا الجبل الأبيض على حدّ التعبير القديم ـ الذي لعب دوره التاريخي التحريري في مقابل الجبل الأسود في البلقان على ضفّة المتوسّط الشمالية... وأنَّ الصفات الأساسية التي كوّنت الخلق اللبناني والطبع اللبناني والتصرّف اللبناني كانت ولا تزال قائمة وحيّة: ثقة بالنفس وبالمصير، وشرف وشهامة وصدق في المعاملة، وأمانة وحفاظ على الكرامة، ورفعة وحشمة واعتزاز... ويجدر القول أنَّ الحضارة الأوروبية التي أخذنا قشورها ولفظنا لبابها، كانت لم تتداخل بعد في حياتنا وتفعل فيها تهديمًا لتقاليدنا السليمة، وتسييبًا لقيمنا، وإضعافًا لما يتوجّب أن يكون عليه الإنسان.

« هذه الروح المعنوية، هذه التقاليد الحيّة السليمة، هذه المزايا والصفات الخلقية التي أبرزها كفاح ثمانية أجيال، وآلام لا تحصى، وجهاد أبطال وشقاء أبطال، واستشهاد عشرات الألوف ومئات الألوف... هذه الروح المعنوية الرفيعة، هذه التقاليد، هذه المزايا هي في دمنا وفي حياتنا وفي حقيقة لبنان، وهي حقيقة لبنان وجوهر سرّ نضال هذا الشعب عبر العصور قبل أن يتذوّق ترّهات انجذابات المدنيّة ويكاد يفسد، وقبل أن تستهويه بعض العصبيات الطائفية الانتهازية المقيتة »...

هذا النصّ لكمال جنبلاط مأخوذ من خطاب له في تكريم ذكرى شاعرالأرز شبلي الملاّط سنة ١٩٦١، وهو مهدى إلى الحبيب تيمور الذي يرافق الوالد الوليد عن كثب في محاولات للإحاطة، ولاكتناه أسرار وحقائق ومقوّمات هذه الزعامة التاريخية التي بنيت على محبّة الناس وعلى تضحياتهم وبطولاتهم والشيء بالشيء يذكر.

تيمور وليد جنبلاط هو الأمل الواعد والخليفة المرتقب لوالده الذي شكّل لغزًا محيّرًا في السياسة اللبنانية... وذلك عندما تتوافر الظروف المؤاتية والمعطيات المتكاملة وعندما تحين الساعة والموعد الذي يقرّر فيه وليد جنبلاط أن يرتاح وهو بعد في عزّ العطاء والنشاط. والناس تعيش بالآمال والأحلام أحيانًا. والحياة هي دومًا في حاجة إلى أمل وإلى حلم. والكلمة هنا مزدوجة المعنى والغاية كما هي حال كلمات اللغة العربية الفصحى الغنية المتعدّدة المعاني والأبعاد أحيانًا...

وإلى تيمور، كما إلى والده، أهدي هذا الكتاب، كما إلى جميع الذين يودّون وأرادوا معرفة الحقيقة التي هي ليست ملكًا لنا أو لعائلة، بل ملك التاريخ، وملك الأجيال التي لها كلّ الحقوق في أن تعرف، وتدرك، وتتحقّق.

* * *

لبنان المِثال
والقدس وفلسطين في البال

« وما نفع الخبز من غير الحرّية؟! »

كمال جنبلاط
من كتابه « من أجل لبنان »

يوم صدر كتاب إيغور تيموفييف: «كمال جنبلاط: الرجل والأسطورة» اتّصل بي صديق كمال جنبلاط المقرّب وصديقنا المونسنيور ميشال حايك وقال: ـ ما به هذا «الدبّ الروسي»، ينشر صورتي في كتابه ويتجاهلني، وكأنني نكرة؟ ألاَ يعرف ما أعنيه أنا لكمال جنبلاط، وما يعني كمال بك بالنسبة إليّ؟!

قلت ضاحكًا: ومن أين له أن يعرف؟ العتب هنا على مقدار المعرفة وليس على قدر المحبّة كما يقال. هو غريبٌ عن عاداتنا وتقاليدنا، قَدِمَ إلينا من بلاد الثلج والضباب... وقد استعان بغريب آخر من العراق الشقيق ليعاونه، فاكتمل النقل بالزعرور، كما يقال...

قال: مرّ بي، أنا انتظرك.

بعد يومين ذهبت لزيارته في مكتبه في مقرّ إقامته في مطرانية بيروت للموارنة، قرب مدرسة الحكمة في الأشرفية. وعادت بنا الذكريات سنينًا إلى الوراء، والذكريات صدى السنين الحاكي.

حَضرتُ أكثر من لقاء وحوار بين كمال جنبلاط والكاهن الموسوعي الثقافة والفكر، استاذ الديانات المقارنة: اليهودية والمسيحية والإسلام في جامعة السوربون في باريس لعقدين من الزمن وما يزيد. وشارك في بعض تلك اللقاءات والحوارات الأديب ميخائيل نعيمه، صديق كمال جنبلاط والأب حايك. كان ذلك ما بين منتصف الستينات ومطلع السبعينات من القرن العشرين، ولبنان هو الهمّ الرئيسي والمحور الأول والأهمّ في تلك الحوارات المعمّقة.

لقد رأى المفكّرون الثلاثة في حواراتهم تلك أنَّ الهدف الأسمى والأبقى الذي يجدر باللبنانيين وضعه نصب أعينهم هو أن يتحرّروا من مركّبات الماضي ومن عِقَدِ الاضطهاد ليفتحوا في الغد بيتًا للإنسان لا حانوتًا للعصبيّات... إنَّها محاولة التعايش والتحاب بين مختلف العناصر والأديان والحضارات، وهو مشروع الحياة والبقاء وهو أساس الوطن وهدف الزمن. القضيّة إذًا قضيّة انتصار على الذات لا على الغير. قضيّة في مثل هذا المستوى لا يمكن أن تقوم وتدوم إلاَّ بين أشخاص مسؤولين أحرار يملكون حرّية الارتباط وإرادة الالتزام وشرف الكلام. إنَّها تتخطّى المفهوم العددي التجاري الذي يجعل من الأقلّيات زبائن لبعضها البعض... بل هي رباط بين حرّيات شخصية. والحرّية كالحقّ والعدالة لا تقاس ولا توزن فتتجزّأ وتتوزّع، بل هي مطلقات بذاتها.

ورأى ميخائيل نعيمه وكمال جنبلاط وميشال حايك في حواراتهم أنَّ لبنان هو وطن الأقلّيات بشرًا ووطن الأكثريات حضارة...

إنَّه عهد بين أقلّيات بشرية وحضارية مختلفة قسّمت العقيدة الدينية لكل واحدة منها وجدانًا خاصًّا وتاريخًا مميّزًا وتراثًا منفردًا. إنَّها الطوائف... وهذه في أصالتها ثروات من الدين والدنيا، من نِعَم السماء ومن مكاسب الزمن، فرّت إلى هذه البقعة من الأرض بعد أن عرّتها النكبات من كلّ شيء، حاملة معها تراثها الروحي وهو آخر ما سَلُمَ من الدمار. تلاقت هنا فأدركت أنها على اختلاف مواضيعها إنَّما جاءت هذه الأرض صونًا لذلك التراث.

كذا جاء الموارنة، فلم يتركوا نهائيًّا جوار حماه إلاَّ بعد أن، هدّم الخليفة العبّاسي منازلهم ودكّ دير منشئهم على العاصي. وجاء الموحّدون الدروز، وجاءت الشيعة لأسباب مماثلة... وجاء الأروام والأرمن والفلسطينيون. ولكل هؤلاء أموس حافلة بالمآسي. جمعتهم المصيبة في هذا الجبل العاصي، قوافل على وجوهها غبرة النفي والعذاب ولكنّها كانت تحمل كالمجوس كنوزًا عتيقة من كلّ ماضٍ عريق راحت تتحوّل معها وانطلاقًا منها وتحوّل هذه الأرض وهذه الدار، التي اتّسعت للجميع، من موئل إلى معقل ومن منفى إلى وطن.

ولم يقم يومًا بين هذه الجماعات وثاق وعهد وربط وارتباط وعطاء وقبول على أساس لا غالب ولا مغلوب، كما قيل ويقال، إذ إنَّ كل تلك الجماعات كانت مغلوبة على أمرها، همّها الأول كان التغلّب على المصيبة والظفر بالكرامة... ولم يقم على أساس عدد

وكمّ، إذ إنَّه لقاء حضارات وتفاعل حضارات، وليس على المستوى الحضاري كمّ وعدد وإحصاء...

لذا قيل ويقال: إنَّنا البلد الوحيد في العالم الذي جعل وجوده قضيّة، لأجلها كان وسيكون أو لن يكون. بدونها لا حاجة لوجوده، ومعها وجوده ضرورة عالمية.

هذا الوجود الفريد هو أعظم من إيجاد الأبجدية الأولى. لأنه أبجدية جديدة تهجّئ للعالم اسم الإنسان المزمع، وتستقدم له مثالاً ومثلاً عمّا سيكون غدًا عندما يتخطّى مرحلة الشعور القومي والعصبية العرقية واللغوية والدينية، فيصل إلى وعي الشمول، إلى الوجدان العالمي... ولبنان هو نبؤة عن هذه العالمية العتيدة.

من هنا فإنَّ لبنان أصبح خلاصة هذا الشرق وصورة مصغّرة لأمسه الكبير. فهو الوريث البكر للثروة المشرقية المتراكمة المكدّسة منذ أوائل الإنسانية على شاطئ هو فهرس المدنيات... ولأنه كان فهو رابطة بين التراثات ومشروع مصاهرة بينها وصهرٌ لها، وإعلان بأنها غنًى مشترك للجميع لا يصحّ عليه التقسيم والتجزئة والتوزيع.

هذا الوجه الحضاري يطرح لبنان كقضيّة نموذجية في العالم: للتواصل الإنساني الذي فشل قديمًا في كلّ مكان، وهو اليوم مخذول هنا وهناك... وفي جوارنا حيث الإنسان منبوذ بإسم العرق والدين واللغة، وحيث يدّعون بعدذاك علينا لأنهم يعرفون تمامًا أنَّ وجودنا هو النقيض الأكبر لما يمارسون.

وإنَّما وجود لبنان في قلب العالم العربي الذي ضمن لنا استمرار هذه الصيغة الفريدة فيه، واعترف لنا بأنّنا مختبر للشمول الإنساني، هو أكبر برهان يستطيع الشرق العربي أن يقدّمه سلفًا ضمانة لمشروع فلسطين ديمقراطية متعدّدة الوجوه. إنَّه سابقة ناطقة تدلّ على صدق هذه الدعوة وتضمن لها مِكنة التحقيق. أمَّا بالنسبة للمعتدين، الذي رفضوا ويرفضون الاقتداء بنا كوطن للإلفة، فلقد أظهروا أنهم أعداء وجودنا من الأساس.

ورأى المفكّرون الثلاثة أنَّ الأديان تلاقت منذ القديم فتصارعت عند كلّ لقاء. وكان الصراع يسفر كلّ مرّة عن تقسيم الأرض وتوزيعها بين الآلهة. فإذا بقاع العالم مفروزة في سجلّ المساحة السماوية، ولكل إله عقار موروث بوضع اليد يشرف عليه أتباع الإله وإجراؤه: ديانات هندوسية وبوذية في آسيا، وأنميّة في أفريقيا السوداء، ومسيحية كاثوليكية في

الغرب اللاتيني، وبروتستانتية في المدى الأنجلو ـ سكسوني، وأرثوذكسية في البيئة السلافية وإسلام في منطقة الوسط الأطلسي وجزر السندباد.

كذا تقاسمت الآلهة الأرض وساكنيها. وكان كلّما دخل إله في قطاع إله آخر ليستعمره انتفض الاله الآخر المستعَمر فجنّد أتباعه لطرد الدخيل وأعوانه. كانت الحروب دينية بالأمس، فأضحت في أيّامنا اقتصادية في سبيل النفط أو الفوسفات أو البوتاس أو الذرّة، كأنما إله الحرب شاخ وتعب فأوصى بسلاحه لربّ الاقتصاد...

وكنّا ليكون شيء آخر: لا لعزل الآلهة عن الأرض، بل لميثاق وصلح بينها. شاءنا الإله الحقّ، لا إله الحرب المتعصّب، منطقة حرّة للعبادة لكي ترتفع كلّ يوم، من كلّ خلوة وكنيس وكنيسة وجامع، الأيادي والأدعية. هنا، عندنا، مختصر العقائد والفِرَق والأديان: سبع عشرة عقيدة دينية مختلفة تُحمدل وتُبسمل في لبنان، وفي المعبد الحرّية... أكثر من نصف البشرية، أي ما يقارب ثلاثة مليارات من الناس، مُمثَّل دينيًّا في أوبين أربعة ملايين من البشر، على بضعة أشبارٍ أو أمتار من الجرد إلى الساحل. ما أقصر المساحة وما أوسع مجال الروح؟! أعبثًا كان هذا اللقاء ولهوًا من لُعَبِ التاريخ؟ أم تُرى لغاية ما في مقصد الله من الدهر؟!

والآلهة عندنا، بعدما جرّدها الأنبياء من الشرك والالتباس، إله واحد. ولكنّ الطرقات إلى حقيقته متباينة يختلف عليها الناس. لنا إليه سبعة عشر طريقًا، صُعُدًا ونزلاً، في معراجٍ إليه وهبوطٍ من عنده، في إسراءٍ إلى مشارق غيوبه وفي إصباحٍ إلى عتمة أنواره...

ولعلّ مأساة عالمنا نابعة ومتأتية من أنَّ الديانات باتت تعاني أنواعًا وآفاتٍ من العَوَر والحَوَر والعَرَج أحيانًا: اليهود الصهاينة وضعوا التوراة، كتابهم المقدّس جانبًا وراحوا يقرأون في «التلمود» أنَّ الله مُلكٌ خاصّ بشعب خاصّ، فراح التلمود يصوّر الله هائمًا على أنقاض الهيكل في أورشليم ـ القدس، يتأوّه وينتحب، لأنه أغضب بني إسرائيل وسلّمهم إلى الأعداء... وراحوا يخلطون ـ عن قصد وعمد غالب الأحيان ـ بين وعد الله لابراهيم وبين وعد بلفور الزمني لروتشيلد... وراحوا يزعمون أنَّ يهوه وَعَدَ شعبه بهذه الأرض وبهذه المدينة أورشليم ـ القدس التي هي في الأساس مدينة شالم، أي مدينة إله السلام... فحوّلوها إلى مسرحٍ للفتك والدمار. وها هم اليوم يهوّدوها ويزعمون أنها عاصمة أبديّة لشعب إسرائيل: الكيان الصهيوني الذي يريدونه دولة يهودية عنصرية تقوم على أساس العرق والدين واللغة... وما إلى ذلك من عنصريات وانحرافات... وهو ما يفرض في

النتيجة تهجير العرب المتواجدين في داخل حدود إسرائيل الحالية إلى الأردن أو سواه من الدول العربية والحؤول دون عودة فلسطينيي الانتشار إلى أرض الآباء والأجداد.

من هنا أنَّ القدس تهمّنا جميعًا لأنها أولاً قضيّة حقّ وعدل. ولأنها مفتاح يفتح باب السلام أو يُغلق الباب. لذا، على العالم أن يسترجع المفتاح من أيدي سالبيه. لأنَّ القدس إذا لم تصبح مدينة السلام مستعيدة اسمها، فالعالم في خطر، ونحن في هذه المنطقة التي ابتليت بمأساة فلسطين في خطر أشد وأقوى.

وهنا يكمن الدور الأساس الذي يفترض أن يلعبه الغرب المسيحي، وعلى الأخصّ الولايات المتّحدة الأميركية وأوروبا الغربية وأوستراليا وكندا، هذا الغرب الذي ضلّ الطريق في معظمه ونخره السوس الصهيوني فراح يقرأ في العهد القديم، وتوزّع شِيَعًا وبِدَعًا معظمها لم يصل بعد إلى العهد الجديد، أي إلى إنجيل المسيح الصحيح وما تفرضه تعاليمه من دفاع عن الحقّ والتمسّك بالقدس مدينة لله وللسلام في العالم.

ومن هنا كان الدور المحوري لحاضرة الفاتيكان ولقداسة البابا في التأكيد على الحقّ وعلى الصواب في مسألة القدس وفي القضيّة الفلسطينية، وفي وجود لبنان كمختبر لانصهار الحضارات الإنسانية، وكمثال لفلسطين المتعدّدة الوجوه والديانات... فمنها، من هذه الديانات وتعاليمها، تعلّمنا أنَّ الحقّ لا يموت ووراءه طالب، وأنَّ الحقّ باقٍ وأنَّ الحرّية لا تقهر، وأنَّ الروح أقوى من كلّ سلطان... وأنَّ وعود الله الزمنية باطلة أصلاً. «طوبى لفاعلي السلام، فإنَّهم يرثون الأرض الموعودة». فبدون سلام ليس إذًا لأحد أرض ولا أهل ولا دار... والقدس هي مفتاح السلام وتهويدها واغتصابها هو مشروع حرب مستمرّة مستعرة قد تفجّر المنطقة والعالم.

ومن أسمى ما في الديانات، أنها تعلّمنا أن ليس ثمّة شعب مختار وآخر محروم، هذا أُعطي العهد وذاك مُنِـع من الوعد... فليس بعدُ فرقٌ بين عبد وحرّ، بين رجل وامرأة، بين ثري وفقير: الجميع متساوون في الكرامة الإنسانية منذ الأصل إلى المصير.

واستذكر المفكّرون الثلاثة: نعيمه وجنبلاط وحايك أنَّ العرب المسلمين دخلوا مدينة القدس ـ أورشليم صلحًا لا عنوة. فتح لهم أبوابها البطريرك القدّيس صفرونيوس. ورفض الخليفة عمر بن الخطّاب أن يصلّي في كنيسة القيامة، كما نصحه بعض من أعوانه، للسبب الذي نعرف جميعًا ولا يخفى على أحد، أي حتّى لا تتحوّل كنيسة قيامة المسيح إلى

مسجد... وتقول إحدى النصوص القديمة إنَّه كان على الخليفة عمر ثياب رثّة مرقّعة نزعها البطريرك عنه وأعطاه حلّة له جديدة...

إنَّ البغض لا يبني شيئًا، والسلب لا يثمر على السالبين. المحبّة هي التي تبني وتدوم. والثمرة هي العطاء. طغاة كثيرون اغتصبوا في التاريخ، ومن بعد اغتصابهم هم مغتصبون. فمتى يفهم المغتصبون أرض القدس والمقدّسات أنَّ القضيّة، متى كانت حقًّا، لا تموت، لأنها روح متجسّد أبدًا. يتحطّم الجسد وينهض الروح حيًّا لا يموت. وإذا لم يؤمن هؤلاء بتعليم السماء فليؤمنوا بأمثولة التاريخ في هذا الشرق الذي شاهد من الغزاة أشكالاً وألوانًا. جميعهم بادوا وبقي الشرق لبنيه.

خصّ المفكّرون الثلاثة: كمال جنبلاط وميخائيل نعيمه والأب المونسنيور ميشال حايك «مجموعة المحرّرات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان» من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٩١٠ بلقاء أو لقاءين.

قام بتعريب مجموعة المحرّرات هذه الأخوان فيليب وفريد الخازن صاحبا جريدة «الأرز»، وتمّ طبعها في مطبعة «الصبر» في جونيه سنة ١٩١٠. ومعلوم أنَّ الأخوين فيليب وفريد الخازن كانا في عداد قافلة الصحافيين والمناضلين الوطنيين الذين أعدمهم جمال باشا السفّاح في السادس من شهر أيار سنة ١٩١٦ في ساحة البرج ببيروت التي حملت في ما بعد اسم ساحة الشهداء.

قال المعرّبان الأخوان الخازن في مقدّمة المجلّد الأول من هذه المجموعة أنهما وجدا ضالّتهما «في الكتابين: الأصفر لفرنسا والأزرق لإنكلترا، المنشورين في تلك الأزمنة المشؤومة أخذًا لأنباء تلك الخطوب من مصادرها ومظانها. ولم يكن إذ ذاك غير هاتين الدولتين تذيعان محرّراتهما السياسية في رجال ندوتيهما النيابيتين إيذانًا لهم على حساب أعمال وزارتي الخارجية فيهما فيتسنّى لهم إرسال أسهم النقد القصيّ بالنظر الجليّ عن تروية بالغة في تضاعيف مندرجاتهما السياسية».

وقال الأخوان الخازن أنهما راجعا كذلك كتاب «معاهدات الباب العالي» لجامعه البارون دي تستا وما حوى من كتب وتقارير قناصل الدول المشار إليها ورجال سياستها، ومن مفاوضات هؤلاء الباب العالي بين سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٨٦١ في مسائل سورية ولبنان.

استوقف جنبلاط ونعيمه وحايك من هذه المحرّرات تقريرًا أو كتابًا بعث به السيِّد برانت قنصل إنكلترا في دمشق إلى وزارة خارجية دولته في لندن وجاء فيه الآتي: "في سوريا آفتان وهما المسيحيون والدروز... فكلّما ذبح أحدهما الآخر استفاد الباب العالي". (مجموعة المحرّرات الإنكليزية صفحة ١٣٢ رقم ١٣٨)

وشرح برانت ما أورده في هذا التقرير فقال: المسيحيون والدروز بالنسبة إلى الباب العالي هم من الكفّار، وتصفيتهم أو إزالتهم من الوجود أمر واجب. لذا كان الولاة العثمانيون يعملون لإيقاع الواقعة والفتنة بين المسيحيين والدروز فيودي بهم ذلك إلى الاقتتال فيما بينهم وإلى تصفية بعضهم البعض فيتمّ للباب العالي ما يريد دون أن يكلّف نفسه عناء ذلك...

ولفت المفكّرين الثلاثة ما أورده الأخوان الخازن في مجموعة المحرّرات إلى أنَّ سعيد بك جنبلاط، نجل بشير جنبلاط، عمود السما، ومتولّي زعامة دار المختارة من بعده، كان قد استشفّ سنة ١٨٦٠ وما تلاها بواطن المكيدة التي دبّرها خورشيد باشا، الوالي العثماني، وأدرك كنه غوائلها، فبدا له أن يستدرك الشرّ قبل وقوعه، فاستقدم إليه الشيخ فارس خطّار الخازن وعهد إليه شؤون المسيحيين في إقطاعته. إلاَّ أنَّ ذلك لم يحلّ دون وقوع الفتن المتنقّلة بتحريض من الولاة العثمانيين ومن سواهم من المراجع كقناصل إنكلترا وفرنسا وبعض معاونيهما من العسكريين ومن أبرزهم الكولونيل الإنكليزي روز.

وقالت « المحرّرات » إنَّ ولاة صيدا العثمانيين استغلّوا حقد الأسرة الجنبلاطية على الأمير بشير الشهابي الكبير لسعيه في الشيخ بشير جنبلاط إلى أحمد الجزّار والي عكّا الذي أعدمه شنقًا وصادر أمواله ونفى ولديه سعيد ونعمان إلى مصر، الأمر الذي أذكى جمر البغضاء، فأثاروا الدروز سنة ١٨٤٢ على الأمير بشير قاسم خلف الأمير بشير الكبير فعزله وعيّن بدلاً عنه عمر باشا (وهو مسيحي نمسوي الأصل اعتنق الإسلام) عاملاً على الجبل، فأنكرت عليه الدول الغربية الكبرى الضامنة سلامة امتيازات أهل الجبل، وسعت لدى الدولة العثمانية حتَّى عزلته. وبه بُدئت وانتهت ولاية الأتراك العثمانيين مباشرة على جبل لبنان. على أن توالي النكبات والدسائس على إمارة لبنان قد سلبتها منعتها فلم تستعد بهاء وحدتها، وإنَّما قُسِّمت إلى قائم مقاميتين: مسيحية ودرزية.

واستمرّ ولاة صيدا يطمعون في ولاية هذا الجبل اللبناني فحضّوا نصارى القائم مقامية الدرزية على طلب التخلّص من سلطة الإقطاع الدرزي عليهم واستبدالها بولاية الأتراك مباشرة عليهم، وفي نفس الوقت أوعزوا إلى الدروز بالاعتداء على المسيحيين واعدينهم بمساعدة جنودهم لهم. وظلّوا يعملون على إذكاء نار البغضاء والفتنة حتَّى استعرّت سنة ١٨٤٥... فكان أن اتّفق قناصل الدول وطلبوا إلى بحري باشا إطفاءها، فاضطرّ إلى إجابة سؤلهم واستقدم أصحاب الإقطاع من الموارنة والدروز لإصلاح ذات البين بينهم فعقد الصلح في ٢ حزيران سنة ١٨٤٥. لكنّ الجرح التأم على فساد فأوفدت الدولة العثمانية شكيب أفندي ناظر الخارجية إلى سوريا فوضع ترتيبات خاصّة للجبل. لكنّ الولاة استمرّوا على نهجهم في زرع الشقاق والأحقاد بين أبناء الجبل حتَّى كان ما كان، وأسهموا هم أي الولاة مع جنودهم وأتباعهم في أعمال القتل والنهب والسلب، وإحراق القرى والمزروعات والغلال.

وتضمّنت الصفحة ٧ من المجلّد الثاني من المحرّرات (من كانون الثاني سنة ١٨٦٠ إلى أواخر تشرين الأول من السنة ذاتها) تقريرًا من القنصل الإنكليزي العامّ مور إلى السير هـ. بولغر في لندن جاء فيه أنَّ مطران الموارنة على أبرشية بيروت وتوابعها في جبل لبنان طوبياعون (من الدامور) قال لوفد من مسيحيي دير القمر إنَّ المذنبين من المسيحيين لا يُسلّمون إلى الحكومة لأنَّ المعتدين من الدروز لم يحاكموا. وابلغ المطران طوبيا الوفد أنه إذا ما حدث هجوم عامّ على المسيحيين فهو يتولّى بذاته قيادتهم.

وقال مور في تقريره إنَّ الأمير بشير أحمد، القائم مقام المسيحي في الجبل يقيم في بيروت مع أنَّ قضاءه في حالة اضطراب وقلق يعجز عن قمعها. وفي تقرير لاحق للقنصل الإنكليزي مور، بعد أُسبوع من تاريخ التقرير السابق، أنَّ الجنود الأتراك شنّوا هجومًا على الحدث وبعبدا وأحرقت دور الأمراء الشهابيين فيها بعد نهبها. وقال التقرير إنَّ نفرًا من الباشبوزق انقضّ على الأمير بشير قاسم، أمير جبل لبنان سابقًا، بينا خدمه يقودونه إلى خارج داره في بعبدا، وهو بعمر خمسة وثمانين سنة، فهرب الخدم تاركين الأمير. وقد وجدت جثّته مثخنة بضرب السيوف وعنقه مقطوعة... وروى شهود عيّان أنَّ خورشيد باشا الوالي التركي، أمر بإطلاق المدافع لحسم المعركة.

ونكتفي بهذا القدر لأنَّ الغاية من إيراد هذه الوقائع التاريخية هو للدلالة وللعبرة لا أكثر.

وكان كمال جنبلاط قد شدّد في أكثر من مناسبة ومجال على أنَّ « معظم اللبنانيين يجهلون أو يتجاهلون تاريخ بلادهم: إمَّا لأنهم لم يتعلّموه في المدارس، وإمَّا لأنهم تلقّوه على غير حقيقته ففقد روعته وجوهر اتّجاهاته... وإمَّا لأنهم لا تعلق في ذهنهم المكتئب إلاَّ هذه المرحلة من سيرتنا التي تعتبر في الحقيقة نكسة عابرة أو مؤامرة على البلاد سافرة».

كمال جنبلاط يصافح أمين الجميّل وبدا بينهما صديقه المونسنيور ميشال حايك الذي رتّب اللقاء.

العروبة المتحرّرة المتنوّرة
الديمقراطية المدنية المنشودة

«أصبح العالم في حاجة إلى قاموس جديد
يحدّد معاني الكلمات»

كونفوشيوس

عروبة كمال جنبلاط هي عروبة حرّة متحرّرة، ديمقراطية تعدّدية، تراعي مكوّنات وشرائح هذا العالم العربي الذي ضمّ ورعى خلال تاريخه القديم والحديث فسيفساء ولا أجمل ولا أروع، من الديانات والطوائف والمذاهب والفرق الصوفية والنسكية وسواها.

فعلى أرضه الرحبة المعطاء نشأت اليهودية والمسيحية والإسلام وما انبثق عنها ومنها من طوائف ومذاهب وجماعات اختلفت في طرق ومناهج ووسائل العبادة، لكنّها تلاقت واتّفقت في التوحيد والتوجّه نحو الإله الواحد من خلال الإيمان بقيم الحقّ والعدل والخير والحرّية والمحبّة والأخوّة الإنسانية الجامعة الشاملة.

في كتبه وكتاباته ومحاضراته دعا كمال جنبلاط الحكّام العرب إلى التصالح مع شعوبهم أولاً، وإلى التوافق مع إرادات هذه الشعوب وحقّها في التعبير عن نفسها وفي إقامة نظام الحكم الذي يوفّر لها الحرّية والعدل والتقدّم والإنماء والتنمية، وفق سنن العصر وعلمه وتقنياته. فالشعوب لا يمكن أن تُحكم بالحديد والنار وبأجهزة الاستخبارات، ولا بأساليب البداوة والجاهلية. من هنا كانت دعوة كمال جنبلاط المستمرّة إلى توسّل الوسائل الديمقراطية العادلة في بناء مؤسّسات الحكم وفق إرادة الناس وتطلّعهم إلى الحياة الحرّة الكريمة.

ودعا الدول العربية إلى التكامل الاقتصادي في سوق عربية مشتركة توصل إلى وحدة اقتصادية عربية متقدّمة. فالعرب يملكون الثروات والإنسان العربي المتميّز، ولا ينقصهم إلاّ إرادة التوحّد والتعاون ضمن مؤسّسات فاعلة ومتفاعلة تحقّق لشعوبهم العزّة والكرامة الوطنية في مواجهة أشرس هجمة وتحدٍّ عرفها تاريخهم القديم والحديث. وبعدما أكدّت الأيّام والأحداث أنّ «جامعة الدول العربية» لم تؤدّ الدور المطلوب، بل كانت وتبقى وعاء مثقوبًا لاستيعاب الخلافات العربية أو لتفجيرها أحيانًا، ومساحة لقاء يتبارى من على منبرها

الملوك والرؤساء العرب في إلقاء خطب رنّانة لا تعني كلماتها، معظم الأحيان، ما تحمله من معانٍ ومواقف، وتتّخذ من بعدها توصيات أو مقرّرات غالبًا ما تظلّ مجرّد حبر مسالٍ على ورق، ولو من النوع الفخيم...

« تحرير فلسطين يبدأ بتحرير آبار النفط » كان يقول كمال جنبلاط هذه الثروة أو "النعمة" التي أنزلها الله على العرب، فلم يحسنوا استغلالها واستثمارها، فحوّلوها إلى لعنة أو نقمة أحيانًا تستجلب عليهم الاحتلال والاستعمار، وحكم الحديد والنار، وزرع "دولة إسرائيل" الصهيونية الغاصبة في أرض الديانات والمقدّسات... فلم "لا يجتمع القادة العرب إلاّ على خيانة الشعب الفلسطيني وعلى تصفية قضيّته"؟ سأل الزعيم التقدّمي في أكثر من موقف... كما رفض أن تتحوّل "الجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية"، التي انتخب أمينًا عامًّا لها، جبهة مشاركة في خلافات الدول العربية ـ وما أكثرها ـ وفي محاورها وأحلافها التي لا تقوم ولا تنتظم إلاّ لخدمة مصالح الدول الأجنبية العظمى، وليس لخدمة قضايا الشعب العربي الأساسية المصيرية...

أوصى كمال جنبلاط العرب في كتاباته بإقامة أفضل علاقات التعاون مع كلّ من جارتيهما الكبيرتين: تركيا وإيران. كان معجبًا بالثقافة الفارسية، مطّلعًا على أعمال وسير حياة كبار متصوّفيها وشعرائها وأدبائها... كما كان يكنّ كلّ تقدير وإعجاب لكمال أتاتورك صانع نهضة تركيا الحديثة والذي قال فيه الشاعر: "يا خالد التُرك جدّد خالد العرب"... ويرى أنَّ تركيا الدولة السنّية الأقوى الجارة للعرب ولأوروبا في آن، والمتوجّهة نحو العلمنة تارة ونحو الحفاظ على جذورها الإسلامية تارة أخرى، يفترض بل يجب أن تكون حليفة للعرب في نصرة القدس وقضيّة فلسطين لا حليفة للكيان الصهيوني المزروع عنوة في قلب العالم العربي، كلب حراسة لثروات النفط لحساب دول الغرب الطامعة أبدًا في استعمارنا واستغلال ثرواتنا وموقعنا الاستراتيجي في خدمة مصالحها وحربها الباردة والساخنة أحيانًا، مع الجبّار الآخر عهد ذاك الاتّحاد السوفياتي.

والقارئ الجيد لتاريخ لبنان يتوقّف دومًا عند التهديد الدائم له والتسابق ما بين والي الشام ووالي عكّا وأحيانًا والي مصر في استمالته وبسط الوصاية عليه من هذه الجهة أو تلك، والتدخّل في شؤونه الداخلية بتأييد ودعم هذه الفئة أو هذه الطائفة أو تلك، وفقًا لتقلّبات مجريات السياسة في الداخل اللبناني وفي المنطقة المحيطة به من كلّ الجهات والأنحاء.

وكان كمال جنبلاط يرى وجوب قيام أفضل العلاقات وأَمْيَزَهَا وأوثقها بين لبنان وسوريا اللذين يجمعهما تاريخ مشترك من النضال ضدّ كلّ محاولات الوصاية والانتداب، وجغرافيا متشابكة من المصالح الاقتصادية والثقافية المكمّلة بعضها للبعض الآخر في معظم الأحيان. فما جمعه الله والطبيعة والتاريخ وصلات القربى ما بين الشعبين المتجاورين لا يمكن للإنسان أن يفرّقه أو أن يمحوه ويتجاهله.

وفي هذا أنشد شاعر الأرز شبلي الملاّط يقول:

يصبو ابن لبنان إلى بردى كما … يصبو فتى بردى إلى لبنانه
أَوَليس نشءُ اليوم قد دانوا بما … لأبي يزيد عن أبي سفيانه
وتلقّنوا شمم المعاطس عنهم … شممٌ يهونُ الموتُ دون هوانه
كالنخلة الميلاءِ تضرب في الفضا … ويظلُّ قائم جذعها بمكانه

أمّا النضال المشترك ما بين عناوين الشعبين من أجل الحرّية والاستقلال والحفاظ على التراث العربي الأصيل الأثيل، فهو قائم ومدوّن صفحات من النور والدم والفداء. ففي فجر السادس من شهر أيار سنة ١٩١٦ علّق جمال باشا السفّاح كوكبة من أحرار لبنان وسوريا من صحافيين وكتّاب ورجال دين متنوّرين في كلّ من ساحة البرج في بيروت التي صار اسمها في ما بعد ساحة الشهداء، وفي ساحة المرجة في دمشق، فامتزج الدم الأخويّ في الدفاع عن القيم... كما اشترك أحرارٌ من الشعبين في مقاومة الانتداب الفرنسي والسعي نحو الاستقلال، وفي النضال في مرحلة لاحقة ضدّ الأحلاف الاستعمارية التي اتّخذت أسماء وعناوين مختلفة من أجل اقتسام النفوذ والمغانم وتسخير قدرات وثروات العرب في خدمة مخطّطات الصهيونية العالمية ودول الغرب الداعمة لها على الدوام خطأً وشططًا ومغالاة في اغتصاب الحقوق المشروعة لشعب فلسطين ولشعوب المنطقة العربية.

وفي الحوارات واللقاءات التي جرت بينه وبين دعاة الوحدة العربية من أحزاب بعث وقوميين عرب كان كمال جنبلاط ينصح بقيام اتّحاد دستوري فدرالي أو كونفدرالي بين الدول العربية الراغبة في ذلك، على أن يكون بالتأكيد اتّحادًا بين أنظمة ديمقراطية متجانسة ومنتخبة من الشعب على قاعدة الحرّية المسؤولة التي ترتكز إلى القوانين المدنية وحقوق الإنسان.

كنت أزور القاهرة مرّة في السنة على الأقلّ للمشاركة في احتفالات ذكرى الثورة (٢٣ يوليو/ تموز) تلبية لدعوة رسمية. وسنة ١٩٦٣ ويوم أطلقت مصر صاروخي "الظافر" و"القاهر" في مكان ما من الصحراء المصرية، كنت في عداد وفد صحافي لبناني واسع التمثيل دُعِيَ لحضور المناسبة. وساعة حضر الرئيس جمال عبد الناصر يرافقه المشير عبد الحكيم عامر، نائب الرئيس والقائد العامّ للقوّات المسلّحة المصرية، تقدّم الرئيس عبد الناصر منّا، والابتسامة العريضة الجميلة تعلو محيّاه، وصافح كلّ فرد من أعضاء الوفد الصحافي اللبناني بإسمه وبإسم من يمثّل، وهو الذي كان مطّلعًا على كلّ التفاصيل ودقائق الأمور. عندما وصل إلى محسن ابراهيم الذي كان يمثّل مجلّة "الحرّية" صافحه بحرارة، وخاطبه بالقول: ازيك يا أخ محسن، ازي جبل عامل؟... وعندما وصل إليّ قال لي: ازيك يا أخ عزيز، ازاي كمال بك؟ وما أن وصل دور جورج عميره، المدير المسؤول لجريدة "العمل" الكتائبية، حتّى ابتسم له عبد الناصر ابتسامة ذات معنى وخاطبه بالقول: ازيك يا أخ جورج، ازاي الشيخ بيار؟ وهكذا دواليك حتّى دهش كلّ أعضاء الوفد لهذا الحضور الناصري المتميّز ولهذا السحر في عيني الرئيس جمال الخضراوين الأخّاذتين ولهذه المهابة في سمرة جبهته العالية وفي جمال محياه.

وأخذ الضابط المسؤول عن الإعلام في عملية الإطلاق يشرح عن الصاروخين وعن مدى المسافة التي يصلها كلّ منهما، فعلّق جورج عميره بالقول: يعني أنَّ هذا الصاروخ قد يصل إلى محلة البسطا في بيروت، فسارع الرئيس عبد الناصر إلى القول وهو يضحك: وعالأشرفية كمان يا أخ جورج... وضحك الجميع لدقّة الملاحظة ولسرعة خاطر جمال عبد الناصر صاحب الشخصية المحبّبة والابتسامة الساحرة...

وزرت القاهرة مرّتين برفقة كمال جنبلاط للقاء الرئيس جمال عبد الناصر وبطلب شخصي منه. وكان ثمّة من طرح مشروعًا مع المسؤولين المصريين، دون علم الزعيم التقدّمي ودون علمي أنا المسؤول عن جريدة "الأنباء"، يقضي بتمويل إنشاء دار صحفية تصدر عنها جريدة يومية، ومجلّة أُسبوعية... التقينا أولاً في بيروت السفير المصري اللواء عبد الحميد غالب كمال بك وأنا وتباحثنا في المقترح المجهول المصدر مبدئيًّا، والمعلوم منّا تمامًا، فعارضت أنا مثل هذا التوجّه. وقلنا إنَّ "الأنباء" تصدر باكتفاء ذاتي مادّي متواضع بعيدًا عن الارتهان لأي دولة. وأبلغتُ أنا كمال بك أنه في حال الموافقة على مثل هذا المشروع

فلست في وارد العمل فيه، وأنا بالتالي لاأُحبّذ إطلاقًا الموافقة عليه من قبل كمال جنبلاط، وأرسل السفير غالب الملفّ إلى سامي شرف المسؤول في الرئاسة المصرية مع الملاحظات، فتمنّى الرئيس عبد الناصر شخصيًّا أن نحضر إلى القاهرة للاجتماع به، وهكذا كان...

عندما دخلنا على الرئيس جمال في منزله المتواضع في منشية البكري، كمال بك وأنا استقبلنا بترحيب حارّ. وبعد سلام وكلام فتح الملفّ أمامه وسأل: ـ ايه هي الحكاية بالتفاصيل؟

طلب مني كمال جنبلاط أن أجيب ففعلت. أوضحت أولاً أننا لسنا من اقترح هذا المشروع، ولم نكن على علم به، بل إنَّ ثمّة من فعل نيابة عنّا. ثمَّ دخلت في صلب الموضوع فقلت: البخور كثيرًا ما يحجب الحقيقة عن الحاكم فيحول بينه وبين وضوح الرؤيا. والحاكم، وعلى الأخصّ إذا كان من قماشة جمال عبد الناصر وقامته، هو في حاجة إلى أصدقاء أكثر من حاجته إلى أبواق وطبّالين. وكمال جنبلاط هو صديق مخلص وصادق ووفيّ. وكذلك «الأنباء». و «الأنباء» قانعة بما هي عليه، ونحن لا نطمح إلى أن نكون بوقًا لأحد أو لأي نظام مع احترامنا للجميع ولخصوصيات الجميع. وقلت: أنت يا سيادة الرئيس في حاجة إلى صديق صدوق مثل كمال بك يقول لك الحقيقة كما هي، ويخاطبك بالصدق والصراحة المعروفين عنه فيرشدك إلى الصواب عندما تصيب وإلى الخطأ عندما تُخطئ، ووحده الذي لا يعمل لا يخطئ...

وأُعجب الرئيس جمال بصراحتي فأثنى عليها مبتسمًا وتوجّه إلى كمال بك بالقول:

ـ أنا أحسدك ربَّما على هذا الرفيق المخلص الصادق الشهم. فابتسم كمال جنبلاط وقال: أنا أثق به كثيرًا وائتمنه على كلّ أسراري. ولقد أراحني كثيرًا في «الأنباء» أراحه الله. ونحن نأمل ونرجو أن تبقى أموال شعب مصر للمصريين فأنتم تنفقون الكثير، ونحن لسنا في وارد القبول بأيّ عرض من هذا القبيل، لا منكم ولا من سواكم من الدول. وكما يعرف الأخ عزيز فلقد تلقّينا العديد من العروض فاعتذرنا عن قبولها، ونحن مرتاحون لما نحن فيه.

ورافقت كمال جنبلاط مرّتين، أو ربَّما أكثر، في زيارة لدولة الكويت الشقيقة بناءً لدعوة من أميرها الشيخ صباح السالم الصباح الذي كان يكنّ محبّة خاصّة وتقديرًا واحترامًا لما يمثّله الزعيم التقدّمي من قيم التجرّد والنزاهة والحسّ الوطني الرفيع. وكان

الشيخ صباح السالم إنسانًا متواضعًا محبّبًا. وصودف في الزيارة الأولى وجود أمير قطر الشيخ أحمد بن علي آل ثاني في زيارةرسمية لإمارة الكويت. دعانا الشيخ صباح إلى العشاء فأجلس أمير قطر عن يمينه وكمال بك إلى يساره وكنت أنا إلى جانبه إلى مائدة ضمّت أقلّ من عشرة أشخاص. ورُصِفت على طاولة الطعام صحون من ذهب مع سكاكين وملاعق وشوك من ذهب، فخاطب كمال جنبلاط أمير الكويت مازحًا:

ـ هذه الصحون وتوابعها يمكن أن تتسبّب لنا ربَّما بأعراض تسمّم! أليس لديكم آنية من فخّار أو خزف أو خشب يمكن أن نتناول الطعام فيها؟ وضحك الأمير وقال:

ـ لا والله يا كمال بك... واعتذر «المعلِّم» عن أكل الخروف المحشي والسمك والقريديس واكتفى بتناول بعض حبّات الخضار والفاكهة والتمر الكويتي مع اللبن.

وعندما تركنا المائدة في جولة في أرجاء القصر راح الشيخ صباح يشرح لكمال جنبلاط من أين اشترى الثريات الفخمة جدًّا المؤلّفة من حبّات الكريستال الأصلي من مقاطعة «بوهيميا» في تشكوسلوفاكيا والمعلّقة في جذوع من ذهب، وكم يبلغ ثمن الواحدة منها، قال له كمال جنبلاط:

ـ بثمن كلّ واحدة من هذه الثريّات يمكن أن نفتح مستوصفًا يطبّب الفقراء، وما أكثرهم في هذا العالم العربي... وبأثمان الثريّات مجتمعة يمكن أن نبني مشفى ونجهّزه بأحدث التكنولوجيا والتقنيات لمعالجة مرضانا، وما أكثرهم...

وكذلك قال بالنسبة لأثمان السجّاد العجمي الفاخر الذي يغطّي أرضيّة غرف القصر وجدرانه أحيانًا والتي يبلغ ثمن الواحدة منها عشرات ألوف الدولارات وربَّما أكثر... وأحبّ الأمير أن ينكّت فقال:

ـ هذه اشتراكية الغنى عندنا أمَّا اشتراكيتكم فهي اشتراكية الفقر و «التعتير»... فاعترض كمال جنبلاط وعلّق: هذه مظاهر البطر العربي ولا أثر لها أو فيها لأيّة لمسة من اشتراكية إنسانية ندعو إليها... فالله خلق عباده متساوين في الكرامة الإنسانية وفي الحقوق...

أمَّا الزيارة الثانية فتمّت في نهايات الستّينات من القرن العشرين وكان كمال جنبلاط وزيرًا للداخلية. وما أن وصلنا وحللنا في جناح من فندق «شيريتون» حتَّى بلغ كمال بك خبر إحراق مقرّ السفارة الأردنية في ضواحي بيروت، فقام في اليوم التالي بزيارة السفير

الأردني لدى الكويت في مكتبه وأعرب عن أسفه لما حصل وأدلى بتصريح قال فيه: إنَّه ليس بمثل هذه الأساليب المنكرة تعالج الأمور بين الإخوة العرب بل بالحوار المحبّ الباني الخلوق...

بعد ظهر ذلك اليوم الحارّ كنّا على موعد في صالة اللقاءات الكبرى في فندق "هيلتون"، الذي كان قد أنجز تجهيزه ولم يتمّ افتتاحه رسميًّا بعد، مع محاضرة لكمال جنبلاط، جلس في صفوف الحضور الأمامية عدد لا بأس به من مشايخ آل الصباح ومن الوزراء وأعضاء مجلس الأمّة الكويتي وكبار الموظّفين ورجال الإعلام. واسترسل المحاضر في شرح الاشتراكية التقدّمية الإنسانية التي يدعو إليها ووجوب أن تكون عائدات النفط العربي في خدمة الإنسان العربي من خلال خطّة تنمية شاملة ترتكز إلى مبادئ العلم والأخلاق... وأن يكون النفط العربي وكلّ ثروات العرب في خدمة قضاياهم الأساسية وفي مقدّمتها قضيّة فلسطين والمقدّسات التي تمثّلها مدينة القدس بالنسبة للعرب وللعالم بأسره. كنت أنا كصحافي ورجل فكر أراقب وجوه الحضور لا سيَّما الجالسين في الصفوف الأمامية: بعضهم تأثّر بما كان يقول كمال جنبلاط أمَّا بالنسبة للبعض الآخر فكان العرق البارد يتصبّب من الوجوه والجباه. وبعد انتهاء المحاضرة تقدَّم وزير بارز من مشايخ آل الصباح وقال لي: ألم يجد صاحبك سوى موضوع الاشتراكية يحاضرنا به ويدعو له؟ فقلت: الدّاعون إلى اللقاء تركوا له حرّية اختيار الموضوع. وهو مفكّر وإنسان حرّ له أن يقول ما يشاء ولكم أن تقتنعوا أو لا تقتنعوا بما يقول...

عدنا توًّا إلى الفندق، ودخل كمال بك غرفته لإجراء اتّصال هاتفي ببيروت للاطمئنان إلى تطوّرات الأوضاع، وكان قد قرّر العودة إلى لبنان في اليوم التالي. وجلست أنا في بهو الجناح أسجّل بعض الملاحظات عن المحاضرة وحضورها وبعض الانطباعات التي خرجت بها من هنا. وقرع الجرس ففتحت، فإذا الزائر هو مدير مكتب الأمير الأخ ابراهيم الشطّي، وكان في عجلةٍ من أمره فسألته عن هدف الزيارة:

ـ جئت أسأل كمال بك أي حبّة يبي (أي يبغي).

وسمع كمال جنبلاط، فخرج من غرفته وهو يسأل: حبّة شو يا عمّي هيدي؟!

فقلت: الأخ ابراهيم هو مدير مكتب الأمير الشيخ صباح السالم، وقد جاء يسأل: أيّ نوع من السيارات تحبّ أن تختار ليقدّموها هدية لحضرتك...

واستاء من السؤال وقال: العمى يا عمّي... شو مفكّرين إنّي المطربة صباح أو الأمير فلان؟! وفوجئ الزائر بالجواب. فقلت له: سلّم على سموّ الأمير وأبلغه أنّني سأتولّى شخصيًّا شراء هدية كمال بك وبمعيته...

بعد أقلّ من نصف ساعة رنَّ جرس الهاتف في شقّتنا وكان المتحدّث أمير الكويت الشيخ صباح السالم الذي قال لي: من أين لك المال يا عبد العزيز لتشتري هدية كمال بك؟ وكان الشيخ صباح يحب أن يناديني بـ عبد العزيز بدلاً من عزيز، فأجبته: اطمئن يا طويل العمر، فكلّ شيء سيكون على ما يرام، وسنزوركم صباح الغد للوداع ونحيطكم بكلّ التفاصيل.

... وغادرنا شقّتنا في الفندق واستقلّينا السيارة المخصّصة لنا، كمال بك وأنا، وإلى «سوق البركة» في مدينة الكويت العاصمة حيث لأصدقائنا الهنود محال تبيع البخور والعطور المصنّعة في الهند. اختار كمال جنبلاط زجاجة صغيرة من إكسير المسك وأخرى من إكسير العنبر وأنواع مختلفة من البخور الهندي. ودفعت أنا ثمن المشتريات التي لم يزد ثمنها على خمسة دنانير كويتية، أي ما يساوي ما بين ٣٠ و ٣٥ ليرة لبنانية. قال لي كمال بك إنَّه يضع نقطة من إكسير المسك وأخرى من إكسير العنبر قبل أن يباشر في الاستحمام بصابون بلديّ مصنوع من زيت الزيتون ممزوجًا بزيت الغار. أمَّا البخور فكان ينبعث صباح كلّ يوم من غرفة نومه التي تحتوي على رفّ من رفوف كتبها صورة لمرشده الروحي شري أتماننددا غالبًا ما تكون محاطة بعقد من الياسمين صنعه «المعلِّم» بيديه الطاهرتين، وأمام الصورة حنجر صغير يحتوي زيتًا مع فتيلة من القماش الخاصّ يضيئها لتكون رمزًا لشعلة الحكمة ونورًا يضيء عتمات ظلمة هذا العالم، فالله، أو سمّه ما شئت، هو نورٌ من نور وخيارنا نحن أن نسير أبدًا في النور ما دام لنا هذا النور... ولكم كان «المعلِّم» الناسك المتصوّف المتجرّدمسرورًا بهذه الهدية المتواضعة جدًّا في الحقيقة والواقع، والتي كان يسمّيها هو «ملوكية».

قبل ظهر اليوم التالي توجّهنا إلى «قصر السيف» لوداع أمير الكويت الشيخ صباح السالم الصباح فاستقبلنا بالابتسامة العريضة المحبّبة وببساطة التصرّف الودود وخاطبني وهو يضحك: ايه، أخبرني يا عبد العزيز عن هدية كمال بك؟

وعندما شرحت له مضمون الهدية وتفاصيلها، ضحك وقال: وهل تعتبر هذه هدية تليق بصديقنا الزعيم الذي نحبّ؟

فقلت: إنَّها هدية الملوك والرعاة إلى ملك الملوك يسوع المسيح يوم جاؤوه من أقاصي الأرض ليسجدوا أمام المذود الذي وُلد فيه في مغارة بيت لحم... قدّموا له البخور والمرّ واللبان والمسك والعنبر...

وعلّق الأمير بالقول: والله غريب عجيب أمر صديقنا كمال... احذر من أن تصاب بالعدوى...

وعلّق كمال جنبلاط على الحديث فقال: الغنى الحقيقي يا صديقنا الشيخ صباح هو غنى النفس والروح وسموّ المقاصد والأهداف في خدمة الإنسان إلى أيّ لون أو عرق أو دين انتمى.

أمَّا المرّة الثالثة التي زرت فيها الكويت برفقة كمال بك فكانت في النصف الأول من السبعينات. ورافقنا في الزيارة الدكتور أدمون نعيم المستشار القانوني لكمال جنبلاط والدكتور فكتور أندراوس المستشار الفنّي والتقني في مشروع إنشاء شركة سبلين للترابة (الإسمنت). كنت أنا قد مهّدت لهذه الزيارة بزيارتين قمت بهما إلى الكويت الشقيق أجريت خلالهما لقاءات واتّصالات بعدد من مشايخ آل الصباح الوزراء في الحكومة وغير الوزراء كان موضوعها إمكانية تمويل انطلاقة المصنع بقرض مالي قد يعتبر إسهامًا منهم في أن يبصر هذا المشروع الاقتصادي النور. وكان الشعار أو العنوان الذي وضعته أساسًا للمحادثات أنَّ مثل هذا المشروع يحقّق الاستقرار الاقتصادي لكمال بك، وأنَّ مثل هذا الاستقرار هو جزء من استقرار لبنان وراحة شعبه.

توصّلنا خلال الزيارة التي دامت أيّامًا إلى الاتّفاق على المبادئ والأرقام والتفاصيل، وأكّد الإخوة الكويتيون الذين التقيناهم أنَّ لا أطماع لهم سياسية أو اقتصادية في لبنان، وأنهم يعتبرون لبنان وطنهم الثاني بعد الكويت، وينظرون إلى كمال جنبلاط كصديق شهم وشريف يتوجّب الوقوف إلى جانبه في مثل هذا المسعى الخيّر الذي يوفّر فرص عمل في منطقة محرومة من لبنان ويخدم بالتالي مصلحة البلد والإسهام في إنمائه... وعدنا إلى بيروت وكمال بك مطمئن إلى أنَّ هذا المشروع ـ الحلم بالنسبة إليه سوف يأخذ طريقه إلى الاكتمال والشروع في الأعمال.

بعد عودتنا عقد كمال جنبلاط اجتماعًا لمجلس إدارة الشركة المزمع إطلاقها وكان من بين كبار المساهمين الشركاء نسيم مجدلاني وعدنان القصّار وتوفيق عسّاف وسواهم. أطلع كمال بك الحضور على نتائج زيارة الكويت فوصفها بالممتازة وأثنى الجميع على المسعى وباتوا ينتظرون توقيع الاتّفاق. ولم يمض شهر حتّى تلقيت اتّصالاً هاتفيًّا من المدير المساعد للمصرف، الذي كان سيتولّى تقديم القرض بكفالة ودعم من شيخين من آل صباح، قال لي فيه: أنا في فندق فينيسيا في بيروت ومعي الملفّ الكامل الجاهز، والذي لا ينقصه سوى توقيع كمال بك. ذهبت للقاء الرجل وطمأنته إلى أنَّ كلّ شيء يسير على ما يرام. ومن فندق فينيسيا توجّهت إلى منزل كمال جنبلاط في بيروت. وعندما أبلغته الخبر انتفض وقال لي: لا، لا، لن أوقع العقد. والأفضل لك أن تختفي عن الظهور لأسبوع على الأقلّ!... ظننته للوهلة الأولى يمزح أو ينكّت، على عادته، عندما يكون مرتاحًا. لكنّني سرعان ما اكتشفت أنه جادّ، وأنه يتعرّض لضغوط وملاحقات لعقد الاتّفاق مع دولة تنتمي إلى معسكر الاتّحاد السوفياتي أو تدور في فلكه...

قال لي: جهاز الـ .K.G.B يراقبك، وثمّة غيره ربَّما من يقوم بذلك... وقد تتعرّض للأذى إذا ما وقّعنا الاتّفاق مع الكويت...

قلت: حسنًا، ليكن خيارك ما تشاء. فأنا لا منفعة شخصية لي في الموضوع كما تعرف. ما أردته أن أؤدّي خدمة لك نزولاً عند طلب منك. لكن أرى أن ننهي المسألة بشكل حبّي وودّي، فنتناول طعام الغداء مع الرجل الموفد من الكويت غدًا ونعتذر منه ونبلغه بالقرار، وأمرنا لله... وافق. التقينا الرجل في اليوم التالي فصُدِمَ للقرار المتّخذ وخاطب كمال بك بالقول: الاتّفاق هو خدمة لك من أصدقائك الذين تعرفهم جيّدًا، وسيصابون بصدمة كبرى عندما يبلغهم الأمر.

في طريق عودتنا بالسيارة من الفندق إلى منزل كمال جنبلاط في محلّة «فرن الحطب» في المصيطبة، ساد الصمت الذي قطعه قول كمال بك: ماذا ستفعل؟ وإلى أين ستسافر؟ أو أين ستقيم في خلال الفترة المقبلة؟

ابتسمت وقلت: لن أفعل شيئًا. سأستمرّ في حياتي العادية أمارس عملي وأرعى شؤون عائلتي. فأنا لا أخاف سوى الله. وأنت تعرف أنَّ أكثر من جهاز مخابرات يراقبني... ولم يكن ينقصنا سوى الـ .K.G.B والرومان والأخ أفاديس...

نظر إليّ نظرة ودّ وتحنان وقال: اصعد إلى المختارة. وأقم هناك لفترة. فقلت: سوف نرى...

ويوم دُعِيتُ لحضور مجلس إدارة شركة سبلين سألني النائبان والوزيران نسيم مجدلاني وتوفيق عسّاف عن حقيقة ما جرى، فأجبت بأني لم أعد أعرف شيئًا عن الموضوع، وأنَّ حقيقة ما جرى هو في عهدة كمال بك، وهو وحده المخوّل بالجواب عن ذلك، وانسحبت...

بعد أقلّ من عامٍ واحد عقد كمال جنبلاط اتّفاقات بشأن مصنع سبلين للترابة مع رومانيا تشاوشسكو برعاية ومواكبة أجهزة مخابرات سوفياتية وشيوعية عدّة... وتمنّيت له التوفيق، لكنّي بدأت أخشى وأخاف عليه جدّيًا...

رَبَطت كمال جنبلاط بمؤسّسي حزب البعث العربي الاشتراكي: ميشال عفلق وصلاح البيطار وأكرم الحوراني صداقة وتعاون وتلاقٍ في أكثر من موقف وموقع وزمان ومكان. كما حصلت تباينات في وجهات النظر في أكثر من محطّة تاريخية وحيال بعض القضايا المصيرية الكبرى. وخلال سنة ١٩٥٣ وصل مؤسّسو البعث الثلاثة إلى بيروت بعد أن أبعدهم ونفاهم نظام الدكتاتور أديب الشيشكلي من سوريا. وكان الشيشكلي مؤيّدًا لحلف بغداد ولحكّام العراق وصديقًا مع كميل شمعون شخصيًا. أحاط كمال جنبلاط والأصدقاء الزعماء الثلاثة بكلّ رعاية وضيافة. لكن، وبعد أن قاموا بزيارة إلى مكتب جريدة «التلغراف» لصاحبها ورئيس تحريرها نسيب المتني، وكان برفقتهم الصحافي رياض طه، صاحب مجلّة «الأحد» عهدذاك والمنتمي إلى حزب البعث... وأصرّ نسيب المتني على أن يُدلي الأقطاب البعثيون الثلاثة بتصريح إلى صحيفته ففعلوا بعد إلحاح منه...

وفي يوم نشر التصريح في «التلغراف» غضب رئيس الجمهورية كميل شمعون، وكان حليفًا وصديقًا للشيشكلي، فاتّصل بوزير الداخلية صائب سلام وطلب منه إبعاد عفلق والبيطار والحوراني عن الأراضي اللبنانية فورًا. فأوفد سلام فريقًا من رجال الأمن العامّ اقتاد الزعماء الثلاثة إلى مطار بيروت، وسط صراخ أكرم الحوراني واحتجاجه الحاد، ووضعوهم في أوّل طائرة ستقلع من المطار وكانت وجهتها روما...

... وجاء انزلاق البعث، في ما بعد إلى محنة ودوامة الانقلابات العسكرية في كلّ من سوريا والعراق تزيد الطين بلّة، والمسألة تعقيدًا على تعقيد.

وتفاوتت علاقات الزعيم التقدّمي بأنظمة الحكم التي ولّدتها كلّ من هذه الانقلابات بين تعاون وترقّب ومراقبة، ونصح وتمنٍّ، وآمال وتوقّعات، كانت تذهب أحيانًا أدراج الرياح. وراح حزب البعث، من خلال هذه الانقلابات، يصفّي بعضه البعض عسكريًّا ومدنيًّا وأجنحة وتجمّعات. القيادة القطرية قامت بتصفية القيادة التاريخية للحزب المسمّاة "القيادة القومية"، فلجأ هؤلاء من دمشق إلى بغداد بعد أن قضى بعضهم فترات في السجون والمعتقلات، ولعلّ أبرزهم: ميشال عفلق وصلاح البيطار وأكرم الحوراني وشبلي العيسمي وأمين الحافظ وسواهم...

وقام تعاون بين كمال جنبلاط ونظام نور الدين الأتاسي ويوسف زعيّن وصلاح جديد والذي كان حافظ الأسد فيه وزيرًا للدفاع، وعلى الأخصّ من خلال وجود كمال جنبلاط وزيرًا للداخلية في نهايات عهد شارل حلو، أي في نهايات الستينات من القرن العشرين، فزار جنبلاط دمشق وردّ وزير الداخلية السوري محمّد رباح الطويل الزيارة إلى لبنان وتناول طعام الغداء في دار المختارة بدعوة من زميله وزير الداخلية اللبناني. وساد العلاقات بين البلدين خلال تلك الفترة تعاون وتنسيق أمني بين بيروت ودمشق ساعد على قيام علاقات مستقرّة وطبيعية بين البلدين.

واختلف الأمر بعد قيام حافظ الأسد في تشرين الثاني سنة ١٩٧٠ بالانقلاب المفاجئ الذي أسماه "الحركة التصحيحية"، فأطاح بالحكم البعثي السابق، وأوصله إلى رئاسة الدولة السورية، وحكم سوريا بقبضة من الحديد والنار، وبلون طائفي ومذهبي معلوم. لم تكن بين الرجلين: حافظ الأسد وكمال جنبلاط علاقة ودّ وثقة وارتياح للتعاون، بل إنّ ما ساد علاقاتهما يمكن أن يوصف بالحذر والترقّب وعدم الارتياح. كانا في شخصية كلّ واحد منهما: نموذجين مختلفين متناقضين ومتضادين: عسكري الثقافة تسلّم الحكم بانقلاب عسكري وحكم بقبضة حديدية وبمصادرة حرّيات الناس حتّى الرفاق منهم في الحزب الواحد، ورجل فكر يتمتّع بثقافة إنسانية ترتكز إلى الإيمان بالحرّية والتنوّع والديمقراطية الشعبية التي تؤمن بضرورة قبول الرأي الآخر واعتماد الحوار العقلاني المسؤول سبيلاً للوصول إلى الحلول لمشكلات المجتمع ولقضاياه العادلة.

سنة ١٩٧٢ انتدبني نقيب الصحافة رياض طه لتمثيل النقابة في احتفالات الحكم السوري بذكرى الحركة التصحيحية، فأفرد لي جناح في النادي العسكري في دمشق

استقبلني فيه لدى وصولي موظّف قال لي إنَّ اسمه محمّد المتني من بلدة القريّة في جبل العرب، وأعلمني أنه مستعد لتلبية كلّ طلباتي، وأنَّ لي أقرباء ينتمون إلى مذهب الموحّدين الدروز في جبل العرب. حضرت الحفل الافتتاحي الذي ألقى خلاله الرئيس السوري حافظ الأسد خطابه الرسمي المطوّل. وسنحت الفرصة والمناسبة لأن أتناول طعام العشاء ولليلتين متتاليتين، في النادي العسكري، مع وزير الدفاع السوري العماد مصطفى طلاس. مصطفى طلاس عن قرب هو صاحب شخصية محبّبة، لكنّه عندما يشرب الويسكي، وهو يعاقر الكثير منه، يفلت للسانه أحيانًا العنان فيبوح بما لا يجوز ولا يستحسن لرجل عسكري في مرتبته ومركزه ومسؤوليته أن يتفوّه به. أجريت معه مبارزة في تلاوة أبيات من الشعر العربي تبيّن له في نهايتها أنني أحفظ منها أكثر ممّا يحفظ هو فأحبّ أن نجري في الليلة التالية مبارزة أخرى في ميدان الشعر والحديث. واكتشفت واستنتجت من خلال اللقاءين أنَّ من هم في السلطة في دمشق لا يحبّون كمال جنبلاط ولا ينظرون إلى شخصه وإلى ما يمثّل بمحبّة وارتياح... حتَّى لا نقول أكثر.

وكانت لي لقاءات مع وزير الإعلام ومع نقيب الصحافيين السوريين صابر فلحوط وسواهما خرجت منها بالانطباع إيّاه. ووجّهت إلي دعوة خاصّة لزيارة دمشق في موعد لاحق، كما كان وزير الداخلية السابق محمّد رباح الطويل قد وجّه إلي دعوة مماثلة... قبل أن يصبح بالطبع نزيل سجن المزّة مع زملائه في الحكم السابق.

خلاصة الموضوع أنني اكتشفت خلال الزيارتين، وخلال غيرهما من لقاءات ومناسبات، أنَّ «الإخوان» في دمشق لا يحبّون كثيرًا عقد الصدقات والتعامل مع الناس على هذا الأساس ويؤثرون على العروبة المجانية، التي تقوم على الإيمان بالقضية والدفاع عنها بالمجان، عروبة العروبيين العاملين بالأجرة، سواء كانوا من سائقي «التاكسي» أو من سائقي «السرفيس»... هم يريدون مخبرين يمارسون التجسّس حتَّى على الأقربين، والعياذ بالله من هكذا ثقافة وهكذا حكّام ومسؤولين...

والمخبر، كاتب التقارير، أو ناقلها شفهيًا إذا كان لا يجيد الكتابة، هو ما وصفه شاعر العراق بدر شاكر السيّاب الذي ابتلي بسفالة وحقارة المخبرين فقال في قصيدة له عنوانها «المخبر»: «أنا ما تشاء، أنا الحقير، مسّاح أحذية العبيد»...

ولم يحب «شاعر الأرز» شبلي الملاّط الرقيب ولا الرقباء فقال فيهم:

ما استحسن الرقباء قبلك شاعر ... أو كان يومًا ظلّهم محبوبا

فالبدر حتّى البدر أزعج نوره ... أهل الهوى لـمَّا رأوه رقيبا

وفي عالمنا العربي ازدهرت مهنة المخبرين في ظل وجود أنظمة تسخّر كلّ شيء لخدمة النظام وللحفاظ على استمراره. وابتلى كمال جنبلاط بالعديد من هذا النمط من الأشخاص. وكان هو يعرفهم أحيانًا فلا يخفى عليه من أمورهم ومن مساعيهم لخدمة الأسياد. لكنّه كان في النهاية صاحب قلب كبير وسع واتّسع لتقبّل وتحمّل هذه الأنماط من البشر الساقطين أخلاقيًّا وإنسانيًّا.

ـ العلاقة مع السعودية بدأها الأمير عبد الله بن عبد العزيز

العلاقة التي قامت بين كمال جنبلاط والمملكة العربية السعودية بدأت عام ١٩٧٣ ومن بيروت عاصمة لبنان. فلقد مهّد رجل العلاقات العامّة المشهود له الشيخ عارف يحي للموضوع بلقاء جمع كمال جنبلاط والأمير بدر بن عبد العزيز نائب رئيس الحرس الوطني السعودي عهدذاك. ثمَّ كان لقاء بين الزعيم التقدّمي والأمين العامّ للجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطنية مع الأمير عبد الله بن عبد العزيز رئيس الحرس الوطني السعودي فأعجب الرجلان واحدهما بالآخر، وقامت صداقة رافقتها مشاعر الود والاحترام بين كمال جنبلاط والأمير عبد الله الذي صار في عام ٢٠٠٥ ملكًا للمملكة العربية السعودية خلفًا للملك فهد بن عبد العزيز. وورث وليد جنبلاط صداقة ومحبّة الملك عبد الله لوالده الكبير. وما زالت هذه العلاقة قائمة ومستمرّة بين دار المختارة وخادم الحرمين الشريفين.

وبعد لقاءات ولقاءات بين كمال جنبلاط والأمير عبد الله وجّهت الدعوة للأول لزيارة المملكة العربية السعودية، وأعدّ له برنامج حافل للزيارة تضمن أكثر من لقاء وحوار بين الملك فيصل بن عبد العزيز وكمال جنبلاط حول القضيّة الفلسطينية وما تمثّله مدينة القدس بالنسبة للعرب وللمسلمين وللعالم المتحضّر بأسره. وحول العلاقة بين المملكة والاتّحاد السوفياتي والتي نشأت وبدأت باعتراف السعودية بموسكو وتبادل السفراء بين البلدين أبّان تسلّم فيصل بن عبد العزيز مقاليد وزارة الخارجية السعودية.

وأعدّ لجنبلاط برنامج حافل في المملكة مكّنه من القيام بجولة واسعة في أرجائها وسط

حفاوة استثنائية. وتضمّن المنهج زيارة لقاعدة "تبوك" العسكرية حيث شهد كمال جنبلاط دورة تخريج ضبّاط في الجيش حملت اسمه، وتولّى هو توزيع الشهادات على الضبّاط المتخرّجين في الدورة.

وتخلّلت علاقة الأمير عبد الله بن عبد العزيز بكمال جنبلاط اهتمامًا خاصًّا بالنظام الغذائي الي كان يتبعه الزعيم التقدّمي المتقشّف، وموضوع العلاج بعشب القمح والفوائد الصحّيّة التي يجنيها الإنسان من إتباع هذا النظام وسلوك مسلكه. وذكر بعض العارفين أنَّ الأمير سابقًا والملك حاليًّا عبد الله بن عبد العزيز أعجب بعشب القمح وربَّما قام بتجربة عملية لتذوّقه والإفادة من مردوده على صحّة الإنسان.

ولكم سمعنا كمال جنبلاط، في حياته، يثني ويشيد بفروسية الأمير عبد الله بن عبد العزيز وبأخلاقه العربية الأصيلة ويتوقّع له أن يكون ملكًا للمملكة العربية السعودية يقودها في مدارج العصر والتقدّم، وخدمة قضايا الأمّة وفي مقدّمها: قضيّة فلسطين والقدس وحقوق الشعب الفلسطيني الوطنية في أرضه وفي وطنه، وفي إقامة دولته المستقلّة وعاصمتها القدس الشريف.

ولقد صدق حدس كمال جنبلاط فها هو خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز، ومنذ تسلّم عرش المملكة ومقاليد الحكم فيها ملكًا يرعى شؤون شعبه بروح الأبوّة والشورى فينشر العلم ومكارم الأخلاق ويحقّق نهضة تحاكي روح العصر، تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر. ويقود سياسة الانفتاح وتوحيد الصفوف العربية وتنقيتها، تارة من خلال مبادرة عربية للسلام أطلقها من بيروت فكانت مبادرته، وطورًا من خلال مبادرات خلاّقة تهدف إلى وحدة الصف واعتماد أسلوب التحاور والتشاور والتكامل بين دول المنطقة وحكوماتها لخدمة قضاياها الكبرى والمصيرية وفي مقدّمها قضيّة فلسطين والقدس الشريف وتحقيق الاستقرار والأمن ومكافحة آفة الإرهاب المدمّر الغريب عن تقاليد وقيم العرب والإسلام والروح الإنسانية.

* * *

الشاهد والمشاهد... والشهيد
حكاية علاقة وتعاون وشبه أخوّة

كُتبَ الكثير عن كمال جنبلاط: مقالات ودراسات وكتبًا وقصائد وأناشيد... وشهادات.

وكمال جنبلاط كان في حياته الشاهد والمشاهد والشهيد: العارف والواصل والمتيقِّن، المتصوّف والمتبحّر بفنون الزهد والنسك والتصوّف والتجرّد عن اشتهاءات هذا الدهر ومغريات حضارته المركنتيلية الاستهلاكية... ليس، ولا هو، ولن يكون يومًا في حاجة إلى شهادة أحد.

بعضهم توسّل طريق المختارة للوصول إليه والكتابة عنه وفيه، وقد كُتِبَ على الكاتب أن يَدُبَّ مشيته الأولى على أرضها، وأن يكون للدار ولسيِّدها محازبًا ونصيرًا...

وبعضهم الآخر جاءنا من أقاصي الأرض، من بلاد القياصرة والسوفيات وغورباتشوف والمافيات... بزعم أنه مستشرق يريد كتابة تاريخ، واستشراف حقائق مرحلة من تاريخنا (بتكليف من القيادة السوفياتية التي كانت تحرص على تكريم أصدقاء موسكو بادئ ذي بدء... ثمَّ بدعم غير محدود من وليد جنبلاط بعد سقوط الإمبراطورية السوفياتية على أيدي غورباتشوف ومدرسته).

فإذا به يغرق في التفاصيل وينزلق إلى متاهات وأقاويل قد تسيء إلى الرجل الكبير ولا تؤدّي الغايات المرتجات.

أمَّا أنا فلقد كتبت وأكتب ليس لأني أعرف وحسب ـ وقد كنت بالنسبة إلى كمال جنبلاط أقرب إليه من ظلّه أحيانًا ـ بل لأني قطعت له عهدًا ووعدًا بأن أفعل، وبأن أصوّب، وأن أصحّح ما استطعت إلى ذلك سبيلاً... وأن أشهد للحقّ وللحقيقة دونما تكلّف أو مواربة أو توريات... وأنَّ الحقيقة هي أن تُقالَ لا أن تُعلَمَ وحسب.

ففي المرحلة الأخيرة من وجوده بيننا على هذه الفانية، وبعدما صار عنده شبه يقين من أنَّ حكم الإعدام في حقّه قد صدر من الغرفة السوداء إيّاها، وأنَّ التنفيذ هو مسألة أيّام أو

أسابيع، إنفضّ من حوله كثيرون وصاروا يتحاشون زيارته ظنًّا منهم أنَّ النسر قد هوى، وأنَّ القائد قد خسر المعركة، وفاتهم أنَّ النسر الأصيل لا يموت إلاَّ واقفًا، وأنَّ القائد المخلص الصادق يفتدي عسكره وشعبه... وليس أعظم من أن يبذل الإنسان نفسه فداءً عن أحبّائه.

في هذه المرحلة بالذات أكثرتُ من تردّدي عليه، وصار هو يُرسل كثيرًا في طلبي... فبيننا خبز وملح كما يقولون، وتجمعنا محبّة وثقة هي الأقوى والأصفى والأبقى. ويوم طُلِبَ من بولس الرسول أن يوجز أسس المسيحية حدّدها بثلاث: الإيمان والرجاء والمحبّة. وأضاف: وأعظمهنّ المحبّة. فإذا لم تُحب مهنتك أو شريكك في المهنة فأنت لن تؤدّي عملك على الوجه المرتجى والأفضل والأكمل.

أَذكر جيّدًا أنه ما بين نهاية عام ١٩٥٨ ومطلع العام ١٩٥٩، عندما قرّر كمال جنبلاط إعادة إصدار «الأنباء» كنت أنا قد عُدْتُ إلى متابعة دراسة الحقوق في كلّية جامعة الآباء اليسوعيين. وفيما كنت، ذات صباح، أتابع محاضرة في الاقتصاد السياسي للبروفسور الفرنسي «تيلاك» ظهر في الرواق المؤدّي إلى قاعة المحاضرات انطوان بتلوني، مدير مكتب نسيم المجدلاني، النائب في المجلس النيابي عهدذاك ونائب رئيس الحزب التقدّمي الاشتراكي، وأشار إليّ بيده وبإلحاح، فاستأذنت الأستاذ المحاضر بالخروج لسبب خاصّ، فأذِنَ لي. وعندما قابلت البتلوني قال لي: نسيم ينتظرك في السيّارة لأمر هامّ. كان نسيم المجدلاني يجلس في المقعد الخلفي من سيّارته البويك السوداء التي تحمل الرقم ٤٠ (مجلس النوّاب) فقال لي: اركب إلى جانبي. وبعدما دخلت السيّارة فاجأني المجدلاني بالقول: كمال بك في انتظارنا، وهو يريدك لأمر هامّ. وقبل أن أجيب انطلق السائق بنا إلى محلّة الظريف حيث كان كمال جنبلاط يشغل شقّة صغيرة في بناية عالية من عدّة طبقات.

دخلنا الشقّة فوجدنا كمال بك ممدّدًا على أريكة متواضعة أمامه مدفأة صغيرة تعمل على «الكازاويل» وعلى أسفل بطنه كيس مياه ساخنة برّر وجوده بأنه كان يعاني من آلام في المصران الغليظ. وبعد السلام والكلام الودود فاجأني كمال جنبلاط بالقول:

ـ نحن نعدّ لإعادة إصدار «الأنباء»، ولقد جهّزنا أسرة التحرير، ونريدك أن تضع اسمك كمدير مسؤول مجانًا... حاولت أن أعتذر وبرّرت اعتذاري بأنني قرّرت عدم العمل في الحقل الصحافي بل متابعة دراسة الحقوق والانتساب إلى سلك القضاء لأحكم بالعدل بين الناس... لكنّه ألحّ، وكان يعرف نقاط ضعفي إزاءه فقبلت فوقّعت الطلب الموجّه

إلى وزارة الأنباء (هكذا كان اسم وزارة الإعلام)، وتمنّيت عليه وضع اسمي في مكان متواضع في الصفحة الأخيرة من «الأنباء» وليس في الصفحة الأولى. وأعادني نسيم المجدلاني بسيارته إلى كلّية الحقوق. صدرت «الأنباء»، ولم يمضِ شهر واحد حتَّى عاد نسيم المجدلاني مرّة جديدة إلى أمام كلّية الحقوق وأوفد البتلوني يستدعيني من قاعة المحاضرات ويقول لي بعدما وصلت إلى مقربة من سيّارته: اصعد فكمال بك ينتظرنا...

ابتسم كمال جنبلاط على طريقته المحبّبة وهو يشاهدني أدخل شقّته في محلّة الظريف وخاطبني بالقول: «الأنباء» لا تعجبني فلا تعتذر ولا تحاول التهرّب... أريدك أن تتولّى الإشراف عليها ووضع عناوين الصفحة الأولى والأخبار الرئيسية على طريقة «التلغراف» ونسيب المتني... ومرّة جديدة عرف ضعفي إزاءه ومحبّتي له، فوافقت و «علقت» في خضم ومغامرات مهنة المتاعب والمكرمات، من الباب العريض...

وهكذا بدأنا التعاون مجدّدًا بتولّي إدارة تحرير «الأنباء» في نهاية شباط ١٩٥٩ بعد ما كانت بيننا صداقة امتدّت إلى نهايات الأربعينيات من القرن العشرين وطوال سنوات الخمسينيات، عندما كنت أشاهد كمال جنبلاط في زيارة خالي نسيب المتني في مكاتب جريدتي «التلغراف» و «الطيّار» اللتين كانتا المنبر الأحبّ والأقوى لتصريحاته النارية التي تدعو إلى الإصلاح والتغيير، ومكافحة الفساد، وبناء دولة القانون والعدل والمؤسّسات العصرية.

لم يمضِ شهران على تسلّمي إدارة تحرير «الأنباء» حتَّى بدأت أسأل وأستفسر عن وضعها المادّي: المداخيل والنفقات، الاشتراكات والإعلانات، ومن يدير كلّ ذلك ويسهر عليه، فتبيّن لي أنَّ ليس ثمّة من مدير إدارة أو مسؤول عن الإعلانات، أو جباية منتظمة للاشتراكات. واكتشفت أنَّ الوضع مأساوي والخسارة محتّمة والتوقّف عن الصدور قد يبدو محتّمًا في نهاية المطاف... وكالعادة فنائب رئيس الحزب نسيم المجدلاني الذي كان نائبًا عن بيروت يتولّى تسديد النفقات من حساب خاصّ في بنك مجدلاني الذي كان يمتلك أسهمه ويديره مع شقيقيه نعيم ونديم. وفي آخر السنة تحتسب الخسائر ويسدّدها كمال جنبلاط لنسيم قطعة أرض في سبلين وربَّما في موقع آخر

إزاء هذه المعطيات غير المشجّعة بالتأكيد انكببت على وضع تصوّر عملي للموضوع يرتكز على شقّتين: الأول توسيع نطاق الاشتراكات المنتظمة وتحقيق جبايتها على الوجه

الأفضل، والثاني إدخال «الأنباء» عالم الإعلان الواسع المتشعّب الذي يؤمّن لأيّ مطبوعة: جريدة كانت أو مجلّة، الدخل الأساسي في موازنة تأمين النفقات. وعندما فاتحت كمال جنبلاط بالمسألة للمرّة الأولى سألني بتعجّب واستغراب ربَّما: إلامَ يهدف هذا التصوّر وهذا البحث؟ فأجبت: إلى تأمين الموارد الكافية لسداد النفقات وتأمين الاكتفاء الذاتي للأنباء. فابتسم ابتسامة عريضة وقال: يبدو أنك بدأت تحلم على طريقتي... فقلت: لا شيء مستحيل. وهذه مهنتي، وأنا أريد أن أريحك من عبء «الأنباء» الثقيل. ربّت على كتفي وقال: هذه أمنيتي فابحث التفاصيل مع نسيم مجدلاني ثمَّ ضعني في أجواء النتائج.

خلال لقائنا ولدى عرضي لعناوين التصوّر الذي أضع أطلق نسيم المجدلاني «صفرة» معبّرة من شفتيه وقال بصوت مرتفع: وهل أنت مجنون يا عزيز المتني؟ «الأنباء» تخسر في حدود المئة ألف ليرة لبنانية كلّ سنة... وكان هذا الرقم يساوي ثروة عهد ذاك (أي في عام ١٩٥٩).

أكّدت إصراري على المضي في إعداد المشروع بالتفاصيل فسألني: وماذا تريد في نهاية المطاف، فقلت: أريد تعاقدًا خطّيًا بين كمال جنبلاط وبيني ينظّم كلّ علاقات العمل بيننا، فأكون أنا مسؤولاً أمام الرجل منفردًا ويكون هو داعمًا لي في نشاطاتي وأعمالي. وهذا أساس ومنطلق النجاح في العمل. وبكل صراحة ووضوح كنت أعرف أنَّ كمال جنبلاط بما يمثّل، هو موضوع اهتمام مراكز القوى والمخابرات في معظم الدول القريبة والبعيدة، الشقيقة والعدوّة فأضيع أنا في خضمّ تزاحم وتصادم وتجاذبات محاور القوى وأعوانها وأنصارها وربَّما بعض المتعاملين معها... وبكلّ صراحة ووضوح أيضًا وأيضًا أردت أن أحمي ظهري وأن أكون مسؤولاً أمام كمال جنبلاط وحده فأنصرف إلى ممارسة عملي بكلّ حرّية وأمانة ومسؤولية...

وهكذا كان. فما أن حلّ مطلع سنة ١٩٦٠ حتَّى كان العقد في جيبي فأصبحت رئيس تحرير «الأنباء» ومديرها المسؤول ومدير الإدارة المخوّل كلّ الصلاحيات لتأمين الموارد وتحقيق الاكتفاء المالي الذاتي للأنباء للمرّة الأولى في تاريخها. ولقد تحقّق ذلك التكافؤ منذ السنة الأولى واستمرّ طوال سنوات تولّي مهامي، مع بعض الوفر والأرباح أحيانًا بحيث صدرت «الأنباء» بانتظام كلّ أسبوع منذ العام ١٩٥٩ وحتَّى نهاية شهر شباط ١٩٧٥ عندما قدّمت استقالتي الخطّية إلى كمال جنبلاط وأصرّيت عليها... وعندما تركت «الأنباء» كان

في صندوقها وفرًا من المال يصل إلى أربعين ألف ليرة لبنانية على ما أكّد لي يومها أمين صندوق الحزب وأمين صندوق «الأنباء» الأخ الصديق عفيف الهشي الذي كان يسهر بكلّ أمانة ومسؤولية على تأدية عمله. وهو كان لي رفيق دراسة في مدرسة الحكمة في الأشرفية، وحافظت على صداقته طوال سني حياتي، فاستحقّ مني كلّ احترام وتقدير وتنويه.

أوردت هذه التفاصيل لأدلّل وأؤكّد على عمق وخصوصية العلاقة التي ربطتني بكمال جنبلاط والتي تعدّت علاقة العمل والصداقة إلى شبه أخوّة نشأت بيننا، وتوطّدت واستمرّت بحيث كنّا نتصارح ونتكاشف في كلّ المواضيع والشؤون والشجون والحميميات منها أحيانًا، وبكلمة، أحببت الرجل وأحبّني محبّة أخوية مجرّدة منزّهة.

كان كمال جنبلاط قد سلّمني خلال النصف الثاني من شهر كانون الثاني ١٩٧٧ مجموعة محاضرات له باللغة الفرنسية وطلب منّي الإشراف على صفّها وتصحيحها وجمعها في كتاب حمل عنوان واحدة منها وهو الآتي: «Pour un socialisme plus humain»

وترجمته إلى العربية: «نحو اشتراكية أكثر إنسانية» قمت بالمهمّة وبعدما أنجزنا الصفّ والتصحيح ووصلنا إلى مرحلة الطباعة حملت إليه نماذج من الكرتون، وسألته أن يختار واحدة منها للغلاف، فاختار اللون الأصفر فأبلغته أنني سأطبع عنوان الكتاب واسم المؤلّف بالحبر الكحلي فاستحسن الأمر وقال لي: الموضوع متروك لحسن ذوقك واهتمامك...

وذات يوم كنت أعبر بسيارتي الشارع المحاذي لفندق البريستول فإذا بي ألمح سيّارته المرسيدس وهو يجلس فيها وحيدًا إلى جانب السائق (ولا حرس ولا حرّاس ولا من يحزنون) فلحقت بالسيارة التي كانت متوجّهة إلى المنزل الذي كان يقيم فيه في محلّة المصيطبة (فرن الحطب). أوقفت سيارتي في الشارع القريب وصعدت إلى بيته فبادرني بالسؤال: ما بك، ولم أنت منفعل ومتجهّم؟ فقلت: كيف تتجوّل في شوارع بيروت في سيارتك التي يعرفها الجميع بدون مرافقين أو حرس أو أيّ موكب؟ فابتسم وقال: لماذا تعقّد الأمور؟ أنا أعرف جيِّدًا أنهم سيغتالونني بين ساعة وأخرى، بين يوم وآخر، وأنا أخشى الموت وأخافه بالطبع، لكن لماذا تريد أن يكثر عدد الضحايا البريئة وأن يتضاعف تعداد النساء الثكالى والأولاد الأيتام؟

فخاطبته بالقول: هكذا إذًا وبكلّ بساطة. فقال: أجل أجل... لكن أريد أن أسألك: هل

يسيء إلى صورتي وذكري إذا ما قلت إنَّني أخشى الموت وأخافه، فأجبت: بالتأكيد لا. فالسيِّد المسيح خاف الموت وخاطب الله وهو يصلّي في بستان الزيتون: يا أبتاه أبعد عنّي هذه الكأس ثمَّ أضاف: لكنّي من أجل هذه الساعة أتيت، فلتكن مشيئتك. هزّ رأسه ودخل في لحظات تفكير عميق فتذكّرت أني أحمل في حقيبة يدي صليبًا خشبيًّا مطعّمًا كتب على جهته الخلفية Jéru salem كان قد أهداني إيّاه صديق فلسطيني الأصل كان قد أحضره معه من القدس. أخرجت الصليب وقدّمته لكمال جنبلاط قائلاً: خذ هذا الصليب واحتفظ به فقد يعينك في درب جلجلتك الذي تسير عليه كلّ يوم، كلّ ساعة، كلّ دقيقة، وأنت لا تعلم بالضبط متى يأتي المجرم ومتى يطلق رصاصاته الجبانة الغادرة؟ وكيف؟ ولماذا؟

تناول الصليب منّي ودخل إلى غرفته فتبعته، فشاهدته يضعه تحت مخدّته (الوسادة) على فراشه الممدود على أرض الغرفة، على حصيرة بلدية يعلوها بساط بلدي الصنع حاكه بعض إخوانه الموحّدين.

ويوم طلب منّي وليد جنبلاط أن أتولّى جمع أغراض وحوائج والده الخاصّة، بعد رحيل الكمال بفترة... توجّهت فورًا إلى غرفة نومه وقلبت «المخدّة» فإذا الصليب الذي أهديته أيّاه تحتها، وتحت الصليب ورقة اقتطعت من دفتر مدرسي، وطويت عدّة طيّات، ففتحتها، فإذا عليها كتابة باللغة الفرنسية بخط كمال جنبلاط الذي أعرفه. عنوان الكتابة:

«L'ordre du jour» أي «نظام النهار».

وعليها باللغة الفرنسية ما يأتي:

- Prières du matin et du soir
- Lectures dans L'EVANGILE

ترجمتها إلى العربية:

١ـ صلوات الصباح والمساء

٢ـ قراءات في الإنجيل

أمسكت بالصليب وبالورقة المطوية ووضعتهما في ظرف خاصّ، أودعناه في ما بعد في الجارور الأول من خزانة حديدية تضمّ بضعة جوارير كانت قد وضعت في مكتب خاصّ استأجره وليد جنبلاط للجنة تراث كمال جنبلاط، وهو كان محاذيًا لمكتب الحزب الذي كان قد اشتراه في الشارع نفسه من محلّة كركول الدروز في العاصمة بيروت.

أمّا ما كان مصير هذا الظرف بعد نقل مكتب التراث من بيروت إلى بعقلين سنة ١٩٨٤، أو ما بعدها سنوات، فلم أعد أعرف عنه شيئًا.

وكنت قد أسهمت في جمع جزء لا بأس به من تراث «المعلّم»، وقد ضمَّ مقالات بالفرنسية نشرت في جريدة «لو سوار» «Le soir» وفي بعضها ردود كان يكتبها كمال جنبلاط ردًّا على مقالات كان يكتبها الرئيس شارل حلو ويرسلها إلى الجريدة عينها دون توقيع بالطبع، وهو ما أشار إليه شارل حلو في مذكّراته.

كما توجّهت إلى مدرسة عينطوره وحصلت على صور عن دفاتر علامات التلميذ كمال جنبلاط فيها وكان في غالبيتها الساحقة الأوّل في كلّ صفّ من تلك الصفوف. وكان ينافسه أحيانًا على الأولوية زميله إميل طربيه من تنورين، وصار في ما بعد محاميًا ومفوّضًا للدعاية والنشر في الحزب التقدّمي الاشتراكي.

وأنا لا أشير إلى هذه الواقعة، ولا أرمي من وراء إيرادها الدلالة على أمر أو تلميح ما، بل أذكره وفاء للحقيقة... مؤكّدًا هنا كما أكّدت دومًا أنَّ كمال جنبلاط كان موحّدًا بامتياز، وأنَّ اطّلاعه الواسع والمعمّق على كلّ الديانات والمذاهب: قديمها وحديثها، كان يهدف الإحاطة بالحقيقة كاملة غير منقوصة، والتحاور مع هذه الديانات والمعتقدات بهدف الوصول إلى جوامع مشتركة فيما بينها، تجمع بين الناس ولا تفرّق فيما بينهم، توحّد ولا تشرذم، والبشر كلّهم في رأيه هم عيال الله أقربهم إليه أنفعهم لعياله. يوم الخميس الموافق العاشر من شهر آذار سنة ١٩٧٧، وكانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحًا، فوجئت بدخول جوزف كحاله، الشرطي السابق في الفرقة ١٦ والذي أصبح سكرتير كمال جنبلاط الخاصّ ورافقه لسنوات وسنوات، إلى مكتب مطبعة «البيان» الكائنة عهد ذاك في مبنى الغراوي المواجه لمبنى العسيلي في ساحة رياض الصلح ومحلّة المعرض من العاصمة بيروت... وبعد السلام قال لي جوزف كحالة: «المعلّم» يريدك وهو ينتظرك في منزله بمحلّة «فرن الحطب».

أخذت معي ثلاث نسخ من كتاب: «من أجل اشتراكية أكثر إنسانية» وتوجّهت إلى منزل كمال جنبلاط في بيروت. وما إن دخلت غرفة نومه وكان ما يزال في الفراش حتَّى لمح كتابه الجديد فبادرني: «حلو هالغلاف الأصفر وأنيق جدًّا هذا الحبر الكحلي على الأصفر»... تصفّح نسخة من الكتاب بسرعة فأعجب به، ثمَّ تناول بيديه الإثنتين ملفّين في كلّ يد ملفّ وقال لي: خذ هذين الملفّين، في كلّ واحد منهما مخطوطة كتاب باللغة العربية،

واعمل على تنقيحهما ووضع الفواصل والنقط كما يتوجّب، ثمَّ باشر بالصفّ والتصحيح تمهيدًا للطباعة... أمسكت أنا بالملفّين من جهتي كلّ واحد بيد، وكانا ذا لون زهري على ما أذكر، ثمَّ سادت لحظات صمت وكأنَّ الرجل دخل في تأمّل ما، ثمَّ شدّ بالملفّين لناحيته وخاطبني بالقول: معليش... اتركهما عندي... وإذا بقيت حيًّا إلى يوم الخميس المقبل، (١٧ آذار ـ مارس ١٩٧٧)، نلتقي هنا عند العاشرة والنصف قبل الظهر...

لم أفاجأ أنا بالأمر... فلقد كنت أعرف أنَّ كمال جنبلاط يحمل روحه على كفّه كما يقال... هاجس الموت والقتل والاغتيال يرافقه لحظة بلحظة آناء الليل والنهار. فالرجل كان شبه متيقّن، بل أكاد أقول، متأكّد تمامًا بأنَّ حكم الإعدام بحقّه قد صدر وأنَّ التنفيذ قد يتمّ بين ساعة وأخرى...

لكنّي حزنت جدًّا لهذا العذاب النفسي الذي يعاني فقلت في نفسي: هل يعقل أن يكون مصير هذا الإنسان الكبير المملوء محبّة وإنسانية وفكرًا خلاّقًا الموت قتلاً؟ وأيّ وحش بشريّ يمكن أن يكون قد قرّر وأمر بذلك؟ ومتى نصل إلى يوم يقارع فيه الفكر الفكر في عالمنا العربي، بدل أن يتمّ إسكات حملة الفكر والإعلام برصاصات جبانة أو بمتفجّرة مجرمة صمّاء؟! تمالكت نفسي وقلت له: ما بي أراك اليوم متشائمًا إلى هذا الحد، وأنت تعرف أنَّ مثل ذلك يعذّبك ويعذّبني؟!

فأجابني بالقول: أنا لست متشائمًا على الإطلاق... أنا إنسان واقعي وأنتظر لحظة رحيلي لملاقاة وجه الحبيب... كان يلفظ كلماته بهدوء ووضوح، فأكمل يقول لي: إذا تمتّع الإنسان بصفاء ذهني وشفافية روحية اشتمّ رائحة منيّته قبل أيّام... وأنا أشمّ رائحة منيّتي وأخاف من هذه الأيام القليلة المقبلة علينا...

فسألته: هل تريد أن أوافيك إلى المختارة في عطلة نهاية الأسبوع؟

فأجاب فورًا: لا... لا... أنا سأصعد اليوم إلى المختارة... وأرغب في أن أختلي بنفسي وأصلّي... ولن أخرج من المختارة قبل يوم الخميس المقبل.

وحاولت أن أغيّر الموضوع قليلاً فسألته: هل كتبت إلى "الإخوان" كما كنت تقول لي؟ وماذا كان جوابهم يا تُرى؟

فأجاب بانزعاج وشبه تأكيد: كتبت... كتبت، ولا جواب واضحًا أو مطمئن... لكن أنا أعرف أنّ حكم الإعدام بحقّي قد صدر... وأنه سيُنفّذ بين يوم وآخر!

فقلت له: ما دمت متيقّنًا بأنك ستموت قتلاً فلماذا لم تسافر كما نصحك الكثيرون؟

فأجاب وهو يشير بيده ويهزّ إصبع يده اليمنى: لا... لا... لن أسافر ولن أُغادر، ولن أهرب... أريد أن أموت واقفًا بين أهلي وإخواني...

أغمض عينيه للحظات، ثمَّ نظر إليّ وقال: اسمع جيِّدًا... أُريد أن أُوصيك بأمر يهمّني ويعنيني...

قلت: كلّي آذان وانتباه.

فقال: لقد بدأوا منذ فترة ـ يحاولون تشويه صورتي ومواقفي... هذا في حضوري، فماذا سيفعلون إذًا بعد رحيلي؟. أُريدكَ أن تتابع وأن تقرأ، وأن تسمع، وأن تحاول أن تصحّح وتصوّب وتقول الحقيقة وتشهد للحقّ. أنت تعرف أني أُحبُّك وأثق بك. فلا تتردّد ولا تخف... أنت تعرف تقريبًا كلّ شيء، ولقد عانيت كما عانينا. خسرت في هذه الحرب القذرة كلّ شيء: بيتَك ومكتبك ومطبعتك، محفوظاتك ومخطوطاتك وكلّ مقتنياتك... لدرجة أنَّ «مرارتك» قد «طقّت» فانفجرت منذ فترة وكدت تموت. لكن العناية أبقتك حيًّا من أجل أولادك وزوجتك المحبّة.

هذه وصيّتي لك، وأنا أعرف أنك كنت وستبقى من الأوفياء والصادقين.

قلت والدمع يترقرق من عيني: اطمئن... اطمئن... فسأحاول ما استطعت إلى ذلك سبيلاً...

* * *

مولد كمال جنبلاط
أو عام التحوّل الكبير

أبصر كمال جنبلاط النور صبيحة يوم السادس من كانون الأول سنة ١٩١٧ في دار المختارة.

والده فؤاد بك جنبلاط، وكان عهدذاك قائمقامًا لمنطقة الشوف، أي حاكمًا عليها. والدته الستّ نظيره جنبلاط التي لعبت في ما بعد دورًا بارزًا في تاريخ لبنان السياسي، وفي تاريخ العائلة الجنبلاطية.

عام ١٩١٧ كان سنة مفصليّة في تاريخ لبنان والمنطقة العربية والعالم. لماذا؟

لأنه في سنة ١٩١٧ أطلق اللورد البريطاني بلفور وعده الشهير للصهيونية العالمية ممثّلة بروتشيلد باستحداث دولة يهودية على أرض فلسطين تكون عاصمتها أورشليم ـ القدس، منطلق اليهودية والمسيحية، وإحدى القِبلتين عند المسلمين.

في ذاك الزمان كانت الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها ويخفّ أوارها. وكانت الدول الكبرى في أوروبا تتحفّز لوراثة "الرجل المريض"، أي السلطنة العثمانية التي حكمت وتحكّمت بمنطقتنا العربية طوال أربعماية وخمسين سنة من عمر الدهر والتاريخ.

وكان جمال باشا السفّاح قد علّق في السادس من أيّار سنة ١٩١٦ كوكبة من المناضلين الأحرار على أعواد المشانق في ساحة البرج في بيروت، وفي ساحة المرجة في دمشق بتهمة السعي لاستقلال لبنان وسوريا عن السلطنة العثمانية، وسلخهما من نير حكم السلطان العثماني الذي كان لقبه "سلطان البرّين وخاقان البحرين".

ومنذ سنة ١٩١٧ أخذت الصهيونية العالمية تعمل لتزوير التاريخ، بل تواصل عملية التزوير الكبرى، وراح دعاتها وناشطوها يخلطون بين وعدين: وعد بلفور لروتشيلد ووعد الله لابراهيم. الأول وعد عنصري "تجارلي" حصلوا عليه لقاء مال دفع. أمّا وعد الله لابراهيم فهو وعد يشمل الأمم كلّها. قال الله لابراهيم: "بك تتبارك جميع الشعوب".

واليهود ليسوا وحدهم أبناء ابراهيم على حدّ ما كتب المؤرّخون والباحثون العرب والفرنجة.

قال العلاّمة اللبناني المونسينيور ميشال حايك، في عظة له في كاتدرائية مارجرجس المارونية في بيروت ألقاها بمناسبة صوم سنة ١٩٧٠:

«سنظلّ نقول الحقّ ونقلق الناس به لئلاّ يناموا عن الحقّ الباكي. وسنظلّ ندعو اليهود الذين أبغضونا منذ البدء مجانًا، واستعدَوا الآخرين علينا حتّى الساعة، ندعوهم للتأمّل بالنبوءات التي تحدّثهم عن المصير. فيها يجدون أنَّ إسرائيل الحقيقي ابن ابراهيم هو قربان مقرَّب، وضحيّة لا جلاّد، هو المسيح لا موسى. وليذكروا دومًا أنَّ العربيّ أيضًا هو ابن ابراهيم، سليل اسماعيل، رمز المسيح المتروك في صحراء العالم، يبكي ويموت عطشًا تحت أنظار أمّه مريم، هاجر الجديدة».

وقال ميشال حايك، الكاهن الماروني ومؤلّف الإنسكلوبيديا المارونية: «بإسم مَن وبإسم ما؟! زعموا أنَّ يهوه وَعَدَ شعبه بهذه الأرض وبمدينة أورشليم القدس. تُرى إذا جاء من بعد إله إسرائيل إله العرب يعد شعبه بنفس الوعود، فمن نُصدّق؟ يهوه إسرائيل أم إله العرب؟ أو من تُراه يقوم بـ «المساعي الحميدة» لدى آلهة السماء لتتفاوض مباشرة على توزيع غنائم الأرض؟... وحده العدل باقٍ لأنه الله، إلاَّ إذا كان الله ملكًا خاصًّا بشعب خاصّ، كما يدّعي «التلمود» إذ يصوّر الله هائمًا على أنقاض الهيكل يتأوّه وينتحب لأنه أغضب بني إسرائيل وسلّمهم إلى الأعداء»...

توقّفنا عند وعد بلفور لروتشيلد، ومن خلاله إلى الصهيونية العالمية، الذي أعطي عام ١٩١٧، العام الذي شهد ولادة كمال جنبلاط، لنؤكّد على أنَّ هذا الوعد المشؤوم جرّ المآسي والحروب والويلات على منطقتنا العربية، واستنزف ثرواتها، وبدّل الكثير في ديموغرافية ونوعية سكّان بلدانها وأقطارها، وعلى الأخصّ لأنَّ اليهود استندوا ويستندون إلى وعد عنصريّ خاطئ، وإلى وعد إلهيّ مزعوم، فراحوا يقضمون أرض فلسطين شبرًا شبرًا، ومترًا مترًا، ويُهدّدون أورشليم ـ القدس، مدينة السلام وإله السلام؛ مدينة المسيح وقبلة المسلمين ومحطّ ومنطلق إسرائهم ومعراجهم ويحوّلونها إلى مدينة قتل وتهجير وتشريد شعب بأكمله، وإلى نقضٍ كامل لتعاليم ومقدّسات الأديان السماوية ولمرتكزات وأسس التاريخ.

فكلّ مُلِمّ بالتاريخ القديم، من أصوله وجذوره، يعرف أنَّ فلسطين مطبوعة، أكثر من أيّ بلد في المشرق، بطابع عربي قبل موسى وابراهيم، وقبل أن ينزل وعدٌ مزعوم من السماء عليها.

وكأنَّ اسم فلسطين وقضيّة ومحنة شعبها، ومصير القدس والمقدّسات، ارتبط بإَسم كمال جنبلاط منذ مولده إلى سنوات نضاله وكفاحه، إلى أن اصطفاه الله شهيدًا لفلسطين وللبنان وللعرب وللإنسانية في أسمى وأبقى شعاراتها ورموزها: الحرّية والديمقراطية والتوحيد والكرامة الإنسانية.

ـ مرحلة المتغيّرات والفواجع

المرحلة التي امتدّت من سنة ١٩١٧ وحتّى سنة ١٩٢٥، أي عند بلوغ كمال جنبلاط السنة الثامنة من العمر، شهدت الأحداث الجسام على الصعيد الوطني اللبناني والعربي. كما يمكن أن تُسمَّى مرحلة الفواجع والحظّ السيء جدًّا بالنسبة لكمال جنبلاط ولعائلته ولدار المختارة.

انهارت السلطنة العثمانية بعدما خسرت الحرب. وسارعت دول أوروبا إلى محاولة ملء الفراغ. فأصبحت فرنسا دولة منتدية على لبنان وسوريا، وبريطانيا دولة منتدية على فلسطين والأردن والعراق ومصر والسودان، وأُنشئت كيانات ودول في المنطقة.

فؤاد جنبلاط والد كمال كان وشقيقه عليّ ولدي نجيب بك. كان فؤاد بك معتدل القامة، أسمر البشرة ذا نظرة ثاقبة، تميّز بالصرامة والشدّة وحدّة الانفعال. يروي معاصروه أنه كان ثابتًا على مواقفه حازمًا في قراراته، مصرًّا ومواظبًا على السير بوضوح نحو أهدافه، ما جعله موضع احترام وتهيّب بني قومه. كرّس حياته القصيرة لخدمتهم، وتميّز بالصراحة والنزاهة والعدل بين الناس.

كان فؤاد بك مولعًا بالسلاح والخيل، له اسطبله الخاصّ، فاشتهر بأنه فارس لا يُشَقُّ له غبار. تقاسم فؤاد مع شقيقه علي إدارة شطري الشوفين، لكنّ عليّ استقال عام ١٩٠٦ وغادر المختارة إلى بيروت تاركًا إدارة الشوفين لأخيه فؤاد.

عام ١٩١٩ عيّنت سلطات الانتداب الفرنسي فؤاد بك قائمقامًا للشوف فاكتسب نفوذًا واسعًا في المختارة وبين بني قومه التي للمختارة الكلمة الأولى والحاسمة في أوساطهم.

وبعدما أنجبت له زوجته الستّ نظيره ولدًا صبيًّا هو كمال صارت هي تعتبر السيِّدة الأولى في قسم الحريم في دار المختارة.

تسلّم فؤاد جنبلاط مهامه كقائمقام للشوف، والبلاد تغلي ومشاعر الناس تعارض الوصاية الفرنسية على لبنان، وتقول كتب التاريخ، ولعلّ أبرزها كتاب الدكتور حتّي "تاريخ لبنان" أنَّ الرئيس الأميركي ولسن أرسل صيف سنة ١٩١٩ لجنة تقصّي حقائق عرفت بلجنة (كينغ ـ كرين) لإجراء استفتاء عام بين رعايا الإمبراطورية العثمانية السابقة. وقالت اللجنة في تقريرها أنَّ غالبية الموحّدين الدروز والسنّة والشيعة والأرثوذكس والبروتستانت قالوا بوحدة بلاد الشام وبتأييد الوحدة مع سوريا وإقامة وصاية بريطانية عليهم... كما أكّدوا تفضيلهم الانفصال عن لبنان في حال إعطاء فرنسا حقّ الانتداب والوصاية عليه.

وأيّدت الانتداب الفرنسي فئة قليلة من الموحّدين الدروز وأيّده الموارنة بالتأكيد، وقد تمثّل الدروز في مؤتمر الصلح الذي انعقد في باريس خلال شهر آذار من سنة ١٩٢٠ بالأمير توفيق أرسلان والموارنة بإميل إدّه والشيخ يوسف الجميّل وتزعّم البطريرك الماروني الياس الحويك قيام دولة لبنان الكبير تحت الوصاية الفرنسية. وأيّدت غالبية أعضاء مجلس إدارة جبل لبنان فكرة تأسيس "لبنان الكبير" على أن يكون مستقلاًّ وليس تحت الانتداب. وفي العاشر من شهر تموز سنة ١٩٢٠ أقرّ مجلس الإدارة، الذي مثل الموحّدين الدروز فيه كلّ من محمود جنبلاط وفؤاد عبد الملك، قرارًا بغالبية أعضائه يطالب بمنح لبنان الاستقلال التامّ ويؤكّد على ضرورة تنسيق الجهود مع حكومة فيصل العربية.

ـ إعلان لبنان الكبير

يوم الأول من أيلول سنة ١٩٢٠ أعلن المندوب السامي الفرنسي الجنرال غورو من قصر الصنوبر في بيروت تأسيس دولة "لبنان الكبير". كان يقف إلى يمين غورو البطريرك الماروني إلياس الحويك، وإلى يساره مفتي بيروت للطائفة السنّية الشيخ مصطفى نجا، وحولهم وأمامهم وقف السياسيون اللبنانيون والدبلوماسيون والوجهاء.

ولقد نصّ مرسوم إنشاء دولة "لبنان الكبير" على أن تضمّ سنجق جبل لبنان، الذي كان يتمتّع بالاستقلال قبل الحرب العالمية الأولى، ومع السنجق ضمّت الدولة الجديدة موانئ بيروت وطرابلس وصور وصيدا ووادي البقاع ومنطقتي راشيا وحاصبيا الممتدتين من

سفوح حرمون إلى حدود فلسطين، أي أُعيدت إلى دولة لبنان كلّ الأقضية التي كانت قد سُلخت عنه في مرحلة سابقة من التاريخ.

لكن الصراع الفرنسي الإنكليزي على النفوذ دخل على الخطّ منذ ما قبل تاريخ إعلان «لبنان الكبير». فكان ما زال ماثلاً في الأذهان أنَّ الإنكليز أيّدوا الموحّدين الدروز في أحداث ١٨٤٠ ـ ١٨٦٠ وأنَّ الفرنسيين وقفوا إلى جانب الموارنة لدرجة أنهم أوفدوا قوّة من جيشهم لإعادة وتثبيت المهجّرين المسيحيين في بلدات الجبل وقراه. هذا عدا أنَّ معظم المناطق أو الأقضية والمدن التي ضمّت إلى جبل لبنان، الماروني بغالبيته هي إسلامية المنشأ. لذا استقبل أهاليها إعلان قيام الدولة اللبنانية أو ما سمّي «لبنان الكبير» تحت وصاية الانتداب الفرنسي بترقّب وحذر إن لم نقل بسخط وغضب وعدم رضى في كلّ الأحوال. وكان هذا بالتأكيد موقف معظم الموحّدين الدروز خصوصًا وأنهم كانوا في ظلّ الإمبراطورية العثمانية يتمتّعون بالاستقلال الذاتي وبالإعفاء من الضرائب والخدمة العسكرية.

وكانت الأحداث والتحرّكات الشعبية المناوئة للفرنسيين قد بدأت قبل إعلان الدولة اللبنانية. ففي ٢٤ تموز ١٩١٩ جرت محاولة لاغتيال أول مندوب سام فرنسي ويدعى جورج بيكو عندما أطلقت عليه النار في بلدة بعقلين. واندلعت في الوقت عينه انتفاضات مسلّحة لمقاومة الفرنسيين في مناطق عديدة من جبل عامل جنوبًا حتّى سفوح جبل العلويين شمالاً وبعد أقل من شهر على ظهور سنغاليين وجزائريين بنيران عسكرية فرنسية في ثكنة بيت الدين حصلت اضطرابات واشتباكات دموية في بلدة مزرعة الشوف أحرقت خلالها سلطات الاحتلال عددًا من المنازل فيها. ومزرعة الشوف، كما هو معروف، قريبة من المختارة معقل زعامة آل جنبلاط...

* * *

مصرع فؤاد جنبلاط
وصعود نجم الستّ نظيرة

اتّبع الانتداب الفرنسي نمطًا خاصًا في التعامل مع الموحّدين الدروز وحاول استمالة العديد من عائلاتهم وذوي النفوذ من بينهم وذلك عن طريق تعيين أبناء الأعيان المتعلّمين والنافذين في المناصب الإدارية.

ومن هنا نفهم أسباب تعيين فؤاد جنبلاط قائم مقامًا للشوف، ودوافع قبول فؤاد بك بهذا المنصب وبهذا التعيين. فمنصب القائم مقام يوفّر له الظروف والإمكانات للحفاظ على زعامة آل جنبلاط بين بني قومهم ومحازبيهم وللتخفيف، ما أمكن، من الأضرار والحيف الذي يمكن أن يلحق بهم من تصرّفات حكّام الانتداب وجنرالاته. لذا تقبّل أنصار آل جنبلاط قبول فؤاد جنبلاط بمنصب القائمقامية بالترحيب والارتياح. اتّخذ فؤاد بك من سراي بعقلين مقرًّا رسميًّا له وحاول أن ينشر الأمن والعدل بين أبناء قائمقاميته ما سمحت له الظروف والأحوال بذلك.

كان الفرنسيون قد حسموا معركة ميسلون التي قادها وزير الدفاع في حكومة فيصل الأول يوسف العظمه لمصلحتهم. ففي ٢٤ تموز ١٩٢٠ وفي أيام تلت قتل كلّ المهاجمين المنتفضين على الانتداب الفرنسي وسحقت الانتفاضة... لكن نهاية سنة ١٩٢٠ شهدت انتفاضة سورية جديدة ضدّ الفرنسيين ما بين حلب والإسكندرونة قادها ابراهيم هنانو واستمرّت أشهرًا وحقّقت نجاحات معروفة الأمر الذي انعكس على الأهالي في منطقة الشوف والجبل، وعلى الأخصّ بعدما دخلت قوّات فرنسية في حزيران ١٩٢١ قلعة السويداء ورفعت العلم الفرنسي عليها. وأخذت الاضطرابات والقلاقل في منطقة الشوف تتّسع وتقوى فحدثت هجمات عدّة على المخافر العسكرية الفرنسية وانتشرت عمليات التخريب وإشعال الحرائق... وذاع صيت واحدة من هذه المجموعات بقيادة شكيب وهّاب من بلدة غريفة... وتفاوتت نظرة المؤرّخين إليها فثمّة من أطلق عليها اسم مقاومة للانتداب الفرنسي بتحريض من الإنكليز، وهناك من وصفها بالعصابات وحركات الشغب... لكن

في مطلق الاحوال لم يغب الطابع اليزبكي ـ الجنبلاطي عن الصراع والنزاعات والقلاقل التي حدثت في منطقة الشوف أو الشوفين كما كان يطلق عليهما.

كان القائم مقام فؤاد جنبلاط قد عيّن شخصًا يدعى يوسف كسبار آمرًا لسرية الشرطة لديه. لكن الضابط الذي كان الأقرب إلى فؤاد بك والذي كان يرافقه في كلّ تحرّكاته هو من دير القمر ويدعى رشيد عيد البستاني، وهو شقيق مطران الموارنة الذائع الصيت أوغسطين البستاني ووالد المناضل الصديق فيليب البستاني الذي ترشّح للانتخابات النيابية في العام ١٩٥٤ وشارك في ما بعد في انتفاضة أو ثورة عام ١٩٥٨ مع العشرات من الشباب المسيحي من أصدقائه وأنصاره في دير القمر والجوار. ولقد قال كمال جنبلاط في رثائه لفيليب البستاني الذي اغتيل أمام منزله في دير القمر ليلة عيد الميلاد من أوائل ستينات القرن العشرين، قال إنَّ والده فؤاد جنبلاط لفظ أنفاسه الأخيرة بين يدي صديقه وأخيه رشيد عيد البستاني. واستمرّت هذه العلاقة الوطيدة بين دار المختارة وآل عيد البستاني أيام الستّ نظيرة وكمال جنبلاط.

وفي عودة إلى أحداث العام ١٩٢١ فإنَّ القائم مقام فؤاد جنبلاط قدّم استقالته إلى الحاكم الفرنسي في جبل لبنان في مطلع شهر آب من ذلك العام. وكان الحاكم يصطاف في بيت الدين ويلحّ على فؤاد بك اتّخاذ أقصى وأقسى الإجراءات لوقف الاضطرابات والقضاء على المشاغبين. وعلّق كمال جنبلاط على استقالة والده فقال لنا أنها لم تكن تهرّبًا من المسؤولية بل حقنًا لسفك الدماء بين أبناء الصف الواحد وعلى الأخصّ بين عائلات وبلدات بني معروف في منطقة الشوف.

جمع فؤاد جنبلاط أوراقه وأغراضه الخاصّة في سراي بعقلين بعد تقديم الاستقالة، وفي الخامس من آب نقل حاجياته الخاصّة من بعقلين إلى المختارة. لكنّه فوجئ عند وصوله إلى المختارة بنبأ يقول أنَّ جماعة شكيب وهاب قتلت مختار بلدة الزعرورية في وادي عينبال، وكان المختار مسيحيًّا فتوجّس فؤاد بك من الذيول والانعكاسات فطلب إرجاء قبول استقالته لفترة محدودة.

صبيحة السادس من آب ١٩٢١ حضر فؤاد بك إلى الساحة أمام سراي بعقلين، وكان أهالي البلدة قد تجمّعوا هناك بعدما أقلقهم وأثار خواطرهم مقتل مختار الزعرورية المسيحي...

وانقسم الرأي بين الحضور والضبّاط: آمر سرّية الشرطة يوسف كسبار، الذي اتّسم بالعصبية والمزاجية، أصرّ على التوجّه فورًا إلى مكان الحادث في وادي عينبال ـ غريفة. لكن الضابط الأقرب إلى فؤاد بك رشيد عيد البستاني تمنّى عليه (وفق ما روى لي ولداه فيليب وجميل) أن لا يتصدّر الحملة وأن يترك لرجال شرطته أمر مطاردة العصابة وتطويقها ومعالجة الأمر بوسائلهم المتاحة... لكن شهامة فؤاد بك جنبلاط أبت عليه إلاَّ أن يتصدّر المواجهة وما أن ظهر وهو على صهوة جواده في وادي عينبال حتَّى أطلق أفراد العصابة النار فأصيب في صدره وسقط أرضًا ولفظ أنفاسه الأخيرة...

واختلف الرواة والمؤرّخون في شرح أسباب مقتل فؤاد جنبلاط. فمنهم من قال إنَّه أصيب بالخطأ ومنهم من ذكر أنَّ شكيب وهاب تعمّد قتله تنفيذًا لأوامر خارجية كان قد تلقّاها... وتتّصل على الأرجح بالصراع الإنكليزي الفرنسي على النفوذ في سوريا ولبنان والمنطقة العربية.

كان كمال جنبلاط في الرابعة من سنّي عمره عندما فقد والده فؤاد بك اغتيالاً. ووقف الفتى الصغير يراقب من نافذة في إحدى غرف دار المختارة مراسم التشييع التي شارك فيها أبرز السياسيين عهدذاك وحاكم لبنان الفرنسي وحاكم منطقة الشوف ورجال الدين من مختلف الطوائف والمذاهب، وحشود من مختلف المناطق اللبنانية. ومنحت الدولة الفرنسية الفقيد الشهيد وسام فرنسا فتمّ تعليق الوسام على صدر قميص ولده الوحيد كمال... وسط تصفيق الحضور وهتافاتهم، لكن لم ينته الاحتفال إلى مبايعة أحد من ذكور آل جنبلاط بالزعامة كما تجري العادة وتقضي التقاليد، فقد كانوا قصرًا... إلاَّ أنَّ عيني الوالدة الستّ نظيرة كانت شاخصة إلى ولدها كمال الذي ترى فيه الزعيم والوريث.

كانت الستّ نظيرة في الثانية والثلاثين من سنّي عمرها عندما اغتيل زوجها فؤاد بك الذي خلفه في القائمامية شقيقه علي لكنّ علي عاد واستقال من منصبه عام ١٩٢٣ وغادر المختارة وسط فراغ ملفت في كرسي الزعامة الجنبلاطية... فاضطرّت الستّ نظيرة، وللمرّة الأولى في تاريخ بني معروف، أن تتقدّم إلى ملء فراغ الزعامة وسط ترقّب وحيرة المناصرين، وابتسامات ولمزات الأخصام والشامتين... وكان همّ الستّ نظيرة أن تنجح وأن تبقى دار المختارة حاضرة ومفتوحة لاستقبال سيِّدها وزعيمها كمال جنبلاط.

كتب إيغور تيمو فييف في صدر الصفحة ٢٧ من كتابه: "كمال جنبلاط: الرجل

والأسطورة» ما حرفيته: "يقول الدروز أنَّ مصيبة الموت هي كالصابونة الكبيرة تذوب بمر الزمن حتَّى تزول دون أن يلاحظها أحد ومن المستبعد أن يتذكّر كمال جنبلاط الذي لم يكن بلغ الرابعة من العمر صيف ١٩٣١ مشهد تشييع والده إلى مثواه الأخير. ولعلّ صورة فؤاد بك ارتسمت في ذاكرته وفقًا لأحاديث الأقارب وليس من انطباعات الطفولة الحيّة".

وقال الشاعر العربي:

لا يدرك الشوق إلاَّ من يكابده		ولا الصبابة إلاَّ من يعانيها

فكيف إذا كان الشوق ممزوجًا مع مرارة الألم والأسى لفقد حنان أمّ أو افتقاد مهابة والد، أو الحنين إلى رحيل أخوة هم أجنحة المرء وخلاّنه؟ وقال الناس ويقولون: المصيبة تجمع وتقرّب ما بين المصابين.

ولعلّ ذلك ما جمعني أكثر وما قرّبني أكثر فأكثر إلى كمال جنبلاط.

ولدت أنا عام ١٩٣٦ في الدامور وطبول الحرب العالمية الثانية تقرع. وما أن بلغت السادسة من سنّي عمري، أي عام ١٩٤٢، حتَّى قُدِّرَ لي أن أشهد فصولاً من حروب الآخرين على أرضنا أو ما كان كمال جنبلاط يسمّيه «لعبة الأمم» التي لا تنتهي بل غالبًا ما تتبدّل فيها الأسماء والمواقع والأهداف. خلال عام ١٩٤٢ انقسمت جيوش الحلفاء المتواجدة على أرض لبنان على نفسها: قسم والى حكومة فيشي بقيادة الماريشال بيتان، وهي الحكومة التي تحالفت مع النظام النازي في ألمانيا بقيادة أدولف هتلر وارتضت الاحتلال الألماني لفرنسا، وقسم والى الجنرال شارل ديغول قائد المقاومة الفرنسية في المنفى أولاً، وعلى الأراضي الفرنسية في ما بعد، وناصره.

وقُصفت بلدتنا الدامور من البحر، فاضطرّ الأهالي إلى النزوح، خصوصًا وأنَّ معارك بالسلاح الأبيض جرت أحيانًا في بعض بيوتها وشوارعها وسقط فيها قتلى وجرحى. غالبية الأهالي قصدت القرى المجاورة ومنها: بعورته ودقّون وكفرمتى وعبيه ووصف شاعر زجلي داموري معاناة النازحين فقال:

دقّون بلدة عمراني وسكّانا ملاح		إن هشلنا هَشلة ثاني بتزرع تفّاح

أمَّا قدرنا نحن فكان أن نتوجّه إلى بلدة المطلّة في قضاء الشوف حيث لواحد من أعمامنا أصدقاء وأصحاب. لكن المعارك لاحقتنا وسقطت أكثر من قذيفة على المطلّة

وجوارها أصابت شظايا واحدة منها إحدى بنات عمّتي فنقلت إلى مستشفى ميداني في بيت الدين للعلاج. ووصلت أخبار القتال إلى بيروت حيث يقيم جدّي وجدّتي لوالدتي مع العائلة. وكان خالي الأكبر نسيب المتني يعمل عهدذاك في جريدة «البيرق» لآل عقل، وكانت مطبعة «البيرق» ومكتبها مجاورين لساحة الدبّاس حيث مواقف السيارات التي تنقل الركّاب من الشوف وإليه. فاتّفق مع سائق عمومي من بلدة عينبال على أن يتوجّه إلى المطلّة لنقلنا إلى بيروت للإقامة عندهم، وهكذا حصل. السيّارة من نوع فورد (أبو دعسة) كما كان يطلق عليها، سطحها من الجلد وليس من المعدن.

استقلّينا السيّارة وكنّا حوالي عشرة وربّما أكثر بين كبار وأولاد فاتّجهت بنا نحو بيروت عن طريق بعقلين ـ دير القمر فالمناصف فجسر القاضي فالشويفات إلخ. وعندما وصلنا إلى بلدتي كفرفاقود وبشتفين أطفأ السائق محرّك السيّارة توفيرًا للبنزين الذي كان مادّة نادرة وغالية الثمن... وسار على «البومور» كما يقولون أو على الـ Point mort كما يقال بالفرنسية، وعندما وصلت السيّارة إلى أحد المنعطفات حاول السائق استعمال المكابح (الفرام) فلم تعمل فانقلبت السيّارة بمن وبما فيها من جلّ إلى جلّ... قذفت بعض ركّابها في الجلّ الأول والثاني، وكنت أنا منهم، فأصبت بجراح بالغة في رجلي، وظلّت السيّارة تنقلب إلى أن استقرّت على ظهرها... وهو من الجلد كما أسلفنا، فسارع بعض الأهالي إلى نجدتنا، وبنو معروف مشهورون بالنخوة والشهامة...

وكان علينا أن ننتظر حوالي ساعتين حتّى حضرت شاحنة تابعة للجيش الفرنسي لنقلنا إلى المستشفى في بيروت. كان للشاحنة في صندوقها «رفوفًا» خشبية من الجهتين، مدّدونا عليها وربطونا بأحزمة خاصّة. كان فوقي على أحد الرفوف شقيقي البكر الياس وكان طوال الطريق ينزف دمًا يتساقط عليّ... وعندما وصلنا إلى مستشفى قلب يسوع الفرنسي في خندق الغميق في العاصمة بيروت كان ثلاثة من عائلتنا قد توفّوا وهم: والدتي وشقيقي البكر الياس وشقيقة تكبرني اسمها إيزابيل ثمَّ لحق بهم الأخ الأصغر ولم يكن له من العمر سوى بضعة أشهر... وكان بيننا جرحى بين درجة الخطورة والكسور والجراح المتوسّطة ومن بينهم أنا...

مشهد تشييع أمّي وإخوتي ظلّ ماثلاً في ذهني ليل نهار لفترة من الزمن... كان ذلك في شهر حزيران من العام ١٩٤٢.

وعندما دخلنا المدرسة، مدرسة القلبين الأقدسين في الدامور، مطلع تشرين الأول سمعني بعضٌ من رفاقي وأنا أتحدّث إليهم في ملعب المدرسة وأقول: هل الله موجود؟ وإذا كان الله موجودًا فهل هو عادل؟ وإذا كان عادلاً فكيف يتركني يتيمًا ويحرمني حنان الأمّ ومحبّة الإخوة والأخوات؟ فشكاني أحدهم إلى الراهبة المسؤولة، وكانت في أواسط عمرها ومن بلدة الحدث ـ بيروت على ما أذكر. استدعتني الراهبة إلى مكتبها وربتت على كتفي وقبّلتني في جبهتي ثمَّ قالت: يا ابني الروح، لا تموت بل تبقى حيّة. وأرواح أمّك وإخوتك ترفرف فوقنا في الأجواء، فصلّ من أجلهم تنشأ بينك وبينهم شراكة روحية، ويصلّون هم من أجلك فتوفّق في حياتك إلى أن يأذن الله فتلتحق بهم إلى السماوات العليا... ومن يومها صرت أُصلّي كلّ يوم لأجل أمّي وإخوتي وما زلت، وكنت أشعر أنَّ روح أمّي تواكبني في كلّ ما أقوم به وأفعله في حياتي.

وكما تحوّل كمال جنبلاط إلى طفل صامت معظم الوقت، منطوٍ على نفسه، قليل الضحك والابتسام، يفضّل العزلة والتأمّل على الاختلاط والمزاح ومشاركة الأصحاب والأتراب اللعب والضحك... هكذا نشأت أنا... وكنّا، كمال بك وأنا، كلّما التقينا سويّة، في جلسة مكاشفة ومراجعة، نسأل ونتساءل: لماذا قدر عائلته هو أن لا يموت كبارها وعناوينها في فراشهم والأسرّة؟ ولماذا وإلى متى تبقى حروب الآخرين على أرضنا فندفع نحن الأثمان من حياتنا ومقتنياتنا وأعصابنا. وكان هو يستسخف ويستهول النزاعات والحروب والأحقاد المستمرّة المتنقّلة ويردّد كلمات قالها شاعر الهند طاغور ونصها: "هذا العمر أقصر من أن نستخدمه لنحبّ فكيف لنكره؟".

حدّثني مرّات عن مصرع والده وعن حفل تشييعه وعن الوسام الفرنسي الرفيع الذي عُلِّق على صدره وهو لم يبلغ بعد الخامسة من سنّي عمره...

وذكر أنه كان يستفيق أحيانًا خلال الليل على حلم مزعج أو على كابوس غير مريح... حتَّى أنه وخلال ليلة من ليالي سنة ١٩٢٥، وكان قد بلغ الثامنة من العمر، استيقظ ليلاً على ضجيج غير معتاد فمضى نحو الباب على أطراف أصابعه ففوجئ بوجود مسلّحين في رواق غرفة النوم فخشي سؤ المصير... لكن هؤلاء الرجال ولما رأوا الطفل المرتعب قالوا له: لا تخف، نحن حرّاسك... السيِّدة الفاضلة والدتك تؤيّد الفرنسيين، ولذا فهي تخشى عليك... ولم يغمض لكمال جنبلاط جفن تلك الليلة، بل استمرّ صاحيًا حتَّى الصباح...

وما أن جاءه وكيل دار المختارة عهدذاك الشيخ بشير أبو حمزه حتَّى سأله: لماذا تؤيّد الماما فرنسا والفرنسيين؟

ابتسم الشيخ بشير للصبي الحائر المتسائل أبدًا، وكان الصمت والملاطفة هو الجواب... كان وكيل الدار يعرف ما يجري ويدور ومنه أنَّ الستّ نظيرة تلقّت قبل أيّام رسالة من مجهول تضمّنت تهديدًا بالبطش والتنكيل إذا هي استمرّت في التعاون مع الفرنسيين... فبادرت إلى تشديد الحراسة على ولديها كمال وليندا داخل القصر ليل نهار، إضافة إلى المخفر الدائم عند بوابة دار المختارة الذي أمر حاكم الشوف الفرنسي بإقامته...

كان صيف العام ١٩٢٥ قد شهد اندلاع الانتفاضة الكبرى في جبل الدروز جبل العرب ضدّ الفرنسيين، وقاد الانتفاضة الزعيم المهاب سلطان باشا الأطرش واستولى الثوّار على جبل العرب خلال أيام. وفي ٣ آب سنة ١٩٢٥ دحر الثوّار بالكامل القوّات التأديبية التي أرسلتها السلطات الفرنسية إلى المنطقة بقيادة الجنرال ميشو وزاد تعدادها على الثلاثة آلاف جندي. وبسرعة البرق، كما يقال، انتشر الخبر في أنحاء سوريا فبدأت فصائل الأنصار تتشكّل في مناطق عدّة. واتّسع نطاق الثورة حتَّى شمل سوريا بأسرها. وانضمّ إلى حكومة سلطان باشا الأطرش التي أعلنت في جبل الدروز زعماء الحزب الشعبي السوري (حزب الوطن) وعلى رأسهم الدكتور شهبندر بعدما فرّوا من دمشق إلى الجبل. وفي تشرين الأول سنة ١٩٢٥ انضمّ إلى الثورة دروز إقليم البلاّن ووادي التيم على سفوح جبل الشيخ (جبل حرمون) بين سوريا ولبنان. وترأّس المفارز المقاتلة في الأراضي اللبنانية زيد الأطرش الأخ الأصغر لسلطان باشا. ثمَّ توسّعت رقعة الاشتباكات بحيث تمكّنت المفارز المؤيّدة للثورة بقيادة زيد الأطرش في نهاية تشرين الثاني ١٩٢٥ من احتلال راشيا وحاصبيا وحصلت بعض التجاوزات طالت المسيحيين في بلدة كوكبا الواقعة قرب حاصبيا ومرجعيون الأمر الذي شجّع سلطات الانتداب على محاولة تحويل النزاع إلى فتنة طائفية فاعلن عن تشكيل كتائب المتطوّعين المسيحيين في لبنان بقيادة بطرس كرم نسيب يوسف بك كرم الذي تزعّم المتطوّعين المسيحيين إبّان أحداث سنة ١٨٦٠ بين الموارنة، والموحّدين الدروز. وهي سياسة وتوجّه كلّ مستعمر: "فرّق تسد".

أمَّا في منطقة الشوف فقد سادتها موجة تعاطف وتأييد للثوار واحتشدت في منطقة بعذران جماعات مسلّحة من الدروز المتأهّبين لمساندة ثورة سلطان باشا الأطرش، وبدا ذلك

طبيعيًّا وعفويًّا ومنطقيًّا فبنو معروف عرفوا بالتضامن والتآزر والنخوة وتوحيد الصفوف. ولجأت سلطات الانتداب الفرنسي إلى حملات تنكيلية تأديبية في المقابل، وحاولت إثارة النعرات الطائفية وتأجيجها... ثمَّ جرّدت حملة عسكرية للزحف على بعذران واحتلالها، إلاَّ أنَّ الستّ نظيرة جنبلاط أوقفتهم عند مشارف المختارة وأجرت محادثات مع الضابط الفرنسي الذي يقود القوّة وتمكّنت من إقناعه بعدم جدوى إراقة الدماء واللجوء إلى الحلّ العسكري... ووعدته بأن تبذل أقصى جهودها لتخفيف التوتّر في بعذران ومنطقة الشوف وإحلال السلام والنظام بطرقها ووسائلها الخاصّة.

وبفضل حكمة الستّ نظيرة ولباقتها وديبلوماسيتها تمكّنت من تجنيب منطقة الشوف مجزرة يسقط فيها العشرات من القتلى وتمتدّ نيرانها وذيولها إلى أكثر من بلدة وقرية وربَّما منطقة... فهي لم تكن يومًا ضدّ الثورة والثائرين ضدّ الانتداب الفرنسي، بل ربَّما كانت متعاطفة معهم، لكنّها وبروح المسؤولية التي أُلقيت على عاتقها، عملت على تجنيب بني قومها الويلات والنكبات، ومنطقة الشوف نزاعًا طائفيًّا قد يمتدّ إلى مناطق أخرى...

من هنا تمكّنت الستّ نظيرة من تأكيد زعامتها وفرض شخصيتها على الجميع: الأنصار والمحبّذين والمحافظين والمتحفّظين في الأوساط الدرزية، وعلى سلطات الانتداب التي وجدت فيها المرجعية العاقلة الحكيمة التي تحسن التعاطي مع الناس وتنجح في حفظ حقوقهم وكسب احترامهم ومودّتهم وولائهم لدار المختارة بحيث يسهّل ترتيب الأمور على الوجه المطلوب. وتحوّلت دار المختارة إلى مرجعية أساسية في حكم لبنان وإدارة شؤونه بحيث أصبح يقال إنَّ لبنان يحكم بواسطة مرجعيتين: بكركي، مقرّ البطريركية المارونية والبطريرك الماروني الياس الحويك، ودار المختارة مقرّ الزعامة الدرزية ومعقل الستّ نظيرة جنبلاط.

ـ الذهاب إلى المدرسة وتحصيل العلم والمعرفة

كان كمال جنبلاط قد بلغ العام التاسع من سنّي عمره عندما قرّرت والدته الستّ نظيرة إرساله إلى مدرسة الآباء اللعازاريين في بلدة عينطورة الكسروانية، وكانت تربطها علاقات صداقة برئيس المدرسة ومديرها الأب إرنست سارلوت. كان ذلك في نهاية صيف سنة ١٩٢٦ عندما بدأت تتأكّد وتتوضّح دلائل هزيمة الانتفاضة التي قادها سلطان باشا

الأطرش، وتتصاعد في نفس الوقت حدّة التوتّر في منطقة الشوف والجبل، وتتزايد هواجس الأخطار التي تتهدّد العائلة الجنبلاطية وكمال جنبلاط في الطليعة والمقدّمة...

وهكذا كان، ففي مطلع تشرين الأول من تلك السنة انطلقت سيّارة العائلة من دار المختارة فجلس كمال بك في مقعدها الخلفي وامتلأ صندوق السيّارة بحقائب ثياب وحوائج وارث دار المختارة وزعيمها المنتظر. في المدرسة الداخلية حيث ينام التلامذة فيها ويأكلون ويشربون انتقل كمال جنبلاط من جو إلى آخر ومن مناخ إلى آخر. ففي المدرسة نظام صارم يقضي بالنهوض عند الخامسة من صباح كلّ يوم. وفي السادسة والنصف يتوجّه التلامذة إلى كنيسة القدّيس يوسف الأثرية في المدرسة وكانت قد شيدت سنة ١٨٩٢. وبعد تناول فطور خفيف تبدأ الدروس في السابعة والنصف وتمتدّ حتَّى الظهر. وكان نظام المدرسة يشدّد على أن يكون الحوار والمحادثة بين التلامذة في ساعات الفراغ والفرص باللغة الفرنسية وحدها... وكانت ساعات الدراسة تستمرّ حتَّى المساء.

سرعان ما انخرط كمال، سليل الزعامة الجنبلاطية، في أجواء المدرسة ومناخاتها وتأقلم مع موجبات النظام والمثابرة على الدروس والحفاظ على النظافة وروح الأخوّة والمحبّة التي تسود علاقات التلامذة بعضهم ببعض... وراح ينتقل من صفّ إلى صفّ جديد مع إطلالة كلّ عام دراسي، مع تفوّق ملحوظ في مواد الدروس كافة، وتقيّد كامل بالأنظمة وموجبات الزمالة.

لكن رفاق الدراسة والصفّ واللعب واللهو شهدوا بالإجماع أنَّ كمال كان يفضّل العزلة والتأمّل والانطواء على ذاته، والمطالعة والتحليل والمقارنة، الأمر الذي أدهش أساتذته ورفاق الصفّ والدراسة في آن... وكان يتحلّى بذاكرة تتيح له حفظ قصائد شعرية بكاملها بسرعة فائقة وإتقان في اللفظ والحفاظ على سلامة تأديتها بحركاتها وتلاوينها، كما على حفظ وتذكّر مقاطع نثرية طويلة أحيانًا. وبدا منذ نشأته وشبابه أنه طالب علم ومعرفة ليس لما هو ظاهر للعيان وحسب، بل لما هو باطن وكامن في ما وراء الأشياء والأحداث والأديان والطوائف والمذاهب. وبكلمة كان ينشد الحقيقة ويتوسّل كلّ ما يساعده ويمكنه من الوصول إليها وكنه مندرجاتها وتلاوينها والمقدّسات...

وعزا كلّ من عرفه أو عاشره أو شاركه أطراف الحديث وشؤونه وشجونه هذا الميل إلى الانطواء والتأمّل والبحث والمطالعة إلى انعكاسات وترسّبات مرحلة الطفولة من حياته

التي بدأت بفقدانه لوالده بالقتل والاغتيال، ثمَّ بعيشه خلال المرحلة التي تلت في دار المختارة وسط الأخطار والهواجس بأن يلقى مصير الوالد حتَّى وهو طفل... وتلك لعمري حالة تستدعي الكثير الكثير من التوقّف عندها والتفكّر بها وبدلالاتها وبمعانيها ومغازيها. وإلى جانب شغفه بالماورائيات وبالصوفيّة والتصوّف والزهد بمغريات الحياة ـ الدنيا كان يشدّد على ضرورة العناية والاهتمام بالجسد على قاعدة أنَّ العقل السليم هو في الجسم السليم، وأنَّ الإنسان يفكّر أحيانًا ويتصرّف وفق النظام الغذائي الذي يتبع ويعتمد، لذا انتسب إلى الكشّافة في شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٧. ووفّر له انتسابه إلى الكشّافة المزيد من الفرص للتجوّل في الطبيعة ولتأمّل مفاتنها وجمالاتها وأسرارها وربَّما أتاح له مجالات للتأمّل والتبحّر والاختلاء بالذات.

صيف ١٩٣٦ أنهى كمال جنبلاط دروسه في منهجي الدراسة الثانوية الفرنسي واللبناني وحصل على شهادة البكالوريا في العلوم والآداب بتفوّق. وتكوّنت ملامح شخصية الشاب الفكرية والروحية والسجايا الملازمة لها: الحياء والانطوائية والتأمّل والمثالية وتوق كبير إلى خدمة الإنسانية المعذّبة والتخفيف من آلامها، لذا فكّر جدّيًا في دراسة الطبّ. وفي الوقت عينه بدأت تتّضح في كمال بك ملامح شخصية تفرض المهابة والاحترام وتتوق إلى القيادة والزعامة إنَّما من خلال رؤية جديدة ونمطٍ عصري علمي حديث، فراح يشارك في منتصف الثلاثينات في الكتابة بمجلّة «المعرض» لصاحبها النائب والوزير في ما بعد ميشال زكور... حتَّى أنه وخلال سنة ١٩٣٧ أصدر في عينطورة مجلّة مخطوطة بعنوان «لاريفو» أي (المجلّة)، وذلك اقتداء بالمجلّة الفرنسية المعروفة عهد ذاك «لاريفو دو موند» أي (مجلّة العالم).

ويقول زملاء الدراسة الذين تحلّقوا حوله في ندوة أدبية كانوا يتناوبون خلالها على إلقاء الشعر وارتجال كلمات نثرية إنَّه كان يلقى منهم كلّ احترام، ليس لأنه ابن جنبلاط وحسب، بل لما كان يتحلّى به من مهابة وتهذيب وتواضع وتقشّف في الحياة اليومية. وأنَّ كمال جنبلاط كان يرفض مقولة النسب والحسب في تحديد شخصية الإنسان وحسب أو في نظرة الآخرين إليه، وقد عكس نظرته هذه في ما بعد في واحد من شعارات الحزب التقدّمي الاشتراكي: «لا ميزة لامرئ على آخر إلاَّ ميزة المعرفة والنشاط». وكثيرًا ما كان يردّد قول الشاعر:

لا تقل أصلي وفصلي أبدًا   إنَّما أَصلُ الفتى ما قد حصل

عام ١٩٣٦ كانت دار المختارة تعجّ بالزوّار من مختلف الطوائف والمذاهب فسفرة الستّ نظيرة ممدودة معظم الأيام، وعامرة بأطايب المأكولات وأصناف المطبخ اللبناني الغني والمتنوّع. وكان زوّار القصر من علية القوم ومنهم الأدباء والشعراء، كالشاعر المعروف أحمد تقي الدين، والشاعر الوطني شبلي الملاّط الذي عرف بلقب « شاعر الأرز ». واصطحب الملاّط معه ذات يوم نجله وجدي الذي كان قد تخرّج من معهد الآباء اليسوعيين وقام بتعريفه إلى كمال بك فنشأت بينهما صداقة ومودّة وشبه إخوّة رافقتهما طوال العمر وجعبة وجدي، الذي صار في ما بعد نقيبًا للمحامين وعرّابًا لشارل الحلو في زياراته لكمال جنبلاط خلال فترة نهاية عهد فؤاد شهاب وانتخاب الحلو رئيسًا للجمهورية؛ ثمَّ عُيِّن وجدي وزيرًا للشؤون الاجتماعية في إحدى حكومات عهد شارك حلو بدعم من كمال بك، جعبة وجدي مليئة بأخبار كمال بك الحميمة وبمواقفه، وكيف قال لشارل حلو قبل أن يتمّ انتخابه رئيسًا: كميل شمعون وقّع من قبل وثيقة ثمَّ نقض كلّ ما جاء فيها بعدما انتخب رئيسًا. وكان شارل حلو يعرض على كمال جنبلاط أن يوقّع له وثيقة خطّية يتعهّد فيها بتنفيذ كلّ طلباته ومطالبه إذا ما أيّده في معركة الرئاسة... ولقد أيّده كمال بك فعلاً، ثمَّ اعترف لي أكثر من مرّة أنه أخطأ في التقدير... وأنَّ شارل حلو لم يكن رجل المرحلة، ولا رجل القرار المطلوب.

كان زوّار الستّ نظيرة يتبادلون أطراف الحديث حول المعاهدة الفرنسية ـ اللبنانية التي أبرمت ذلك العام، وفي شؤون الانتخابات النيابية التي ستجري لاحقًا وشجونها... لكن همّ سيِّدة المختارة كان تزويج ابنتها ليندا. وفي أواخر سنة ١٩٣٧ وفق وكيل دار المختارة الشيخ بشير أبو حمزة في ترتيب لقاء بين الستّ نظيرة وسلفها علي جنبلاط بعد قطيعة دامت ١٣ عامًا، فكان لقاء مصارحة ومكاشفة بين علي بك و« سيِّدة القصر » انتهى بالاتّفاق على زواج حكمت نجل علي على ليندا ابنة عمّه فؤاد. وتمّت الخطوبة في مطلع عام ١٩٣٧ وأيّدت الستّ نظيرة حكمت للنيابة عن الشوف وملء مقعد آل جنبلاط، ثمَّ عُيِّن حكمت وزيرًا، وكان في النيابة والوزارة ينفّذ سياسة ومصالح دار المختارة والستّ نظيرة.

* * *

محامي الحقّ والحقيقة
الحالم أبدًا بالخير والحبّ
... ولقاء الحبيب...

"كنت أقول في الماضي: إنّ الله هو الحقّ. أمّا اليوم فأصبحت أعتقد أنّ الحقّ هو الله"

المهاتما غاندي

"ليس في ميثاق الأمم المتّحدة ما يجيز إنشاء دول جديدة ونزع أرض من شعب وإعطائها لشعب آخر"

كمال جنبلاط

(أيار سنة ١٩٤٨)

كلمتان تردّدتا الأكثر في كتابات كمال جنبلاط: التطوّر والإنسان. التطوّر هو سنّة الحياة، ومن لا يتطوّر إلى الأمام وفق مبادئ العلم والتقدّم والتكنولوجيا يتأخّر ويعود إلى الوراء. وكلّ تطوّر أو تقدّم، في أي مجال كان، يفترض أن يكون في خدمة الإنسان وسعادته وترقّيه وتحرّره.

المحور في توجّهات كمال جنبلاط بقي الإنسان هو هدف وغاية كلّ نضال ارتكازاً إلى مبادئ الحرّية والكرامة الإنسانية. وكان شعاره الرئيسي يوم أسّس الحزب التقدّمي الاشتراكي عام ١٩٤٩ هو: "مواطن حرّ وشعب سعيد"، و"ديمقراطية منظّمة ترتكز إلى الشورى، فلا ديكتاتورية أو فوضى".

ولقد أحببت، أكثر ما أحببت في كمال جنبلاط هذا الإنسان المتجلّي في أبهى الصور وأبسطها... إذ وضع لنمط عيشه وحياته عناوين تُلَخَّص في كلمات: التجرّد، والكفاية والتقشّف والزهد في مغريات حضارة الاستهلاك التي كان يطلق عليها: "حضارة الاشتهاءات". وإذا كان المثل السائر يقول: "قلّ لي من تعاشر أقل لك من أنت" فقد كان هو يقول: "قل لي ماذا تأكل وماذا تشرب أقل لك من أنت"... وكان يشدّد على أنّ الإنسان وجسمه يعملان وينتجان وفقًا للنظام الغذائي الذي يتّبع... وكان يرجع في ذلك إلى ما قاله أبو الطبّ ابن سينا: "المعدة هي بيت الداء، والحمية رأس الدواء" وإلى ما قاله الإمام عليّ بن أبي طالب، عليه السلام: "الأكل نصفه يُقيت ونصفه يُميت... والبطنة تذهب بالفطنة"...

سنة ١٩٣٨ كان كمال جنبلاط قد قرّر دراسة الحقوق نزولاً عند إلحاح الوالدة والأصدقاء الناصحين... وكان هو ميّالاً إلى دراسة الطبّ والتعمّق في البحث العلمي. وفي خريف تلك السنة توجّه إلى باريس حيث التحق بكلية الحقوق والعلوم السياسية في جامعة السوربون في باريس... وأقام في دير للآباء اللعازاريين فاتّبع نظامه ونمط العيش فيه، فلا تستهويه مغريات الحياة في باريس ولا نساءها ولا دور اللهو والسينما المنتشرة في أحيائها كما فعل ويفعل أترابه من الطلاّب اللبنانيين والعرب... بل كان همّه متابعة الدروس في الحقوق والإفادة من بعض المحاضرات الأخرى في العلوم الاجتماعية، ومطالعة كلّ ما يتّصل بالعلوم التأمّلية والماورائيات وعلم النفس والأخلاق.

ولعلّ مطالعاته تركّزت على متابعة مؤلّفات الراهب اليسوعي تيلاردي شاردان التي كانت ممنوعة من حاضرة الفاتيكان، والتي ركّزت على التطوّرية والتكوّر البشري والإنساني.. وعلى مؤلّفات الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون التي ارتكز إليها دو شاردان لتوضيح العديد من أفكاره ونظرته إلى الأمور. وكان الفيلسوف برغسون قد حاول أن يفتح الباب أمام خفايا العالم غير المدرك عقليًّا... ومن ثمَّ على دور «الأبطال» في صناعة التاريخ وعلى دور النخبة المثقّفة الفاعلة في تغيير المجتمعات والعالم. وتبلورت هذه الفكرة لدى كمال جنبلاط من خلال مطالعاته لمؤلّفات توماس كارليل وإرنست رينان وأرنولد توينبي فركّز في كتاباته، في ما بعد، كما في ميثاق الحزب التقدّمي الاشتراكي، على أنَّ قدرة أي نظام اجتماعي على إبراز النخبة المفكّرة الطليعية معيار أساسيّ لصلاح ذلك النظام أو لنجاحه.

كان كمال جنبلاط في تلك الفترة من حياته مشبعًا بتعاليم المسيحية التي ترتكز إلى الإنجيل وأعمال الرسل ورسائل بولس الرسول. وكان قد حفظ معظمها غيبًا من خلال دراسته في مدرسة الآباء اللعازريين في عينطورة ـ كسروان، فلم يُخفِ في كتاباته، في ما بعد، إعجابه بشخصية السيِّد المسيح وباختياره لتلامذته ورسله لاحقًا من بين الفقراء والعمّال، وخصوصًا صيّادي الأسماك، وعلى اقتسامه رغيف الخبز معهم، وتوصيته وتعليمه لهم بأن لا يكنزوا كنوزًا لهم في الأرض بل في السماء، لأنه حيث يكون كنزك يكون قلبك.. وبأن لا يقتنوا ثوبين أو نعلين بل أن يتّبعوا حياة البساطة والقناعة والتقشّف. واعتبر كمال جنبلاط في مقال افتتاحي كتبه في «الأنباء» لمناسبة عيد الميلاد عام ١٩٦٢: أنَّ المسيحية هي «مملكة الفقراء على الأرض» وأنَّ المسيح هو الثائر الأول، وعلى الأخصّ عندما دخل الهيكل وطرد الصيارفة والمرابين وصاح بأعلى صوته في وجوههم وهو يمتشق السوط في يمينه:

"بيتي بين صلاة يدعى، ومغارة للصوص جعلتموه". ومن الأقوال التي أعجب بها كمال جنبلاط وكان يردّدها: لا تعبدوا ربّين الله والمال، واعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله... وبعظة الجبل التي كرّر المسيح فيها الطوباوات: "طوبى لفاعلي السلام فإنَّهم أبناء الله يُدعون... وطوبى للرحماء فإنَّهم يُرحمون... إلخ".

ومن هنا كانت ثورة كمال جنبلاط على الفساد والإفساد ونبرة صوته المرتفعة أبدًا في وجه من حوّلوا بيوت الحكم ومؤسّساته (أي الدولة والحكم وإداراته) إلى مغاور للّصوص، وإلى وسيلة للظلم والتحكّم بالناس والإثراء غير الشرعي.

وانفتح كمال جنبلاط في ما بعد على الإسلام فطالع "القرآن" أكثر من مرّة، والأحاديث النبوية، وسِيَر الخلفاء الراشدين، وكتب الإمام عليّ بن أبي طالب... ومن أقوال الإمام علي التي كانت تروق له قوله: "ربّي إن وهبتني العقل فماذا حرمتني، وإن حرمتني العقل فماذا وهبتني".

وكان أكثر ما يروق له في تلك المطالعات أنَّ النبي العربي والخلفاء الراشدين عاشوا حياة البساطة والكفاف، وأنَّ بعضهم كان يرتدي ثيابًا مرقّعة بالية ويكتفي بالقدر القليل النافع من المأكل... ولكم قرأنا وأعدنا القراءة مرّات ما يفيد أنَّ العرب المسلمين عندما دخلوا مدينة القدس بقيادة الخليفة عمر بن الخطّاب دخلوها صلحًا لا عنوة... فتح لهم أبوابها بطريرك القدس عهدذاك القدّيس صفرنيوس، وكيف رفض الخليفة عمر أن يصلّي في كنيسة القيامة حتَّى لا تتحوّل إلى مسجد، وقول إحدى النصوص القديمة: كان على عمر بن الخطّاب ثياب رثّة مرقّعة نزعها عنه البطريرك واعطاه حلّة له جديدة فلبسها شاكرًا... ثمَّ ما يقول أنَّ العرب بعدما دخلوا القدس في زمن الفتوحات الأولى طهّروا الهيكل من الأدناس، وبنوا المسجد الأقصى، لا على أنقاض هيكل سليمان كما يقال خطأ وتحريضًا، بل على زاوية من فنائه. أمَّا قبّة الصخرة التي يسمّونها خطأ مسجد عمر، فهي بالحقيقة ليست مسجدًا بل معبدًا، بل قبّة مزار فوق الصخرة التي تذكّر بقربان ابراهيم وتصون القربان.

وهذه المطالعات والتعمّق في أصول الديانتين المسيحية والإسلامية، ومن خلال نزعته ومنحاه التوحيدي الشامل، ما جعل كمال جنبلاط يكتب في ما بعد: "كلّنا في التوجّه الحقيقي والمساواة مسلمون، وكلّنا في الأخوّة والعدالة والمحبة نصارى".

وما أوحى إليه في ما بعد أن يقول: «وقد يدرك اللبنانيون يومًا، أكثر ممّا يدركونه الآن، أنهم أبناء هذه الوحدة الحياتية، وحدة الاقتصاد والاجتماع وتشابك البيئة، قبل أن يكونوا نصارى وسنّة وشيعة ودروزًا وسواها من المذاهب... وقد يبزغ يوم يترك اللبنانيون فيه للآخرة خلافاتها واختلافاتها ويجتمعون على ما اتّفقوا عليه من شؤون هذا الوطن الذي أنشأه لهم وخصّهم واقع الزمان والمكان قبل أن ارتضوه لهم خيمة أرضية يفيئون إليها في هذه الحياة الفانية القصيرة... والذي نرتجيه أيضًا وأيضًا أن يكون لبنان بلد التسامح الديني الحقيقي، لا بلد التعايش الديني، أي بلد التعصّب والحقد اللبناني الدفين المكبوت كما يبدو ذلك أحيانًا، ويا للأسف»...

لقد آمن كمال جنبلاط بتعدّدية الأديان والمذاهب والأحزاب فتعرّف إليها، وحاورها، ودعاها إلى التفاعل والانصهار والتوحّد والوحدة.

فإلى معرفته العميقة بالمسيحية والإسلام والتوحيد أو ما عرف بالدرزية، كان كمال جنبلاط يعرف جيدًا الديانات الهندية والصينية والمصرية القديمة واليونانية، والتجارب الروحية والمذاهب الفكرية: من كارل ماركس إلى المهاتما غاندي ومن قبل أرسطو وأفلاطون وفيتاغورس إلى تيلاردي شاردان وإلى العديد من الاختبارات الإنسانية والفلسفية والروحية والنسكية والصوفية. هذه المعرفة وسّعت آفاقه، وصقلت شخصيته، وأعطته بعدًا مسكونيًا. وبكلمة: جعلته من الحكماء والمميَّزين في حركة الحوار بين الأديان والمذاهب والتيّارات الفكرية والسياسية المعاصرة.

لم يتوقّف كمال جنبلاط يومًا في بحثه ومطالعاته، ولم يزعم أنه قد وصل. بل ظلّ يفتّش عن المعرفة الحقّة، عن الحرّية والتحرّر، عن القيم الإنسانية والأزلية، عن كلّ ما هو مشترك وصالح بين البشر ليغتني ويُغنِي.

ومن أجل أن يصل كمال جنبلاط إلى عمق الحقيقة كان لا بدَّ له من الترهّب والتنسّك والتصوّف والاعتزال، والتوحّد والتأمّل والمطالعة والتمارين الجسدية والروحية والزهد والسفر والكتابة. كلّ هذا كان زادًا لمسيرته النضالية. فهو لم يكن رجل الفكر وحسب، بل المناضل الكبير والثوري الملتزم في سبيل بلوغ الإنسان كماله الإنساني عن طريق الصفاء والنقاء، والمعرفة كوسيلة أُولى وأخيرة للتحرّر، والمحبّة الحقيقية المجرّدة عن كلّ أنانية، والاتّزان والتوازن النفسي، ومحبّة الطبيعة، واحترام سنن الحياة، وتطهير القلب وتنقيته،

والتضحية بالميول والنوايا الشريرة، والتجرّد، ومحبّة الفقراء، وجعل العدالة الاجتماعية والاشتراكية الحقيقية الأكثر إنسانية، والتضامن الأخوي قاعدة لعيش البشرية ونموّها وتقدّمها في هذا العصر.

والحوار، وفق كمال جنبلاط، ليس مسألة معرفة وعلم فحسب، بل هو الانفتاح واحترام الآخر بقيمه وفكره ومعتقداته، والسعي الحثيث إلى التوحّد والوحدة، والمشاركة في عملية التغيير والتجدّد والإصلاح والبناء والتقدّم، والإنماء من أجل إعادة توحيد البشرية والكون بكامله في نظام جديد يرتكز على احترام القيم الإنسانية الأصيلة، والتعاليم الروحية، ويحافظ على البيئة، جاعلين العلم في خدمة الإنسان والأرض.

لقد أدرك كمال جنبلاط وعرف، قبل سواه، أنَّ الفرد في لبنان، وحتَّى الحزب بمفرده، غير قادر أن يقوم بعملية الإصلاح والتغيير. عصرنا هو عصر المشاركة والشراكة وإقامة الجبهات والتحالفات على غرار ما فعل في «المجلس السياسي المركزي للحركة الوطنية» وقبل ذلك في جبهة الأحزاب والهيئات والشخصيات الوطنية والتقدّمية والجبهة الاشتراكية الوطنية.

ولعلّ من أغلى أمنيات كمال جنبلاط وأمانيه كان إبراز وإعلان «مؤسّسة الدراسات التوحيدية» الذي كان مشروعه الأكبر كمفكّر، وكان تباحث في شأنه مع عدد كبير من المفكّرين والباحثين من مختلف الديانات والمذاهب، وبرحيل كمال جنبلاط واستشهاده في سنّ الستّين، وهو في سنّ النضوج وذروة العطاء ووافره وتنوّعه، خسر لبنان والمشرق العربي أحد أصلب مرتكزات الحرّية والتوحيد. تابع كمال جنبلاط دراسة الحقوق عامي ٣٨ و ٣٩ في جامعة السوربون بباريس ثمَّ اضطرّ للعودة إلى لبنان بعدما دقّت طبول الحرب العالمية الثانية ليكملها عام ١٩٤٠ في الجامعة اليسوعية في بيروت فيتخرّج محاميًا أمضى فترة تدرّجه في مكتب المحامي كميل إدّه في محلّة الصنائع، ثمَّ عيّن محاميًا عامًّا للدولة اللبنانية... ولم ترق له تلك المهمّة كثيرًا فسرعان ما اكتشف، كما كان يقول لي مرارًا، إنَّ هذه الدولة تشبه إلى حدًّ بعيد مغارة اللصوص يتحرّك وينشط في داخلها آلاف السارقين والمرتشين والحرامية... فبدأ يتحفّظ من خلال قناعاته ومعايشته لواقع الأمور على دخول السياسة من الباب الضيق: باب دار المختارة كرمز من رموز الإقطاع، وباب مصالح الناس الخاصّة والأفق الضيق المحدود الذي يعيشون ويتحرّكون من خلاله، بل من الباب العريض الواسع: باب

الأفكار والمبادئ التي تحاكي روح العصر وتصنع المستقبل على رؤى الحرّية والعدل والمساواة والديمقراطية الحقّة... أو ما أسماه هو «الجهاد الأكبر».

وبكلمة، كما كان يقول لي، فقد تبلور توقه إلى دخول السياسة من خلال حزب عصري يؤسّسه فيأتي الإعلان عنه المدخل المطلوب لاقتحام عالم السياسة... لم يرد أن يستمرّ في كونه محاميًا عن الدولة الرثّة المهترئة، بل تاق لأن يكون محامي الحقّ والحقيقة والحرّية والعدلّ، وقائدًا للناس في مسيرة قيام دولة القانون والمساواة والكرامة الإنسانية.

لكنّ القدر أراد لكمال جنبلاط أن يتسلّم مقاليد الزعامة الجنبلاطية والنيابة والصدارة قبل أن كان هو قد أكمل بعد العدّة وخطّة العمل لإعلان الحزب ولإبراز الوجه الجديد التقدّمي المتحرّر، السابق لعصره ولمحيطه في كلّ شيء.

ففي الخامس من حزيران ١٩٤٣ أعلنت وفاة صهره وزوج شقيقته ليندا وابن عمّه حكمت علي جنبلاط وهو كان النائب والوزير ممثّل العائلة، كما كان في عزّ الشباب والعطاء.

عهد ذاك لم تكن الكلمة الفصل، أو القرار، لكمال جنبلاط بل للسيِّدة الوالدة الستّ نظيرة. الانتخابات النيابية العامّة على مسافة أسابيع والقانون الانتخابي المعتمد يومها على أساس المحافظة وعلى دورتين. إذ كان القانون قد نصّ على أن ينال المرشّح نسبة معيّنة من أصوات الناخبين تكفل له الفوز بالمقعد النيابي وإلاَّ جرت دورة ثانية للانتخابات كانت تسمّي «البالوتاج»... البيت الجنبلاطي عبر الستّ نظيرة كان متحالفًا مع الكتلة الوطنية برئاسة إميل إدّه يقابلها وينافسها الكتلة الدستورية برئاسة الشيخ بشاره الخوري: إميل إدّه يحظى بتأييد الفرنسيين، وبشاره الخوري بتأييد ودعم الإنكليز... محافظة جبل لبنان كانت تمتدّ من جسر الأولي جنوبًا أي من بلدتي الرميلة وعلمان، إلى جسر المدفون شمالاً وهو الذي يفصل بين قضائي جبيل والبترون وبين محافظتي جبل لبنان والشمال.

محافظة الجبل كانت تضمّ أقضية الشوف وعاليه وبعبدا ـ المتن الأعلى والمتن الشمالي وكسروان وجبيل. ترشّح كمال جنبلاط على لائحة إميل إدّه ونال في قضائي كسروان وجبيل أصواتًا تزيد على الأصوات التي نالها رئيس اللائحة إدّه، وذلك يعود إلى المكانة الرفيعة التي كانت تحتلّها الستّ نظيرة في الأوساط المسيحية والمارونية بشكل أخصّ.

الجلسة الأولى للمجلس النيابي الجديد عقدت بتاريخ السابع من تشرين الأول سنة ١٩٤٣ وألقى فيها الزعيم الشاب، ابن السادسة والعشرين من العمر، كلمة قصيرة حدّدت توجّهاته ونظرته إلى الاستقلال الذي كان حديث الساعة وممّا قاله:

إنَّ الاستقلال يبدأ فعلاً عندما تتخلّص البلاد من قيود الانتداب في الدستور وفي القوانين... وأنَّ العروبة وحدها هي التي تكفل للبنان الوحدة الوطنية والقومية وتصون الاستقلال... وإنَّ لبنان لم يعرف في تاريخه نوعًا من الاستقلال إلاَّ في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني (وكان الأمير فخر الدين ينتمي إلى مذهب الموحّدين الدروز).

وكانت معركة رئاسة الجمهورية تجري بين مرشحين رئيسيين هما: إميل إدّه المدعوم من الفرنسيين والذي كان يقود معركته المفوّض السامي الفرنسي جان هيللو، وبشارة الخوري الذي كان يشرف على معركة دعمه وتأييد ضمان انتخابه الجنرال سبيرس رئيس البعثة البريطانية. وعندما احتدمت المعركة بين الفريقين وبدا أنَّ حظوظهما شبه متقاربة، لوّح سبيرس لهيللو بأنهم قد يستبدلون بشارة الخوري بكميل شمعون، رجلهم الأقرب والأضمن، فوافق هيللو على سحب إميل إدّه لمصلحة بشارة الخوري. ويوم الواحد والعشرين (٢١) من شهر أيلول ١٩٤٣ جرت انتخابات الرئاسة في قاعة المجلس النيابي بساحة النجمة في بيروت، وحضرها ٤٧ نائبًا من أصل ٥٥ ففاز الشيخ بشارة بالأكثرية ٤٤ صوتًا في اقتراع سرّي وغاب عن الجلسة ثمانية نوّاب من أبرزهم إميل إدّه وكمال جنبلاط.

تألّفت حكومة الاستقلال الأولى برئاسة رياض الصلح. وفي الحادي عشر (١١) تشرين الثاني ١٩٤٣ ألغت الحكومة اللبنانية، بدعم من رئيس الجمهورية بشارة الخوري المواد الدستورية التي تتعارض مع الاستقلال فبادرت سلطات الانتداب إلى اعتقال كلّ من رئيس الجمهورية الشيخ بشارة الخوري ورئيس الحكومة رياض الصلح والوزراء عادل عسيران وسليم تقلا وكميل شمعون ونائب طرابلس والشمال عهدذاك الزعيم عبد الحميد كرامي، ونقلتهم إلى قلعة راشيا، ثمَّ حلّت مجلس النوّأب وعلّقت الدستور.

حاول النوّاب الاجتماع في مقرّ المجلس النيابي فحضر عدد منهم وكان من بينهم كمال جنبلاط، إلاَّ أنَّ قوّات الانتداب أخرجتهم من قاعة المجلس فتوجّهوا إلى منزل آل سلام في محلّة المصيطبة وعقدوا جلسة برئاسة رئيس المجلس يومذاك صبري حماده شارك فيها كمال جنبلاط، وقرّروا إعلان بطلان الإجراءات الفرنسية بتعليق الدستور وحلّ مجلس النوّاب

وأكّدوا تمسّكهم برئيسهم المنتخب من ممثّلي الشعب اللبناني وبحكومتهم الشرعية ومطالبتهم بالإفراج فورًا عن جميع المعتقلين.

وأثار موقف الزعيم الشاب الإعجاب والتقدير في الأوساط الشعبية كافّة. خصوصًا وأنه لم يكن مضى شهرين على فوزه بالنيابة على لائحة إميل إدّه التي حظيت بتأييد الفرنسيين، وعلى الرغم من العلاقة الوطيدة التي كانت تربط دار المختارة والستّ نظيرة بسلطات الانتداب. وبدا للعيان ولكلّ المراقبين أنَّ عهدًا جديدًا، بكلّ ما للكلمة من معنى، قد بدأ ولاحت تباشيره في مواقف البيت الجنبلاطي. فكمال جنبلاط وقف إلى جانب الحركة الاستقلالية صراحة وبكل جرأة وقوّة وأعلن إيمانه بعروبة لبنان الضامنة لوحدته الوطنية الشعبية ولموقعه ولدوره المستقبلي. وكان البيان الوزاري لحكومة رياض الصلح، وهي حكومة الاستقلال الأولى قد أورد، وبحياء ربَّما، أنَّ لبنان "ذو وجه عربي".

وقامت تظاهرات شعبية في العاصمة بيروت مؤيّدة للاستقلال ورافضة لموقف سلطة الانتداب التعسّفي... وكانت الوفود الشعبية الزاحفة من منطقة الجنوب نحو العاصمة، والتي كانت تمرّ ببلدتنا الدامور تهتف وتقول:

بتشكوف خبّر دولتك　　　　باريز مربط خيلنا

وإلى جانب التحرّكات الشعبية التي عمّت أرجاء البلاد تشكّلت حكومة مؤقّتة من الأمير مجيد أرسلان وحبيب أبو شهلا واتّخذت بلدة بشامون مقرًّا لها، فاضطرّت سلطات الانتداب تحت وطأة الإجماع الوطني النيابي والشعبي إلى الإفراج عن المعتقلين... وبدأ في لبنان عهد جديد وانبثق فجر جديد... إنَّه زمن الاستقلال. ولكنّنا اليوم وبعد مرور حوالي سبعين عامًا على الحدث لم يتّفق اللبنانيون بعد لا على أي لبنان يريدون، ولا تمكّنوا من بناء دولة الاستقلال القادرة والعادلة التي تحاكي روح العصر وتتناغم مع متطلّباته.

لم تمضِ سنة على قيام حكومة الاستقلال الأولى برئاسة رياض الصلح حتَّى ارتفع صوت كمال جنبلاط يطالب بالتزام مبادئ النزاهة والاستقامة في الحكم والإدارة، وكان إلى جانبه الرئيس ألفرد نقّاش وبعض السياسيين المحافظين. إلاَّ أنَّ جنبلاط عاد فانفرد بالدعوة إلى اعتماد نظام العلمنة وإلغاء الطائفية من الرئاسات الثلاث، وطائفية التمثيل النيابي وطائفية الوزارة والوظائف الإدارية... وأوضح أنَّ العلمنة التي يدعو إليها ليست قطيعة مع قيم الدين ومع مُثُل الأخلاق والمبادئ لأنَّ الدين المرتبط بتاريخ الإنسان ارتباطًا لا يمكن فكّه،

كظاهرة اجتماعية وقاعدة رئيسية لبناء المجتمع، تعتبر مبادؤه الأخلاقية والروحية بالنسبة للمجتمع بمثابة الروح للجسد...

كان ذلك خلال العامين ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥. وفي مطلع سنة ١٩٤٦ وجّه مذكّرة إلى رئيس الجمهورية الشيخ بشارة الخوري تحذّر من المصير الذي ستؤول إليه البلاد إذا استمرّ الحكم في المنهج الضيق الذي سار عليه والذي ينذرنا بالفقر والإفلاس، فضلاً عن تعريض الاستقلال للضياع.

وفيما كانت البلاد تتهيّأ لانتخابات نيابية عامّة في ربيع سنة ١٩٤٧، أي بعد سنة، أخذ كمال جنبلاط يوسّع تحرّكاته وزياراته للبلدات والقرى شارحًا أفكاره ونظرته الجديدة إلى الأمور. وممّا قاله في استقبال شعبي أعدّ له في بلدة بيصور من قضاء عاليه: أعتقد أنكم تخطئون عندما تنظرون إليّ كواحد من آل جنبلاط. فأنا لا أريد منكم هذه النظرة. أنا أقول لكم: انتخبوا الشباب الذي ترون فيه الثقافة والأدب والإخلاص والأخلاق الجميلة والصيت الحسن، ولا تنتخبوا ابن هذا البيت أو ذاك. أنا لا أريد أن أتعرّف إلى "كتلوي"أو "دستوري"، أو إلى جنبلاطي أو يزبكي، بل أريد أن أتعرّف إلى لبنانيين يلتفّون حول استقلالهم ويعملون لبناء دولة الاستقلال على قيم ومبادئ العلم والنزاهة والاستقامة. أُدرسوا ومحّصوا و انتخبوا ولا تولوا ثقتكم إلاّ من وجدتم فيه الكفاءة.

على هذه الصورة راح كمال جنبلاط يقدّم نفسه للبنانيين: رجل أفكار ومبادئ جديدة تجمع ولا تفرّق، تبني توجّهات الناس إلى ممثّليهم انطلاقًا من الكفاءة والعلم والثقافة والنزاهة...

وراح عهد بشارة الخوري ينظر إلى كمال جنبلاط وإلى ما يمثّل من أفكار ومبادئ ومستقبل ودور واعد بجدّية وترقّب وحذر في آن. ففي الحكومة التي شكّلها رياض الصلح في حدود نهاية عام ١٩٤٦ أُسندت إلى كمال جنبلاط وزارات الاقتصاد والزراعة والشؤون الاجتماعية. وصار مجلس الوزراء يشهد نمطًا جديدًا من النقاش والاقتراحات والقرارات والحلول. وأُطلقت عليه تسميات عدّة: منها الوزير المشاكس والوزير المعارض والوزير المثال والقدوة. وراحت بعض الأقلام الصحافية تسأل: كيف يمكن أن يكون الإنسان وزيرًا مشاركًا في الحكومة ومعارضًا في آن واحد؟

هذا المنحى والتوجّه شرحهما كمال جنبلاط في ما بعد في ما أسماه: «الموالاة الإيجابية». كان يقول لي: أنا لا أوالي أشخاصًا ولا أعارض أشخاصًا. أنا أوالي مبادئ تترجم إلى مشاريع ومراسيم وقوانين تؤدّي إلى إصلاح الحكم وتحسين أوضاع الناس المعيشية... وانا أعارض أداءً سيّئًا وفسادًا واعوجاجًا في أسلوب الحكم ونهجه ومحتواه، وكان يخاطب أحيانًا زملاءه النوّاب، أعضاء كتلته النيابية، وكان من بينهم من تولّى رئاسة لجنة الإدارة والعدل النيابية أو عضويتها، وهي اللجنة التي تدرس مشاريع القوانين وتقرّها وتحيلها على الهيئة العامّة للمجلس للتصويت عليها بحيث تصبح في ما بعد قوانين وتشريعات، كان يسألهم بكل صراحة ووضوح: لمصلحة من تشرّعون وتضعون القوانين. لمصلحة الناس الذين انتخبوكم، أم لمصلحة موكّليكم من كبار المتموّلين والمحتكرين؟

في وزارة الاقتصاد صار كمال جنبلاط وزير القمح، وزير تأمين القمح للناس ومكافحة أعمال التهريب والاحتكار ورفع الأسعار، وفي وزارة الزراعة أصبح الوزير الذي ينثر بزور الصنوبر فوق التلال والهضاب من طائرة استأجرها لهذه الغاية، أي وزير التحريج والاخضرار وتأمين بيئة صحّية للبنانيين، ووزير تأمين الشتول والأسمدة للزراع والفلاّحين والسعي لإيجاد الأسواق لتصريف إنتاجهم الزراعي، وفق روزنامة مدروسة توفّق بين مصلحة المزارع والمنتج وبين مصلحة المواطن المستهلك بحيث لا يكون ثمّة احتكار أو إفقار. وسطع نجم الوزير الذي يكافح التهريب والسرقات ويشارك المواطنين في قراهم وبلداتهم بمعوله والرفش في المشاريع التي كان يحضّهم على القيام بها انطلاقًا من مبدأ «العونة»، أي بمشاركة جميع أبناء القرية أو البلدة القادرين على العمل والعطاء...

وازدادت شعبية الزعيم الشاب وتوسّعت لتشمل معظم أقضية الجبل وسائر مناطق البلاد. وصارت الوفود الشعبية تتوافد في نهاية كلّ أسبوع على دار المختارة للشكر أو لعرض المطالب والشكاوى. وتحوّل كمال جنبلاط إلى معقد أمل الناس ورجائهم، ومشكي ضيمهم في آن. وكانت الستّ نظيرة تتابع وتراقب ما يجري لكنّها استمرّت سيِّدة القصر طالما أنَّ لا سيِّدة أخرى تسدّ الفراغ وتملأ الدار فرحًا وبهجة ومهابة...

ـ ولادة جامعة الدول العربية... ولبنان «حكّاء العرب»!

شهد عام ١٩٤٤و ١٩٤٥ ولادة جامعة الدول العربية بعد مخاض عسير وعملية

قيصرية... وقال أحمد الشقيري، الذي شارك في اجتماعات التأسيس عضوًا في الوفد السوري، أنَّ إنشاء الجامعة كان طلبًا إنكليزيًّا؛ وأورد في كتاب مذكّراته الكثير من طرائف تلك الاجتماعات بين الملوك والرؤساء العرب التي جرت في مدينة الاسكندرية المصرية والدور الإنكليزي البارز فيها.

شارك لبنان في اجتماعات التأسيس بوفد ترأّسه الشيخ بشارة الخوري وكان في عداده رئيس الحكومة رياض الصلح ووزير الخارجية هنري فرعون. وعندما دارت النقاشات حول دور كلّ دولة في نشاطات الجامعة وما تستطيع أن تقدّمه على الصعيدين المادي والعسكري، تولّى بشارة الخوري الكلام فقال، وفقًا لما أورد هو في مذكّراته التي نشرت تحت عنوان «حقائق لبنانية»: الدور الطبيعي للبنان أن يكون «حكّاء العرب»... أي أن يتولّى التحدّث بأسمهم في المحافل الدولية والدفاع عن قضاياهم المحقّة، فهو لا يملك ثروات لكي يتبرّع بالمال، ولا جيشًا وفير العدّة والعدد ليسهم في الحروب المحتملة، هذا عدا تكوينه من أديان وطوائف ومذاهب متعدّدة تفرض أن نراعي أوضاعه الخاصّة المميّزة في مواجهة المصاعب والأخطار. (وكان عهدذاك قد ذاع اسم الدكتور شارل مالك مندوب لبنان في الأمم المتّحدة وسفيره في واشنطن كواحد من المدافعين عن قضايا العرب وعن حرّية الإنسان)... وتبادل بعض الرؤساء والملوك العرب الابتسامات... ثمَّ انتقلوا إلى البحث في بنود ميثاق الجامعة فورد اقتراح من جماعة الإنكليز في الاجتماعات، كما قال الشقيري في مذكّراته، بأن يتمّ اتّخاذ القرارات الكبرى بالتصويت وبالأكثرية فاعترض الوفد اللبناني وعلا صوت وزير خارجية لبنان هنري فرعون وهو يقول: إذا اتّخذ هذا القرار بالأكثرية فأنا أعلن استقالتي وانسحابي... فهدّأ الشيخ بشارة من روعه وخاطبه بالقول:

ـ «ما تزايد عليّ يا عديلي» واقترح الشيخ بشارة أن يتمّ اتّخاذ قرارات مجلس الجامعة العربية بالإجماع فأيّده الرئيس السوري شكري القوتلي وملك مصر فاروق، وتمسّك الفريق الأخر برأيه فرفع الاجتماع دون أن يحدّد له موعد جديد...

كان كميل شمعون يومها وزيرًا مفوّضًا للبنان في لندن... وكان الصراع الإنكليزي ـ الفرنسي قد بلغ الذروة، خصوصًا في موضوع جلاء القوّات الفرنسية عن لبنان، (الذي تمّ كما هو معروف في ٣١ كانون الأول سنة ١٩٤٦). كان الإنكليز يلبسون درع العروبة، كذلك دعاتهم وعملاؤهم من الحكّام العرب... وكان كميل شمعون لا يخفي ولاءه

للإنكليز ويحمل عهدذاك لقب "فتى العروبة الأغر"، فأدلى بتصريح من لندن هاجم فيه الفرنسيين وطالب بجلائهم عن الأراضي اللبنانية، وعارض عقد اتّفاقات صداقة مع فرنسا أو منحهم أية امتيازات اقتصادية... وخلص إلى الزعم بأنَّ اللبنانيين لم يكونوا يومًا محسوبين على فرنسا وهم لا يريدون صداقة خاصّة مع فرنسا أو حماية منها، خصوصًا وأنَّ لبنان أصبح عضوًا في جامعة الدول العربية وفق "بروتوكولات الاسكندرية". وأنهى بالقول: خلافًا لما يردّد البعض فاللبنانيون ليسوا "بروفرنسيين" (Profrancais)

وردّ جورج نقّاش صاحب جريدة "الأوريان" (L'ORIENT) ورئيس تحريرها بمقال افتتاحي في صحيفته المعروفة تحت عنوان: (Faites taire Monsieur Chamoun) "اسكتوا السيِّد شمعون" وصدر ذلك المقال بتاريخ ٩ نيسان ١٩٤٦، هاجم فيه نقّاش كميل شمعون وأشاد بالصداقة التاريخية بين لبنان وفرنسا وبما يربط الشعب اللبناني بالثقافة الفرنسية وبما سمّي بالفرنكوفونية... وقال النقّاش: إنَّ اللبنانيين هم "بروفرنسيين" (Profrancais) منذ ألف عام... وإنَّ لبنان لم يصبح بعد عضوًا رسميًّا منتسبًا إلى جامعة الدول العربية بسبب اعتراض لبنان على النصّ الذي يقضي بأن تتّخذ الجامعة العربية قراراتها بالإكثرية ممّا يفقد لبنان استقلاله، لذلك طلب النقّاش من الحكومة اللبنانية إسكات السيِّد شمعون الذي يفتح حكومة على حسابه في لندن مؤيّدة للإنكليز وسياساتهم...

وعُدِّل النصّ في ما بعد، بناء لطلب لبنان ووقوف سوريا ومصر إلى جانبه، ففرض الإجماع في اتّخاذ قرارات مجلس الجامعة العربية، وخاصّة القرارات المصيرية. وما زال هذا الإجماع مطلوبًا حتَّى أيامنا هذه...

ولا مناص من التنويه هنا بأنَّ أحمد الشقيري أصبح في الستّينات من القرن العشرين حاكمًا لقطاع غزّه الذي ألحق بمصر كما ألحقت الضفّة الغربية من فلسطين بالأردن فمات ملكها عبد الله الأول مطعونًا بخنجر في ظهره وهو يصلّي داخل المسجد الأقصى في القدس... واشتهر الشقيري بأنه صاحب نظرية "رمي اليهود في البحر" ممّا كان يحمل الرئيس جمال عبد الناصر على استدعائه إلى القاهرة ومخاطبته بالقول: اي ده يا سيِّد شقيري... ما تتعقّل يا رجل. فما هكذا تعالج قضيّة فلسطين؟!...

أمَّا مخاطبة الشيخ بشارة الخوري لهنري فرعون بقوله: لا تزايد عليّ يا عديلي، فلأنَّ زوجتَي الاثنين هما أختان، وهما شقيقتا الصحافي والمفكّر والمصرفي المعروف ميشال شيحا

وشريك هنري فرعون في «بنك فرعون وشيحا» الذي كان مركزه في مبنى فخم يقوم شمال غربي ساحة النجمة (ساحة مجلس النوّاب) في بيروت؛ وكان مكتب المحاماة الخاصّ بالشيخ بشارة الخوري يقوم في شقّة من المبنى أيّاه وظلّ يعمل طوال عهدي الشيخ بشارة، وكان الشيخ بشارة وكيل «شركة نفط العراق» الإنكليزية (الأي. بي. سي) التي كانت تمتلك مصفاة النفط في طرابلس، وظلّ مكتبه وكيل الشركة إلى ما بعد استقالة الشيخ من سدّة الرئاسة)

كان لكمال جنبلاط موقف لافت من قيام جامعة الدول العربية ومن الطروحات والمناقشات التي رافقت مرحلة التأسيس. فهو عارض بالكامل طروحات الأمير عبد الله أمير الأردن ونوري السعيد رئيس وزراء العراق بقيام «سوريا الكبرى» أو «الهلال الخصيب». وكان الاثنان من أنصار الإنكليز الذين أرادوا وضع يدهم على العراق والأردن وسوريا ولبنان وفلسطين. لكنّه استبعد فكرة «ابتلاع لبنان» وقال: إنَّ اتّحادنا والتفافنا حول استقلال لبنان هو وحده أكبر ضمان لبقاء هذا الكيان وهذا الاستقلال. وأضاف: إنَّنا لا نفهم بالوحدة العربية في الوقت الحاضر إلاَّ التعاون المجرّد إلى أقصى حدًّ ممكن مع الدول العربية. ودعا إلى الاهتمام بالشأن الاقتصادي الذي يفترض أن يؤول إلى نوع من التكامل الاقتصادي بين الدول العربية الشقيقة...

أمَّا على صعيد الوضع الداخلي في لبنان فلقد رأى أنَّ لا مناص من التفكير جدّيًا بإعادة توزيع الثروة الاجتماعية التي تتيح للعمّال وللمزارعين حقّ التملّك وتوسّع دائرة صغار رجال الأعمال. وشدّد على أنَّ توزيع الثروات يزيل التفاوت الاجتماعي الكبير القائم عهدذاك (أي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وقيام فئة من أغنياء الحرب) ويوطّد مبدأ التكافؤ الاقتصادي بعد تأمين المساواة في الحقوق والواجبات.

وفي الثالث من شباط ١٩٤٥ بدأ المجلس النيابي البحث في إنشاء جيش وطني فرأى كمال جنبلاط أنَّ الضرورة ستقتضي في المستقبل الدفاع بقوّة السلاح عن الاستقلال الذي كسبه لبنان بشق النفس. وقال بالحرف: نريد جيشًا قويًّا ليقوم بالمهمّة والرسالة التحريرية التي تمرّسنا بها على ممرّ أحقاب التاريخ. وفي شهر أيّار كرّر موقفه هذا، وانتهت المناقشات بأن صوَّت مجلس النوّاب على قرار بتخصيص خمسة ملايين ليرة لبنانية لتشكيل القوّات المسلّحة اللبنانية. وفي مطلع آب من العام نفسه وضعت القوّات الخاصّة تحت إشراف الدولة

وأصدرت الحكومة اللبنانية مرسومًا بتعيين العقيد فؤاد عبد الله شهاب قائدًا للجيش الجديد بعد ترفيعه إلى رتبة لواء.

وفي الثامن عشر من كانون الأول ١٩٤٥ ألقى كمال جنبلاط خطابًا تحدّث فيه بصراحة عن أزمة نظام الحكم القائم. ودعا المشرّعين إلى اتّخاذ تدابير عاجلة للخروج بالبلاد من المأزق. وممّا قاله جنبلاط: إنَّ وجود رئيس للجمهورية ومجلس للوزراء والجيش ليس كافيًا للتحدّث عن لبنان كدولة مستقلّة. فلكي تكون الدولة مستقلّة حقًّا لا بدّ لها أن تكون دولة شرعية تتمسّك بالقانون نصًّا وروحًا، ولا بدّ أن يكون لها رأي عام ديمقراطي يحول دون هيمنة المصالح الطائفية والخاصّة على المصلحة العامّة...

وقبل نهاية العام تشكّلت جبهة معارضة برئاسة عبد الحميد كرامي سمّيت "كتلة الإصلاح". وفي ٢٣ كانون الثاني ١٩٤٦ التقى وفد من الجبهة رئيس الجمهورية بشارة الخوري. ضمّ الوفد عبد الحميد كرامي وكمال جنبلاط وألفرد نقّاش وهنري فرعون وعرض على الرئيس البرنامج الإصلاحي للجبهة الذي يهدف إلى تحقيق ما يصبو إليه الناس من الإصلاح العملي في مختلف فروع السلطات التشريعية والإدارية والقضائية. (وفق ما نشرته جريدة"التلغراف" لصاحبها ورئيس تحريرها نسيب المتني). وقالت "التلغراف": ويرى زعماء المعارضة إنَّ إصلاح قانون الانتخاب ضروري وملحّ لكي يمثّل مجلس النوّاب بشكل أوسع مختلف فئات الشعب وهيئاته ونقاباته واقترح أعضاء كتلة الإصلاح إقرار "قانون التوظيف" ووضع نظام عام للموظّفين يكفل اختيارهم وترقيتهم على أساس الكفاية والمؤهّلات، وليس على أساس المحسوبية كما كان يحصل، ودعوا إلى اعتماد مبدأ اللامركزية وتوسيع صلاحيات المسؤولين في الإدارات المحلّية في المناطق اللبنانية كالمحافظين والقائمقامين، بحيث يعفى المواطنون من مشقّة الانتقال إلى بيروت لملاحقة أبسط المسائل والمعاملات ومن دفع الرشوات التي كانت متفشّية بين كبار موظّفي دوائر العاصمة...

- تزوير الانتخابات... وتعديل الدستور وتجديد ولاية الرئيس!...

كتب الشيخ بشارة الخوري في مذكّراته: "حقائق لبنانية" فقال: يجب أن يكون الإنسان ملاكًا أو قدّيسًا حتّى يرفض تجديد ولايته... وأنا أقرّ وأعترف بأني لست قدّيسًا ولا ملاكًا...

بهذه البساطة حاول الشيخ بشارة تبرير ما ارتكبت السلطة خلال عام ١٩٤٧ من حلّ

لمجلس النوّاب وتزوير للانتخابات النيابية، وتعديل للدستور وتجديد للرئيس ولاية ثانية كاملة مكتملة... وفات الشيخ الرئيس أنه يكفي للمرء أن يتحلّى برجاحة العقل ونزاهة المقصد ونقاوة الضمير حتَّى يتّخذ قراره بما يحفظ ويحقّق مصالح الشعب والبلاد لا مصالح الحاكم والبطانة والأعوان...

فما جرى في انتخابات الخامس والعشرين من ٢٥ أيار ذلك العام فاق كلّ التوقّعات والاحتمالات... كانت صناديق الاقتراع في محافظة جبل لبنان، على سبيل المثال، تمرّ بدارة الشيخ سليم الخوري، شقيق الرئيس، في محلّة فرن الشبّاك فتستبدل الأوراق ويجري ترتيب كلّ شيء قبل أن تنقل الصناديق إلى مقرّ المحافظة في بعبدا حيث كانت تعلن النتائج الرسمية للانتخابات... هذا عدا الضغوط المتنوّعة التي تعرّض لها الناخبون وشراء الذمم وشتّى أنواع الترغيب والترهيب... وتمكّن الحكم من الفوز بأغلبية ٤٧ مقعدًا من أصل ٥٥ مقعدًا هو عدد النوّاب في مجلس ٢٥ أيار الشهير...

وأثار تزوير الانتخابات موجة عارمة من الاستياء والاستنكار. وجاء موقف الصحافة اللبنانية حاسمًا ورائدًا. فلقد أعلنت الصحف اليومية عزمها على مقاطعة مجلس النوّأب المزوّر، ووجّهت نداء إلى رئيس الجمهورية طالبت فيه بحلّ المجلس وإجراء انتخابات جديدة على أساس قانون جديد يحقّق المناصفة بين المسلمين والمسيحيين وفي السابع والعشرين من أيار، أي بعد يومين من تاريخ إجراء انتخابات التزوير، أعلن الوزيران كمال جنبلاط وكميل شمعون استقالتهما من الحكومة. لكن شمعون عاد عن الاستقالة. وفي أيار نظّما مع عبد الحميد كرامي وألفرد نقّاش وعمر بيهم والمطران أغناطيوس مبارك مهرجانًا شعبيًّا حاشدًا للمعارضة، في ملاعب مدرسة الحكمة في الأشرفية، شارك فيه ممثّلو أحزاب الكتائب والكتلة الوطنية والشيوعي. ووجّه زعماء المعارضة انتقادات شديدة اللهجة إلى سياسة الحكم الفردية ودعوا إلى إعلان الأضراب العام في بيروت. وأجمع خطباء المهرجان على دعوة الرئيس بشارة الخوري إلى عدم تجديد الولاية.

لكنّ رأي البطانة كان مخالفًا لهذا الرأي، ومطالبًا الشيخ بشارة بالسير في إجراءات التجديد.

ومع أنَّ لبنان، والبلاد العربية كانت تواجه معضلة كبرى تمثّلت في احتمال قيام نزاع مسلّح يجرّ إلى حرب بين العرب واليهود في فلسطين، قد تمتدّ نيرانها إلى البلدان المجاورة،

فإنَّ البلاد والأمّة كانتا في واد، والشيخ بشارة وشقيقه الشيخ سليم الخوري، الذي بات قابضًا على مفاصل السلطة وإداراتها، كانا في وادٍ آخر. ففي التاسع من نيسان سنة ١٩٤٨ تقدّم عشرة نوّاب موالين للعهد بمشروع قانون لتعديل الدستور، بما يتيح للشيخ بشارة تمديد ولاية حكمه ستّ سنوات جديدة، فأقرّ التعديل بأكثرية ثلثي أعضاء المجلس. وفي السابع والعشرين من أيار، أي بعد نشوب الحرب في فلسطين في ١٥ أيار، عقد مجلس النوّاب جلسة خاصّة تمّ خلالها إعادة انتخاب الشيخ بشارة الخوري رئيسًا للجمهورية بأكثرية أربعين صوتًا من أصل ٥٥. وغاب كمال جنبلاط وسافر إلى الخارج مع عروسه الأميرة مي أرسلان، ابنة المناضل الوطني العربي المعروف الأمير شكيب أرسلان، الذي كان قد توفّي قبل سنتين من ذلك التاريخ.

ـ نكبة فلسطين كشفت هزال الأنظمة العربية وخيانتها للقضيّة

في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ اتّخذت الجمعية العمومية للأمم المتّحدة في جلستها العامّة القرار ١١/٠١٨١ بتقسيم فلسطين وتأسيس دولتين فيها:

إحداهما يهودية والأخرى عربية. وصوّت إلى جانب القرار مندوبو ٣٣ دولة، وعارضته ١٣ دولة، وامتنعت عن التصويت عشر دول بينها بريطانيا. ونصّ القرار على أن يخصّص للدولة اليهودية وتعداد سكّانها مليون وثمانية وثمانون ألف نسمة مساحة ١٤,١ كيلومتر مربّع فيما يخصّص للدولة العربية وتعداد وسكّانها ٧٥٨,٥٢٠ نسمة مساحة ١١,١ كيلومتر مربّع.

وفي ما بدا أنَّ وعد بلفور بدأ يتحقّق ويوضع موضع التنفيذ، قابل العالم العربي القرار الدولي بتظاهرات السخط والاستنكار في بيروت ودمشق ومعظم العواصم العربية، ورفضت الهيئة العربية العليا في فلسطين، برئاسة المفتي الحسيني، قرار التقسيم، ودعت إلى الإضراب العامّ وإعلان حالة الطوارئ...

واعتبر كمال جنبلاط قرار التقسيم خرقًا صارخًا لأصول القانون الدولي. وخلص بعد أبحاث ودراسات أجراها مع عدد من الحقوقيين إلى أنَّ ميثاق الأمم المتّحدة لا يتضمّن أي مادّة أو نصّ يخوّل هذه الهيئة الدولية حقّ تأسيس الدول وانتزاع أرض من شعب وإعطائها لشعب آخر... ورأى أنَّ هذا القرار لن ينفّذ طوعًا وسلمًا بل هو سيؤدّي إلى نزاع

مسلّح، ونبّه العرب إلى مخاطره ونتائجه. وقد يكون مقدّمة لتفتيت المنطقة وإقامة وطن مسيحي في لبنان استجابة لمطالبة البعض بذلك ومن بينهم مطران بيروت الماروني إغناطيوس مبارك ومطران الموارنة في الولايات المتّحدة الأميركية.

ودعا كمال جنبلاط الدول العربية إلى مواجهة الموقف بوحدة الصفّ وبتوحيد السلاح العربي ما أمكن خصوصًا وأنَّ الولايات المتّحدة الأميركية وبريطانيا كانتا تؤيّدان اليهود والصهيونية العالمية في سعيها لإنشاء «دولة إسرائيل».

إلاّ أنَّ العرب واجهوا المحنة بروح البداوة والجاهلية فخسروا فلسطين وشرّدوا شعبها، وكان على لبنان أن يتحمّل قسطًا لا بأس من نتائج وذيول المأساة، وتمثّل ذلك باستقباله مئات ألوف الأخوة الفلسطينيين الذين تحوّلوا إلى لاجئين في مخيّمات البؤس والآلام... وعار وخيانة الأنظمة العربية الحاكمة لأقدس قضيّة... وما زال العرب يخسرون فلسطين تدريجيًّا بسبب السياسة القاصرة التي تتبعها معظم الدول العربية، وانحياز الولايات المتّحدة الأميركية وسياسة الحزبين اللذين يتناوبان الحكم فيها: الحزب الديمقراطي والحزب الجمهوري إلى إسرائيل ونفوذ الصهيونية العالمية وإمدادها بالمال وبأحدث أنواع السلاح والتكنولوجيا الحديثة.

وأذكر هنا للدلالة ربَّما حادثة جرت معي نهاية شهر ايار سنة ١٩٤٨. كنت حينها قد فزت في امتحانات شهادة السرتفيكا فأحبّ خالي الصحافي نسيب المتني أن يقدّم لي هدية للمناسبة. أمسَك بيدي واصطحبني إلى محلّ للأحذية كان يومها في الشارع القائم فيه مبنى بلدية بيروت ومقهى ومطعم الأوتوماتيك. كان النهار هو يوم جمعة. وما أن اشترينا الهديّة حتَّى انطلقت من جامع محاذ للاتوماتيك تظاهرة شعبية تقدّمها الباشا شاتيلا رئيس الكشّاف المسلم، واندسّ فيها حوالي عشرين شابًّا جاؤوا من ناحية سوق سرسق القديم وهم يحملون العصيّ والأخشاب ويهتفون بالقول: مبارك «صبّاطك» رياض بدّو شريطة عريضة...

فثارت ثائرة نسيب المتني لهذا الهتاف الطائفي المقيت الذي يمكن أن يتسبّب في فتنة طائفية قد تؤدّي إلى تعكير الأجواء وتهديد الاستقرار الوطني. وكان المطران إغناطيوس مبارك قد ألقى عظة قال فيها: إنَّ لبنان وطن قومي مسيحي، وفلسطين دولة لليهود إلخ...

حاولت تهدئة خاطر خالي نسيب فقلت له: ليس كلّ المتظاهرين هم من يردّدون هذا الهتاف. هناك قلّة اندسّت في التظاهرة وجاءت من ناحية سوق سرسق، ولم تخرج مع المصلّين من داخل الجامع. فلم يصدّق بادئ الأمر ما أقول.

ثمَّ عاد فسألني: هل أنت متأكّد ممّا تقول؟ فأجبت بالتأكيد.

جرّني بيدي، واجتاز الشارع لناحية الغرب، ثمَّ صعدنا الدرج نحو الطابق الثاني حيث كان رئيس الحكومة رياض الصلح واقفًا على الشرفة يُحيّي المتظاهرين. وخاطب نسيب المتني رياض الصلح بالقول: هل سمعتَ بماذا يهتفون؟ فأجاب رياض: لا، لا يا نسيب. ماذا يقولون؟ وعندما شرح نسيب الهتاف ومدلولاته لرياض الصلح (المطران مبارك هو مطران أبرشية بيروت الماروني والبطريرك أنطون عريضة هو البطريرك الماروني لأنطاكية وسائر المشرق عهدذاك) استغرب رياض الصلح هذه الهتافات واستنكرها، وأومأ إلى أحد مفوّضي الشرطة من مرافقيه وقال له بأن يلحق بالتظاهرة، وأن يعمل على إسكات الذين يُطلقون هذه الهتافات، وإذا لم يسكتوا ولم يلتزموا فليتمّ اعتقالهم!...

وكان نسيب المتني معجبًا بشخصية رياض الصلح، وربطته به صداقة قامت على الاحترام المتبادل... لدرجة أنه اسمى أحد أولاده رياض.

* * *

تأسيس الحزب كان ثمرة أبحاث ومداولات وتأمّلات

«أنا مثالي واقعي. أغوتني الحقيقة كثيرًا لأكرهها، فما استطعت. إنَّ حبّي للحقيقة علّمني جمال التسوية عند الاقتضاء».

المهاتما غاندي

«ربّما رؤيا هذا الشاب المتشامخ والهادئ، الذي يُقال عنه إنّه شاب «خيالي»، ليست سوى رؤيا حادّة لما هو آتٍ»...

جورج نقّاش

جريدة «الأوريان» L'ORIENT ـ أيار سنة ١٩٤٩

في كتابه: «نحو اشتراكية أكثر إنسانية» الذي نشرناه للمرّة الأولى عام ١٩٧٧ بالفرنسية (اللغة التي كتب بها أساسًا) ثمَّ أعادت الدار التقدّمية نشره باللغة العربية سنة ١٩٨٧ ـ في هذا الكتاب الذي يتألف أصلاً من مجموعة محاضرات حمل اسمه عنوان واحدة منها ـ أشار كمال جنبلاط إلى أنَّ الكثير من الأفكار التي استقرّت في ما بعد في صلب نظرية التقدّمية الاشتراكية، شغلت باله منذ الحرب العالمية الثانية، وكانت ثمرة للقراءات والأبحاث والمداولات ونتيجة للتأمّل العميق أثناء عهد الدراسة في جامعة «السوربون» وفي ما تلاه... وكانت تتبلور عنده نظرية «الديمقراطية الجديدة». ففي حديث أدلى به إلى مجلّة (لاريفودوليبان) في كانون الأول سنة ١٩٤٤ قال كمال جنبلاط: إنَّني أتمنّى أن نكتشف بعد هذا الفشل الذريع الذي أصاب الأنظمة البرلمانية في لبنان، كما في فرنسا أو إيطاليا أو إلمانيا الغربية وفي الكثير من البلدان الأخرى... أتمنّى أن نكتشف هذه الصيغة الجديدة للديمقراطية التي يتوق العالم إليها، وهي صيغة اجتماعية من شأنها أن توفّق بين الحرّية والانضباط، بين النظام والتطوّر، بين التقليد والتقدّم، بين الدين وعملية فصله عن المستوى الزمني، بين الاشتراكية والملكية الخاصّة كما يمكنها أن توفّق ـ على مستوى أرفع ـ بين المثالية والواقعية، وبين الروحانية والسياسة.

وفي العدد الذي أصدرته جريدة «صوت الأحرار» لمناسبة رأس السنة (١٩٤٦ ـ ١٩٤٧)

كتب كمال جنبلاط مقالاً بعنوان: «تمنّياتي للعام الجديد» قال فيه: لم تقُم حتّى الساعة في صُلب الشعب اللبناني أي حركة سياسية تقدّمية واجتماعية شاملة من حيث نظرتها للوجود تهدف، من جهة، إلى إذاعة الأسس الفكرية الصحيحة للإصلاح المنشود وتعميقًا وجعل الشعب بأسره يعتنقها ويعمل على تحقيقها... وتسعى من جهة أخرى إلى تنظيم الجماهير وتعبئتها واستعمال سيطرتها وقوّتها الاجتماعية بغية تسلّم المقادير الأولى في الدولة وإقامة سلطة قوية تنفّذ الإصلاح وتفرضه، لأنَّ الإصلاح يفرض في النهاية، ولا يستجدى من أحد...

وكان كمال جنبلاط قد بدأ خلال عامي ٤٥ و٤٦ يناقش، في مجلّة «دفاتر الشرق» التي كان يصدرها بالفرنسية مع كميل أبو صوان، زميل الدراسة الكثير من الأفكار لبرنامج الحزب المرتقب، وعلى الأخصّ نظرية «الديمقراطية الجديدة» التي حظيت بالترحيب والتأييد من قبل العديد من المثقّفين.

وقال جنبلاط، في المقدّمة التي كتبها لكتاب «ربع قرن من النضال» الذي أرّخ لربع قرن مضى على تأسيس الحزب التقدّمي الاشتراكي (١٩٤٩ ـ ١٩٧٤) إنَّ الأستاذ سعيد حماده عميد كلّية الاقتصاد في الجامعة الأميركية والأمين العام للمجلس الاقتصادي الأعلى لدى الحكومة اللبنانية شارك في وضع الميثاق «وكان له الفضل في إيجاد بعض الصيغ الموقّتة ذات الاتّجاه الاشتراكي»... كما أنَّ الأستاذ الجامعي جوزف نجّار قدّم مساهمة واسعة في القسم الاقتصادي والثقافي. وكان حماده ونجّار قد شغلا في ما بعد منصبين وزاريين. وجرت من ثمَّ أكثر من محاولة لتأسيس الحزب الجديد شارك فيها كثيرون من المثقّفين والأدباء والشعراء أمثال سعيد عقل وصلاح لبكي وجان نفّاع نقيب المحامين وتوفيق ابراهيم رزق وفيليب بولس وجورج فيليبدس وجوزف نجّار وجميل صوايا وفريد جبران لكنّ الذين صمدوا حتّى النهاية كانوا قلّة. فمنهم من كان ينادي بالقومية اللبنانية وسواها من المفاهيم الانعزالية فيما كان كمال جنبلاط يركّز على القيم الإنسانية العامّة وعلى الديمقراطية الجديدة وعلى حقوق الفقراء من عمّال فلاّحين وضرورة العمل على تحسين أوضاعهم.

وفي النهاية استقرّ كرّاس المبادئ الأولية التي وضعها كمال جنبلاط لدى العلاّمة الشيخ عبد الله العلايلي، العالم الفقيه في اللغة العربية وآدابها وفي الحضارة الإسلامية، الذي تولّى الصياغة النهائية لميثاق الحزب التقدّمي الاشتراكي بالاشتراك مع كمال جنبلاط وكان اسم

الحزب هو "حزب التقدّم الاشتراكي" لكن الأديب ألبير أديب، صاحب مجلّة "الأديب" وأحد المؤسّسين اقترح تسمية "الحزب التقدّمي الاشتراكي" لأنها أكثر موسيقية وأقرب إلى السمع والاستيعاب فوافق المؤسّسون.

ـ انقلاب حسني الزعيم والإطاحة بالقوتلي وبالنظام البرلماني

فيما كانت الاستعدادات قائمة للإعلان رسميًّا عن قيام الحزب (تمَّ ذلك في الأول من أيار ١٩٤٩) جاءت المفاجأة من دمشق وكانت أول ردّ فعل على هزيمة العرب في فلسطين في حرب أيّار ١٩٤٨ وما تلاها...

ففي نهاية آذار ٤٩ قام ضابط من الجيش يدعى حسني الزعيم بانقلاب عسكري، وكان البلاغ رقم (١) الأول الذي أبصر النور في المنطقة العربية... تسلّم حسني الزعيم الحكم ووضع رئيس الجمهورية شكري القوتلي ورئيس الوزراء خالد العظم تحت الحراسة، وحلّ مجلس النوّاب، وألغى النظام البرلماني الجمهوري الديمقراطي وأعلن عن عزمه على إقامة "نظام جديد" في سوريا على غرار نظام "أتاتورك" في تركيا. وذكر أنَّ حسني الزعيم هو من أصل تركي... شكّل الانقلاب صدمة للاوساط السياسية والشعبية في دمشق. أمَّا في بيروت فأصيب الحكم بالذهول وتردّد كثيرًا قبل الاعتراف بالنظام الجديد خصوصًا وأنَّ القوتلي كان صديقًا لبشارة الخوري ورياض الصلح ورفيق درب وتعاون. وقد قام بزيارة لبنان وعقد مع الحكم فيه أكثر من اتّفاق وتعاون...

عرف عن حسني الزعيم أنه كان صاحب شخصية غير متّزنة، متقّلب المزاج، حادّ الطباع وقد أطلق على نفسه لقب المشير (أو المارشال)... قابل الزعيم عدم اعتراف الحكم اللبناني بانقلابه بالغضب الشديد، وسرعان ما وجّه دعوة إلى أركان المعارضة (كتلة التحرّر الوطني) لزيارة دمشق... فجرى لهم استقبال رسمي على الحدود وكأنهم رؤساء دولة وحكومة. وفي فندق "الشرق" حيث احتفى بهم حسني الزعيم شخصيًّا أجلس كمال جنبلاط من عن يمينه وعبد الحميد كرامي وعادل عسيران من على يساره... وفاجأ الديكتاتور السوري ضيوفه بالإعلان عن أنه على استعداد لمدّهم بالسلاح والمال والدعم للإطاحة بعهد بشارة الخوري ورياض الصلح... ونترك لكمال جنبلاط شخصيًّا أن يروي على طريقته ما تخلّل الاجتماع وحصل قال: صعقنا عندما عرض علينا حسني الزعيم

السلاح والمساندة الكلّية لتقويض عهد الشيخ بشارة الخوري في لبنان. فارتبك المرحوم عبد الحميد كرامي وكان لا يحبّ مثل هذه الأحاديث ولا يحب العنف... فالتفت إلي وثمَّ إلى المشير وقال: «قد يكون فلان أخبر منّا بذلك»... وكنت شخصيًّا ممّن لا يتصوّرون أمر اللجوء إلى مثل هذه الأساليب العنيفة على الإطلاق، فكان جوابي ينمّ عن بعض الارتباك الباطني والاستفهام «إنّنا سنفكّر بالأمر»... متلافيًا الردّ الصريح والجازم بالنفي لئلاّ يغضب صاحبنا... وأشرت مازحًا بأنني «لست اختصاصيًّا في هذه المسائل لتلطيف الجوّ ما أمكن»...

وأرسل حسني الزعيم مبعوثيه إلى بيروت أكثر من مرّة للغاية نفسها... لكنّ زعماء المعارضة تملّصوا بشتّى الأساليب والذرائع من الدخول في محادثات جدّية حول هذا الموضوع وأكّدوا أنَّ معارضتهم سلمية وفكرية وإصلاحية...

ـ الإعلان عن قيام الحزب الأول من أيار ١٩٤٩

تمّ الاحتفال بالإعلان عن قيام الحزب التقدّمي الاشتراكي في الأول من أيار سنة ١٩٤٩ في منزل كمال جنبلاط الكائن عهدذاك في مبنى إدمون رباط وراء المتحف الوطني في بيروت، وفي مؤتمر صحافي تخلّله حفل شاي...

وفي البيان الذي تلاه أعلن كمال جنبلاط «أنَّ يوم العمّال هو يومنا أيضًا، وشرف أن نطبع في تذكارات هذا اليوم تذكاراتنا، تذكارات الإعلان عن هذا الحزب» وأمل في أن يغدو هذا الحزب مدرسة لتأهيل الأفراد والجماعات لأداء مهمّات تنظيم المجتمع وفقًا لمبادئ العدالة والأخوّة والمساواة... وكان على الصراع الطبقي الذي استنزف قوى المجتمع على مدار قرون، أن ينسحب من مسرح التاريخ ويفسح المجال لطموح الناس إلى التضامن والوحدة... والحزب نموذج لهذه الوحدة الناشئة عن المحبّة والتقارب والتطوّر الشامل.

رحّبت الصحف اللبنانية بالإعلان عن ولادة حزب تقدّمي اشتراكي فأورد معظمها الخبر في الصفحات الداخلية وقالت جريدة «النهار» أنه من مفارقات السياسة اللبنانية أن تعلن ولادة الحزب في حفلة شاي بورجوازية... وحدها جريدة «التلغراف» لصاحبها نسيب المتني أبرزت خبر الاحتفال بإعلان تأسيس الحزب في صدر صفحتها الأولى بعناوين بارزة، ووصفت الإعلان عن إنشاء الحزب التقدّمي الاشتراكي بقيادة كمال جنبلاط أنه حدث عالمي وانقلاب جديد... وأشارت إلى أنه يدعو إلى التأميم وتقسيم الملكيات الكبرى...

لم يمضِ شهر على تأسيس الحزب التقدّمي الاشتراكي حتّى هزّ العاصمة بيروت الاشتباك الدموي الذي وقع في محلّة الجميزة بين جماعة من شباب الكتائب التي يترأسها بيار الجميّل والحزب السوري القومي الذي يترأّسه أنطون سعاده... هاجم الكتائبيون مبنى مكتب ومطبعة جريدة الحزب القومي "الجيل الجديد" وتغاضت قوى الأمن عن التدخّل وفضّ الاشتباك... ثمَّ داهمت قوى الأمن المكان وأعلن على الأثر أنه تمّ العثور على خرائط لثكن الجيش والدوائر الحكومية فوجّهت إلى سعاده تهمة تدبير انقلاب مسلّح... وقرّرت الحكومة حلّ الحزب السوري القومي واعتقلت الكثير من أعضائه البارزين...

أمّا زعيم الحزب انطون سعاده فقد تمكّن من الفرار إلى دمشق حيث رحّب به حسني الزعيم وقدّم له كلّ عون وأهداه مسدّسًا فضّيًا عربون إعجاب وصداقة... فقرّر الزعيم فعلاً القيام بثورة مسلّحة وراح يقوم باتّصالات طالبًا التعاون والمؤازرة.

التقى كمال جنبلاط انطون سعاده أكثر من مرّة لعلّ آخرها كان في مقهى "شاليه سويس" في محلّة جديدة المتن. حاول كمال جنبلاط إقناع انطون سعاده بأنَّ مشروعه الانقلابي مكتوب له الفشل... لكنّ الزعيم الذي وثق بحسني الزعيم وبما سيقدّمه له من دعم ومؤازرة رفض نصائح جنبلاط فقام جماعته باحتلال بعض مخافر الدرك في منطقة المتن... ولم ترق الأعمال المحدودة التي قام بها القوميون حسني الزعيم فجنّ جنونه فخان انطون سعاده وقام ليل ٦-٧ تموز باعتقاله وبتسليمه من ثمَّ إلى الحكومة اللبنانية بشخص مدير الأمن العامّ عهد ذاك الأمير فريد شهاب فأجريت محاكمة صورية وعاجلة أمام المحكمة العسكرية مساء يوم السابع من تموز فحكم عليه بالإعدام... وفجر الثامن من تموز تمَّ تنفيذ الحكم رميًا بالرصاص في محلّة الأوزاعي...

وفوجئ كمال جنبلاط بتنفيذ حكم الإعدام بهذه الصورة العاجلة، واعتبره مؤامرة مدبّرة مع أطراف خارجية، فقدّم استجوابًا للحكومة اللبنانية برئاسة رياض الصلح قال فيه: "إنّي أطلب استجواب الحكومة اللبنانية بآسمي وبآسم الجيل المخلص الواعي حول الظروف الغامضة التي أحاطت بالقضاء على الأستاذ انطون سعاده رئيس الحزب القومي السوري الاجتماعي وهو رجل عرف إنّه رجل عقيدة ومؤسّس مدرسة فكرية كبيرة وباعث نهضة في أنحاء الشرق قد يندر لها مثيل".

لكن الحكومة منعت نشر الاستجواب في الصحف ورفض مجلس النوّاب مناقشة "قضيّة سعاده"... فقرّر جنبلاط تقديم أكثر من استجواب ركّز فيها على الناحية الحقوقية وعلى حقّ الدفاع عن النفس والحفاظ على حقوق الإنسان المشروعة في أي محاكمة وفي ظلّ أي حكم وحكومة. وصبّ جام غضبه على بشاره الخوري ورياض الصلح الأمر الذي حمل سامي الصلح ابن عم رياض ورئيس لعدّة حكومات في عهدي بشارة الخوري وكميل شمعون على أن يكتب في مذكّراته: "شعرت من خلال مقابلتي لرياض أنه لم يَكن في قرارة نفسه يرغب فعلاً في أن تتدهور الأمور لتصل إلى هذه النتيجة المؤلمة. ولكن يظهر أنَّ ظروفًا طارئة تجاوزته في آخر لحظة".

والحقيقة تقال إنَّ كمال جنبلاط كان معجبًا بشخصية انطون سعاده، وقد ناقشه في أفكاره في أكثر من مناسبة ومجال، وعلى الأخصّ ما سُمّيَ بـ "المدرحيّة" في فكر سعاده. والكتاب الذي نشره سنة ١٩٦٣ حول قضيّة الحزب السوري القومي الاجتماعي وسعاده جاء تحت تأثير الانقلاب العسكري الذي قام به القوميون ليلة رأس السنة ١٩٦١ ـ ١٩٦٢. فكمال جنبلاط هو ضدّ الانقلابات العسكرية في المبدأ، وضدّ الوصول إلى الحكم بغير الوسائل الديمقراطية السلمية، وخصوصًا في بلد مثل لبنان له هذا التنوّع والتعقيد في عائلاته الروحيّة وشرائحه المجتمعية.

وفي أحاديث جرت بين كمال جنبلاط وبيني في منتصف العقد السادس من القرن العشرين قال لي مستغربًا: إنَّ واحدًا من الذين تسبّبوا في نكبة فلسطين وشعبها عام ١٩٤٨ لم يُسَاءَل ولم يُحَاكَم، ولم يتمّ إنزال عقوبة الإعدام به... أفهل يجوز أن يتمّ إعدام أنطون سعاده بهذا الشكل الفظيع، أي بما يشبه القتل المتعمّد لمجرد أنه نشر أفكارًا تُخالف ما أُطلق عليه "كيان لبنان"؟ واعتصم بالصمت للحظات ثمَّ قال: في مثل هذه الحالات فتّش دائمًا عن الجيران. وقد قيل في مثل لبناني سائر وفي حكمةٍ مشرقية معروفة: "إنَّما الأرض بأهلها، بجيرانها تغلو الديار وترخص. الجار قبل الدار".

ووصل الحديث بنا إلى مأساة فلسطين وشعبها وإلى جرائم الصهاينة في أرض السلام، أرض الرسالات والأنبياء فخاطب اليهود بالقول: إذا لم تؤمنوا بتعاليم السماء والأنبياء، فآمنوا بأمثولات التاريخ في هذا الشرق الذي شاهد من الغزاة أشكالاً وألوانًا... جميعهم بادوا، وبقي الشرق لبنيه.

ـ تجديد الولاية وتدهور الأوضاع

في شهر حزيران ١٩٤٩ أعيد انتخاب بشاره الخوري رئيسًا للجمهورية لولاية ثانية من ستّ سنوات، وذلك بعد أن أجرى مجلس النوّاب تعديلاً للمادّة الدستورية بأكثرية ثلثي أعضائه... وبدأت مرحلة جديدة من حكم بشارة الخوري تميّزت بالمزيد من الفساد وبصعود نجم شقيقه الشيخ سليم الذي لقّب بـ "السلطان سليم".

وراح الحكم يصمّ أُذنيه عن سماع أية دعوة للإصلاح ولإقامة حكم القانون والدستور، والعدل والأخوّة والمساواة في الحقوق والواجبات. وتضامن مع الحكم مجلس النوّاب بأكثريته المطواعة التي انوجدت نتيجة التزوير والرشوة وعمليات الفساد والإفساد... ولّما وجد كمال جنبلاط أنّ كلّ محاولاته داخل مجلس النوّاب باءت بالفشل والإحباط لدرجة وقحة وتعسّفية بلغت برئيس المجلس عهدذاك صبري حماده حدّ منعه من الكلام... ثمّ منعه من الدخول إلى قاعة الاجتماعات في المجلس لمدّة عشرة أيام...

لمّا أيقن الرئيس المعلّم أنّ هذه حال مجلس النوّاب في بلد النور والعلم لبنان، انصرف إلى التبشيربأفكاره ومبادئه في معظم القرى والبلدات والمناطق اللبنانية.

وكتب في مقدّمة كتاب "ربع قرن من النضال": "بعد تأسيس الحزب كانت نفحة الرسولية تعمر في ذلك الوجد الوجودي، فيدفعنا إلى التبشير بمبادئ الحزب، كأنَّ دنيا جديدة هي أمامنا وفي متناول يدنا، أو كأننا سندخل إليها عمّا قريب، فتتبدّل الأرض غير الأرض، ويصبح فيها الإنسان القديم إنسانًا آخر"...

انصرف كمال جنبلاط إلى الكتابة والتبشير، فكتب أكثر من مقال تناول فيها شتّى جوانب النظرية التقدّمية الاشتراكية التي حملها ميثاق الحزب... ثمَّ ركّز على زيارة الناس وعلى مخاطبتهم مباشرة... وأذكر أنه زارنا سنة ١٩٥٠ في منزلنا في الدامور برفقة ثلاثة أو أربعة أشخاص من آل شويري وأبو مرعي، وكان والدي يميل إلى مبادئ كمال جنبلاط وإلى شخصه وما يمثّل...

وحول هذه الجولات والزيارات كتب كمال جنبلاط يقول: "كانت أفضل تجربة قيامنا مع بعض الرفاق المؤسّسين والأعضاء بزيارة عدد كبير جدًّا من القرى في مناطق عديدة، وأحيانًا بيتًا بيتًا للتبشير بالعقيدة الحزبية الجديدة. ونذكر على سبيل المثال تجوالنا في قضاء جبيل وفي البقاع وفي سواهما، ونتذكّر بشيء من العاطفة كم كان لهذا الأسلوب الساذج

البسيط من القوّة والفعالية. ولا أزال أحفظ في خاطري هاتين الدمعتين اللتين اغرورقت بهما عينا رجل كهل في العاقوره لسماعنا ندعو بهذه الروح الرسولية التي يتحلّى بها ناشرو العقائد الدينية الحديثة العهد... وهكذا انتشر الحزب وفكرته كالنار في الهشيم وبسرعة عجيبة في معظم أنحاء لبنان، وفي جميع المدن الرئيسية. وقد تجاوز في مدى سنتين الخمسة عشر ألفًا من الأعضاء».

كلمة «التطوّر» هي الأكثر استعمالاً في أدبيات كمال جنبلاط التي تشرح فكره وتقدّم نظرته إلى الأمور. وذلك يرجع إلى تأثّره بكتابي: «الأخلاق والتطوّر» لجوليان هكسلي، «وظاهرة الإنسان» لتيلار دو شاروان.

تساءل دو شاردان في كتابه: «ظاهرة الإنسان»: «ما هو التطوّر؟ أهو: نظرية أم منظومة أم فرضية؟» وأجاب: «كلا، إنَّه أكثر من ذلك بكثير. إنَّه الشرط الأول الذي لا بدَّ أن تخضع له من الآن فصاعدًا كلّ النظريات والفرضيات والمنظومات إذا كانت تتوخّى المعقولية والحقيقة. إنَّ التطوّر هو الضوء الذي ينير كلّ الحقائق والخطّ المنحني الذي تلتقي عنده سائر الخطوط»...

والتطوّر والعلم والاقتصاد والسياسة والدساتير والقوانين يفترض، بل يجب، أن تصب في اتّجاه واحد هو خدمة الإنسان... ومن هنا تأكيد كمال جنبلاط في ميثاق الحزب التقدّمي الاشتراكي على «أنَّ المجتمع في كلّ مؤسّساته ـ ومنها السياسية ـ ليس في ذاته غاية بل وسيلة إلى بناء الإنسان. فالدولة تقدّس أو تلعن، تخصب مؤسّساتها أو تعقم، بقدر ما تخدم أو لا تخدم هذا الإنسان».

وأطلق صرخته المعهودة سنة ١٩٥٠ عندما قال: «سنحرّر الإنسان، ولا شكّ، من عبودية رفيقه الإنسان. سنحرّر الإنسان من البؤس والمرض، ومن التخوّف على المصير وعلى مصير العائلة والأولاد... سنحرّره من الجهل ومن الجهالة، ومن البطل ومن البطالة... ومن ضنك الآلات المرهقة لأجهزته ولأعصابه ولوقته ولروحه...

وكرّر كمال جنبلاط في أكثر من مقال وموقف وخطاب: إنَّ المهمّة العملية للحزب التقدّمي الاشتراكي هي بناء مجتمع اشتراكي في لبنان يستند إلى مبادئ المساواة والعدالة الاجتماعية والتضامن الأخوي بين المواطنين. وشدّد على أنَّ هذه المبادئ ليست من اختراع

أحد، بل هي وردت أو ظهرت، بهذا المقدار أو ذاك، في الديانات التي أبصرت النور منذ فجر التاريخ البشري... فلقد اتّسمت بصفة الاشتراكية الوحدات الرسولية في أوائل أيام الكنيسة المسيحية، وكذلك الجسم الاقتصادي والاجتماعي للإسلام في بداياته... كما أنَّ الجمعيات والتنظيمات البوذية والكنفوشية في الهند والصين وسواهما تتّسم بروحية الاشتراكية والمشاركة وروح الجماعة.

وبكلمة، يمكن القول إنَّ حياة كمال جنبلاط وفكره ومؤلّفاته ونضالاته تمحورت حول عنوانين كبيرين: علاقته بالله وعلاقته بالإنسان.

في العلاقة الأولى قد يأتيك من يزعم أنَّ الرجل في مرحلة ما من حياته كان كذا ثمَّ صار في مرحلة أخرى من الحياة غير ذلك...

أمَّا نحن الذين عرفنا الرجل عن قرب حوالي ثلاثة عقود من الزمن، وشاركناه حميمياته وحلاوة النضال ومراراته، وأشرفنا على تنقيح وطباعة عدد لا بأس به من كتبه ودراساته، ففي وسعنا التأكيد والجزم بأنَّ كمال جنبلاط كان موحّدًا بامتياز. حاور الديانات كلّها تقريبًا، القديمة منها في التاريخ في الصين والهند ومصر القديمة الفرعونية ويونان أرسطو وأفلاطون وفيثاغورس، إلى اليهودية والمسيحية والإسلام، وما تفرّع منها وعنها ومن مذاهب وشيع، واعتبرها أنهرًا وسواقي تصبّ كلّها في بحر واحد أو في محيط جامع واحد هو الله... وكان يقول لنا: إنَّ الموحّد الحقيقي هو من اختار أو أخذ من الديانات أفضل ما عندها من قيم وأخلاقيات ومِثالات، وحاول أن يعيشها في حياته اليومية وفي علاقاته وتعامله مع الآخر.

أمَّا في العلاقة الثانية فشكّل الإنسان، الذي خلقه الله على صورته ومثاله، الأساس والمنطلق لميثاق حزبه وكلّ كتاباته ونضالاته "المواطن الحرّ والشعب السعيد" هما العنوان الأكبر والأعم لهذا الفكر العامربالإنسانية والأخلاق وبما يؤكّد كرامة الإنسان وسعادته. والتقدّمية الاشتراكية التي نادى بها هدفها الأول والأخير إقامة مجتمع الكفاءة والكفاية والعدل والحقّ والخير والحرّية والجمال...

كان يخصّص يومين في الإسبوع، في بيروت، لاستقبال الناس في مكتبه الكائن في الستينات والسبعينات من القرن العشرين في مبنى قديم في محلّة البطريركية (زقاق البلاط).

وقبل أن يخرج من بيته في منطقة المصيطبة (محلّة فرن الحطب) كان يجمع أوراقه ثمَّ يعطي إشارة الانطلاق: ـ يللا... عالمطهّر...

ووراء مكتبه المتواضع كان يعلّق لوحة في داخلها عبارة تقول: «إنَّ شريعة العدل، شريعة الله، ترفض أن يكون الغنى إرثًا والفقر إرثًا، والصحّة إرثًا والمرض إرثًا، والعلم إرثًا والجهل إرثًا، والكرامة الإنسانية إرثًا...».

«إنَّ شريعة العدل، شريعة الله ترفض كلّ هذا وتدينه وتأباه».

أمّا في قاعة الاستقبال في منزله ببيروت فقد علّق لافتة احتوت هذين البيتين من الشعر للفيلسوف الصوفي الأندلسي أحمد بن عربي:

دَعِ المقادير تجري في أَعِنَّتِهَا ... ولا تَنَامَنَّ إلاَّ خاليَ البالِ

ما بين طُرفة عينٍ وانتباهتها ... يبدّل الله من حال إلى حالِ

وفي قاعة الاستقبال الكبرى في قصر المختارة لوحة تحمل هذه العبارة: «من خاف من بشرٍ مثله سلِّطَ عليه»...

سألته مرّة: لمن هذه العبارة، لك أم لسواك، فأجاب إنّها من مضامين أحد كتب إخواننا الموحّدين. ولماذا اخترتها وأبرزتها في صدر قاعة الاستقبالات الكبرى؟ قال: ليراها الجميع، وليقرأها الجميع، وليعملوا بمضمونها...

ثمَّ أفاض قليلاً في الشرح فقال: أنا ما أردت الناس يومًا قطعانًا من الغنم تساق إلى مصيرها رغم إرادتها... بل أردتهم بشرًا أحرارًا يقرّرون ما يشاؤون، ويؤمنون بما أرادوا عن قناعة ورويّة وحسن قرار... وما أردت يومًا أن يمنحني الناس ثقتهم خوفًا منّي، بل إيمانًا منهم بأفكاري ومبادئي وحسن أدائي وقيادتي...

ولكمال جنبلاط رأي متقدّم ومتحرّر جاء فيه: «إذا خيّروك بين حزبك وضميرك فاختر ضميرك»...

ـ الزواج والإنجاب

عاما ١٩٤٨ و ١٩٤٩ كانا بالنسبة لكمال جنبلاط، وعلى صعيد حياته الشخصية، عامي سعادة وهناء. ففي ربيع عام ١٩٤٨ عقد قرانه في مدينة جنيف السويسرية على الآنسة

مي شكيب أرسلان كريمة أمير البيان والمناضل الوطني العربي الكبير الأمير شكيب أرسلان. وتمّ الزواج بعد تعارف وحكاية حبّ دامت سنتين.

أمَّا ما أورده كتاب إيغور تيموفييف «كمال جنبلاط: الرجل الأسطورة» من أنَّ عمّ العروس الأمير عادل أرسلان هدّدها بالقتل إذا هي تزوّجت كمال جنبلاط فهو حكاية مزاح ومجرد سخافة ودسيسة في غير محلّها الصحيح. فما عرفته من كمال جنبلاط يؤكّد أنَّ زواجه كان ثمرة حبّ وعاطفة سامية جيّاشة جمعته بالأميرة مي شكيب أرسلان.

وتكلّل هذا الزواج بالسعادة الكاملة عندما رزق كمال جنبلاط وعروسه في السابع من شهر آب سنة ١٩٤٩ ولدهما البكر والأوحد وليد، فقرّت لولادته عيون كمال ومي والستّ نظيرة جنبلاط التي اطمأنت إلى أنَّ ولدها كمال أصبح له وريث للزعامة الجنبلاطية العريقة...

* * *

انتخابات سنة ١٩٥١: مهرجان الباروك ومردوده على سلامة العملية الانتخابية

«السياسة هي شرف قيادة الرجال في مراقي العزّة والرفعة والكرامة»
«إذا خُيِّرتَ بين حزبك وضميرك فاختر ضميرك»

كمال جنبلاط

«لحن الإصلاح لا يكون خالدًا، إلاّ إذا كانت حشاشة المصلح نفسه آخر مقاطعه بحيث يكون قرارًا صامتًا للّحن الصارخ الخالد»

العلاّمة الشيخ
عبد الله العلايلي

منذ ربيع ١٩٥٠ بدأ مجلس النوّاب دراسة تعديل قانون الانتخابات النيابية، وإعادة تقسيم الدوائر الانتخابية. وخلال شهر آب من ذلك العام صدر مرسوم التعديل وقضى برفع عدد أعضاء المجلس النيابي من ٥٥ إلى ٧٧ نائبًا. وبدل اعتماد المحافظة التي كانت الدائرة الانتخابية عام ١٩٤٧ نصّ القانون الجديد على تقسيم محافظة جبل لبنان إلى ثلاثة دوائر: دائرة الشوف – عاليه، دائرة قضائي بعبدا والمتن الشمالي ودائرة كسروان – جبيل. وبدأت الاستعدادات في مختلف الجبهات للانتخابات النيابية التي ستجري خلال ربيع عام ١٩٥١.

مطلع ١٩٥١ اشترى كمال جنبلاط ترخيص جريدة «الأنباء» من الصحافي أوجين ابيلا شقيق نقيب الصحافة الأسبق روبير إبيلا. وكان الحصول على ترخيص مطبوعة (جريدة أو مجلّة) يتطلّب تقديم طلب إلى وزارة الداخلية يحمل طابعًا قيمته عشرة قروش لبنانية فقط لا غير، وذلك قبل استحداث وزارة الإنباء التي أصبح اسمها في ما بعد وزارة الإعلام... وقبل أن يتحوّل ترخيص المطبوعة السياسية إلى «امتياز»، في نظام الاحتكار والامتيازات، يساوي ثمنه ملايين الدولارات الأميركية... ويخالف مضمون الدستور الذي نصّ على حرّية التعبير والقول والفكر والنشر لجميع المواطنين.

وحدّد يوم الأحد الموافق الثامن عشر من شهر آذار ١٩٥١ موعدًا لإقامة مهرجان شعبي في بلدة الباروك يتمّ خلاله الإعلان عن لائحة المعارضة في قضائي الشوف وعاليه، فطلب كمال جنبلاط أن يصدر العدد الأول من «الأنباء» يوم الجمعة الموافق ١٦ آذار، أي

في اليوم الذي قضى فيه شهيدًا في السادس عشر من آذار ١٩٧٧ وبعد ٢٦ عامًا من تاريخ صدور «الأنباء»... وكتب كمال جنبلاط مقاله الافتتاحي الأول من «الأنباء» تحت عنوان «قبيل المعركة» قال فيه بالحرف: «على كلّ فرد منّا أن يكون على أهبة أن يواجه القوّة المادّية، وأن يصارع السلطان الغاشم، وأن يرمي بماله، بدمّه، بحياته، بأولاده، في حلبة الصراع».

وكان الشيخ بشارة الخوري قد ألّف، نتيجة لضغوط المعارضة، ما سمّي حكومة حيادية برئاسة الحاج حسين العويني للإشراف على الانتخابات النيابية. وانصرفت جهود كمال جنبلاط للعمل على إنجاح مهرجان الباروك بعد ما وصلته معلومات من أنَّ السلطة، بإشراف شقيق الشيخ بشارة (السلطان سليم)، قرّرت إفشال المهرجان، وحتّى منع حصوله بشتّى الوسائل والضغوط، ولو بلغ الأمر إلى حدّ سفك الدم واستعمال القوّة... كان جنبلاط على اتّصال شبه دائم مع الحاج حسين العويني ومع صديقه الآخر الدكتور يوسف حتّي عضو الحكومة ووزير الداخلية فيها، ينقل إليهما المعلومات التي تصله عن تحرّكات قوى السلطة ونواياها... إلاّ أنَّ العويني المعروف بحنكته ونظريته الوسطية (هيك وهيك)، وكذلك الوزير يوسف حتّي الذي اشتهر بالنزاهة والتجرّد، قابعان في مكاتبهما في سراي الحكم... أمّا القرار وسلطة التقرير فكانا في مكان آخر، أي عند السلطان سليم ومعاونيه...

ويوم الأحد ١٨ آذار ١٩٥١ حصل في الباروك، على أرض المهرجان، ما توقّعه كمال جنبلاط وحذّر منه ودعا إلى تلافيه... لقد أُطلقت النار، وسقط شهداء وجرحى من الطرفين. سقط للحزب التقدّمي الاشتراكي ثلاثة شهداء هم: ملحم أبو عاصي من معاصر الشوف، وحمزة أبو علوان من الباروك، وفايز فليحان من صوفر، وسقط شهيد من الدرك هو النقيب بهيج شحوري من فصيلة بيت الدين وسقط عدد من الجرحى...

وكان يوم الباروك هو معمودية الدمّ للحزب التقدّمي الاشتراكي كما وصفه كمال جنبلاط الذي أصرّ على أن يجري المهرجان، بالرغم من كلّ ما حصل، لأنَّ هدف السلطة كان إلغاء المهرجان بأية وسيلة... طلب كمال جنبلاط من الجميع: مواطنين وقوى أمن، التزام الهدوء والصمت في حرم الموت... وأعلن استمرار المهرجان... ولقد روى العلاّمة الشيخ عبد الله العلايلي، الذي شارك في المهرجان، انطباعاته عمّا حدث في الباروك قال: «أمّا عن قوّة أعصاب كمال جنبلاط، فقد شهدت منه ما أدهشني حتّى الخيال، بل لقد ظننتني شخصًا «تخيّل ثمَّ خالا» وفق تعبير قدمائنا.

«فقد دعا الحزب إلى مؤتمر حاشد في الباروك، ولا أراني مبالغًا إذا خلت أنه ضمَّ على ما يربو على عشرين ألفًا... وفي إثر افتتاح المهرجان ووقوف الفقيد الشهيد بقامته الفارعة ليخطب حتّى انهمر من التلال المحيطة وابل من الرصاص أصاب بعضه ثلاثة من الحضور، وكاد الهرج والمرج يسود الجمع المحتشد... ولكن تماسك الخطيب الذي لم يطرف له جفن ولم يتلجلج له لسان كأنَّ شيئًا لم يقع، استقطب الجماهير حوله كمجال مغنطيسي واستلّ مخاوفهم وفتّ في عضد خصومه... «وظلّ الشيء الثابت: إنَّ إرادة التحدّي العامّة تغلب تحدّي الإرادة مهما اجتمع لها من أسباب البطش والقمع والإرهاب».

كان المردود الأول لمهرجان الباروك أنه أكدّ زعامة كمال جنبلاط وصلابة قيادته، فأجمعت الكلمة على أنه زعيم استثنائي وإنسان غير عادي على الإطلاق...

أمّا مردود المهرجان على صعيد سلامة العملية الانتخابية وما اتّخذته حكومة العويني من قرارات وإجراءات، لعلّ أبرزها كان القرار بأن يتمّ فرز نتائج الانتخابات في كلّ قلم انتخابي على حدة بحضور رئيس القلم ومندوب عن كلّ مرشّح، ثمَّ يوضع محضر خطّي بالنتيجة يوقّعه الجميع وينقل مع الصندوق والأوراق التي في داخله إلى مركز القائمقامية أو المحافظة فتعلن لجنة القيد التي يترأسّها قاضٍ النتيجة الرسمية للانتخابات... فلم يعد في الإمكان أن تمرّ الصناديق بمنزل الشيخ سليمٍ الخوري في محلّة فرن الشبّاك وأن تستبدل الأوراق التي في داخلها ومعها النتائج... لكنّ بعض الناس لم يصدّقوا أو لم يثقوا بقرارات الحكومة فحضروا إلى مراكز الاقتراع وهم يحملون قطًّا... وعندما سئلوا عن السبب أجابوا: حتّى لا يأكل الجرذ الذي في الصندوق أوراق مرشّحينا... كالعادة!

خطأ عرضي: كتب عزّت صافي في الصفحة ٩٨ من كتابه «طريق المختارة – زمن كمال جنبلاط» في وصفه لما جرى في يوم الباروك: «في هذا البيت مخفر الدرك وقد انتشرت حوله أعداد كبيرة من قوى الأمن، وجاء الضابط سعيد نجيم من بلدة «المعاصر» جارة الباروك للإشراف على الوضع». وفي هذا النصّ خطأ عرضي ربّما وهو أنَّ آل نجيم في بلدة معاصر الشوف ينتمون إلى طائفة الملكيين الروم الكاثوليك... أمّا الضابط سعيد نجيم المعني في النصّ فهو من بلدة «دورس» البقاعية، قضاء بعلبك. وهو ينتمي إلى الطائفة المارونية... شقيقه المطران عبد الله نجيم. ومن أحفاده الطبيب الإعلامي زياد نجيم والعقيد نجيم من الشرطة القضائية. فاقتضى التصويب والإشارة.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ لائحة مرشّحي المعارضة في قضائي الشوف وعاليه والتي سمّيت «لائحة الإنقاذ» ضمّت: كمال جنبلاط، كميل شمعون، أنور الخطيب، إميل البستاني، غسّان تويني، جورج عقل، سالم عبد النور، فضل الله تلحوق، راجي السعد، وشفيق الحلبي. ولقد وقع المرشّحون على بيان انتخابي كتبه كمال جنبلاط وأسماه: "وثيقة الشرف» وجاء فيه: أتعهّد بشرفي وبمعتقدي، وبوعيي لحقيقة بلادي بتأييد مشاريع الحزب التقدّمي الاشتراكي الرامية إلى تأمين سعادة الشعب اللبناني، وأن أعمل جاهدًا في الندوة النيابية لتحقيق المشاريع مع ممثّلي الحزب. ومن أبرز هذه المشاريع التي تضمّنتها الوثيقة: الضمان الصحّي للجميع، مجانية التعليم من الابتدائي حتّى المتوسّط والثانوي والعالي وجعله إلزاميًّا في المرحلة الابتدائية، وبناء مساكن لموظّفي الدولة والعمّال والمزارعين، وضمان الحرّيات العامّة والحرّية الحزبية وحرّية النشر واستقلال القضاء، وإلغاء الألقاب تحقيقًا لمبدأ «لا ميزة لامرئ على امرئ إلاّ ميزة المعرفة والنشاط»، وتحديد ساعات يوم العمل بسبع ساعات، وتقسيم الملكيّات الزراعية الكبرى في البلاد واسترداد الشركات ذات الامتياز ومدى النفوذ الرأسمالي والاقتصادي الأجنبي فيها وطرق مواجهة أخطاره...

ـ بين الستّ نظيرة وكمال بك؟!

كان من الطبيعي أن تختلف الآراء وتتباين، وربّما أن تتصادم النظرة إلى الأمور قليلاً أو كثيرًا بين جيل وجيل؛ فهذه سنّة الحياة في تطوّرها وتقدّمها إلى الأمام وفق روحية العصر ومتطلّبات تكوّن التاريخ واستمراريّته...

فكيف إذا كان الحال بين والدة كالستّ نظيرة جنبلاط وبين ولد ووريث اسمه كمال جنبلاط. كان هو «الكمال المختار» كما أسماه العلاّمة الشيخ عبد الله العلايلي منذ العام ١٩٥٠. فقد كتب العلايلي يقول: "أذكر يوم أسّسنا فرع الحزب في المختارة سنة ١٩٤٩، أني قلت في كلمتي: إنَّ أنوال القدر التقت فيه مرّتين يوم قدّمته "كمالاً"، ويوم أنبتته من "المختارة "لتكون النسيجة "الكمال المختار»... ويعلم ربّك أني لم أقلها يومذاك تلاعبًا لفظيًّا بعطف اسم على اسم، فقد عرفته منذ نعومة زغب وجهه، فما حال ظنّي فيه ولا تغيّر يومًا عن يوم، وظلّ هو إيّاه ينبوع ضمير، ومعين قلب نمير...».

وقال الشيخ العلايلي في ما قال: "إنّه شعور من الحقّ يطيف بكلّ نفس لا تزال كما خرجت من يد الله، فيشكّل فيها قوّة ماضية، وإرادة لا تنثني... كما يكيّفها على نحو تحسّ

معه بكلّ مفارز الباطل مهما استخفى في أقنية المجتمع. حتّى إذا استوى فيها الشعور بالإصلاح، غدا كلّ الفكر، وكلّ المنطق وكلّ اللّذة، بل كلّ الحياة... وكثيرًا ما شكّل هذا الشعور أزمة نفسية عند صاحبه تجعله وإلهًا به شاخصًا إليه، فهو في الذكرى نجوى وحنين، وفي النضال عواصف ورعود، وفي العاطفة هيام، تكون نهايته أبدًا التضحية وسقوط المصلح ضحيّة، فإنَّ لحن الإصلاح لا يكون خالدًا، إلاّ إذا كانت حشاشة المصلح نفسه آخر مقاطعه، بحيث يكون قرارًا صامتًا للّحن الصارخ الخالد...

"إنَّ لحن الإصلاح في حقيقته لحن الحياة والموت، فالذين يحسّون بنزعة الإصلاح في أنفسهم لا يفتأون يردّدونه في استهواء وهم مأخوذون، بما فيه من بدوات، تبثّ الثورة في عقولهم وقلوبهم، ولا تلبث أن تُلهب المجتمع لتُخرجه إخراجًا آخر يجيء وفق إرادتها الحرّة وفكرتها المصلحة...".

"إنَّ عقل المجتمع يكون في عقل المفكّر المصلح ودماءه في دمائه، لذلك يجيء وهو في قوّة مجتمع كامل، يناهضه ثمَّ يقوده، ودائمًا تكون نفسه أكبر من الألم، وهذا سرّ نجاحه".

فيوم قرّر كمال جنبلاط أن يعيش حياة التقشّف والتصوّف والتأمّل اصطدم بوالدته. ويوم سار في هدي المبادئ والأفكار الجديدة: مبادئ العلم والتطوّر والكفاءة والعدالة الاجتماعية كان يناقض ويناهض التقليد والامتيازات، وربّما بعض العادات والتقاليد الموروثة. إنّه صراع بين نهجين وجيلين وعقليّتين ونظرتين إلى الحياة وإلى السلطة وإلى الزعامة. ولم تكن الستّ نظيرة وحدها في هذا الاتّجاه. كان ثمّة العديد من رجال الدين ورجال السلطة مَن ينظرون نظرتها إلى الأمور. وأذكر جيّدًا أنني يوم التقيت للمرّة الأولى في مكتب نسيب المتني بجريدة « التلغراف » الأديب والوجيه عارف النكدي قضى دقائق وهو يحاضر في محاسن « الغرضية » وفي مساوئ « الحزبية »، وكان نسيب المتني يخالفه الرأي وأنا أستمع... فالستّ نظيرة كانت ترى أنَّ « الجنبلاطية » هي المدى والأفق الذي يفترض بكمال بك أن يكتفي به وأن يعمل عليه... وكمال جنبلاط كان ينظر إلى البعيد البعيد، كان يحاكي الماضي ويفيد من عبره ودروسه ليبني المستقبل المشرق ولو كان ما زال غير منظور وغير واضح المعالم والأغوار والأبعاد.

وسار كمال جنبلاط بعيدًا في الدرب الذي اختار، وأسّس الحزب التقدّمي الاشتراكي وأعلن ميثاقه وفيه أنَّ العلم والعمل والخبز والصحّة والثروة والكرامة الإنسانية للجميع،

متساوين في الحقوق والواجبات... فكان لا مناص من بعض سوء الفهم وسوء التفاهم والإشكالات لكنّها ظلّت في حدود الأخذ والعطاء والسؤال والجواب، والعتاب صابون القلوب كما يقولون...

إمّا أن نسترسل في الأمور فنحاول الإساءة ربّما بدل التوضيح والإيضاح ووضع النقاط على الحروف، فتلك مسألة فيها نظر وأبعاد وتوجّهات... ولنا عَوْد مفصّل إلى ذلك في عرض وتشريح لِما تضمّنه كتاب المستشرق الروسي إيغور تيموفييف: "كمال جنبلاط: الرجل والأسطورة" من إساءات مبطّنة ومكشوفة أحيانًا إلى كمال جنبلاط وإلى علاقته مع السيِّدة والدته الستّ نظيرة وما نسبه إليها تيموفييف من أقوال لم تصدر عنها بالتأكيد... وعذره ربّما أنه شخص غريب عن عاداتنا وتقاليدنا والأعراف، وقد استعان بشخص غريب آخر عاونه في الكتابة والتنقيح وربّما في التصحيح، الذي يبقى في حاجة إلى التصويب والتصحيح والتنقيح في نهاية المطاف.

فعبارة: "إنَّ ابني ليس إنسانًا سويًّا" التي وردت في الصفحة ١٨٤ - السطر الخامس - من كتاب تيموفييف هي عبارة سمجة ومسيئة ومدسوسة قد تسيء إلى ناشرها وإلى من أطلقها أكثر ممّا تسيء إلى المعنيّ بها، أي إلى كمال جنبلاط... ولكن يمكن أن تحاكيها وتوازيها أسطرًا كُتبت ونُشرت في الصفحة ٢٨٣ من كتاب عزّت صافي حول معركة تلال بيت الدين ومحاولة احتلال السراي في العامّ ١٩٥٨. كتب عزّت في المقطع الثالث من الصفحة عينها الآتي: "كان قصر بيت الدين فارغًا في ذلك اليوم الثاني عشر من أيّار ١٩٥٨. وعند "دوّار بعقلين" ترك كمال جنبلاط سيّارته وترجّل ورفاقه في الوعر نحو تلال بيت الدين، وتمركز في مكان يشرف على السرايا، وكان الاشتباك بين الاشتراكيين وقوى الدرك قائمًا. وفيما أخذ سامي موقعه وبدأ يطلق النار تقدّم جنبلاط ووقف مكشوفًا في مرمى النيران، فاتحًا سترته، ويداه على خاصرتيه، وراح يراقب الموقف في ساحة السرايا، فاندفع فؤاد نحوه وحاول جذبه إلى الوراء فلم يتمكّن، فانضمّ إليه سامي وتعاونا على أبعاده عن النقطة المكشوفة"... إلخ.

إنَّ كتابة ونشر مثل هذه المعلومات قد يوحي إلى القارئ والمتمعّن في ما يقرأ بأنَّ كمال جنبلاط هو فعلاً إنسان غير سوي وغير متّزن، وهو صاحب العقل الراجح والرؤية الثاقبة والقيادة الحكيمة الواعية...

وفي عَوْد إلى موضوعنا الأساس، ففي مساء يوم السابع والعشرين من شهر آذار ١٩٥١ فارقت الستّ نظيرة الحياة وانتقلت إلى جوار ربّها راضية مرضيّة عن عمر لم يصل إلى منتصف العقد السادس.

بكى كمال جنبلاط الوالدة والأمّ الحنون، والزعيمة المتبصّرة الحكيمة... وأقام لها مأتمًا ووداعًا لا يقام إلاّ للرجال العظام، وهو ليس بالكثير على السيِّدة التي وصفتها الصحافة اللبنانية، في اليوم التالي، بأنها ألمع امرأة عرفتها الحياة السياسية والاجتماعية في الشرق منذ عهد زنّوبيا ملكة تَدْمر...

وكتب الأديب والشاعر رشدي المعلوف افتتاحية في جريدة «صوت الأحرار» قال فيها: « ... وأرى اسم الستّ نظيرة ربّة الدار، وسيِّدة القصر، يمتدّ عبر الحدود اللبنانية ويملأ العالم... لها فضل على حقوق المرأة في الشرق، وربّما في العالم. إنَّها لم تطالب مرّة بتلك الحقوق، لأنها عرفت كيف تمارس من الحقوق السياسية ما يعجز عن ممارسته الرجال... ولأمّ يكفي للتدليل على أمومتها الكاملة أنها أمّ كمال جنبلاط».

ورشدي المعلوف، الصحافي الأنيق الكلمة، والأديب والشاعر المرهف، هو صاحب نشيد الأمّهات القائل:

ربّي سألتك باَسمهن	أن تفرش الدنيا لهنّ
بالورد إن سَمَحَتْ يداك	وبالبنفسج بعدَهنّ

أمّا السؤال الذي وجّهه كمال جنبلاط يوم كان دون العاشرة من سني عمره: «لماذا الوالدة مع فرنسا والفرنسيين؟» عاد وسأله يوم كبر في السنّ وصار رجلاً، واستفسر ودقّق، وبحث وقرأ وتحقّق، ثمَّ قال لي: «الحقيقة تقال أنَّ الوالدة كانت على حقّ في مواقفها الحكيمة المدروسة، لقد جنّبت أبناء الجبل من أهلنا الموحّدين الدروز سفك الدماء والاقتتال فيما بينهم، وجنّبت الجبل من اقتتال طائفي يغيض بين بني معروف وإخوانهم من المسيحيين... وكانت مساعي الشرّ الإنكليزية والفرنسية في آن واحد تعمل على زرع الفتنة وجرّ اللبنانيين إلى الاقتتال فيما بينهم. والوثائق والأدلّة على صحّة ذلك كثيرة ومتنوّعة.

* * *

رحيل عبد الحميد كرامي وقنبلة الجواهري
"تنهي وتأمر ما تشاء عصابة"

جاء رحيل عبد الحميد كرامي بمثابة مصيبة كبرى تحلّ بكمال جنبلاط كان عبد الحميد رئيسًا لجبهة التحرّر الوطني التي ضمّته إلى كمال جنبلاط وكميل شمعون وريمون إدّه وألفرد نقّاش وسواهم. وكان كمال بك يعتبر عبد الحميد بمثابة والد له، ويكنّ له كلّ تقدير ومحبّة. وتقرّر إقامة ذكرى أربعين عبد الحميد كرامي في مهرجان خطابي يقام في سينما ريڤولي غربي ساحة الشهداء في بيروت. لكنّ الحكم ممثّلاً ببشارة الخوري ورياض الصلح رفض السماح لكمال جنبلاط بالمشاركة في حفل التكريم وإلقاء كلمة خلاله... فقرّر جنبلاط إقامة احتفال خاصّ بالمناسبة فقام بزيارة النائب الوزير جبرائيل المرّ الذي يملك مع شقيقه المهندس الياس سينما روكسي والمبنى القائمة فيه. وكانت تربط كمال بك صداقة بجبرائيل المرّ بحيث كانا قد دخلا في محادثات مطوّلة لتأليف حزب سياسي تحت اسم "حزب الشعب"، لكنّ ذلك الحزب لم يبصر النور لأسباب عدّة. المهمّ أنَّ الأخوين المرّ قدّما سينما روكسي لكمال جنبلاط حيث أقام حفلاً تكريميًّا خطابيًّا شعبيًّا حاشدًا لعبد الحميد كرامي ألقى خلاله خطابًا تأبينيًّا رائعًا للرجل... ولم يخل الخطاب من هجوم شامل عنيف على عهد بشارة الخوري رياض الصلح.

وأقامت الحكومة حفل تأبينها برعاية رئيس الجمهورية الذي مثّله رئيس الحكومة رياض الصلح... لكنَّ الحفل الرسمي لم يخل من مفاجأة صاعقة أقضت مضاجع الحكم والحكومة. كنت يومها في الخامسة أو السادسة عشرة من سنيّ عمري. اصطحبني خالي نسيب المتني معه إلى الاحتفال وجلسنا في الصفّ الثاني من "البلكون"، أي وراء رياض الصلح والوزراء وعائلة الفقيد الكبير.

وكان بين خطباء الاحتفال الشاعر العراقي المعروف محمّد مهدي الجواهري. كانت قصيدة الجواهري بعنوان: "باقٍ وأعمار الطغاة قِصارُ".

وقد استهلّها الجواهري بهذه الأبيات من الشعر، قال:

باقٍ وأعمار الطغاة قِصارُ   من سفرِ مَجدِكَ عاطرٌ نوّارُ

متجاوبُ الأصداء نفحُ عبيرِها　　لطفٌ ونفحُ شذائِهِ إِعصارُ
رفّ الضمير عليه فهو مُنَوَّرٌ　　طُهرًا كما يتفتّح النوّارُ
وذَكا به وهجُ الإباءِ فردّه　　وقْداً يشبُّ كما تشبُّ النارُ
العمر عمر الخالدين يمدّهُ　　فَلَكٌ بِطيبِ نَقاهُمُ دَوَّارُ

ثمَّ تغزّل الجواهري بلبنان فقال:

لبنانُ يا بَلَدَ الصباحَةِ تُجْتَلَى　　والعِلْمُ يُقْطَفُ والنُّهى يُشْتارُ

ثمَّ انتقل الشاعر الكبير إلى وصف الحكم في لبنان فاختصره بالآتي:

تَنْهي وتأْمُرُ ما تشاءُ عصابة　　يَنهي ويأمُرُ فوْقَها استعمارُ
خَوِيَتْ خَزائِنَها لمّا عَصَفَتْ بها　　الشهوات فأَمَدَّها الدولارُ

وقوبل هذان البيتان من الشعر بتصفيق حادّ من الجمهور، فاغتاظ رياض الصلح، وأومأ إلى مدير الأمن العامّ إدوار أبو جودة، الذي كان يجلس وراءه بأن يتوجّه مع بعض رجاله إلى المنصّة الرئيسية فيمنعوا الجواهري من إكمال قصيدته، وأن يصطحبوه فورًا إلى المطار ويرحّلوه عن لبنان...

وشاهدنا أبو جودة يتحرّك مع اثنين من مفوّضي الأمن العامّ ويتوجّهون إلى الطابق الأرضي من صالة سينما ريفولي حيث توجد منصّة الخطابة على مسرح السينما وكان الجواهري ينشد هذا البيت:

وصحافة صفر الضمير كأنّها　　سلعٌ تُباعُ وتُشْتَرى وتُعَارُ

وشاهدنا مدير الأمن العامّ ملتصقًا بالجواهري يخاطبه ويبلغه رسالة رئيس الحكومة رياض الصلح، فما كان من الشاعر المقدام إلاّ أن انتفض ورفض وتطلّع صوب رياض الصلح غاضبًا وارتجل هذا البيت، الذي لم يكن أصلاً من ضمن النصّ الرسمي للقصيدة قال:

المجدُ أن يحميكَ مجدُكَ وحدَهُ　　في الناس، لا شرطٌ ولا أنصارُ

وصفّق الجمهور طويلاً... وأكمل الجواهري قصيدته حتّى نهايتها وسط الإعجاب والتصفيق الحادّ...

وبعد ظهر ذلك اليوم بدأت الاتّصالات الرسمية، وعلى جميع المستويات للحؤول دون نشر قصيدة الجواهري في الصحف. وأذكر جيِّدًا أنَّ تقي الدين الصلح زار مكاتب «التلغراف» عصر ذاك النهار، حاملاً رسالة شخصية من رياض الصلح إلى نسيب المتني مع تمنٍّ بعدم نشر القصيدة في صحيفته. لكنَّ نسيبًا لم يعده بشيء. وصباح اليوم التالي صدرت «التلغراف» وهي تحمل عنوانًا كبيرًا باللون الأحمر في صدر صفحتها الأولى يقول: «قنبلة الجواهري في تكريم عبد الحميد كرامي» وحملت الصفحة الأولى إلى جانب نصّ قصيدة الشاعر العربي الكبير مقالاً افتتاحيًّا لنسيب المتني استنكر فيه المعاملة غير اللائقة التي عومل بها الجواهري ودعا إلى تكريمه... وفي حفل التكريم عاتب نسيب المتني الجواهري على البيت من الشعر الذي خصّ به الصحافة فضحك الجواهري وقال: أنا لم أقصدك أنت... وأنت تعرف جيِّدًا مَنْ قصدت...

وكم كان سرور كمال جنبلاط كبيرًا بقصيدة الجواهري وبأبياتها العصماء... وقد كافأه بأن طبع قبلة حارّة على جبينه...

* * *

الانتخابات... والبالوتاج!
وعلى أعتاب النصر...

... وما إن ودّع كمال جنبلاط والدته الستّ نظيرة إلى المثوى الأخير، وانقضت أيّام العزاء والحزن، حتّى انصرف إلى الاعداد للانتخابات النيابية العامّة التي كان مقرّرًا إجراؤها في الخامس عشر من نيسان ١٩٥١. وجرت الدورة الأولى من الانتخابات ففازت لائحة «جبهة الإنقاذ» بخمسة مقاعد نيابية في دائرة الشوف وعاليه من أصل تسعة. وكان الفائزون هم: كمال جنبلاط، كميل شمعون، أنور الخطيب، إميل البستاني وغسّان تويني. وفاز في دائرة بعبدا ـ المتن الشمالي اثنان هما: عبد الله الحاج وديكران توسباط... وتقرّر إجراء دورة ثانية للانتخابات في هذه الدائرة (بالوتاج) على مقعد ماروني واحد.

واحتدمت المنافسة في الدورة الثانية حتّى بلغت ذروتها. فلقد أيّد الحكم ممثّلاً برئيس الجمهورية وحلفائه ترشيح رئيس الكتائب الشيخ بيار الجميّل، وتبنّت المعارضة وحلفاؤها ترشيح بيار إميل إدّه . وكان شقيقه ريمون قد فشل في انتخابات دائرة كسروان جبيل... ونصح شقيقه بيار بالانسحاب من المعركة. إلاّ أنَّ وقوف كمال جنبلاط إلى جانب بيار إدّه، وتمكّنه من إقناع الحزب القومي السوري من تأييده ووقوف الناخبين الأرمن في برج حمّود ومنطقتها إلى جانب إدّه إكرامًا لموقف والده الرئيس إميل إدّه من مسألة تجنيس الأرمن ومنحهم الجنسية اللبنانية، كلّ هذه العوامل أسهمت في حسم نتيجة البالوتاج لمصلحة بيار إدّه، ولو بفارق بسيط من الأصوات...

وكتب كمال جنبلاط يوم الجمعة ٢٠ نيسان مقالاً إفتتاحيًا في «الأنباء» بعنوان: «على عتبة النصر» حلّل فيه نتائج الانتخابات فقال: «مِنْ دواعي اعتزازنا أنَّ أبناء بلدنا، أهالي الشوف، كانوا على مستوى الأحداث وحقّقوا نصرًا مهمًّا في معركة الحرّية. إلاّ أنَّ فوز القوى المعارضة كان سيغدو أكبر لولا خيانة بعض المتزعّمين الرجعيين، وتلكّؤ الكتلة الوطنية، وشراء ذمم الناخبين من قبل مرشّحي المؤسّسة السلطويّة».

وأشار جنبلاط إلى أنَّ الانتخابات أبرزت أنَّ النصر لا يتمّ إلاّ من خلال التكاتف في صفوف الأحزاب العقائدية التي يستند نشاطها إلى مبادئ دقيقة وإلى منهجيّة صائبة...

وفي الرابع من أيّار ١٩٥١ التقى نوّاب المعارضة: كمال جنبلاط، كميل شمعون، بيار إدّه، إميل البستاني، أنور الخطيب، غسّان تويني، عبد الله الحاج وديكران توسباط وقرّروا إعلان كتلة نيابية معارضة تحت اسم: "الجبهة الاشتراكية الوطنية" وانتخبوا كمال جنبلاط أمينًا عامًّا لها، واتّخذوا من ميثاق الحزب التقدّمي الاشتراكي أساسًا لمنهجهم في الإصلاحات الديمقراطية التي عقدوا العزم على المطالبة بها والعمل على تحقيقها... وقدّم إميل البستاني جزءًا من مكتبه في بناية سرسق شرقي ساحة الشهداء، مكتبًا للجبهة التي كان عدد أعضائها ثمانية نوّاب فيما ذكر كتاب تيموفييف أنهم تسعة، وكتاب عزّت صافي أنهم سبعة!.

وذكر كتاب تيموفييف في الصفحة ١٨٥ من كتابه أنَّ محي الدين النصولي، صاحب جريدة "الصفاء" تصدَّر لائحة المعارضة في بيروت. والصحيح أنَّ النصولي هو صاحب جريدة "بيروت" اليومية المعروفة وليس "الصفاء"... وكان يرفع فيها شعار "العروبة فوق الجميع".

ـ اغتيال رياض الصلح أفقد بشارة الخوري الحليف السنّي الأقوى

بعد الانتخابات النيابية التي جرت ربيع عام ١٩٥١ ارتكب بشارة الخوري "غلطة الشاطر" عندما أقصى رياض الصلح ـ جناحه السنّي الأقوى منذ الاستقلال ـ عن رئاسة الحكومة وجاء بابن عمّه سامي الصلح رئيسًا للحكومة وذكر أن شقيقه الشيخ سليم الخوري كان وراء الخطوة الناقصة... ومنذ محاولة الاغتيال الفاشلة لاغتياله في حديقة الصنائع في بيروت (٩ آذار ١٩٥٠) ناشد سامي الصلح حاكم سوريا عهدذاك بالتدخّل لدى مسؤولي الحزب القومي (وكان رئيس الحزب هو عصام المحايري) في محاولة لإقناعهم بالعدول عن الانتقام لإعدام سعاده بالاغتيالات... فتظاهر الشيشكلي بالتجاوب مع المسعى لكنّه، ووفق ما ذكر سامي الصلح في مذكّراته نصح بألاّ يغادر رياض الصلح لبنان وأن يتّخذ أقصى درجات الحيطة والحذر...

ولكن... ولأنه لا ينفع حذر من قدر... فقبل ظهر يوم الاثنين الموافق ١٦ تموز ١٩٥١ اغتيل رياض الصلح بعيارات نارية أطلقت على سيّارته، وهو في طريقه من مدينة عمّان إلى المطار... وبعد زيارة قام بها إلى الأردن تلبية لدعوة تلقّاها من الملك عبد الله الأوّل... فاتّصل العاهل الأردني بالرئيس بشارة الخوري وأبلغه النبأ المفجع... وانتشر الخبر انتشار النار في الهشيم. وذكر أنَّ لبنانيين ينتميان إلى الحزب القومي السوري هما اللذان نفّذا

الجريمة الكبرى... وسَرَتْ شائعات تقول إنَّه ربَّما يكون الملك عبد الله قد استدرج رياض الصلح إلى عمّان ليتمّ اغتياله... والله أعلم، وعنده وحده الخبر اليقين...

وصباح يوم الجمعة الموافق ٢٠ تموز صدرت «الأنباء» وفي صدر صفحتها الأولى مقال لكمال جنبلاط قيّم فيها بشكل موضوعي وأخلاقي شخصية رياض الصلح ومكانته في تاريخ لبنان الحديث مشدِّدًا على دور رياض الصلح البارز ومعترفًا بفضله وخدماته الجلّى في النضال من أجل الاستقلال... ثمَّ وصف جنبلاط رياض الصلح بأنه سياسي بارز غدا حلقةوصل بين فكرة القومية وفكرة الإصلاح، وقال: إنَّ رياضًا يكاد أن ينتمي، وفي وقت واحد، إلى جيلين وعهدين ووجهتين مختلفين إلى طبيعة الأشياء وأضاف: لا عجب أن نكون، في هذا الوجه لم نفهم عليه الكثير من تصرّفاته، ولم يفهم هو علينا...

واستطرد جنبلاط قائلاً: ... فكان رياض الصلح وكنّا، وكان الشعب معنا ضحايا من لا يريد إصلاح هذه الدولة... أي الشيخ بشارة الخوري رئيس الجمهورية...

... وفقد بشارة الخوري باغتيال رياض الصلح حليفه السنّي الأقوى ومسانده الأفعل منذ قيام الاستقلال عام ١٩٤٣. وفيما كان نفوذ شقيقه «السلطان سليم» يزداد ويقوى فيثير حتَّى نقمة أقرب المقرّبين إليه: شقيق زوجته الصحافي والمفكّر والمصرفي ميشال شيحا صاحب جريدة «لوجور» باللغة الفرنسية، وعديله (أي زوج شقيقة زوجته) النائب والوزير البارز هنري فرعون وسواهما من أقرب المقرّبين... كانت النقمة الشعبية على الحكم تتعاظم لتشمل مختلف قطاعات الشعب الفاعلة والممثّلة لجماهير العمّال والمثقّفين من صحافيين ومحامين وأرباب مهن حرّة وحرف صغيرة... وكان عهد حكمه قد بدأ يتهاوى ويهتزّ...

ـ ذكرى الباروك... و «جاء بهم الأجنبي... فليذهب بهم الشعب»!

في الذكرى السنوية الأولى ليوم الباروك، وفي الذكرى الثالثة لتأسيس الحزب التقدّمي الاشتراكي، دعت الجبهة الاشتراكية الوطنية إلى مهرجان حاشد أقيم في الرابع من أيار ١٩٥٢ في بقعة شاسعة قرب الطريق العامّ في الباروك وتكلّم فيه كميل شمعون وأنور الخطيب وإميل البستاني، والشيخ عبد الله العلايلي وفؤاد رزق وفريد جبران وكامل العبدالله.

أخيرًا جاء دور كمال جنبلاط فوقف ليعلن: «من يرى أنه لا يستطيع أن يقوم بواجب الشهادة، فما عليه إلاَّ أن يترك صفوفنا فيريحنا»...

ثمَّ قال: «إنَّ الشهادة ليست فقط في «معمودية الدم»... فشهادة الصادق صدقه، وشهادة الأمين أمانته، وشهادة الثابت ثباته، وشهادة البطل بطولته... إنَّها كلّها صفات ومناقب وقيم كرامتها قائمة في ذاتها، ولا حاجة لهؤلاء بالمشجّعين والمطبّلين، والمادحين، والمبخّرين في مراقص الدنيا»...

ويوم الثلاثين من أيار ١٩٥٢ صدرت «الأنباء» وفي صدر صفحتها الأولى مقال لكمال جنبلاط تحت عنوان: «جاء بهم الأجنبي فليذهب بهم الشعب» كان الانطلاقة لانتفاضة صحافية وشعبية كبرى مهّدت لمهرجان دير القمر في آب، ولاستقالة الرئيس بشارة الخوري في ما بعد... في شهر أيلول...

ضمّن كمال جنبلاط مقاله كلّ ما لم يكن منتظرًا، أو محتسبًا أو موعودًا...

قال: «مشكلة البلد أنَّ فيه عصبة لم تأت عن طريق الشعب. وقد تحوّلت عصبة عائلية تعمل لصالح العائلة ولمجد العائلة، ولتقوية العائلة... كأنَّ الدولة دولة عائلة، وكأنَّ الوطن وطن عائلة، وكأنَّ العهد عهد عائلة»...

«خلقهم الانتداب، ولم يعرف عنهم أنَّ لهم مبادئ... جلّ مبتغاهم الوصول إلى الكرسي. يسعون إليها جادّين، ملهوفين، لاهثين، مضمرين بالتعاون مع المستشار الإفرنسي الفلاني، أو ذاك المستشار... وكان الناس والكثرة من النوّاب يتناقلون كلمة السرّ: بريطانيا تريد هذا ولا تريد ذاك...».

«النوّاب أتوا إلى المجلس عن طريق الحزبيات الخاصّة. وقد نفخ سبيرز (المفوّض السامي البريطاني في بيروت عام ١٩٤٣) إذ ذاك في البوق وقال لهم: كونوا... فكانوا»...

«كان يوم تزوير إرادة الناخب اللبناني في الخامس والعشرين من نوار ١٩٤٧ ويوم تعديل الدستور لمصلحة شخص، أي يوم تمزيق الدستور، وذلك بناء للتعليمات والنصائح الصادرة عن المفوضيات الأجنبية جميعها بقبول وضع التزوير والسير في ركاب تعديل الدستور وبالانضمام إلى أرباب التجديد»...

«زعامتهم ادّعاء ووهم وتزوير... تبنّوا قضيّة ليست قضيتهم، وليسوا هم من أبطالها... فإلى أين الهرب يا أرباب الهرب؟!»

... وقامت قيامة الحكم والرئيس بشارة الخوري على الأخصّ... فاستقبل الوزيرين

إميل لحود وشارل حلو، واتّصل برئيس الحكومة سامي الصلح، وصدرت الأوامر بمصادرة «الأنباء» من الباعة وشركة التوزيع... واختفت الأعداد من الأسواق... وبادر كمال جنبلاط إلى الطلب من معاونيه طبع المقال بمنشور وبالآلاف وتوزيعه في العاصمة ومناطق الجبل والشمال والجنوب والبقاع... فلم يجدوا سوى مطبعة «التلغراف» لصاحبها الصحافي المناضل نسيب المتني لتقوم بالمهمّة... ولم تمضِ ساعات حتّى كان المقال قد انتشر في كلّ بيت وقرية ومدينة وبلدة...

وأصدرت السلطة قرارًا بتعطيل «الأنباء» عن الصدور وبإحالتها ومديرها المسؤول إيلي مكرزل إلى المحاكمة...

أعلن كمال جنبلاط مسؤوليته الشخصية عن المقال وطلب محاكمته شخصيًا... وعقدت الجبهة الاشتراكية الوطنية اجتماعًا تبنّت خلاله مقال جنبلاط باعتباره أمينها العامّ... ثمَّ تقدّم النائب غسان تويني باستجواب إلى الحكومة ندّد فيه بموقفها المخالف لحق النائب في نشر آرائه ولحقّ الرأي العامّ في الاطّلاع على آراء النوّاب ممثّلي الشعب الشرعيين... وعقدت الجبهة اجتماعًا ثانيًا قرّرت في نهايته تبنّي استجواب تويني وقدّمت استجوابًا جماعيًّا إلى الحكومة ضمّنته نصّ مقال كمال جنبلاط ووزّعته على الصحف.

ومساء ذلك اليوم عقد أصحاب ثماني يومية اجتماعًا في منزل نسيب المتني في محلّة السوديكو من العاصمة بيروت حضره السادة: محي الدين النصولي صاحب جريدة «بيروت» ورئيس تحريرها، وغسان تويني عن «النهار» وجورج نقّاش عن «الأوريان» وتقي الدين الصلح عن «النداء» وديكران توسباط عن «لوسوار» ومحمّد البعلبكي عن «صدى لبنان» وفاضل سعيد عقل عن «البيرق»، ومثل «الأنباء» كامل العبد الله وموريس صقر، واتّخذ المجتمعون قرارًا بنشر نصّ استجواب نوّاب الجبهة الاشتراكية الوطنية في صحفهم اليومية الثماني وضمن الاستجواب مقال كمال جنبلاط: «جاء بهم الأجنبي فليذهب بهم الشعب»... وهكذا كان وصدرت الصحف في اليوم التالي فجنّ جنون الحكم والرئيس... واتّخذت الحكومة قرارًا بتعطيل ثمانية صحف يومية عن الصدور لمدّة ثلاثة أيام وإحالتها على المحاكمة... وأوصل غباء السلطة وعنادها غير المبرّر الحكم إلى معركة مع الصحافة ومن خلالها مع الرأي العامّ اللبناني الذي تضامن مع حرّية الصحافة ومع وقفة كمال جنبلاط التاريخية الجريئة.

يوم الرابع من حزيران ١٩٥٢ جرت محاكمة «الأنباء» أمام محكمة المطبوعات في العدلية القديمة المحاذية للسراي الكبير غربًا. وحضر كمال جنبلاط يحيط به نوّاب الجبهة ورؤساء تحرير الصحف التي نشرت الاستجواب وعدد من المحامين يتقدّمهم أنور الخطيب (نائب رئيس الحزب عهدذاك)... فطلب جنبلاط محاكمته شخصيًّا باعتباره نائبًا وكاتبًا للمقال، إلاَّ أنَّ المحكمة التي كان الحكم قد أُعِدَّ لها سلفًا تظاهرت وكأنها لم تسمع...

وبعد رفع الجلسة لفترة وجيزة عاد القاضي وتلا نصّ الحكم، فقضى بتعطيل «الأنباء» عن الصدور لمدّة ثمانية أشهر وبحبس مديرها المسؤول إيلي مكرزل الذي لم يحضر أربعة عشر شهرًا... وما أن انفضّت جلسة المحاكمة ونزل كمال جنبلاط إلى الشارع المؤدّي إلى ساحة رياض الصلح حتَّى انطلقت تظاهرة شعبية حاشدة حملت جنبلاط على الأكفّ وانطلقت به نحو ساحة البرج، ثمَّ نحو مكتب «الأنباء» والحزب الكائن في محلّة الجميزة...

وهكذا تحوّلت محاكمة «الأنباء» إلى نقمة شعبية عارمة ضدّ الحكم الغاشم المتسلّط، والحاكم الفرد الذي خيّل إليه في لحظة جنون واستعلاء إنَّه السلطان العثماني يأمر بسجن أي كان وبكمّ الأفواه بتهمة «سبّ دين السلطان»... والحكاية معروفة ولا حاجة بنا إلى تفصيلها...

وفيما كان لبنان يغلي من أقصاه إلى أقصاه، والاعتداءات على رجال الصحافة تتتالى... إذ أقدم بعض أنصار هنري فرعون على اختطاف الصحافي فؤاد البدوي المؤيّد للشيخ سليم الخوري واحتجزوه في أحد أقبية قصر فرعون في بيروت مع بعض الكلاب الشرسة، ردّ جماعة «السلطان سليم» باعتداء طال الصحافي توفيق المتني صاحب «الطيّار» إذ أقدم أحد أنصار شقيق رئيس الجمهورية على مهاجمة المتني داخل مكتب الصحيفة الكائن قرب شارع الشيخ بشارة الخوري في العاصمة وضربه بعصا على رأسه فشج له رأسه... فباتت نقابة الصحافة مستنفرة للتضامن مع أعضائها ولإصدار بيانات الشجب والاستنكار...

ـ ثورة ٢٣ يوليو ... وحكم البكباشية والصاغات!

كان الصراع على النفوذ بين بريطانيا ـ والولايات المتّحدة الأميركية على أشده في المنطقة التي يطلقون عليها الشرق الأوسط والشرق الأدنى في مطلع الخمسينات من القرن

العشرين. وكانت الولايات المتّحدة في حينه تضع أسس ما سمّي «مشروع الدفاع المشترك» الذي أعلن تحت ستار حلف دفاعي في مواجهة الاتّحاد السوفياتي أو «الخطر الشيوعي» كما كانوا يطلقون عليه، على أن تشترك فيه الدول العربية وتركيا وإيران وإسرائيل والولايات المتّحدة وبريطانيا...

ولقد تحفّظ الرئيس بشارة الخوري على هذا المشروع ولم يؤيّد دخول لبنان فيه. وتحدّث عنه في الجزء الثالث من مذكّراته: «حقائق لبنانية»، وأورد في الصفحة ١٨ من هذا الجزء نصّ برقية وردت إلى الحكومة اللبنانية من الدكتور شارل مالك وزير لبنان المفوّض في واشنطن حينه، وفيها يقول حرفيًّا: «علمت من أوثق المصادر أنَّ زيارة الجنرال برادلي رئيس أركان الجيوش الأميركية إلى أنقرة هي لتنظيم الدفاع عمّا يسمّونه هنا الشرق الأوسط، ويشمل عمليًا تركيا والدول العربية وإسرائيل»...

وصبيحة الثالث والعشرين من تموز ١٩٥٢ أذاع راديو القاهرة بصوت أنور السادات البلاغ رقم (١) الذي يعلن قيام ثورة الضبّاط الأحرار والطلب من الملك فاروق مغادرة مصر إلى الخارج... فقوبل ذلك الانقلاب في بيروت بالترقّب والحذر، وعلّق كمال جنبلاط بالقول أنَّ الانقلابات العسكرية ليست الطريق الصحيح لإحداث التغيير الديمقراطي المطلوب في العالم العربي... فالانقلابات غالبًا ما تصادر إرادة الشعب وحرّيات الناس العامّة والفردية ولا تؤدّي الغاية المتوخّاة لتحقيق التطوّر الصحيح بالأساليب الديمقراطية. استقبلت الصحافة اللبنانية اليمينية واليسارية منها الانقلاب بهجوم صاعق نعت خلاله الحرّيات الأساسية في مصر وأطلق بعضها على الحركة لقب «نظام البكباشية والصاغات» (كان جمال عبد الناصر في حينه يحمل رتبة «البكباشي» في حين أنَّ عبد الحكيم عامر وصلاح سالم وعبد اللطيف البغدادي وسواهم كانوا يحملون رتبة «صاغ»). وهي رتب عسكرية تركية قديمة كانت لا تزال موجودة في الجيش المصري ولعلّ مطلق اللقب على حركة الانقلاب كان الصحافي زهير عسيران في صحيفته «الهدف». وكان زهير يومها مراسل صحيفة «المصري» القاهرية لسان حال حزب الوفد الذي تزعمه مصطفى النحّاس باشا. وكان جماعة الإنكليز واليسار في آن واحد يثيرون الضجيج في الصحف ضدّ الحركة الانقلابية التي أطاحت بالملكية في مصر بحجّة أنَّ وراء الحركة أصابع أميركية... وحرصت الصحف في حينه على الربط بين تلك «الأصابع» وبين قيام سفير الولايات المتّحدة

الأميركية في القاهرة جفرسون كافري بمرافقة الملك فاروق إلى اليخت الذي نقله إلى المنفى في إيطاليا...

وردّدت الصحف أيضًا في ذلك الحين أنَّ الأميركيين كانوا يهدفون، على المدى البعيد، إلى إقصاء النفوذ الإنكليزي عن مصر للحلول محلّه... وذهبت صحف أخرى إلى القول أن ضغطًا أميركيًّا حصل لمنع القوّات الإنكليزية البالغ عددها ٨٠ ألف جندي، كانت ترابط في قناة السويس، من التدخّل لمنع حركة الضبّاط الأحرار من الاستيلاء على الحكم... على الرغم من أنَّ الملك فاروق كان قد طلب تدخّلاً إنكليزيًّا لأجل ذلك!...

وفي هذا السياق روى الصحافي المصري المقرّب من جمال عبد الناصر محمَّد حسنين هيكل، مؤرّخ ثورة ٢٣ يوليو، في كتابه: «عبد الناصر ـ وثائق القاهرة» أنَّ جمال عبد الناصر بعث عند الساعة الثالثة من فجر يوم الانقلاب برسالة إلى السفير الأميركي في القاهرة جفرسون كافري حملها إليه الضابط علي صبري، الذي تبيّن أنه كان على معرفة وصلة بالملحق الجوي الأميركي، شرح فيها أهداف الثورة ـ الانقلاب وكونها قضيّة داخلية طالبًا من الأميركيين تحذير البريطانيين من التدخّل ضدّ الحركة الانقلابية...

الانقلاب المصري الذي قاده الضبّاط الأحرار شجّع حاكم سوريا عهدذاك أديب الشيشكلي على المزيد من التدخّل في الأوساط الإسلامية في طرابلس وبيروت لتضييق الخناق على حكم بشارة الخوري في لبنان، ودفعه إلى الخروج من السلطة قبل اكتمال ولايته الثانية المجدَّدة. والمعروف أنَّ الشيشكلي اعتبر في حينه رجل الإنكليز وحليف الحكم الهاشمي القائم في كلّ من العراق والأردن بقيادة عبد الإله خال الملك فيصل الثاني ونوري السعيد رئيس وزرائه ورجل الإنكليز الأول والملكة زين وشقيقها في الأردن الأوصياء على الملك الصغير الحسين بن طلال...

وظلّ موقف معظم الصحف اللبنانية ورجال السياسة ملتبسًا من انقلاب ٢٣ يوليو حتّى عام ١٩٥٤، أي إلى ما بعد حسم الصراع على السلطة وإزاحة اللواء محمَّد نجيب وتسلّم جمال عبد الناصر السلطة بصورة مباشرة... ثمَّ أخذت تلك المواقف تتحوّل إلى التأييد لعبد الناصر بعد الإعلان عن معارضته لحلف بغداد ولمشاريع الأحلاف الغربية عامّة... ثمَّ بلغ التأييد ذروته في أثر الإعلان عن كسر الطوق بالنسبة للسلاح والتسلّح مع توقيع عبد الناصر اتّفاقية استيراد الأسلحة من تشكوسلوفيا... وكرّس تأميم عبد الناصر

لقنال السويس وصموده على رأس الشعب المصري في مواجهة الهجوم الثلاثي البريطاني ـ الفرنسي الإسرائيلي زعيمًا للأمّة العربية وللصمود العربي في وجه العدوان والاحتلال... الذي كلّل في ما بعد بالجلاء وانسحاب القوّات الأجنبية من الأراضي المصرية كافّة...

ـ مرحلة المعارضة ومهرجان دير القمر... واستقالة بشارة الخوري

خلال عاميّ ١٩٥١ و ١٩٥٢ تعرّفت إلى أركان المعارضة في مكاتب جريدتي «التلغراف» و «الطيّار» لخاليّ نسيب وتوفيق المتني. كانت «التلغراف» تصدر صباح كلّ يوم، وكانت الجريدة الشعبية الأولى لأنَّ نسيب المتني كان يتنفّس من الشعب ويكتب ويناضل من أجل الشعب وقضاياه المحقّة. أمّا «الطيّار» فكانت تصدر عند الساعة العاشرة قبل الظهر وكانت هي ربّما الأكثر مبيعًا...

كان مكتب الجريدتين يقوم في مبنى مؤلّف من طابقين، في شارع متفرّع من شارع بشارة الخوري جنوبًا ومن شارع الخندق الغميق شمالاً.

وكان كمال جنبلاط يمرّ بنسيب المتني مرّتين في الأسبوع على الأقل، إذ كان يحضر إلى الحي لإلقاء محاضرات في الاقتصاد السياسي في «الأكاديمية اللبنانية» لصاحبها ومؤسّسها الكسي بطرس. كان مقرّ الأكاديمية في دير قديم هو عبارة عن مبنى حجري سطحه من القرميد الأحمر يمكله الآباء اللعازاريون وإلى جانبه كنيسة صغيرة للقدّيس منصور دي بول مؤسّس الرهبنة اللعازرية، ذلك الدير كان يقوم في المكان الذي بنيت فيه وتقوم حاليًا مباني اللعازرية الشهيرة.

كمال جنبلاط كان يقضي وقته في مكتب «التلغراف» يتشاور مع نسيب المتني في شؤون السياسة وشجونها ويقلقه تصلّب رئيس الجمهورية بشاره الخوري إزاء مسعى يقوم به جنبلاط مع المعارضة لإرساء أسس نظام ديمقراطي برلماني جمهوري يحقّق نوعًا من التوازن بين السلطات وعلى الأخصّ بين رئاسة الجمهورية ومجلس الوزراء، بحيث تكون صلاحيات الحكم في يد مجلس الوزراء الحائز على ثقة مجلس النوّاب والمسؤول أمام ممثّلي الشعب، وتكون لرئاسة الحكومة أو لرئيس الحكومة صلاحيات توازي صلاحيات رئيس الجمهورية بحيث تتحقّق المشاركة في الحكم، فلا يظلّ رئيس الجمهورية هو الحاكم الفعلي وغير مسؤول عن أعماله وأفعاله أمام مجلس النوّاب... وكان الفساد المنتشر في دوائر الدولة

وفي مكاتب الحكم هو ما يقلق كمال جنبلاط الذي كان يدعو إلى قيام دولة القانون وحكم المؤسّسات.

أمّا كميل شمعون فكان يحضر لزيارة نسيب المتني ظهر كلّ يوم تقريبًا بعد أن يكون قد أنهى نشاطه كمحام في دوائر العدلية... ويذكر العارفون أنَّ شمعون لم يكن محاميًا من الدرجة الأولى وأنَّ مكتبه لم يكن يدرّ عليه الأرباح الوافرة. كان كميل شمعون عهدذاك في النصف الأول من العقد الخامس من سنّي عمره، جميل الطلعة، يحبّ المزاح وترتسم على وجهه ابتسامة شبه دائمة. أول ما يدخل المكتب كان يقول لنسيب المتني: أنا جوعان... فيناديني خالي نسيب ويعطيني ليرة لبنانية واحدة فأتوجّه إلى فرن قائم في شارع الخندق الغميق أشتري كعكة مرتفخة بخمسة قروش كان شمعون يحبّها مع قليل من الزعتر والكثير من السمّاق، ثمَّ اشتري له زجاجة «سفن أب» بعشرة قروش وعلبة سجائر ماركة «ينتجه» بسبعين قرشًا، فيبقى لي ١٥ قرشًا، وهي «خرجية» لا بأس بها في ذلك الزمان... وما لاحظته بدقّة أنَّ شمعون كان يرتدي البدلة أيّاها تقريبًا كلّ يوم جاكيت بيضاء يميل لونها إلى لون الطحينة وبنطال من اللون القرفي تكاد مؤخّرته تنبئ بقرب تمزّقه. وكان كميل شمعون يقيم في بيت متواضع في حي اليسوعية وبالإيجار، جاره الأقرب النائب والوزير الأسبق وديع نعيم وقد آل البيت فيما بعد إلى نجله الدكتور إدمون، وجاره الثاني المفكّر اليساري الدكتور جورج حنّا الذي كان يمتلك مستشفى صغير للتوليد.

كما عرفت معظم أعضاء الجبهة من بيار إدّه وشقيقه العميد ريمون وعبد الله الحاج، وإميل البستاني وأنور الخطيب وحميد فرنجيه وهنري فرعون وسواهم...

وفي أجواء من التحرّكات الشعبية النقابية والمطلبية تعكسه عناوين الصحف المعارضة وحملاتها اليومية من أجل تحقيق الإصلاح وتحسين مستوى معيشة الناس، اقترح كمال جنبلاط إقامة مهرجان شعبي كبير للضغط على الرئيس بشاره الخوري باتّجاه تشكيل حكومة اتّحاد وطني تضع حدًّا للفساد المستشري وتحقّق نوعًا من التوازن في الحكم وبين سلطاته. ودرست الجبهة اقتراح جنبلاط وتبنّته على أن يكون مكان المهرجان ساحة دير القمر الرئيسية وموعده يوم الأحد في ١٧ آب ١٩٥٢.

وكان كمال جنبلاط قد بدأ بإجراء اتّصالات مع رئيس الحكومة سامي الصلح لحضّه على المطالبة بصلاحيات رئاسة الحكومة وأحداث نوع من التوازن بينها وبين رئاسة

الجمهورية، وتطهير دوائر الدولة من العناصر الفاسدة التي أثرت على حساب الشعب، وسنّ واعتماد وتطبيق قانون الأثراء غير المشروع...

وافق سامي الصلح على الترخيص لمهرجان المعارضة في حين كان الرئيس بشاره الخوري يميل إلى منعه، لكنّ الصلح تمنّى على النائبين كميل شمعون وإميل البستاني، اللذين زاراه للحصول على الترخيص، تخفيف لهجة الهجوم ضدّ رئيس الجمهورية ما أمكن.

ويوم ١٧ آب تحوّلت ساحات دير القمر وشوارعها إلى تجمّع بشري قُدِّرَ بعشرات الألوف قَدِمُوا من مختلف المناطق اللبنانية، من الشمال ومن الجنوب ومن أقضية جبل لبنان ومن العاصمة بيروت ومن البقاع وقدر تعدادهم بعشرات الألوف.

كنت أنا أجلس إلى جانب نسيب المتني إلى طاولة متواضعة وضعت بالقرب من منصّة الخطابة نرصد ونتابع تدفّق الوفود، وإلى جانبنا جلس تقي الدين الصلح بطربوشه ومعه بعض أركان حزب النداء القومي. وكان تقيّ الدين بظرفه المعهود لولب التعليقات والنكات التي كانت ترافق المهرجان...

مفاجأة المهرجان كانت ربَّما وصول وفد كبير من الحزب القومي السوري المحظور يتقدّمه النائب غسان تويني يضع معظم أفراده شعار الزوبعة على أيديهم، ويطلقون الهتافات: "تحيا سوريا ... وليحي سعاده". وسدّ الوفد "ساحة الشالوط" وبدا وكأنه يتصدّر المهرجان... الأمر الذي أثار حفيظةحميد فرنجيه الذي كان قد وصل على رأس وفد كبير من الشمال يتقدّمه لاعبو السيف والترس...

فسمعنا حميدًا يقول لكمال جنبلاط: إذا كان هؤلاء لن يتوقّفوا عن الهتاف "تحيا سوريا" وإذا لم يفسحوا في المجال لوصول وفد الشمال وسواه فسننسحب من المهرجان... وتضامن تقي الدين الصلح مع حميد فرنجيه فحاول كميل شمعون وإميل البستاني تهدئة فرنجيه فلم يستجب... فوقف كمال جنبلاط وراء المذياع وقال: يرجى من الرفاق في الحزب القومي السوري التوقّف عن الهتاف "تحيا سوريا"، والوقوف إلى جانبي الشارع ليتسنّى للوفود الأخرى الوصول إلى ساحة المهرجان... وهكذا كان...

كان عريف المهرجان ابن دير القمر الشاب المناضل فيليب رشيد عيد البستاني ابن شقيق المطران أغسطين البستاني، وافتتح المهرجان كميل شمعون، وتكلّم بعده حميد فرنجية

وعادل عسيران وأنور الخطيب والدكتور نجيب فرح من زحله وغسان تويني... وكان مسك الختام كمال جنبلاط الذي فاجأ كعادته الجماهير بالقول:

«أطلب منكم في هذه الساعة العظيمة من تاريخ بلادنا أن تقفوا جميعًا، وأن تقسموا معي، بشرفنا وبمعتقدنا، وعلى ضياء دماء شهدائنا الأبرار، واستيحاء بتضحياتنا وجهدنا الذي لن يتوقّف، بأن نواصل سعينا الحثيث الظافر إلى أن نحقّق جميع مطالب الشعب».

ووضع جنبلاط يده ووقفنا جميعًا ورفعنا أيدينا، كما فعل ذلك الجمهور فبدت ساحات الدير وكأنها غابة من الأيدي المرفوعة، وأخذ كمال جنبلاط يتلو القسم ونردّد جميعًا من ورائه الآتي:

«نحن المجتمعين هنا في دير القمر، في ١٧ آب ١٩٥٢، نعلن إرادتنا المتضامنة إرضاء للضمير، وتلبية لنداء الواجب، ونقسم بشرفنا وبمعتقدنا على أن نظل في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ بلادنا يدًا واحدة وقلبًا واحدًا، من أجل تصحيح الأوضاع الدستورية وإيجاد حكم ديمقراطي صالح، وفقًا لبرنامج المعارضة الذي يضمن حرّية الإنسان وحقوق الشعب، ويقضي على الطغيان، وذلك بإجبار المسؤول أن ينزل عند إرادة الشعب أو يتخلّى عن مركزه... ونعاهد بأن نستخدم لتحقيق هذه الأهداف جميع ما في أيدينا من وسائل»...

وما أن انتهى القسم وارتاح الجمهور وراح يتلوه كالآتي: «إنّني إذ أتوجّه إليك الآن، فخامة الرئيس، فباَسم الفلاّحين، وباَسم العمّال، وباَسم الصناعيين والمزارعين، والمنتجين، إلى أيّ فئة انتسبوا، وباَسم أرباب المهن، باَسم المسلم والنصراني، وباَسم كلّ لبناني، وباَسم لبنان على اختلاف نزعاته وأحزابه، ومناطقه وطوائفه وهيئاته: أناشدك وأطلب منك أن تصلح أو أن تعتزل»...

وكان كمال جنبلاط قد استوحى حكاية «أن تصلح أو أن تعتزل» من قصّة مأثورة عن أحد الخلفاء العبّاسيين الذي أوفد إلى مصر واليًا له هو عمرو بن العاص لكن عمرو ذهب ولم يكتب مرّة للخليفة الذي استنهضه وقال له انبئنا بأخبارك... فكتب عمرو بن العاص يقول: «يا أمير المؤمنين، مصر بلاد أرضها ذهب، ونساؤها لُعَب، وشعبها لمن غَلَبْ»... ومضت فترة فشاعت أخبار غرق الوالي في أوحال السلطة ومغانمها فكتب إليه الخليفة يقول له: «أمّا بعد، فلقد كثر شاكوك، وقلّ شاكروك، فإمّا أن تعتدل أو أن تعتزل. والسلام...».

١٧ آب ١٩٥٢: كمال جنبلاط يتلو قسم مهرجان دير القمر وقادة المعارضة والجماهير ترفع الأيدي وتردّد القسم بمواصلة النضال حتّى تحقيق إرادة الشعب في الإصلاح والتقدّم.

ـ فشل مساعي شهاب للتهدئة، المواجهة والإضراب العامّ... والاستقالة

حاول قائد الجيش اللواء فؤاد شهاب القيام بمسعى للتهدئة لدى عدد من أركان المعارضة فقام بزيارة كمال جنبلاط وبعض الشخصيات المعارضة. ولم يكن خافيًا على أحد أنَّ شهاب كان يكنّ لبشارة الخوري كلّ تقدير ومحبّة واحترام، فهو يعتبره أبو الاستقلال وباني الجيش الوطني، كما لم يكن ينكر محبّته لحميد فرنجيه وعلاقته الخاصّة به وبتقي الدين الصلح وأشقّائه كاظم وعادل وبابن شقيقه منح الصلح.

وفيما قامت السلطة بخطوات ناقصة بعد مهرجان الدير استهدفت تقييد حرّية الصحافة والنشر التي كرّسها الدستور، فمنعت نشر معظم تفاصيل مهرجان دير القمر وعلى الأخصّ فقرات عدّة من خطاب كمال جنبلاط... وفي ١٢ أيلول صدر قرار بتكليف دائرة المطبوعات فرض الرقابة على الصحف، ولوّحت بالتوقيف الاحتياطي للصحافيين الذي كان قانون المطبوعات المعمول به حينها يسمح به وخصوصًا لجهة القدح والذم

برئيس الجمهورية وفي المقابل قرّرت المعارضة السير في المواجهة، واستعمال حقّها الدستوري والقانوني في الدعوة إلى الإضراب والتظاهر السلمي، فبدأ الإضراب العامّ يوم الخامس عشر من أيلول، وانطلقت في بيروت أكثر من تظاهرة: الأولى من بيت الكتائب في الصيفي باتّجاه محلّة العكاوي فالجميزة فساحة البرج فبيت الكتائب، ومشى على رأسها الشيخ بيار الجميّل... ولاقتها تظاهرة أخرى انطلقت من البسطة وزقاق البلاط باتّجاه وسط العاصمة ونظمّها حزب النجادة...

بعد ظهر ذلك اليوم أرسل بشارة الخوري من يقول لبيار الجميّل: إنَّ المستهدف هو رئيس الجمهورية بل رئاسة الجمهورية... وأنَّ بعض من في المعارضة بدأ يدعو لانتخاب غير مسيحي وغير ماروني للرئاسة الأولى في البلاد... ودعا الجميّل أركان حزبه إلى اجتماع في منزله بحي اليسوعية... وكنت أنا هناك أغطّي الحدث، فتوجّهت ركضًا إلى مكتب نسيب المتني القريب من هناك ونقلت له ما يجري في منزل الجميّل فاتّصل المتني بالشيخ بيار وقال له: تمهّل، ولا تتسرّع... فالموجة انطلقت ولن يقف في وجهها أحد... وكان من في بيت رئيس الكتائب يدعون إلى إصدار بيان بوقف الإضراب والاكتفاء بيوم واحد... ثمَّ اتّصل نسيب المتني بتقي الدين الصلح وأطلعه على ما يجري وقال له: لاقني إلى منزل الشيخ بيار للحؤول دون وقوع المحظور... وكان الثلاثة: بيار الجميّل وتقي الدين الصلح ونسيب المتني عندما يتحدثّون في الهاتف مع بعضهم البعض يبدأون الحديث بدل كلمة «آلو» بكلمة «حيّي العرب»...

ولم تصمد الكتائب في الساح فصدر مساء بيان يدعو إلى فكّ الإضراب وفتح المحال التجارية في اليوم التالي... إلاَّ أنَّ أحدًا لم يستجب للدعوة ولم تفتح في ساحة البرج إلاَّ صيدلية الشيخ بيار...

لكن الأمور تطوّرت بشكل دراماتيكي في اليومين التاليين ودخل على الخطّ إلى جانب نوّاب الجبهة الاشتراكية الوطنية نوّاب طرابلس سعدي المنلا وقبولي الذوق ورشيد كرامي ووقع البيان من نوّاب بيروت عبد الله اليافي ورئيس الحكومة المستقيلة سامي الصلح ومن غير النوّاب أركان الهيئة الوطنية السادة: حسن البحصلي والحاج أنيس نجا وعبد السلام جنون بالإضافة إلى حميد فرنجيه وعلي بزّي صديقي اللواء فؤاد شهاب وطالب البيان الموقع من الجميع باستقالة رئيس الجمهورية وباستمرار الإضراب العامّ حتَّى تقديم

الاستقالة... وأدرك كمال جنبلاط مغازي ومعاني هذا التطوّر بل التحوّل اللافت وضرب كفًا بكف وقال: لقد دخل الإنكليز والشيشكلي على الخطّ... وسيدفع بشارة الخوري ثمن عدم دخول لبنان في ما سمّي «الدفاع المشترك عن الشرق الأوسط» الذي صار اسمه في ما بعد «حلف بغداد» والذي استبعدت عنه «إسرائيل» بناء لاقتراح رئيس وزراء العراق نوري السعيد رجل الإنكليز الأول في المنطقة...

وجاء فشل بشاره الخوري في تشكيل أية حكومة برئاسة أي سنّي من بيروت أو من طرابلس يؤكّد مثل هذه الضغوط...

وبعد منتصف ليل ١٧ ـ ١٨ أيلول ١٩٥٢ استدعى رئيس الجمهورية بشارة الخوري قائد الجيش اللواء فؤاد شهاب وأبلغه قراره بالاستقالة وسلّمه مرسومًا موقّعًا منه (أي من الشيخ بشارة) قضى بتعيين اللواء فؤاد شهاب رئيسًا للحكومة ووزيرًا للدفاع والداخلية وبتسمية السيدين ناظم عكاري وباسيل طراد وزيرين لعدّة وزارات. أمَّا مهمّة هذه الحكومة الموقّتة فكانت الإشراف على انتخاب رئيس الجمهورية الجديد خلال المهلة التي حدّدها الدستور أي قبل ٢٣ أيلول...

وكان الشيخ بشارة الخوري قد أجرى محاولة أخيرة مع قائد الجيش لتأليف حكومة مصالحة إئتلافية برئاسة اللواء شهاب تشارك فيها المعارضة فكان ردّ قائد الجيش للشيخ الرئيس: فخامة الرئيس أبعد عنّي هذه الكأس...

وتولّى ناظم عكّاري أمين عام مجلس الوزراء تلاوة نصّ استقالة الرئيس بشارة الخوري على الصحافيين وهذا نصّها:

«حضرة رئيس المجلس النيابي الأفخم

لمّا كنت قد صمّمت على اعتزال منصب رئيس الجمهورية أرجو منكم التفضّل بأخذ العلم بذلك، شاكرًا لمجلسكم الكريم وللشعب اللبناني النبيل ما لقيته أثناء مدّة ولايتي من ولاء ومحبّة. ولي الأمل أن يوفّق مجلسكم بانتخاب خلف لي يحافظ على كيان هذا الوطن اللبناني وعلى استقلاله وسيادته وعلى الميثاق الوطني الذي هو دعامة هذا الاستقلال»

بشارة خليل الخوري

طريق المختارة ـ جونيه
زمن كمال جنبلاط وفؤاد شهاب

«إنَّ شهادة الصادق صدقه، وشهادة الأمين أمانته، وشهادة الثابت ثباته، وشهادة البطل بطولته»

كمال جنبلاط

«طريق المختارة شيء وكمال جنبلاط شيء آخر»

وليد جنبلاط

بتاريخ ٢٠٠٧/١/١٥ تسلّمت من الزميل عزّت صافي نسخة عن كتابه:

«طريق المختارة: زمن كمال جنبلاط» وقد حملت الصفحة الأولى منه هذا التقديم:

«إلى الزميل العزيز والأخ في أسرة السهر والتعب الأستاذ عزيز المتني. وقد عرف «طريق المختارة» وغيّبها، كما «غيّب» تراث المعلّم كمال جنبلاط».

«وحافظ على الأمانة والمسؤولية في جريدة «الأنباء»، واستحقّ، ويستحقّ من جميع الرفاق في الحزب التقدّمي الاشتراكي والأصدقاء والقرّاء، الشكر والثناء».

مع محبّتي وتقديري

عزّت صافي

شكرت للزميل عزّت هديّته، وانكببت على قراءة كتابه فتبيّن لي أنَّ عنوانه يحتاج إلى تصويب كأن يكون: «طريق المختارة ـ جونيه ـ زمن كمال جنبلاط وفؤاد شهاب»... ذلك أنَّ الكتاب احتوى صفحات عن فؤاد شهاب بقدر ما تضمّن عن كمال جنبلاط... كما أنَّ عزّت أهدى كتابه: «إلى روح والدي يوسف وإلى روح والدتي بدر، اللذين أمسكا بيديّ ليعلّماني المشي، وأنا في السنة الأولى من العمر، سارا بي إلى دار المختارة»... وبذلك الإهداء اعترف عزّت بأنَّ طريق المختارة فُرِضَت عليه ربَّما قبل أن يتعلّم الكلام، وقبل أن يقرأ أحرف الأبجدية، فلأنَّ ذلك هو قدره، ولا ضير ولا غضاضة في تلك الطريق ولا في مثل هذا القدر...أمَّا نحن فتعرّفنا إلى طريق المختارة بعدما كبرنا في السنّ وتعلّمنا المشي والنطق والقراءة والكتابة وحسن التفكير، فكان اختيارنا بملء إرادتنا وقناعتنا بفكر كمال جنبلاط وصوابية نهجه وحسن تقويمه وتعليمه...

أفاض عزّت صافي في صفحات طوال من كتابه في وصف ابتهاج الناس وفرحتهم باستقالة الرئيس بشارة الخوري، وكأنَّ شعب لبنان هو الذي انتصر على أعدائه... وأطلق على ذلك الفصل من كتابه اسم "زمن الرئيس بلا فخامة"... وقال بالحرف: "١٨ أيلول ١٩٥٢ طلع صباح يوم جديد على شعب لبنان... وطويت مرحلة من مسيرة لبنان وتاريخه المعاصر"... وأسهب أيّما إسهاب في شرح زمن الرئيس بلا فخامة أو الفخامة بلا رئيس... وقال إنَّ كميل شمعون خاطب كمال جنبلاط أكثر من مرّة بالقول: "أمرك فخامة الرئيس" و "كما تريد يا فخامة الرئيس"... وإنَّ كمال جنبلاط تمتم بالقول: "أنا الرئيس وغيري سيكون صاحب الفخامة"؟!... إلخ.

لكنّ عزّت بدا في وادٍ وكمال جنبلاط في واد آخر... مخاطبات كميل شمعون لكمال بك تنمّ عن ميكياڤيلية متأصّلة في شخصيّته... فهو يريد الوصول ويستعجل الوصول ليس إلاّ... وكمال جنبلاط كان يعرف ذلك، بل ومتأكّدًا منه... كان في الوضع والحالة هو الحالة التي وصفها القول الشعبي المأثور: "راحت السكرة وجاءت الفكرة"... وكان السؤال الذي يؤرّقه ويقضّ مضجعه هو: المهمّ ماذا بعد... المهمّ ماذا بعد؟!... وبكلمة: المهمّ هو من سيكون الرئيس الذي يخلف بشارة الخوري...

وردًّا على الشائعات التي انتشرت اضطرّت الجبهة الإشتراكية الوطنية مع حلفائها الجدد من النوّاب إلى إصدار بيان جاء فيه: "دفعًا للشائعات التي يروّجها بعضهم بقصد الفتنة وتفرقة صفوف الشعب، وذلك بأنَّ في نيّة المعارضة إسناد رئاسة الجمهوريّة لغير ماروني، تعلن الجبهة الإشتراكية الوطنية وحلفاؤها أنها لم تفكّر قطّ بانتخاب غير ماروني لرئاسة الجمهوريّة، ولديها من حلفائها الضمانات التي تؤمّن هذه النتيجة". وأدلى كمال جنبلاط بتصريح إلى جريدة "التلغراف" حول موضوع التأكيد على مارونية الرئيس فقال: إنَّ هذا مؤكّد وليس في حاجة إلى تأكيد... وأوضح جنبلاط رأيه بصراحة فقال: "إنَّ التقليد يقضي، كما هو معروف، أن يتبوّأ الرئاسة الأولى شخص ينتمي إلى الطائفة المارونية مولدًا، ولو كان ملحدًا بدينه، كافرًا برسوله وإنجيله... هذا هو التقليد في بلد تقوم فيه الطائفية السياسية مقام الدين"... وكان كمال جنبلاط يشير بذلك إلى كميل شمعون من دون أن يسمّيه...

وفي لقاء تمَّ يوم ١٨ أيلول بين كمال جنبلاط وقائد الجيش ورئيس الحكومة الانتقالية

اللواء فؤاد شهاب، وبقي طيّ الكتمان وبعيدًا عن عدسات الإعلام، كرّر جنبلاط تمنّيه على شهاب أن يعيد النظر في موقفه وأن يرشّح نفسه للرئاسة الأولى فأكّد شهاب أنَّ قراره نهائي وأنه ليس مستعدًّا بعد لتقبّل هكذا موضوع... ثمَّ اتّفق الرجلان على الإسراع في تحديد موعد جلسة انتخاب الرئيس فحدّد يوم الثلاثاء الموافق ٢٣ أيلول موعدًا لانتخاب رئيس الجمهوريّة ولأداء القسم الرئاسي... وهكذا كان... وانتخب رجل بريطانيا الأوّل في لبنان كميل نمر شمعون رئيسًا للجمهوريّة، ودخل لبنان عهدًا جديدًا من المغامرة والمكابرة والانحراف قاد البلاد في نهاياته إلى الثورة المسلّحة...

* * *

ما كانت حقيقة موقف كمال جنبلاط
من إسقاط بشارة الخوري وانتخاب شمعون؟!

... ونحن نستذكر تلك المرحلة من تاريخ لبنان قال لي كمال حنبلاط: لقد خدعنا الإنكليز ثلاث مرّات... المرّة الأولى عندما جاؤوا ببشارة الخوري رئيسًا للجمهوريّة وبرياض الصلح رئيسًا للحكومة، ثمَّ أخذت الصورة التذكارية الشهيرة: الجنرال سبيرس أو سبيرز في الوسط وبشارة الخوري عن يمينه ورياض الصلح عن يساره وقالوا لنا: هذا هو الاستقلال ووالده الإنكليزي سبيرز...

ومرّة ثانية عندما رموا بكلّ ثقلهم وأموالهم ونفوذهم لإسقاط بشارة الخوري لأنه لم يوقّع على معاهدة «الدفاع المشترك» عن الشرق الأوسط...

ومرّة ثالثة يوم سرقوا انتصار الناس البسطاء فجاؤوا برجلهم الأول كميل شمعون رئيسًا للجمهوريّة في ٢٣ أيلول ١٩٥٢ وبدأت مرحلة المآسي التي دفع شعب لبنان ثمنها دماء ذكية سالت من شهدائه ومناضليه...

قلت: إذًا، أنتم لم تكونوا في وارد طلب استقالة بشارة الخوري وإسقاطه؟

قال: نحن كنّا طلاّب إصلاح، ولم نكن نسعى لإسقاط شخص والإتيان بشخص مكانه نعرف سلفًا أنه سيكون أسوأ منه...

وعندما تمنّيت عليه أن يكون واضحًا أكثر قال: سنة ١٩٤٣ ورثنا عن الانتداب الفرنسي قانون انتخاب حدّد عدد أعضاء المجلس النيابي بـ ٥٥ نائبًا، ثلاثون (٣٠) نائبًا للمسيحيين وخمسة وعشرون (٢٥) نائبًا للمسلمين: سنّة وشيعة وموحّدين دروز، وهذه هي النقيصة بل الخطيئة الأولى التي كانت تحتاج إلى تصحيح، فلم يفعلوا... ورثنا عن الانتداب دستورًا جعل من رئيس الجمهوريّة ديكتاتورًا صغيرًا... فرئيس الجمهوريّة وبموجب نصّ ذلك الدستور هو الذي يعيّن الوزراء ويسمّي من بينهم رئيسًا للحكومة... ورئيس الجمهوريّة هو الذي، وبموجب نصّ الدستور أيضًا وأيضًا، يحلّ مجلس النوّاب ويدعو إلى انتخابات جديدة... ورئيس الجمهوريّة هو الذي يتولّى التفاوض مع الدول

ويوقِّع معها المعاهدات... ورئيس الجمهوريّة هو القائد الأعلى للجيش، وهو رمز الحفاظ على الدستور ووحدة الأراضي اللبنانية وعلى السيادة والاستقلال إلخ... ثمَّ يقول ذلك الدستور إنَّ رئيس الجمهوريّة غير مسؤول ولا يمكن محاسبته أو مساءلته من قبل ممثّلي الشعب في مجلس النوّاب إلاَّ بتهمتين: الخيانة العظمى وخرق الدستور...

فأين هو النظام البرلماني الجمهوري الديمقراطي الذي يحقّق المشاركة في الحكم بين الفئات التي يتكوَّن منها شعب لبنان، ويؤمِّن التوازن بين السلطات، ويكفل حرّيات الناس وعيشهم الكريم؟

أضاف كمال جنبلاط: لقد زوّر بشارة الخوري انتخابات ٢٥ أيار ١٩٤٧ بهدف تجديد ولايته ثمَّ خرق الدستور يوم عدّل المادّة الدستورية التي تجيز له تجديد الولاية... ثمَّ مدَّد الولاية وجدَّدها ستّ سنوات جديدة...

كان يقال عنه إنَّه رجل قانون: محام يتّصف ببعد النظر ويتوسّل القانون وسيلة للحكم فراح يثبت بعد تزوير الانتخابات وتجديد الولاية، أنه مشتهي سلطة، يسعى إلى التسلّط وينزع إلى حكم العائلة والبطانة والمحاسيب الأقربين... جاءنا سنة ١٩٤٣ بالميثاق غير المكتوب سمّي "الميثاق الوطني" وهو اتّفاق شفهي بين البطريرك الماروني ومفتي المسلمين السنّة... وحكم البلاد مع رياض الصلح بِاَسم ذلك الميثاق حتَّى سنة ١٩٥١. لكن الميثاق الوطني ليس دستورًا، بل هو مرحلة تمهيدية وَسَطِيّة بين وضعين... ولا يجوز التوقّف عند تلك المرحلة دون اجتيازها إلى تأسيس الدولة والوطن... فلا يُؤَسَّسُ وطنٌ على التسوية فقط، أو يُبنى وطنٌ على حافتي جسر، بل يجب تجاوز ذلك إلى ما يشكّل تجسّدًا أقوى وأوضح وأعمق لقيم الإنسان والمجتمع والحياة...

وعندما سألته أن يوضّح أكثر قال: كان همّنا في تلك المرحلة حمل الشيخ بشاره الخوري على تأليف حكومة وحدة وطنية من شخصيات نظيفة كفؤة تجري تعديلاً على الدستور يحقّق المبدأ القائل: "رئيس الجمهورية يلي الأحكام ولا يحكم" ويعطي صلاحيات الحكم لرئيس الحكومة ولمجلس الوزراء مجتمعًا، فينتخب رئيس الحكومة من المجلس النيابي ويكون مسؤولاً أمام المجلس النيابي وليس موظّفًا أو ذيلاً لرئيس الجمهورية.

كذلك يقتضي وضع قانون عصري للانتخابات النيابية يجعل مقاعد المجلس مناصفة بين المسيحيين والمسلمين، وهذا ما يفرضه منطق العدل والمشاركة الحقيقية، ويحدّد النفقات

الانتخابية فيساوي بين جميع المرشّحين في حملات الإعلام والإعلان ويحرّر الناخب من سلطة المال ونفوذ الرأسمال.

لكنّ بشارة الخوري ركب رأسه وأغرقته الحاشية والبطانة بالفساد والإفساد والتجاوز على القوانين وعلى حقوق الناس...

وعندما سألته عن دور الخارج والضغط الذي مارسه لدفع بشاره الخوري إلى تقديم استقالته قال: دائمًا فتّش عن الإنكليز... لقد نزلوا بكل قواهم وكلّفوا دكتاتور سوريا أديب الشيشكلي بالتدخّل المباشر فمارس ضغوطًا هائلة على النوّاب السنّة في طرابلس وفي العاصمة بيروت... ففوجئنا بانضمامهم إلى جبهة المعارضة وبإصرارهم على طلب استقالة رئيس الجمهورية... كما تحرّك الشيشكلي باتّجاه كلّ مرشّح سنّي لتشكيل حكومة جديدة فاعتذروا الواحد تلو الآخر. وكان آخرهم الحاج حسين العويني صاحب تعويذة:: "أعوذ بالله... والحمد لله"...

ثمَّ جاء دور الشيشكلي بالترغيب والترهيب من أجل انتخاب كميل شمعون رئيسًا للجمهورية. جاءني موفد من قبله يطلب منّي أن أتوجّه إلى دمشق لمقابلته فاعتذرت. وانتدبت زميلي نائب رئيس الحزب والقاضي النزيه السابق أنور الخطيب للقيام بالمهمّة... وعندما عاد أنور أبلغني أنَّ الشيشكلي يهدّد ويتوعّد إذا لم ننتخب كميل شمعون رئيسًا للجمهورية... وقال أنور الخطيب: قال لي الشيشكلي أنَّ الغلط معه ممنوع، أَبلغ كمال بك بذلك...

وأفاض كمال جنبلاط في سرد معلومات وأحاديث تناقلتها الأندية السياسية في حينه وتحدّث ليس عن دور الشيشكلي وحسب، بل عن أدوار مماثلة قام بها نوّاب وشخصيات سورية تنتمي إلى ما كان يسمّي يومها "حزب الشعب" السوري الذي كان معروفًا بصلته بالعراق وبحاكميه نوري السعيد وولي العهد الأمير عبد الإله، وعن أموال عراقية أنفقت على هذه المعركة في بيروت، وفي دمشق أيضًا، وطالت نوّابًا ومتزعّمين ورجال صحافة ووسطاء ما بين هنا وهناك، وما بين هذه الجهة أو تلك...

وزاد جنبلاط فأكّد أنه كان يعرف كلّ علاقات كميل شمعون الإنكليزية وعن صلة شمعون بما يسمّى الاستخبارات البريطانية (أنتلجنس سرفيس) ووصفها بأنها علاقات قديمة تعود إلى ما قبل عام ١٩٤٣، تاريخ الاستقلال اللبناني، وعن أنَّ كميل شمعون كان يحمل

رقم (٢٨) في منطقة الشرق الأوسط في تلك الاستخبارات... وقال كمال جنبلاط إنَّ شمعون كان يتجلبب بثياب العروبة تنفيذًا للسياسة الإنكليزية التي كانت تتبرّج بالدعوة إلى الوحدة العربية، ولو بأشكال مختلفة ومتنوّعة، منذ أيام "لورنس العرب"... وكانت صور لكميل شمعون وهو يرتدي "الكوفية والعقال" على رأسه، أُخذت له في عمّان، قد أُلصقت على زجاج بعض مقاهي محلّة البسطة في بيروت وكتب تحتها: "فتى العروبة الأغرّ"...

وقال كمال جنبلاط عن استقالة الشيخ بشارة الخوري إنَّها كانت خطوة حكيمة تحاشيًا لإراقة الدماء، وقد جاءت بعد أن أبلغه قائد الجيش فؤاد شهاب أنَّ الجيش هو للدفاع عن الوطن وحدوده، وأنه لن يوافق على إنزال الجيش في بيروت وفي المدن لقمع التظاهرات السلمية بالقوّة...

وعندما سألت كمال جنبلاط عن قصّة التحكيم بين مرشّحي الرئاسة الأولى عهدذاك حميد فرنجية وكميل شمعون اللذان كانا يتقاسمان أصوات النوّاب قال: أنا من اقترح التحكيم، وكنّا نعمل مع عدد من الشخصيات ومنها يوسف سالم وتقي الدين الصلح وهنري فرعون لإيجاد مخرج لتلك المحنة التي وقعنا فيها. فلقد فوجئنا باستقالة بشارة الخوري فجر ١٨ أيلول وبتحديد موعد جلسة انتخاب الرئيس في ٢٣ منه... وكان الهدف من التحكيم استبعاد المرشّحين الرئيسيين والإتيان بقائد الجيش فؤاد شهاب رئيسًا أو في أسوأ الاحتمالات إيصال جواد بولس أو الدكتور يوسف حتّي لمنصب الرئاسة.

وألمح جنبلاط إلى تحفّظ النوّاب المسلمين على انتخاب حميد فرنجيه وذلك عائد لسببين: الأول نظافة كفّ حميد وقوّة شخصيته وتعاليه أحيانًا... أمَّا السبب الثاني فهو أنَّ لحميد فرنجيه شقيق يدعى سليمان عُرِفَ عنه قوّة البأس والشكيمة، وهو مرشّح لأن يلعب الدور الذي لعبه الشيخ سليم الخوري في عهد شقيقه الشيخ بشارة بل وربَّما أزود...

وروى تقي الدين الصلح لنسيب المتني ولابن شقيقه مُنح أنَّ كمال جنبلاط طلب منه بذل أقصى الجهود لاستبعاد المرشّحين الرئيسيين فرنجيه وشمعون. وروى مُنح الصلح أنَّ عمّه تقي الدين أوفد كلاًّ من زهير عسيران ومحمّد شقير لزيارة رئيس الحكومة سامي الصلح والتمنّي عليه أن ينتخب حميد فرنجيه، لكن "البابا سامي"، وهذا كان لقبه، فاجأ الزائرين بالقول: سبقكم سفير بريطانيا... فلقد اتّصل بي وطلب منّي انتخاب كميل شمعون... فسلّما على تقي وقولا له: على خاطر من يريد أن أقف... على خاطركم أم على

خاطر سفير بريطانيا العظمى؟!... وأضاف مُنح الصلح: عندما أبلغ عسيران وشقير عمّي تقي الدين بالأمر ضرب كفًّا بكف وقال: يا حرام يا حميد فرنجيه، ويا فؤاد شهاب.

وروى العميد فرنسوا جنادري، مدير مكتب قائد الجيش عهدذاك، أنَّ اللواء فؤاد شهاب كان يدعم ترشيح حميد فرنجيه، لكنّه وصبيحة يوم الانتخاب ٢٣ أيلول، سمع اللواء شهاب يقول للعميد توفيق سالم رئيس أركان الجيش اللبناني يومها: عملها الإنكليز وابن عرب... وذكر يومها أنَّ المستشار الشرقي في السفارة البريطانية مارون عرب جال على عدد كبير من النوّاب حاملاً معه كمّيات من الليرات الإنكليزية الذهبية... كذلك قام موفدون من قبل حاكم دمشق أديب الشيشكلي بزيارة عدد من النوّاب للغاية نفسها!...

- إنقاذ الشكليات!

قال كمال جنبلاط وهو يتنهّد لإخراج الأنفاس الملوّثة التي تكاد تحبس الأنفاس: لم يعد أمامنا إلاَّ إنقاذ الشكليات والخروج بموقف ولو شكلي لتغطية الخطوة المقبلة بلباس مقبول، ولو إلى حين... فدعونا نوّاب الجبهة الاشتراكية الوطنية إلى الاجتماع مساء يوم الأحد الموافق ٢١ أيلول ١٩٥٢ في منزل زميلنا النائب الأرمني ديكران توسباط في عاليه، وكتبت بخطّ يدي نصّ الوثيقة التي جعلنا لها عنوانًا يقول: "الضمانات التي ارتبط بها مرشّح الجبهة الاشتراكية الوطنية أمام رفاقه في جلسة الجبهة المنعقدة بتاريخ ٢١ أيلول ١٩٥٢". عند الساعة السابعة مساء زواليه في عاليه بمنزل الزميل ديكران توسباط:

أقسم بشرفي ويمعتقدي على القيام بما يلي:

أوّلاً- استقلال لبنان وضمان كيانه، وعدم التحيّز لدولة أجنبية، والمحافظة على العلاقات الودّية مع جميع الدول الكبرى.

ثانيًا- التحرّر من العائلية ومن تأثير مكتب الرئاسة ومن المحسوبين.

ثالثًا- التحرّر من كلّ وضع استغلالي للنفوذ والمال.

رابعًا- قفل مكتب المحاماة للمرّشح لرئاسة الجمهورية بعد انتخابه.

خامسًا- تنفيذ برنامج الجبهة الاشتراكية الوطنية وخاصّة البيان الذي جرى الإضراب على أساسه.

سادسًا- تعديل قانون الانتخاب على أساس الدائرة الفردية وحلّ المجلس النيابي.

سابعًا- إلغاء النفقات السرّية بجميع دوائر الدولة فيما عدا الداخلية والمالية والخارجية.

ثامنًا- التوظيف والترقية لا يحصلان إلاَّ على أساس الكفاءة والامتحان.

تاسعًا- لا يتّصل رئيس الجمهورية ولا يستقبل أحدًا من الموظّفين بدون واسطة الوزراء... **يلي الأحكام ولا يحكم.**

عاشرًا- لا يوافق رئيس الجمهورية بتاتًا على تعيين أحد الأشخاص الملوّثين لمنصب وزاري أو غير وزاري، وعدم التقيّد بقواعد الطائفية.

الحادي عشر- تنفيذ المبدأ التالي: عدم القيام بعمل ينافي التصريحات والانتقادات السابقة الصادرة عن الجبهة الاشتراكية الوطنية.

وجوابًا على السؤال الموجّه من قبل مرشّح الجبهة الاشتراكية الوطنية عن موقف الجبهة من الارتباط مع رئيس الدولة يمكن إيجازه بما يأتي:

«إنَّ الارتباط مع رئيس الدولة يكون وفق ما يرتبط رئيس الدولة ببرنامج وتوجيهات الجبهة وتوصياتها».

التواقيع: كمال جنبلاط ـ غسان تويني ـ كميل شمعون ـ أنور الخطيب ـ عبد الله الحاج ـ إميل البستاني ـ بيار إدّه ـ ديكران توسباط.

وحرص كمال جنبلاط على أن يزور مع المرشّح للرئاسة كميل شمعون، ومعهما نصّ الوثيقة، قائد الجيش ورئيس الحكومة المؤقّتة اللواء فؤاد شهاب في مكتبه في وزارة الدفاع؛ وأطلع جنبلاط شهاب على تفاصيل الاجتماع وعلى ما انتهى إليه من وضع الوثيقة وتوقيعها فضحك شهاب ونظر إلى كمال جنبلاط بشيء من الدهشة والاستغراب وقال له: وانا شو دخلني يا كمال بك؟!

فابتسم جنبلاط وقال: جئناك لتكون شاهدًا وكفيلاً إذا أردت...

فردّ شهاب بضحكة عريضة وقال: شاهد: نعم. أمَّا كفيل فلا...

وبلع الرئيس شمعون الغمزة والابتسامة... فقد كان همّه الأوحد أن يصل إلى الرئاسة بأيّ ثمن...

... وقبل ظهر يوم الثلاثاء ٢٣ أيلول ١٩٥٢، ووسط قرار منع التجوّل الذي اتّخذته حكومة فؤاد شهاب انعقد المجلس النيابي برئاسة الزعيم الوائلي أحمد الأسعد... حضر الجلسة ٧٦ نائبًا من أصل ٧٧. وكان النائب الوحيد الذي غاب عن الجلسة هو الشيخ سليم الخوري شقيق الشيخ بشاره...

وأجريت عملية الاقتراع بواسطة الصندوق الجوّال فنال كميل شمعون ٧٤ صوتًا ووجدت ورقتان بيضاوان... ولم يعرف ما إذا كانت ورقة كمال جنبلاط هي إحداهما...

وصعد كميل شمعون إلى المنصّة فأقسم اليمين الدستورية بالحفاظ على دستور البلاد وعلى سيادتها واستقلالها وسلامة أراضيها... ثمَّ راح يتلو خطاب القسم فراح يعد ويعد بحيث أنَّ الموقف بات في حاجة إلى من يحصي الوعود والعهود التي قطعت، والتي بقيت حبرًا على ورق، أو مجرّد فقاقيع صابون تلاشت مع نسيمات هواء أواخر أيلول الذي وكما يقال «طرفه بالشتاء مبلول»...

فـ «الرئاسة تكليف وليست مكافأة ولا رتبة... تحمّل متولّيها واجبات ولا تدرّ عليه منافع أو تمنحه امتيازات» كذا... وأنَّ رئيس الجمهورية لن يضع يديه على أموال سرّية تنفق من دون رقابة، ولن يستفيد من أية إعفاءات جمركية أو مالية أو سواها، بل سيسعى إلى إلغاء هذه الامتيازات... إلى الوعد «بالقضاء من دون هوادة ولا رحمة على الفساد والفوضى»... مؤكّدًا تصميمه على «أن تصان حرمة القضاء وأن يسود الإخلاص والأخاء والتعاون علاقات لبنان بالدول العربية كلّها، وفي مقدّمتها الشقيقة سوريا» بقيادة الشيشكلي الذي كان أول رئيس عربي زار بيروت مباركًا ومؤيّدًا وداعمًا... وانتقل كميل شمعون من ساحة النجمة في بيروت إلى قصر الأمير بشير الثاني الشهابي في بيت الدين... ومنذ لحظة دخوله القصر وإطلالته على الشرفة أشعل سيجاره الطويل الهافاني، وبدأ يرى لبنان من فوق غير لبنان من تحت ـ ومثله كمثل ذلك البابا الذي تعهّد بإحداث ثورة في الكنيسة الكاثوليكية... ثمَّ وفي اليوم التالي سئل: متى يبدأ الإصلاح؟ فأجابهم: «روما من فوق هي غير روما من تحت» والبقية تأتي تباعًا...

ـ ... وحكومة الموظّفين ومراسيمها الاشتراعية

قال لي كمال جنبلاط: ما أن استقرّ كميل شمعون في قصر الرئاسة الصيفي في بيت

الدين حتَّى أخذ يعتبر أنَّ لبنان هو جزء من الغرب واستعمل الكلمة التي كانت رائجة عهدذاك «العالم الحرّ»...

وأضاف جنبلاط: عندما فاتحته بموضوع اعتراف لبنان بالصين الشعبية التي يشكّل سكّانها ثلث سكّان العالم وقلت له: إنَّ ذلك أمر معيب... أن يعترف لبنان الرسمي بجزيرة فورموزا وبرئيسها العميل الأميركي شان كاي شك كممثّل لشعب الصين الذي كان يحكمه شخصان بارزان هما رئيس الدولة ماو تسي تونغ ورئيس الوزراء شو إن لاي، أجابني بمزحة سمجة، قال: شو بدكم تهجمو علينا من وراء سور الصين العظيم؟!.

المهمّ أنَّ شمعون أجرى مشاروات واستشارات شكلية لتشكيل أوّل حكومة في عهده، لتحقيق الإصلاحات التي كان يطالب بها يوم كان عضوًا في الجبهة الاشتراكية الوطنية... وكانت الجبهة قد طالبت بأن يكون أحد أعضائها أنور الخطيب رئيسًا لحكومة الإصلاح الموعودة... إلاَّ أنَّ شمعون كان يخفي الورقة في جيبه والتي أعلنها في ٣٠ أيلول، أي بعد أسبوع من دخوله القصر، فإذا هي حكومة موظّفين برئاسة الأمير خالد شهاب وعضوية كلّ من موسى مبارك وجورج حكيم وسليم حيدر لكن موسى مبارك استقال في ما بعد وفضّل أن يذهب سفيرًا إلى الخارج وأن يبتعد عن ذلك الجوّ الذي حفل بالعجائب والغرائب في عالم الإصلاح...

وكان الانتداب الفرنسي قد عيّن الأمير خالد شهاب رئيسًا للحكومة عام ١٩٣٨ وعيّن معه كميل شمعون وزيرًا للمرّة الأولى...دامت مدّة حكم حكومة الموظّفين من ٣٠ أيلول ١٩٥٢ إلى ٣٠ نيسان ١٩٥٣ وحفلت بسلسلة المراسيم الاشتراعية التي أصدرتها بعدما نالت سلطات استثنائية من مجلس النوّاب... ولعلّ أبرز تلك المراسيم المرسوم الذي وضع قانونًا جديدًا للانتخاب قضى بخفض عدد النوّاب من ٧٧ إلى ٤٤ وبتحديد الدوائر الانتخابية على أسس عشوائية لم تراعِ لا التاريخ ولا الجغرافيا ولا الديموغرافيا... ولم يتمكّن المجلس النيابي، الذي منح حكومة خالد شهاب، سلطة إصدار المراسيم الاشتراعية، في ما بعد لا من إسقاط المرسوم الاشتراعي الذي قضى بتسريحهم من الخدمة، ولا من تعديل أيّ من بنوده... وذهبت حكومة الموظّفين، موقعة المشروع لا واضعته، لأنَّ من وضع قانون الانتخاب كان الرئيس كميل شمعون وبعض مستشاريه ولعلّ أبرزهم عهد ذاك شفيق حاتم مدير عام وزارة العدل الذي كان يقدّم للرئيس أكثر من استشارة قانونية واحدة

كان شمعون يختار من بينها الاستشارة الأنسب لمصالحه ولطموحه بأن يحكم البلاد منفردًا بعيدًا عن روح الدستور والقانون والعيش المشترك بين فئات الشعب اللبناني... ولم تكن مقولة "السلم الأهلي" التي درجت في السنين الأخيرة معمولاً بها أو رائجة عهدذاك. وبتاريخ ٣٠ نيسان ١٩٥٣ شكّل شمعون حكومة برئاسة صائب سلام حاول مجلس النوّاب إسقاطها في جلسة الثقة فلم ينجح... ففازت بثقة هزيلة (٣٧ نائبًا أيدوها و٣١ عارضوها)... فحلّت مجلس النوّاب وأجرت انتخابات جديدة فاز شمعون بأكثرية مقاعدها... ولم تدم مدّة حكمها طويلاً فذهبت في ١٦ آب من العام نفسه...

فصّل كميل شمعون دائرة انتخابية لكمال جنبلاط على قياس خاصّته، وليس على قياس كمال جنبلاط، فجزّأ الشوف إلى دائرتين: دائرة بعقلين ـ جون وامتدّت من المديرج عين داره نزولاً إلى بعقلين فإقليم الخروب المسيحي الممثّل بقرى آل عيد فجون فالرميلة وحدودها جسر الأولى وصعودًا حتّى باتر حدود الشوف مع قضاء جزين. وسلخ شمعون إقليم الخروب السنّي بأكثرية سكّانه وألحقه بدير القمر وأطلق على الدائرة الانتخابية اسم دائرة دير القمر ـ شحيم، كما سلخ الدامور عن قضاء الشوف وألحقها بقضاء عاليه تأمينًا لفوز مرشّحه جورج عقل...

فاز كمال جنبلاط لوحده من اللائحة التي ترشّح معها وفاز من اللائحة الشمعونية اثنان هما نعيم مغبغب الكاثوليكي من عين زحلتا وهنري طرابلسي الماروني من دير القمر، وتحالف أنور الخطيب مع إميل البستاني في دائرة دير القمر ـ شحيم ففازا، وثأر جورج عقل لنفسه من الانتخابات الفرعية التي جرت لملء مقعد الرئيس شمعون النيابي وفاز به مرشّح الحزب التقدّمي الاشتراكي إيلي مكرزل الذي دامت نيابته ثمانية أشهر... وانفخت الدفّ وتفرّق العشّاق... وافرنقعت الجبهة الاشتراكية الوطنية وبقي كمال جنبلاط لوحده، وسار إميل البستاني وغسان تويني وتوسباط وآل إدّه في ركاب كميل شمعون وعهده... وبقيت المبادئ هي المبادئ لكنّ الرجال هم الذين تغيّروا، وعقد كمال جنبلاط مؤتمرًا صحافيًا قال فيه: إنَّ انتخاب رئيس جديد للجمهورية ليس من الأهمّية إلى حدًّ كبير بالنسبة إلى الخطوة الإيجابية المنتظرة لتحقيق الإصلاح والقضاء على الفساد ومحاكمة المفسدين...

* * *

مراسيم شمعون الاشتراعية والانحياز إلى تكريس الاحتكارات والامتيازات والفساد والمحسوبية... والإفساد!

"إذا حدّدنا حرّية الصحافة أضعناها، وإذا ضاعت حرّية الصحافة، ضاعت حرّية بلادنا".
جفرسون

في أقصر حديث صحافي سئل السلطان العثماني عبد الحميد في منفاه: ماذا يفعل لو عاد إلى الحكم؟ فأجاب حرفيًا: "لو عدت إلى يلدز لوضعت محرّري الجرائد كلّهم في أتون كبريت...".

كتب الشيخ بشارة الخوري في مذكّراته "حقائق لبنانية": "كان كمال جنبلاط يعيش في الجوّ فيما نحن نعيش على أرض الواقع..." وأثبتت التجربة العكس، فالرؤساء ظلّوا في أجوائهم ومناخاتهم الضيّقة يستغلّون منصبهم للتحكّم وليس للحكم، لتكريس امتيازات واحتكارات فئة من اللبنانيين على حساب حرّيات الناس وحقوقهم الأساسية، على حساب حقوق الإنسان والكرامة الإنسانية... أمّا كمال جنبلاط فظلّ مع الناس، مع ما آمنوا به وأقسموا على تحقيقه من حكم ديمقراطي برلماني جمهوري يؤسّس لقيام وطن النهضة والاستنهاض والوحدة الوطنية ودولة العدل والمشاركة والتوازن بين السلطات.

ومع تأليف حكومة الموظّفين برئاسة خالد شهاب وانتزاع صلاحيات المجلس النيابي لمصلحتها، وتخويلها إصدار المراسيم الاشتراعية دون العودة إلى ممثّلي الشعب، ودون إشباعها درسًا وتمحيصًا لتأتي محقّقة آمال الناس وما أقسموا عليه في دير القمر وفي غير دير القمر، من أجل قيام دولة القانون والمؤسّسات وحكم الحرّية والعدل والمساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات.

قال لي كمال جنبلاط في أكثر من مناسبة وجلسة استذكار لتلك المرحلة من تاريخ لبنان: لقد أقسم كميل شمعون "بشرفه وبمعتقده" ثلاث مرّات في ثلاثة وثائق صدرت عن الجبهة الاشتراكية كان آخرها وثيقة ترشيحه لرئاسة الجمهورية في ٢١ أيلول ١٩٥٢، لكنه حنث بالقسم تلو القسم، وكشف عن حقيقة أمره وسوء نواياه في التلاعب بمقدرات الحكم وبكرامة الحكومات ورؤسائها ليقيم حكم الفرد على قياسه هو، وليكرّس الاحتكارات والامتيازات وليلغي حقوق الناس وحرّياتهم التي نصّ عليها وكرّسها الدستور. إنّ

الإصلاح الذي وعد به تحوّل إلى عملية صرف جماعية للموظّفين الذين ينتمون إلى عهد بشارة الخوري سواء في إدارات الدولة أو في سلك القضاء، وملء الشواغر التي حصلت نتيجة لصرفهم بموظّفين ينتمون إلى شمعون ويدينون بالولاء له شخصيًّا... ثمَّ انغماس هؤلاء في عمليّات الفساد والإفساد والإثراء غير المشروع والتي تحوّل القانون الذي يحمل هذا العنوان إلى كلمات وضعت على الرفّ، ولم توضع يومًا موضع التنفيذ... وصدق السيِّد المسيح يوم قال: وهل يُرجى من العوسج تينًا ومن الشوك عنبًا؟.

وكان ثالثة الأثافي والأغرب والأعجب بين مراسيم حكومة الموظّفين في مطلع عهد شمعون، المرسوم الاشتراعي الذي صدر تحت لافتة إصلاح الصحافة والوضع الصحافي... اللافت في هذا المجال أنه خلال فترة الانتداب الفرنسي كان قانون الصحافة المعمول به في لبنان مشابه للقوانين الصحافية في البلدان الديمقراطية ذات النظم البرلمانية... فكان يسمح على سبيل المثال، لكلّ مواطن لبناني وعلى الأخصّ للمنتسبين إلى الجدول النقابي للصحافة بالحصول على ترخيص بإصدار مطبوعة (جريدة أو مجلّة: سياسيّة أو غير سياسيّة) من خلال معاملة روتينية (طلب مع طابع من فئة العشرة قروش وضمانة مصرفية قدرها ثلاثة آلاف ليرة لبنانية) وكان ذلك منسجمًا مع ما نصّ عليه الدستور اللبناني من احترام وصيانة حقّ القول والكتابة والتفكير والتعبير والنشر...

ولقد حافظ عهد بشارة الخوري على قانون حرّية إصدار الصحف (كان الموضوع منوطًا في البدء بوزارة الداخلية ثمَّ نقل إلى وزارة الأنباء بعد تأسيسها وقبل تحوّلها إلى وزارة الإعلام) ظلّ ذلك معمولاً به إلى أن جاء ما سمّي "الإصلاح الشمعوني" بَئِدُ هذه الحرّية عبر المرسوم الاشتراعي رقم ٧٤ الصادر في ١٣ نيسان سنة ١٩٥٣ تحت عنوان غريب هو: "تحديد عدد المطبوعات الدورية السياسية".

ونصّ هذا المرسوم على ما يأتي: إنَّ رئيس الجمهورية بناء على الدستور اللبناني وبناء على اقتراح وزير الأنباء وبعد موافقة مجلس الوزراء يرسم ما يأتي:

المادّة الأولى: إلى أن يصبح عدد المطبوعات السياسية في جميع الأراضي اللبنانية خمسة وعشرين مطبوعة يومية سياسية وعشرين مطبوعة سياسية موقوتة يكون من مجموعها على الأقلّ عشر مطبوعات يومية عربية واثنتي عشر موقوتة عربية، لا يعطى ترخيص جديد لمطبوعة دورية سياسية يومية أو موقوتة إلاّ لمن كان يملك صحيفتين من نوع

الصحيفة المطلوب إصدارها تتوقّفان نهائيًّا عن الصدور لقاء الترخيص المطلوب... وعندما يستقرّ عدد المطبوعات على الوجه المبيّن في الفقرة السابقة لا يعطى الترخيص إلاّ لِمَن كان يملك صحيفة واحدة تتوقّف نهائيًّا عن الصدور. يحظّر على المطبوعة الواحدة أن تنشئ لها فرعًا أو فروعًا مستقلّة عن الأصل.

يعمل بهذا المرسوم الاشتراعي فور نشره في الجريدة الرسمية.

الإمضاء: كميل شمعون

وأُحيط صدور هذا المرسوم الاشتراعي في حينه بهالة من التوصيفات والتصريحات زعمت أنَّ الغاية منه إصلاح الوضع الصحافي وتنظيفه من المرتزقة ومتسوّلي الإعلانات ومتوسّلي الشانتاج... وروّج أيضًا أنَّ حصر عدد الصحف يحول دون وقوعها تحت سيطرة الرأسمالية أو الدول الخارجية أو جهات غير وطنية، وهو يزيد من قدرة الدولة على مراقبة تمويلها... وكلّها مزاعم هوائية لتغطية السموات بالقبوات ولوصف النزعة الاحتكارية التي كان ينظر عهد شمعون بها إلى الأمور بأنها إصلاح وتطوير ووطنجيات فارغة.

وهكذا تحوّل اسم الترخيص بإصدار صحيفة أو مجلّة إلى "امتياز" وارتفع سعر ترخيص المطبوعة الواحدة إلى مئات ألوف الدولارات إذا كانت أسبوعية أو دورية وإلى ملايين الدولارات إذا كانت يومية...

جاءت فكرة تحديد عدد الصحف السياسية نتيجة تواطؤ مكشوف بين عهد شمعون الساعي إلى الحدّ من حرّية الصحافة وإلى تكبيل رجالها والمواطنين العاديين على السواء بقيود وأعباء تحول بينهم وبين التعبير عن آرائهم بحرّية وبعيدًا عن تسلّط رأس المال والنفوذ الخارجي (سواء كان عربيًّا أو أجنبيًّا) وبين عدد من أصحاب الصحف والمهيمنين على نقابة الصحافة عهد ذاك، فهرع هؤلاء إلى الحصول على تراخيص قبل صدور المرسوم وإقفال باب الترخيص... وذكر أنَّ نقيبًا أسبق للصحافة حصل على أكثر من عشرة تراخيص عمد إلى بيعها في ما بعد بأسعار مرتفعة فحقّق ثروة من وراء تلك الصفقة... ولم يكتفِ بعض هؤلاء بذلك فقط بل عمدوا إلى ارتكاب مخالفات قانونية فاضحة من خلال تجزئة الترخيص الواحد إلى "حقّ يومي" و "حقّ أسبوعي" فتحوّلت صحف يومية إلى صحف أسبوعية والعكس صحيح... وكانت تلك هرتقة قانونية وقفز على القوانين، وهو ما حصل مع كمال جنبلاط شخصيًّا عندما باعوه ترخيص "الأنباء" اليومي على أنه ترخيص

أسبوعي ثمَّ باعوا الحقّ اليومي إلى صحيفة أخرى أسبوعية تحوّلت إلى يومية، وهو ما تأكّدنا منه من خلال ملاحقتنا لملفّ «الأنباء» في عهود مضت...

وباختصار كلّي، فقد ظهرت لذلك المرسوم السيء الذكر، مع مرور الزمن، نتائج سلبية ليس أقلّها:

١ـ الانتقاص من حرّية الصحافة ومن حقّ المواطن اللبناني في التعبير عن رأيه وامتلاك وسيلة إعلامية لممارسة ذلك الحقّ الدستوري والقانوني.

٢ـ إغلاق الباب أمام الصحافيين المهنيين والعاملين في الصحف في إصدار صحف مستقلّة لهم.

٣ـ فتح الباب والشهيّة أمام الجهات الخارجية وأصحاب الرساميل النفطيّة في السيطرة على عدد من كبريات الصحف اللبنانية.

وما حصل بالنسبة لصحيفتي «الشرق الأوسط» و«الحياة» خير دليل على ذلك. لكنّ الغريب واللافت في ملابسات هذا الموضوع أنَّ عدد التراخيص السياسية من يومية وأسبوعية ودورية بلغ عند صدور مرسوم التحديد الاشتراعي عام ١٩٥٣ اثنين وثمانين ترخيصًا... أمّا في يومنا فقد ارتفع عدد التراخيص السياسية من ٨٠ إلى ١١٢ ترخيصًا أو امتيازًا. فبدل أن ينقص عدد التراخيص زاد وارتفع واستولد وفرّخ... والجواب عن هذه الفضيحة هو عند المسؤولين الذين تعاقبوا على نقابة الصحافة، وعند وزراء الإعلام والسياسيين الذين، بدل أن يصلحوا ويسائلوا، عاثوا في الأرض فسادًا...

فهل ثمّة من يسائل ويصلح في هذا الوطن ـ المزرعة وفي هذه الدولة التي تحوّلت إلى نوع من الفوضى غير المنظّمة تتنازعها فدرالية طوائف ومذاهب تقودنا إلى الهاوية وإلى أسوأ مصير؟!

برزت عند الرئيس شمعون ذهنية وعقلية تكريس الاحتكارات على شتّى أنواعها: احتكار استيراد الأدوية التي فاقت أرباحها ثلاثمائة في المئة، احتكار إنتاج الإسمنت (الترابة) لشركة واحدة، احتكار النقل والشحن الجوّي لشركة واحدة كان يملكها آل عريضة (شركة ليا) وصارت الجنسية اللبنانية تعطى لقاء تسعيرة محدّدة... وأصبح للرئيس وللبطانة أسهم في عدد من الشركات والوكالات وأرصدة في البنوك والمصارف داخل وخارج لبنان.

وحتّى الدعارة التي كان مرخّصًا لها رسميًا في شارع متفرّع من ساحة البرج، أو الشهداء شمالاً، يطلق عليه اسم «شارع المتنبّي»، ويا خجلنا واعتذارنا من الشاعر العربي الكبير الذي أنشد:

الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلمُ
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأَسْمَعَتْ كلماتي من به صممُ

حتَّى الدعارة التي كان يقال عنها إنَّها سرّية انتشرت في عدد من أحياء العاصمة وصار لها بنايات خاصّة بها، تتألّف أحيانًا من عدّة طبقات، مليئة بالنساء والبنات الجانحات يمارسن المحرّمات تحت سمع السلطة وأبصارها، بل وفي ظلّ حماية رسمية معيّنة كانت تشارك في جني الأرباح الحرام، ولعلّ أبرزها كانت بناية تقوم غربي فندق «البريستول» وتشرف عليها وتديرها القوادة الشهيرة «عفاف»... ولنا عودة إلى هذا الموضوع بالتفاصيل والنتائج!...

ـ التلاعب بالحكومات وبالنظام!

وبدل أن يعمد الرئيس شمعون إلى احترام بعض ما تعهّد به وأقسم على تحقيقه «بشرفه وبمعتقده» مرّات، راح يمعن في خرق الدستور، وفي الاستهانة بكل مبادئ النظام البرلماني الديمقراطي الجمهوري المفترض أن يُعمل به في لبنان... فأخذ يتلاعب بالحكومات وبرؤسائها وبأسلوب عملها، وبما تمثّل ويمثّلون... فبعد حكومة الموظّفين برئاسة الأمير خالد شهاب التي دامت مدّة ممارستها مهامها بإشراف الرئيس ومستشاريه، خمسة أشهر لا غير... فأصدرت المراسيم الاشتراعية التي لم تحقّق أي إصلاح بل بالعكس فقد استهدفت الحرّيات، ولا سيَّما حرّية الصحافة والنشر والتعبير عن الرأي، وانتهكت مبادئ التمثيل الشعبي بإصدار قانون انتخابي منح بمرسوم اشتراعي صدر عن دوائر «سلطان البرّين وخاقان البحرين» كما أطلق المفكّر والمحامي الكبير يوسف السودا على كميل شمعون... ثمَّ جاءت حكومة الانتخابات برئاسة صائب سلام ولم تبق في الحكم سوى ثلاثة أشهر... ثمَّ ألّف شمعون حكومة برئاسة عبد الله اليافي دامت من ١٦ آب ١٩٥٣ وحتَّى الأول من آذار ١٩٥٤ (أي خمسة أشهر ونصف الشهر)... ثمَّ عمد شمعون إلى تأليف حكومة ثانية برئاسة عبد الله اليافي... ولم يطل الزمن بحكومة اليافي الثانية... فسرعان ما أطاح بها الغليان الشعبي وردّة فعله الشاملة والغاضبة على إراقة الدماء أثناء تظاهرة طلاّب الجامعة الأميركية

وسقوط شهيدين هما الشهيد التقدّمي الاشتراكي الطالب حسّان أبو اسماعيل ورفيقه الشهيد الحي الطالب مصطفى نصر الله الذي أُصيب في عموده الفقري وعاش مشلولاً معاقًا إلى أن عاد وانتقل إلى جوار ربّه راضيًا مرضيًا...

فما الذي حصل بالضبط في زمن حكومة عبد الله اليافي الثانية؟

- جرّ لبنان إلى الأحلاف واستعمال القوّة وسقوط الشهداء!

خلال العام ١٩٥٤ كان الرئيس كميل شمعون يحاول جرّ لبنان إلى الدخول في المحاور والأحلاف التي كانت تستهدف غايتين: الأولى تطويق ثورة الضبّاط الأحرار في مصر، وكان عبد الناصر قد نحى اللواء محمَّد نجيب وتسلّم السلطة مباشرة وعلنًا، والثانية جرّ لبنان إلى دخول النسخة المنقّحة عن مشروع «الدفاع المشترك» عن الشرق الأوسط والتي صار اسمها: «حلف بغداد» وشمل تركيا وإيران والأردن وباكستان والعراق بالطبع وكانت الغاية من إنشائه تطويق الاتّحاد السوفياتي ومواجهة أخطار انتشار الشيوعية في المنطقة...

وأخذ الرفض الشعبي لمحاولات عهد شمعون إدخال لبنان في حمأة المحاور والأحلاف المشبوهة يتعاظم ويتفاقم، فدعا الحزب التقدّمي الاشتراكي إلى تحرّك شعبي لمناهضة سياسة الانحراف والأحلاف... وكان من الطبيعي أن يبدأ التحرّك الشعبي من الطلاّب ومن الجامعة الأميركية بالذات... ففي يوم السابع والعشرين من آذار ١٩٥٤ انطلقت تظاهرة طلاّبية كبرى تحمل اللافتات وتطلق الهتافات من قلب حرم الجامعة الأميركية وخرجت من المدخل الجنوبي الشرقي حيث انضمّت إليها تجمّعات طلاّبية أخرى قدمت من ثانويات ومدارس أخرى في أنحاء العاصمة... وسار الجميع كالسيل المنهمر يهدر بالهتافات ضدّ حلف بغداد وأسياده، ويطالب بتحرير فلسطين من الاحتلال الصهيوني... كان هدف المتظاهرين التوجّه إلى سراي الحكومة القديم (وكنت أنا أشارك في تلك التظاهرة مع عدد زملائي الطلاّب، ولتغطية الحدث لجريدة «التلغراف» لصاحبها خالي الشهيد نسيب المتني).

وعند وصول طليعة التظاهرة إلى المدخل القديم لمستشفى الجامعة الأميركية حدث المحظور... فحاولت قوّات أمن شمعون منع التظاهرة من التقدّم ومحاولة إعادة المتظاهرين بالقوّة إلى داخل حرم الجامعة الأميركية... فوقع الصدام مع قوّات الشرطة، حيث بدأ باشتباك بالأيدي بين الطلاّب وبين طليعة قوى الأمن... وما هي لحظات حتَّى لعلع

الرصاص فأصيب عدد من الطلاّب... وسقط نتيجة لإطلاق الرصاص شهيد للحزب التقدّمي الاشتراكي هو الطالب في الجامعة الأميركية حسّان أبو اسماعيل وأصيب برصاصة في جبهته، وأصيب زميله الطالب مصطفى نصر الله برصاصة في عموده الفقري أدّت إلى إصابته بالشلل فعاش بقية حياته شهيدًا حيًّا يشهد مع الشهيد الحيّ الآخر ومع الرفاق الجرحى، على عدوانية عهد شمعون وعلى نيّته وعزمه إخضاع شعب لبنان وجرّ لبنان إلى أحلاف أسياده ولو بالقوّة وبأساليب البطش والقهر والإرهاب...

وانتقلت أصداء المجزرة إلى داخل المجلس النيابي الذي عقد جلسة لمناقشة الأحداث والاطّلاع على حقيقة ما حصل... فوقف رئيس الحكومة الدكتور في القانون عبد الله اليافي، الذي كان وزيرًا للداخلية في الوقت عينه، يحاول تبرير الجريمة، وتحميل المسؤولية للطلاّب المتظاهرين... فما كان من كمال جنبلاط الذي كان نائبًا مشاركًا في الجلسة إلاَّ أنَّ رفع صوته في وجه اليافي مخاطبًا إيّاه بالقول: "يا جلاّد الأولاد والشباب" ثمَّ تناول كأس الماء الذي كان أمامه فطار الكأس بين رؤوس النوّاب ليسقط أمام منصّة الحكومة ويسقط معه نظارات اليافي... وذكر أنَّ جنبلاط تقدّم من اليافي وصفعه، إلاَّ أنَّ ذلك غير صحيح. فأنا كنت حاضرًا الجلسة كصحافي أغطّي تفاصيلها وأستطيع الجزم بأنَّ مثل ذلك لم يحصل... وأنَّ كمال جنبلاط وإن كان قد تقدّم باتّجاه اليافي فإنَّه لم يصل إليه ولم يصفعه كما ذكر في بعض الكتب...

وصعّد كمال جنبلاط حملاته ضدَّ الحكومة والحكم وضدَّ حلف بغداد وكلّ المحاولات الهادفة لجرّ لبنان إليه، ونجح بعد اتّصالات حثيثة ولقاءات متعدّدة شارك في معظمها وبصورة بارزة ومكثّفة الصحافي الوطني المناضل نسيب المتني وولد على الأثر ما سمّي: "لقاء الأحزاب والشخصيات والقوى الوطنية والتقدّمية" وشارك فيه كلّ من حزب النجادة وحزب الهيئة الوطنية ونوّاب مثل معروف سعد وعبد الله الحاج، وانتخب حسين العويني رئيسًا للمؤتمر وبذلك تكون المملكة العربية السعودية قد دخلت بشكل شبه علني في مواجهة حلف بغداد وأهدافه.

ووسّع كمال جنبلاط اتّصالاته العربية لمواجهة حلف بغداد وتداعياته فعقد اجتماع مشترك بين الحزب التقدّمي الاشتراكي وحزب البعث العربي الاشتراكي شارك فيه جنبلاط وبعض النوّاب وأركان حزب البعث: ميشال عفلق وأكرم الحوراني وصلاح الدين البيطار وصدر بنتيجته بيان أعلن أنَّ الحزبين اتّفقا على اتّخاذ خطوات مشتركة ضدَّ الأحلاف

الغربية، وعلى توسيع اتّصالاتهما مع أحزاب وهيئات عربية أخرى لمناهضة سياسة الأحلاف وزجّ المنطقة العربية في صراعات القوى العظمى وفي مقدّمها الولايات المتّحدة الأميركية وبريطانيا والاتّحاد السوفياتي...

وفي أثر هذا اللقاء اتّخذ حاكم دمشق أديب الشيشكلي قرارًا بأبعاد قادة حزب البعث عفلق والحوراني والبيطار إلى لبنان. فأقاموا مدّة في ربوعه... وبعد زيارة قاموا بها لنسيب المتني في مكتب «التلغراف» وإدلائهم بتصريح شامل نشر في عدد من الصحف اللبنانية، نقلاً عن «التلغراف» اتّخذ كميل شمعون قرارًا بإبعادهم عن الأراضي اللبنانية فتوجّهت قوى الأمن إلى حيث يقيمون واقتادتهم إلى المطار حيث أدخلوا أوّل طائرة تستعد للإقلاع منه، وكانت متوجّهة إلى روما... وذلك وسط احتجاج الثلاثة وصراخ أكرم الحوراني بأنهم لا يحملون في جيوبهم أيّة أموال... فكيف سيتدبّرون أمرهم في روما وأين سيقيمون؟!

٢٧ آذار ١٩٥٥: الاحتفال بالذكرى السنوية الأولى لاستشهاد الطالب حسّان أبو اسماعيل في تظاهرة الطلاّب ضدّ حلف بغداد. وبدا في الصفّ الأول: كمال جنبلاط، عدنان الحكيم، الشيخ عبد الله العلايلي، أنور الخطيب، والدة الشهيد وشقيقه، وبدا الشهيد شكيب جابر واقفًا في محاذاة «المعلّم».

ـ خمس حكومات في أقلّ من سنتين!

اضطرّ عبد الله اليافي إلى تقديم استقالة حكومته الثانية في السادس عشر من شهر أيلول ١٩٥٤؛ وكانت البلاد تعيش أجواء سياسية وشعبية محمومة في أثر تظاهرة نهاية آذار وسقوط شهداء، وإلقاء أصبع ديناميت على احتفال خطابي أقيم في مركز حزب النجادة في محلّة البسطة فيما كان كمال جنبلاط يلقي خطابه فسال منه الدم، كما أصابت شظايا زجاجية أخرى الرئيس حسين العويني، والمحامي حبيب ربيز والآنسة ابتهاج قدّورة رئيسة الاتّحاد النسائي اللبناني، وكانوا من خطباء المهرجان... إلاَّ أنَّ كمال جنبلاط لم يتلجلج له جفن بل أكمل كلمته مطمئنًا الجمهور إلى أنه والجميع بخير، وإلى أنَّ الطغيان سيسقط والإرهاب سيندحر، وستنتصر إرادة الناس في لبنان وفي كلّ بلد عربي يسعى للحرّية والاستقلال والسيادة الوطنية...

ثمَّ جاءت حادثة زيارة ولي عهد السعودية الأمير سعود بن عبد العزيز إلى لبنان والمساعي التي بذلها كميل شمعون لديه لثنيه عن زيارة دار المختارة فاتّفق على أن تتمّ الزيارة واللقاء في قصر نجيب جنبلاط أعلى محلّة عين المريسة. وفي ذلك اللقاء فجّر كمال جنبلاط غضبه في وجه كميل شمعون عندما قال في الكلمة التي ألقاها:

ـ بالأمس قلنا لرجل: زلّ... فزال. ثمَّ أشار بيده إلى كميل شمعون وقال: وقلنا لآخر كن... فكان.

فتجلّى الغضب على وجه شمعون فغطّى وجهه بيديه خجلاً واستحياء...

... وقامت القيامة في بعض الصحف المؤيّدة لشمعون، وأطلق بعض السياسيين الموالين تصريحات استنكار لما ورد في كلمة جنبلاط، فتولّى العلاّمة الشيخ عبد الله العلايلي الجواب والإيضاح في مهرجان شعبي حاشد أقامه الحزب في محلّة المنارة إذ قال:

ـ «قال رجل من عندنا لرجل آخر: أنت مصنوع الشعب يوم قال لك الشعب: كُنْ فكنت... فانبرت هنالك صحف تنادي بالويل والثبور وعظائم الأمور، حتَّى لخيّل أنَّها القيامة وبعثرة القبور... ولكن رويدكم يا هؤلاء... إذا لم يكن مصنوع الشعب، فمصنوع من تريدون أن يكون؟!».

ومع كامل احترامنا وتقديرنا لبلاغة العلاّمة العلايلي نقول: عفو الشعب، فلم يكن ذاك مصنوعه!...

وفي عودة إلى استقالة اليافي سارع كميل شمعون إلى تكليف سامي الصلح تأليف الحكومة الجديدة... وتعثّرت مساعي التأليف حتَّى دامت ١٨ يومًا كان شمعون شخصيًّا يتولّى خلالها إجراء مشاورات مكثّفة مع رؤساء وأركان الكتل النيابية لتذليل العقد ولتمكين حكومة الصلح من أن تبصر النور.

في خلال أيّام الأزمة قدّر لنا، أنا وبعض من الزملاء الصحافيين، أن نلتقي كمال جنبلاط في غرفة من غرف قصر بيت الدين حيث كان الرئيس شمعون لا زال يمضي فترة الصيف. كان كمال جنبلاط حينها شابًّا في منتصف العقد الثالث من العمر، يفيض حيوية، دائم الابتسام، يتحلّى بالظرافة ويُلقي النكات المستحبّة، تنعكس على محيّاه ثقة بالنفس ونقاوة ضمير ووجدان هي نتيجة طبيعية لما كان يقوم به من تأمّل روحي عميق، ولحياة التجرّد والتقشّف والتصوّف التي كان يعيشها...

كانت الغرفة التي نجلس فيها تطلّ على وادي بيت الدين فيروح كمال جنبلاط يطيل النظر من خلال نافذتها والتأمّل في الوادي الذي هو لوحة حالمة من أجمل المناظر الطبيعية ثمَّ يخاطبنا بالقول: إنَّ مثل هذا الجمال الربّاني يدعو إلى التفكّر والتفكير في أصل هذا الوجود... وعندما نسأله: ألا تملّ الانتظار، وكان الانتظار يطول أحيانًا، فيشير بأصابعه إلى داخل القصر ويقول باسمًا:

ـ ماذا تريدون أن نعمل؟ ويضيف وهو يشير بيده إلى مكتب شمعون فيقول بالفرنسية: Prestige exige وترجمتها بتصرّف: الفخامة تقضي بذلك...

ثمَّ يروح يقذف بحممه ضدَّ طريقة حكم كميل شمعون فيقول هامسًا:

ـ هذه خامس حكومة يؤلّفها في أقلّ من سنتين... إنَّه يتلاعب بالبلد وبمصيره وبالحكومات وبرؤساء الحكومات ضاربًا عرض الحائط بكل ما وعد وتعهّد به لنا وللناس، وبما أقسم عليه مرارًا بشرفه وبمعتقده... لكنّه كما يقال ملحد لا تطأ رجلاه أرض كنيسة ولا يقرأ في الإنجيل بل في كتب الإنكليز ومخابراتهم...

لكنّ السؤال الكبير يبقى: إلى أين؟ وماذا بعد؟ الناس ينتظرون ولا يعرفون ماذا ينتظرون... وكلّ ما نتمنّاه أن لا يكون الأسوأ والأظلم...

ـ إطلاق الرصاص على موكب جنبلاط

في اليوم التالي لحادثة متفجّرة مهرجان الأحزاب في مقرّ النجادة ببيروت كان يوم إضراب وتظاهر استنكارًا للحادثة التي سال فيها دم جنبلاط وبعض الخطباء... وكان كمال جنبلاط متوجّهًا من المختارة إلى بيروت ومعه موكب من السيّارات والأوتوبيسات التي يعتلي سطوحها عدد من المواطنين... وبعد اجتياز الموكب بيت الدين ووصوله إلى محلّة جسر عين المعاصر بيت الدين اعترضه حاجز للدرك فقال كمال جنبلاط لسائقه: لا تتوقّف... وبعدما سار الموكب أمتارًا أطلقت عليه النار فأصابت زجاج سيّارة جنبلاط الأمامي فأصيب الشيخ سلمان أبو حمزة الذي كان يجلس إلى جانب السائق، كما أصيب بعض المواطنين بجروح طفيفة... وغضب كمال جنبلاط ونزل من سيّارته وخاطب الضابط بالقول « ما حصل يكفي... لقد سمع معلّمك صوت الرصاص، وأنت أدّيت واجبك كاملاً تجاهه... أنتم من هذا الشعب، ولا مشكلة بيننا وبينكم، فدعونا نمرّ بسلام »... وهكذا كان، ووصل الموكب إلى بيروت (محلّة مستشفى البربير في ما بعد) ووصلت التظاهرة إلى ساحة رياض الصلح حيث ألقى كمال جنبلاط خطابًا حذّر فيه شمعون مجدّدًا من اللجوء إلى العنف والتصدّي للحركة الشعبية العربية المتنامية انتصارًا لثورات التحرّر في العالم... وقال لا بدَّ لهذه الشعوب أن تنفجر في وجه الاستعمار فتنال مراكش وتونس والجزائر استقلالها وتتحرّر فلسطين من الاحتلال الصهيوني...

وهكذا فإنَّ عهد كميل شمعون أخذ يميل إلى استعمال العنف أكثر فأكثر، وإلى محاولة فرض إرادته على اللبنانيين ولو بالقوّة فبدا في الأفق وكأنَّ لبنان يسير في اتّجاه المجهول، أو قل نحو الانفجار المحتم في نهاية المطاف...

ـ عالم عربي يغلي... وبيروت تزدهر... وتهتزّ!

منذ العام ١٩٥٤ سطع نجم جمال عبد الناصر في العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه... فلقد خرج الرجل من الظل: نحّى اللواء محمَّد نجيب عن الواجهة وأخذ هو مكانه الطبيعي، قائدًا للثورة ولمسيرتها، الفارس الأسمر الذي طالما حَلِمَت به أفئدة وضمائر الشعب العربي... وراح صوته الهادر، الذي تمازجه خيوط من النور وأنوال من أحلام العذارى، يدخل كل بيت في دنيا العرب، ويحاكي كلّ وجدان. «ارفع رأسك يا أخي، فأيام

الذلّ الإنساني ولّت إلى غير رجعة، وأقبلت أيام الخير والحرّية والكرامة الإنسانية على دنيا العرب».

ومع إطلالة كلّ صباح كان صوت أحمد سعيد يزعق من إذاعة «صوت العرب» من القاهرة يرافقه بيت الشعر الذي تفتتح به الإذاعة برامجها كما تختتمها:

من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر   لبيك عبد الناصر

وفي السنة الأولى لخروجه من الظلّ إلى العلن أقبل عليه من لبنان ضيف تحاكي قامته قامته، وقائد أعدّ نفسه على منوال ما نصح به سقراط تلميذه، الأقرب، فتسلّح بالعلم والثقافة وروحانية الوجدان، فكان رجل فكر وثقافة وسياسة في الوقت نفسه... لم يقصد كمال جنبلاط جمال عبد الناصر، كما سعى الكثيرون من ساسة لبنان ومتزعّمي المشرق، للتبرّك بهالته واستعارة بعض وهجها ترميمًا لقواعد شعبية تهتزّ وتتداعى، بل سعى إليه للتباحث في شؤون الأمّة وشجونها، واصطحب معه رئيس أركان الجيش السوري الأسبق اللواء شوكت شقير ليقترح على القائد الشاب موضوع الدفاع العربي المشترك وعلى الأخصّ بين مصر وسوريا طرفي الكمّاشة العربية في مواجهة الخطر الصهيوني ودولة العدوان الاحتلال: إسرائيل...

ومن اللقاء الأوّل صار لكمال جنبلاط منزلة خاصّة لدى جمال عبد الناصر وصار يناديه: «الأخ كمال» وقام الودّ وولدت الثقة بين الرجلين على أساس من الاحترام والتقدير متين، متين.

ومع الأسابيع والأشهر تحوّل بدر عبد الناصر إلى هلال ينير ظلمات الشعوب العربية ويبلسم جراحاتها ويشدّ على أيديها لمقاومة المستعمر والمحتلّ من أقاصي المحيط في الجزائر ومراكش وتونس، إلى غياهب الخليج الثائر المحتلّ في مسقط وعمان واليمن السعيد وعدن والعراق والأردن، وعلى الأخصّ في فاسطين... ويوم وقّع اتّفاقية التزوّد بالأسلحة من تشكوسلوفاكيا وكسر طوق عدم التسليح الذي أحبكته دول الغرب حول العرب إكرامًا لدولة العدوان إسرائيل، سطع نجم عبد الناصر في سماء العالم العربي وباتت كلّ عواصمه ومدنه تهتف بأسمه وتتظاهر نصرة له. (بدأت الأسلحة التشيكية ترد إلى مصر في تموز ١٩٥٥ فيما أعلن عبد الناصر رسميًّا عن هذه الاتّفاقية في أيلول من العام نفسه.. وقد غيّرت هذه الاتّفاقية، كما هو معروف، مجرى الأحداث في العالم العربي)...

وأراد عبد الناصر أن يحقّق حلم الأجيال في وادي النيل فدخل في مفاوضات مع البنك الدولي للحصول على قرض يموّل السدّ العالي... إلاّ أنّ دول الغرب، وعلى الأخصّ الولايات المتّحدة وبريطانيا وفرنسا، ومن ورائها إسرائيل، التي تسيطر على إدارة هذا المصرف وتتحكّم بسياسته منعت البنك الدولي من مدّ مصر بالقرض، فردّ جمال عبد الناصر في السادس والعشرين من تموز (٢٦) يوليو ١٩٥٦ بتأميم شركة قنال السويس الفرنسية البريطانية وأعلنها شركة مساهمة مصرية تعود إيراداتها إلى شعب مصر وتسهم في عمليات الإنماء ومشاريع التطوير والتقدّم... ثمّ توجّه ناحية الاتّحاد السوفياتي لتمويل السدّ العالي فكان العدوان الثلاثي البريطاني ـ الفرنسي ـ الإسرائيلي بقيادة إيدن ـ غي موليه وبن غوريون ووزير دفاعه موشي دايان...

وصمد جمال عبد الناصر في وجه العدوان العاتي وتوجّه إلى الجامع الأزهر ليخاطب شعب مصر ويدعوه إلى قتال المعتدين والصمود في وجه آلتهم العسكرية الجبّارة. ومن الأزهر رفع شعار: «الله أكبر، والعزّة لشعب مصر وللعرب»...

واتّخذ مجلس الأمن الدولي قرارًا بوقف القتال وبانسحاب الجيوش الغازية... ووقف الرئيس الأميركي الجنرال أميزنهاور وراء هذا القرار ربَّما لأنَّ الثلاثي المعتدي لم يعلمه بالحرب ولا أخذ رأيه فيها فكان أن أوقفت الحرب وانسحبت جيوش العدوان بعد بطولات خارقة أظهرها الشعب المصري بقيادة جمال عبد الناصر... وغطّت التظاهرات الشعبية المؤيّدة لجمال عبد الناصر العواصم العربية، وعلى الأخصّ منها دمشق وبيروت.

أمَّا في بيروت عاصمة لبنان فشكّلت السنوات الثلاث التي سبقت العدوان الثلاثي على مصر (١٩٥٣ ـ ١٩٥٦) سنوات ازدهار اقتصادي وانتفاخ مصرفي نتيجة عائدات النفط التي تدفّقت في الخليج العربي، لا سيَّما الكويت والسعودية، وتسبّبت الانقلابات العسكرية المتتالية في سوريا ومصر واهتزاز الأحوال في دنيا العرب إلى هرب أصحاب الرساميل من مستوردين وصناعيين ومصرفيين وخبراء في شؤون السياحة... وبرزت في تلك الفترةشخصيات اقتصادية كجان فتّال وإخوانه وآل كتانه والصحناوي وسواها من العائلات السورية والمصرية اللبنانية الأصل في غالبيتهم فحملوا معهم خبرتهم ورساميلهم... فتأسّس بنك إنترا الشهير على يد الفلسطيني يوسف بيدس وبعض معاونيه الذين كانوا في فلسطين أيّام الانتداب البريطاني كبدر الفاهوم ومنير أبو فاضل وافتتح آل العلمي البنك العربي الذي كان مقرّه الرئيسي في عمّان...

وقامت في بيروت فنادق كالسان جورج والبريستول والكارلتون ومن حولها فنادق أخرى... وأُنشىء من بعد فندق فينيسيا... وتحوّل لبنان إلى فندق العرب وملهى العرب ومصيف العرب، ومطبعة العرب وصحافة العرب... بعد أن كان جامعة العرب (الجامعة الأميركية على الأخصّ) ومستشفى العرب (مستشفى الجامعة الأميركية وأوتيل ديو ومستشفى بحنس وضهر الباشق اللذين اشتهرا في حينه بمعالجة أمراض الصدر كالسل وخلافه)... وأصبح كميل شمعون يجاهر بأنَّ لبنان يجب أن يكون واحدًا من بلدان "العالم الحرّ" أي العالم الغربي الذي زرع إسرائيل في قلب العرب ومقدّساتهم فلسطين والقدس أو أورشليم التي كانت تعني أنها مدينة إله السلام، ورمز السلام العالمي ولحد المسيح ورمز قيامته وقبلة المسلمين ورمز أسراء النبي العربي ومعراجه... وصار شمعون في آن يدير ظهره إلى العرب والعروبة...

وعلى الرغم من أنه احتفظ بقناع "البربارة" الإنكليزي العروبي فألقى في يوم عيد سيّدة التلّة في دير القمر (الأحد الأول من آب) خطابًا أيّد فيه عبد الناصر في خطوة تأميم قنال السويس، ثمَّ دعا إلى مؤتمر للقمّة العربية انعقد في مقرّ الأونسكو في بيروت خلال شهر كانون الأول ١٩٥٦ ومثّل فيه مصر سفير عبد الناصر في لبنان اللواء عبد الحميد غالب... فإنَّ مشاكل لبنان بدأت لأنَّ كميل شمعون رفض تنفيذ مقرّرات مؤتمر القمّة الذي دعا إليه والتي كان من أبرزها قطع العلاقات الدبلوماسية مع كلّ من بريطانيا وفرنسا لأنهما شاركتا إسرائيل في العدوان الثلاثي على مصر...

كان همّ كمال جنبلاط في تلك الفترة أن ينأى بلبنان عن سياسة المحاور العربية (معارضة الدخول في حلف بغداد)، مع الحفاظ على الحياد الإيجابي بين المعسكرين الكبيرين الاتّحاد السوفياتي والولايات المتّحدة الأميركية ومعها بريطانيا وفرنسا، مع تأكيد حقّ لبنان ومصلحته في الانفتاح الثقافي والاقتصادي على دول الغرب والشرق في آن واحد. وكان مؤتمر دول عدم الانحياز قد انعقد للمرّة الأولى في نيسان ١٩٥٥ في مدينة باندونغ وسطعت خلاله نجوم شخصيات عالمية لعلّ أبرزها جواهر لآل نهرو رئيس حكومة الهند وخليفة المهاتما غاندي، والماريشال جوزف بروزتيتو رئيس اتّحاد جمهوريات يوغوسلافيا، وجمال عبد الناصر وشوان لاي رئيس وزراء الصين وأحمد سوكارنو رئيس جمهورية أندونيسيا وكوامي نكروما رئيس جمهورية غانا وأحمد سيكوتوري رئيس جمهورية غينيا وسواهم... وكان

كمال قد لعب دورًا بارزًا، بعد أن أصبح أوّل وآخر رئيس للّجنة اللبنانية للتضامن الآسيوي ـ الأفريقي، لدى كلّ من نهرو وتيتو وعبد الناصر باعتماد اسم الحياد الإيجابي بدل الحياد الجامد... أي أن تكون سياسات دول العالم الثالث ومواقفها من الجبارين الكبيرين في العالم وفقًا لمواقف وسياسات الجبارين من قضايا العالم الثالث الأساسية، أي أن يكون لسياسة الحياد مضمون وأن لا تكون مجرّد عداء دائم لهذا الجبّار أو ذاك...

في هذه الأثناء كان نظام أديب الشيشكلي في دمشق قد تهاوى وسقط، فهرب الشيشكلي مع شقيقه صلاح باتّجاه لبنان فتمّ اعتقاله وإبعاده خارج الأراضي اللبنانية. وبعد فترة انتقالية عاد الرئيس هاشم الأتاسي إلى سدّة رئاسة الجمهورية في سوريا وعاد سلطان باشا الأطرش من الأردن إلى عرينه في جبل العرب. وزحف نصف لبنان بقيادة كمال جنبلاط والأمير مجيد أرسلان وشيخ عقل الطائفة محمَّد أبو شقرا إلى جبل العرب للمباركة لسلطان باشا بعودته المظفّرة إلى قيادة بني معروف في جبل العرب، جبل الكرامة والبطولات. كان ذلك يوم ٢١ آذار ١٩٥٤.

القمّة العربية التي دعا إليها كميل شمعون في كانون الأول سنة ١٩٥٦. بعد العدوان الثلاثي على مصر انتهت إلى إصدار بيان كلامي منمّق... وإلى استقالة حكومة لبنان والشروع في إذكاء الفتنة!.

ـ الزيارة اليتيمة إلى الولايات المتّحدة الأميركية

في ربيع ١٩٥٤ تلقّى كمال جنبلاط دعوة لزيارة الولايات المتّحدة الأميركية نقلها إليه السفير الأميركي في بيروت متمنّيًا قبولها. كانت الدعوة موجّهة من «الوكالة الأميركية للتنمية الدولية» أو ما سمّي «النقطة الرابعة». وكان جنبلاط قد زار الهند ثلاث مرّات، وزار معظم الدول الأوروبية، وبقي له أن يزور الولايات المتّحدة الأميركية والاتّحاد السوفياتي، فقرّر قبول الزيارة في محاولة لإعادة اكتشاف أميركا من جديد، كما قال وأوضح حقيقة موقفه فقال: «لسنا أعداء أي شعب وأي دولة، وبصورة خاصّة الشعب الأميركي والدولة الأميركية. بل نحن أعداء نهج معيّن وسياسة خارجية معيّنة تركّزت على الشعور بالخوف، وبالتالي على الاعتماد على القوّة المادّية وعلى نفوذ المال»... وزاد قائلاً: «إنَّ الإيجابية قد تتوافق مع السلبية وتكملها، وعلينا ألا نتهرّب من تحمّل واجبنا على تمام ما يتطلّبه هذا الواجب، وأنه من الأفضل، في كلّ حال، أن نُسمع صوتنا حيث يتوفّر لنا ذلك، وأن نشرح قضيّتنا، قضيّة الشعوب المستعمرة، والنصف مستعمرة، قضيّة العرب، ومشكلة إسرائيل»...

ويوم ١٧ أيار ١٩٥٤ غادر كمال جنبلاط مطار بيروت القديم الذي كان مقرّه في محلّة بئر حسن متوجّهًا إلى نيويورك عن طريق «أمستردام»... وقرأ وهو في الطائرة الهولندية حكاية نيويورك التي كانت جزيرة اشتراها عام ١٩٢٦ مستوطن هولندي من أحد ملوك قبائل الهنود الحمر بثمن بخس هو عبارة عن كيس يحتوي على عقود من الخرز الأزرق وأقمشة بألوان فاقعة، وبعض الحليّ النحاسية... ولم يكن ثمن تلك الأشياء يساوي أكثر من ٢٤ دولارًا كما جاء في وثيقة منسوبة إلى ذلك المستوطن الذي كان اسمه «بيتر مونت»...

من مدينة نيويورك انتقل إلى مدينة «برنستون» حيث الجامعة المعروفة التي كان يدرس فيها صديق كمال جنبلاط المؤرّخ الدكتور كمال حتّي الذي أسهم في نشر تاريخ لبنان والعرب من خلال الكتب التي وضعها باللغة الإنكليزية ثمَّ ترجمت إلى العربية، ومنها «تاريخ لبنان»، ثمَّ كانت جولة في أقسام الجامعة ولقاء مع أساتذتها خاطب فيه رئيس الحزب التقدّمي الاشتراكي الأميركيين بالقول: «إنَّ الولايات المتّحدة، لسؤ الحظّ، تنظر إلى الأمور من أفق ضيق، كما كان حال فرنسا وبريطانيا في القرن التاسع عشر. إنَّ حكومتكم لا ترى ما الذي تفرضه مبادئ العدالة... أمّا رئيسكم فهو قيصر أكثر ممّا هو رئيس شعب ديمقراطي... بل إنّكم تعانون من هوس العظمة»...

وفي واشنطن أقيمت حفلات تكريم عدّة لكمال جنبلاط لعلّ أبرزها مأدبة التكريم التي أقامها سفير لبنان لديها الدكتور شارل مالك وجمعت رسميين أميركيين وقضاة وأساتذة جامعات وسفراء عرب وكتّابًا وإعلاميين. وألقى الدكتور مالك كلمة رحّب فيها بكمال جنبلاط "الزعيم المثقّف والسياسي المطّلع والصريح في شرح رأيه ووجهة نظره، وموقفه من القضايا التي تشغل العالم والدول الكبرى والصغيرة، وخصوصًا القضايا المتعلّقة بلبنان والبلاد العربية".

وردّ جنبلاط بكلمة قال فيها: "إنَّ الشعوب العربية لا تكره الشعب الأميركي، ولا الدستور الأميركي الذي هو مثال الدساتير العالمية. ولكنّها تكره السياسة الأميركية التي تدعم الاستعمار والأنظمة الرجعية. إنَّ الوتد الذي وضعته أميركا بالاشتراك مع بريطانيا في علاقتها مع العرب، حيث خلقت "إسرائيل" وشرّدت أهل فلسطين الشرعيين، ما هو إلاَّ عامل فعّال يزيد في كره الشعوب العربية للسياسة الخاطئة التي انتهجتها أميركا. نحن نريد سلامًا وأمنًا، ونريد أن تبقى المدنيّة على مفهومها الصحيح لخدمة الإنسانية".

واستعاد كمال جنبلاط فقرة من خطاب للقاضي الأميركي "لنرد هاند" ألقاه في سنة ١٩٤٥ عندما وقف أمام مئة وخمسين ألف مهاجر حصلوا على الجنسية الأميركية ليتلو عليهم، ويردّدوا من بعده، يمين الولاء للعلم الأميركي، فخاطبهم بالقول: "الحرّية هي في الرجال والنساء، فإذا ماتت في القلوب، فلا الدستور، ولا القوانين ولا المحاكم، تستطيع أن تنقذها. أمَّا وهي حيّة في القلوب، فلا حاجة بها إلى دستور أو قانون أو محكمة لإنقاذها"...

وتوالت حفلات التكريم لكمال جنبلاط ولا سيَّما من نواد وجمعيات للمغتربين من أصل لبناني...فكتب الشاعر المهجري المعروف إيليا أبو ماضي يقول: "إنَّ الجالية اللبنانية في أميركا خصّت كمال جنبلاط بذلك الاستقبال الكبير الحار ليس لأنه من نخبة البرلمان اللبناني، ولا لأنه من عائلة لبنانية عريقة، وليس لأنه رجل علم وثقافة فحسب، بل لإنَّه يجسّد المثال النبيل للإصلاح، ولإنَّه يطلق صوت النهضة ضدَّ الإقطاع، ولا يخطئ في حقّ بلادنا... كمال جنبلاط هو المثال الأكثر شرعية وإشراقًا"...

وعلى سبيل الاستذكار، لا أكثر، نذكر هنا أنَّ كمال جنبلاط حمل معه من زيارته للولايات المتّحدة الأميركية قلم حبر قدّمه إلى الصحافي الأقرب إلى قلبه وعقله، نسيب المتني وخاطبه مازحًا، عندما قدّم له القلم في مكتب "التلغراف": يا أستاذ نسيب، إذا فكّرت مثل كمال جنبلاط بيصير هالقلم يكتب لحالو... وضحك الجميع... وكنت أنا من بينهم.

ـ بدايات الانقسام والتزوير... والانفجار!

مؤتمر القمّة الذي دعا إليه كميل شمعون في بيروت تحت عنوان "نصرة مصر" انتهى إلى إعلان الانقسام في صفوف الدول العربية بين مؤيّد لمصر ولخطوتها وشاجب للعدوان الثلاثي المدمّر على أراضيها وشعبها، بين فريق تصدّره عراق نوري السعيد وعبد الإله باستنكار العدوان لفظًا وكلامًا وبالامتناع عن خطوة تضامنية مع مصر كقطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا وبريطانيا أو استعمال سلاح النفط لنصرة قضايا العرب... ووقف شمعون في صفّ نوري السعيد رجل حلف بغداد فأعلن امتناع لبنان عن سحب السفيرين من لندن وباريس ولم يأخذ بنصح رئيس حكومته عبد الله اليافي ووزير الدولة فيها صائب سلام اللذان حذّراه من انعكاسات موقفه السلبية على وحدة الشعب والبلاد، فكان ردّ شمعون التعنّت والعناد فاستقال اليافي وسلام ومعهما الحكومة... وبدأت ظواهر الانقسام في صفوف الرأي العام... وأخذت بدايات الفتنة تتجلّى وتتأكّد...

ألّف شمعون حكومة برئاسة سامي الصلح أسند فيها وزارة الخارجية إلى الدكتور شارل مالك وأقنع قائد الجيش اللواء فؤاد شهاب بتولّي وزارة الدفاع... وأخذ الشحن الطائفي يتصاعد وفق خطّة خبيثة لجأت إليها سلطات العهد وخلاياها المنتشرة في المناطق اللبنانية كافّة. فعقد كمال جنبلاط لقاء مع عميد الكتلة الوطنية ريمون إدّه ورئيس الكتائب الشيخ بيار الجميّل لتهدئة الأوضاع ما أمكن. لكن دوائر العهد الشمعوني استمرّت في النفخ في أبواق الفتنة وتعميق الانقسام الطائفي بنشر الشائعات السامّة بأنَّ المعارضة تستهدف الكيان اللبناني وإعطاء رئاسة الجمهورية إلى غير مسيحي وخلافه.

ولأنَّ دور بكركي في تاريخ لبنان أن تكون مرجعية وطنية وليس مرجعية طائفة واحدة هم الموارنة، فلقد دخل البطريرك الماروني بولس المعوشي على الخطّ فدعا إلى لقاء إسلامي ـ مسيحي في بكركي... ولمّا حان موعد صلاة العصر أدّى العلماء المسلمون الصلاة في بهو الصرح البطريركي وأخذت لهم صورة رائعة نشرتها معظم الصحف اللبنانية... لكن رياح الفتنة كانت تهبّ وتنتشر بسرعة أقوى من محاولات التهدئة... فقدّم قائد الجيش اللواء فؤاد شهاب استقالته من الحكومة ليؤكّد لرئيس الجمهورية بأنَّ الجيش لن يكون طرفًا في النزاع أذا ما أدّت سياسته في جرّ لبنان إلى الأحلاف وكانت أولى نتائج ذلك إحداث انقسام وطني في صفوف اللبنانيين... وكان شهاب يتبع سياسة ضبط التوزانات داخل الجيش حتّى لا يؤدّي أي موقف متطرّف إلى انقسامه...

وكان البطريرك المعوشي صاحب شخصية قوية يتمتّع بقامة فارعة وطلّة ذات مهابة، وبثقافة غنيّة اكتسبها من خلال خدمته مطرانًا في مغتربات الولايات المتّحدة الأميركية، يتحدّث اللغات الإنكليزية والفرنسية بطلاقة، ويحظى بثقة البابا ودوائر الفاتيكان التي جاءت به بطريركًا بالتعيين وليس بالانتخاب. ومعروف أنه كانت دائمًا للفاتيكان مواقفه المؤيّدة لحقوق الشعب الفلسطيني في وطنه وأرضه ومقدّساته، لذا لم يعترف بدولة «إسرائيل» بل كان يدعو إلى إقامة وضع خاصّ لمدينة القدس التي يعمل الصهاينة حاليًّا على تهويدها نقضًا لتاريخ الديانتين المسيحية والإسلام، بل هي محاولة محو لهذا التاريخ ولكلّ المقدّسات التي تمثّلها هذه المدينة المقدّسة للمسيحيين وللمسلمين على السواء.

ونورد هنا بعض القرارات التي تمكّن الفاتيكان من انتزاعها من منظّمة الأمم المتّحدة، وهي تعبّر عن الوجدان العالمي إزاءها: القرار عدد ١٨١ في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩٤٧، ينصّ على جعل القدس «منطقة مجرّدة تحت إشراف دولي».

ـ ثمَّ قرار عدده أو رقمه ١٩٤ تاريخ ١١ تشرين الثاني ١٩٤٨ يقول بجعل منطقة القدس مميّزة عن مناطق فلسطين تحت رقابة الأمم المتّحدة.

ـ القرار رقم ٣٠٣ تاريخ ٩ كانون الأول سنة ١٩٤٩ وفيه تعلن الأمم المتّحدة «عزمها على إقامة وضع دولي خاصّ مستمرّ في القدس فيضمن صيانة الأراضي المقدّسة في المدينة وخارجها». ويدعو هذا القرار إلى «وضع دستور خاصّ بتلك المنطقة».

ـ ولقد وضع الدستور في واحد وأربعين فقرة وصوّت عليه في الرابع من نيسان سنة ١٩٥٠، فوافق عليه ممثّلو الدول جميعًا بما فيهم العراق، وامتنع عن الاقتراع بريطانيا والولايات المتّحدة الأميركية.

في الفقرة الأولى من ذلك الدستور تقرّر الأمم المتّحدة حدود المنطقة الدولية: على خطّ يروح من بيت لحم جنوبًا إلى شنفاط شمالاً، ومن عين كرم غربًا إلى أبي ديس شرقًا.

إلى هذه القرارات المعبّرة عن الضمير العالمي والتي داستها دولة «إسرائيل» كما داست سواها من قرارات المنظّمة الدولية وقف الفاتيكان ولا يزال، ولكم تعاقبت من الفاتيكان الخطب والبراءات داعية إلى التقيّد بما رضي به العرب على هضم للحقّ وبما صرّحت به دول العالم...

ـ وفي براءة أعلنها البابا بيوس الثاني عشر في ٢٤ تشرين الأول سنة ١٩٤٨ دعوة إلى "إقامة ضمانة دولية على القدس وجوارها". وفي براءة أخرى من السنة التالية، ٥ نيسان سنة ١٩٤٩ دعوة مماثلة...

وجاء البابا بولس السادس في ٢٦ حزيران سنة ١٩٦٧، أي بعد حرب حزيران الشهيرة وسقوط القدس في أيدي الغاصبين الصهاينه، يردّد نفس الصرخة في مسامع الدول العظمى التي أصمّت آذانها عن سماع صوت الحقّ، ولا تزال، قال البابا: "يجب أن تبقى القدس مدينة الله واحة حرّة للسلام والصلاة، موضع اللقاء والوئام للجميع، فلا بدَّ لها من وضع دولي خاصّ، ولتكن الأمم المتّحدة ضامنة لها"... ولكن على من تقرأ مزاميرك يا داود.

ـ الموقف العقلاني المميّز على الدوام

منذ قامت ثورة الضبّاط الأحرار في ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ كان لكمال جنبلاط موقف مميّز. وعقلاني منها. فهو كان رئيس حزب ديمقراطي تقدّمي يعتبر نفسه، وفق جنبلاط، حركة وعي وتحرّر ونهوض وصولاً إلى الديمقراطية والاشتراكية. لذا فهو لا يؤيّد الانقلابات العسكرية ويعتبر أنَّ الثورات السليمة هي التي تقوم بها الشعوب وترسى على قاعدة الحرّية والديمقراطية. أمَّا الانقلابات العسكرية التي يطلق عليها اسم "ثورة" فهي تأتي من خارج الدساتير والقوانين، ولا تكتسب شرعيتها إلاَّ من خلال انخراط الشعب فيها وما تؤمّنه لشعبها من الحرّية والديمقراطية والعدالة.

لذا كانت نظرته إلى ثورة مصر بادئ ذي بدء وفي سنواتها الأولى بالتحديد من خلال هذا المنظار العقلاني المميّز. ولكن واعتبارًا من منتصف عام ١٩٥٥ وبعدما أطلّ جمال عبد الناصر، من خلال مؤتمر باندونغ للحياد الإيجابي وعدم الانحياز بين الجبارين، وإلى جانبه رجال عظماء أمثال خليفة المهاتما غاندي ورئيس وزراء الهند جواهر لآل نهرو ورئيس يوغوسلافيا المارشال تيتو ورئيس أندونيسيا أحمد سوكارنو ورئيس وزراء الصين شو إن لاي، أصبح لكمال جنبلاط نظرة أخرى إلى عبد الناصر، وعلى الأخصّ بعد إعلان معارضته لحلف بغداد ولسائر مشاريع الأحلاف الغربية كمشروع إيزنهاور وسواها، ودخوله في معاهدة سياسية ثلاثية مع كلّ من سوريا والمملكة العربية السعودية ضدَّ حلف بغداد. وكانت سوريا في تلك المرحلة تتعرّض لضغوط هائلة من دول الحلف (تركيا

والعراق والأردن وإيران وهي تطوّقها من كلّ جانب) لذا أوفدت الحكومة السورية رئيس أركان الجيش السوري عهدذاك اللبناني الأصل اللواء شوكت شقير إلى كمال جنبلاط حاملاً معه مشروع إقامة وحدة عسكرية بين مصر وسوريا متمنّيًا على جنبلاط أن ينقل هذا المشروع إلى الرئيس المصري جمال عبد الناصر. وبادركمال جنبلاط إلى الاعتذار فورًا، فهو لم يكن قد تعرّف بعد على عبد الناصر، وهو يقوم بانتقاد نظامه العسكري ويصفه بـ« البكباشي ». لكنّه وأزاء إصرار حكومة سوريا ووزير خارجيتها خالد العظم من خلال اتّصالات هاتفية أجراها معه، كلّف نسيم مجدلاني ـ وكان مفوّضًا للشؤون الخارجية في الحزب التقدّمي الاشتراكي ـ الاتّصال بسفير مصر في بيروت اللواء عبد الحميد غالب وطلب موعد من الرئيس عبد الناصر لزيارة مصر ومقابلته. وجاء الردّ خلال أيّام بالترحيب بالزيارة وبتحديد موعد لجنبلاط مع الرئيس عبد الناصر.

في الحادي عشر من شهر حزيران ١٩٥٥ توجّه كمال جنبلاط إلى القاهرة يرافقه نسيم مجدلاني ووصلا مساءً إلى مطار القاهرة فلم يجدا أحدًا في استقبالهما، فاستقلاّ سيّارة «تاكسي» وتوجّها إلى فندق «شيبرد» حيث حجز لهما جناح. وما أن استقرّا في الفندق حتَّى وصل الضابط عبد القادر حاتم للترحيب بهما بإسم الرئيس عبد الناصر. وحاتم كان واحدًا من الضبّاط الأحرار وتولّى في ما بعد وزارة الإرشاد القومي (أي الإعلام). أبلغ حاتم كمال جنبلاط أنَّ الرئيس المصري خصّص كلّ قبل ظهر اليوم التالي للقائه، فيبدأ اللقاء عند التاسعة صباحًا ويمتدّ حتَّى الظهر لتناول الغداء مع الرئيس. وقال حاتم لجنبلاط أنَّ الرئيس حرص على عدم إضفاء الطابع الرسمي على الزيارة وإنَّه سيستقبله في استراحة «القناطر الخيرية» بعيدًا عن الرسميات والبروتوكول.

كان جمال عبد الناصر ينتظر كمال جنبلاط على مدخل الاستراحة وهو يرتدي قميصًا بنصف أكمام وبنطلونًا صيفيًّا، فموسم الحرّ في مصر قد بدأ. وصافح عبد الناصر ضيفه بحرارة ترافقها ابتسامة عريضة ارتسمت على محيّاه وطلّته السمراء البهيّة وقال له باللغة المصرية: «كده ما فيش لا رسميات ولا بروتوكولات... إحنا منعرف بعض من زمان... أهلاً وسهلاً بيك، وزيّ ما نقول عندنا: نوّرت مصر »... سُرَّ جنبلاط كثيرًا بهذا اللقاء الأخوي فانبسطت أساريره فيما كان عبد الناصر يشير إلى ركن في الحديقة يطلّ على النيل وقال مخاطبًا جنبلاط: «نجلس هناك»...

وكان هناك طاولة جلس إليها الرجلان، وراحا يتبادلان النظرات والمجاملات. وحار كمال جنبلاط من أين يبدأ وبماذا... فتحدّث عن الفارق في الطقس، وخصوصًا خلال الصيف، بين مصر ولبنان، وعن مصر وحضارتها وتاريخها ودورها عبر العصور منوّهًا بعظمة مصر وما حوته وتحويه من آثار وخصوصًا في الأهرامات وما يحوط بها من تراث وتاريخ وأسرار لا زال بعضها طي الكتمان حتَّى أيامنا... ثمَّ تكلّم عبد الناصر مبديًا إعجابه ببيروت وبشعبها وبصحافتها وأحزابها وسياسييها معبّرًا عن حبّه لشعب لبنان.

وبعد المجاملات دعا عبد الناصر جنبلاط إلى لقاء منفرد تمَّ في مكتب متواضع داخل الاستراحة... قال كمال جنبلاط: ما أن جلسنا حتَّى وضع عبد الناصر مرفقيه (كوعيه) على الطاولة وشبك قبضتيه وأسند إليهما ذقنه ثمَّ تطلّع إليّ وقال ضاحكًا: أنا هو البكباشي الدكتاتور... هل أنا فعلاً كذلك؟!

وابتسم كمال جنبلاط وهو يتذكّر بعد سنوات ذاك اللقاء المحبّب إلى قلبه: تفرّست في وجه جمال عبد الناصر بعدما لمست في صوته نبرة عتاب ممزوجة بكثير من الود، وكان عبد الناصر في مثل سنّي، وربَّما كان أصغر منّي بسنة واحدة... وبدا لي وجه جمال الأسمر الجذّاب وكان فيه ذاك الجاذب السحري الذي لا تحليل مادّي يوفيه، كأن يحيطه الإبداع بهالة من النور الخفي وبغمامة الانتصار على التقليد وعلى الماضي... فيستقطب فورًا وعي الناظر إليه، عن قرب أو عن بعد، وتتحسّس بأنه يملأ وجدانك بمثاله وأنك تتشخّص فيه فعلاً وكأنه قاطرة أمّة تسير بها إلى مستقرّ أمانيها واكتمال آمالها ونزعاتها الجماعية المتركّزة في طيء الفكر وفي لا وعيه... ورأيت فيه النيل المقدّس على حدّ تعبير الأقدمين، وابن الصعيد، وابن بني مرّ... وكم من أسطورة وقصّة تروى حول انتسابه إلى هذا الوجه القبلي المضيء... الذي كان ربَّما مشكاة هديه إلى أن يقوم بثورته (ثورة يوليو) دون أن يهرق دم أحد من الناس، أو يدنّسها في رجس العنف والتعنيف...

ولما أفاق من هذا الاستطراد المحبّب الذي بدا وكأن ليس منه يدّ... قال كمال جنبلاط: خاطبته بالقول: يا سيادة الرئيس، أنا سعيد جدًّا بمجيئي إلى مصر، وفخور بدعوتك الكريمة لكي يتمّ التعارف بيننا وجهًا إلى وجه كما نحن الآن. حضرتك رئيس الدولة العربية الكبرى، وقائد ثورة ونظام، وأنا رئيس حزب تقدّمي اشتراكي ديمقراطي في بلد عربي صغير. ونحن نعيش عصر نهضة الشعوب التي تسعى إلى الظفر بالحرّية والديمقراطية لتلحق بركب المدنيّة والتطوّر والنموّ...

بعدها شرح جنبلاط لعبد الناصر، بصراحة ووضوح، موقفه من ثورة مصر، وكيف تابع باهتمام وتقدير قانون الإصلاح الزراعي وتوزيع الأراضي على الفلاّحين، وإلغاء الألقاب وسواها من القوانين والتدابير التي اتّخذت. وقال جنبلاط: إنَّ ثورة يوليو هزّت بنيان الرجعية في البلاد العربية وأيقظت في المواطن العربي الشعور بالقوّة والكرامة، وعجّلت انطلاق حركات التحرّر في الجزائر وتونس ومراكش وليبيا والسودان وعبّأت الشعوب العربية أملاً وحماسة لاستعادة فلسطين...

وأضاف كمال جنبلاط يخاطب الرئيس عبد الناصر بالقول: ولكن، اسمح لي يا سيادة الرئيس أن أقول: إنَّ الدول الديمقراطية الحرّة والأحزاب والمنظّمات التقدّمية في العالم تعرف أنَّ المجتمع المدني السياسي والثقافي في مصر لم يمتلك حرّيته وحقوقه الكاملة بعد. وهناك اختراقات للعدالة ولحقوق الإنسان. وما دام الضبّاط الأحرار وحدهم السلطة وأصحاب القرار، فإنَّ الثورة تظلّ هدفًا للانتقاد... وتأكّد أيها الأخ الرئيس أننا حريصون على أن تنجح ثورة مصر في إقامة حكم مدني ديمقراطي حديث لأنَّ في نجاحها سندًا لنا ولجميع قوى التغيير في العالم...

أصغى جمال عبد الناصر بهدوء ومتابعة دقيقة إلى كمال جنبلاط، وسجّل على أوراق كانت أمامه الكثير من الملاحظات... ثمَّ تحدّث لأكثر من ساعة شارحًا أعباء الثورة وما خلّفته عصور الملكية والإقطاع في حياة المصريين وفي بناهم الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية.

وبالطبع وخلال هذا اللقاء الذي دام حوالي أربع ساعات قدّم كمال جنبلاط إلى جمال عبد الناصر المشروع السوري لتوحيد القيادة العسكرية مع مصر، وعرضا سويًّا بنود المشروع فسجّل عبد الناصر ملاحظاته عليه وسط قول جنبلاط: هذا شغلكم، فأنا لست بخبير عسكري ولا أملك معطيات كثيرة حول الموضوع...

ثمَّ تناولا غداء بسيطًا من الأرزّ واللحم والخضار واللبن، فاختار جنبلاط اللبن والخضار فقال له عبد الناصر: أنت تزاحمني على أكلي البلدي المفضّل.

وبعد الغداء خرجا إلى الحديقة... وتوسّع اللقاء فحضره عدد من الضبّاط الأحرار، وقد سلّم عبد الناصر أحدهم نسخة مشروع الوحدة العسكرية المقترح بين مصر وسوريا وعليها ملاحظاته بخطّ يده... وكان لقاء تعارف من نوع آخر.

وفي المساء استقبل كمال جنبلاط في الفندق مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني، وأحمد حلمي باشا رئيس «حكومة عموم فلسطين» التي كان مقرّها غزّه ودار الحديث حول دور بريطانيا في تجزئة فلسطين بحيث ضمّت الضفّة الغربية والقدس إلى الأردن بقيادة الملك عبد الله الأول الذي مات اغتيالاً في قلب المسجد الأقصى بخنجر فلسطيني...

اليوم التالي من زيارته لمصر خصّصه كمال جنبلاط لزيارة الأهرام وراح يشرح لنسيم مجدلاني أسرارها وعظمتها وما ترمز إليه. وقال لي نسيم في ما بعد: لقد دهشت لسعة معلوماته ولدقّتها، فهو كان يعرف عن الأهرام وعن أبي الهول أكثر ممّا يعرف الدليل السياحي المصري الذي كان برفقتنا. كمال بحر واسع وعميق من الثقافة والمعلومات... ثمَّ قاد كمال جنبلاط نسيم مجدلاني إلى حي الحسين والسِّيدة زينب، وشارع «المعزّ بالله» وراح يشرح ما تعني هذه المقامات وإلى ما ترمز فدهش المجدلاني لما سمع ولما شاهد وعاين. وعادا مساء إلى الفندق لحزم الحقائب فإذا بجرس الهاتف يرنّ في جناح جنبلاط فيبلغه المتحدّث على الجهة الأخرى من الخطّ أنَّ الرئيس جمال يرغب في لقائه مرّة ثانية في اليوم التالي...

في اللقاء الثاني حدّث عبد الناصر ضيفه عن ملاحظاته على مشروع سوريا لتوحيد القيادة العسكرية بين البلدين وخاطب عبد الناصر كمال جنبلاط بالقول:

ـ سوف ترى يا أخ كمال أنَّنا نحن من يقبل بهذا المشروع، أمَّا هم، أي الحكومة السورية، فلن يوقّعوه ولن ينفّذوه...

وفوجئ كمال جنبلاط بعد عودته من مصر وإبلاغه جواب عبد الناصر إلى اللواء شقير رئيس أركان الجيش السوري وإلى وزير الخارجية خالد العظم أنَّ الرئيس المصري كان صادقًا ومصيبًا في حدسه... فلقد انتظرت دمشق أكثر من ثلاثة أشهر، أي إلى ما بعد إعلان عبد الناصر عن صفقة السلاح الشهيرة مع تشكوسلوفيا، حتَّى وقّعوا على المشروع.

وخلال اللقاء الثاني بينهما شعر جمال عبد الناصر وكمال جنبلاط أنهما قريبان كثيرًا الواحد من الآخر فراح عبد الناصر ينادي ضيفه «الأخ كمال» وكمال جنبلاط يناديه «الأخ الرئيس»... وتباسطا وتكاشفا في حديث طويل إلى ما يجمع بين شخصيهما وإلى ما يشدّ لبنان إلى مصر والعكس صحيح... وإلى شؤون وشجون ذات أبعاد إنسانية وتاريخية واجتماعية... فنشأت بينهما صداقة مبنية على الودّ والاحترام والإعجاب المتبادل...

كتب كمال جنبلاط بعد عودته من القاهرة مقالاً في «الأنباء» قال فيه: «أتى عبد الناصر بعد الحركات التقدّمية الاشتراكية، فعرف السبيل الذي به يُفرض الاحترام وتُربح القضايا في الحقل الدولي، فوقف في وجه الأحلاف، ووقف العرب معه، ومدّ يده إلى الخوافق الأربع فمدّ العرب يدهم إليه، وتوجّه نحو شعوب آسيا وقادة أفريقيا فتوجّهت عقول العرب معه. ثمَّ قال للمستعمرين: انتهى، يا سادة، عهد كان فيه حكّام البلاد العربية يتظاهرون بالبطولة والوطنية، وفي الباطن والسرّ يعاهدون الأجنبي ويعاونونه ويؤثرون مصالحه على مصالح بلادهم. فعلى المسؤولين في لبنان أن يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يفصلوا قضيّة لبنان عن قضايا العالم العربي والشرقي وربَّما العالم كلّه. وما كان أحرى بنا أن نمدّ يدنا إلى البطل ونعاونه، فيذهب رئيس جمهوريتنا إلى مصر حيث يلتقي بجمال عبد الناصر وشكري القوتلي وبالملك سعود فيقفون جميعهم على سياسة موحّدة».

لكن كمال جنبلاط كان في وادٍ وكميل شمعون كان في وادٍ آخر... كان شمعون قد وعد واشنطن ولندن بوساطة وزير خارجيته، بالانضمام إلى حلف بغداد... فلقد ردّ شمعون من خلال تصريح صحافي بالقول: إنَّ الرأي العام اللبناني لا يقول بنبذ التحالف على جميع أنواعه، ويفضّل تحالف الحكومات العربية مع الغرب... وكان يعني بذلك عزمه على إدخال لبنان في «مشروع إيزنهاور» وفي حلف بغداد بحيث نكون جزءًا من «العالم الحرّ» الذي أنشأ إسرائيل وسلّحها، ولا زال يدعمها بالمال والسلاح، وبكل أشكال الدعم وأسبابه، لتكون له في منطقة شرق أوسطية تزخر بلدانها بمنابع النفط، كلب حراسة يهدّد العرب، كما الفرس، ويلوّح بالعدوان كلّما شعر الغرب أنَّ منابع النفط وثرواته يمكن أن تُوجَّه وتستخدم لخدمة الشعوب وإنمائها وتقدّمها وقضيّتها المركزية الأولى فلسطين...

ويوم أعلن عبد الناصر في ٢٦ تموز (يوليو) سنة ١٩٥٦ تأميم قنال السويس «شركة مساهمة مصرية» وخاطب المصريين بالقول: «الآن يتّجه إخوة منكم من أبناء مصر لإدارة القناة... الآن في هذه اللحظة يتسلّمون شركة القناة المصرية، ويديرون ملاحتها، وهي جزء من مصر»... في تلك الأمسية المباركة توقّع كمال جنبلاط أن تكون ردّة فعل بريطانيا وفرنسا شنّ حرب ضدَّ مصر، فأبرق إلى عبد الناصر قائلاً: «إعادة القنال إلى الشعب المصري نصر جديد لقضيّة السيادة الوطنية. التأميم مع التعهّد بالتعويض، وتأمين الملاحة، عمل قانوني تسقط دونه حجج الباطل. نؤيّدكم ونهنّئكم. أخذ الله بيدكم».

ثمَّ كتب في «الأنباء» مقالاً نوّه فيه بالجوّ الخطير للغاية الذي دخلت فيه مصر. ودعا عبد الناصر إلى درس خطواته بدقّة بعيدًا عن هوس المتطرّفين. وصف جنبلاط جمال عبد الناصر بأنه «من القادة القليلين الذين توافرت فيهم كفاءة العقل المدبّر الحكيم، وجرأة الثائر، وتواضع المؤمن، وبصيرة المتحسّس»...

وأضاف: «إنِّي لا أخاف على جمال عبد الناصر من جمال عبد الناصر، ولا أخاف على مصر جمال عبد الناصر، لأنه هو وجماعته يعرفون إلى حدٍّ كبير ماذا يعملون. ولكنّني أخاف من الذين يصفّقون «للبطل»، لكل بطل في الشرق المريض بانغلاق تعصّبه وبمركب الضعف المستوطن في ثنايا نفسه. أخاف منهم وعليهم أن يحوّلوا هدف المعركة، وروح المعركة، إلى غير ما هي عليه»...

وبعد يومين أصدر كمال جنبلاط بيانًا شبّه فيه المرحلة التي تجتازها البلدان العربية، ومنها لبنان، بالمرحلة التي سبقت خسارة عرب فلسطين بلادهم. ونبّه إلى احتمالات ردّ فعل الغرب على تأميم القناة بعدوان على سيادة مصر وعلى مصالح البلاد العربية، وإلى إمكانية استخدام دول الغرب فرصة العدوان الردّ لتبديل أوضاع الشرق العربي بوجه عامّ، وربَّما لفرض الصلح مع إسرائيل. وخلص جنبلاط إلى مناشدة رئيس الجمهورية لأن يسعى لتأليف حكومة وحدة وطنية تضمّ جميع أحزاب وشخصيات لبنان المعروفة لمعالجة الموقف الطارئ.

وراحت الأزمة تتصاعد وتتعقّد... بريطانيا وفرنسا وإسرائيل تهدّد مصر بالحرب وباستعادة القنال بالقوّة... وأوروبا الغربية تتضامن معها... وعبد الناصر يقابل التهديدات بالاستعداد لمواجهة كلّ الاحتمالات... وانتقلت الأزمة إلى مجلس الأمن الدولي ففشل في اتّخاذ أي قرار بعدما استعمل الاتّحاد السوفياتي حقّ النقض (الفيتو). وحافظت الولايات المتّحدة الأميركية على موقف الترقّب والمتابعة.

وليل ٢٩ ـ ٣٠ تشرين الأول ١٩٥٦ هاجمت القوّات الإسرائيلية طلائع القوّات المصرية المتمركزة على أطراف سيناء فردّت مصر بقصف ميناء حيفا بقذائف المدفعية. وفيما عارضت واشنطن القتال سارعت كلّ من بريطانيا وفرنسا إلى التدخّل في القتال والمشاركة فيه تحت ذريعة الفصل بين القوّات المصرية والإسرائيلية، وراحت الطائرات القادمة من قبرص تقصف الجيش المصري والمدن المصرية المحيطة بالقنال، فبادر عبد الناصر إلى إصدار

أمر بإغلاق قناة السويس، وتمّ إغراق بعض السفن التجارية الضخمة في مجراها فتعطّلت الملاحة فيها. وقامت التظاهرات في العواصم العربية تأييدًا لمصر ولعبد الناصر...

وسارع كمال جنبلاط إلى توجيه برقية إلى الرئيس المصري قال فيها: «نؤكّد لكم تضامننا مع نضالكم العظيم الذي تفتّحت على أصدائه روح البطولة في الشرق. موقفكم التاريخي هو في كلّ الاحتمالات، انتصار». كما وجّه برقيات إلى حزب العمّال البريطاني قال فيها: «نستحلف حزب العمّال عدم ترك بريطانيا ترتكب ظلامة مدمّرة»... وتوجّه إلى مؤتمر الأحزاب الاشتراكية الآسيوية المنعقد في الهند داعيًا إلى اتّخاذ إجراءات رادعة ضدَّ «إسرائيل» العضو في المؤتمر.

وانعقد مؤتمر القمّة العربي في بيروت بناء لدعوة شمعون فألقيت خطب تضامنية مع مصر، ثمَّ صدر عن القمّة بيان تقليدي يدعو إلى احترام مبادئ الأمم المتّحدة وإلى تطبيق القرار الدولي الذي يلزم بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بسحب قوّاتها من الأراضي المصرية فورًا... وامتنع شمعون عن اتّخاذ أي خطوة عملية باتّجاه تأييد مصر ودعم صمودها... وحتّى استدعاء سفيري لبنان في لندن وباريس الذي اقترحه رئيس الحكومة عبد الله اليافي ووزير الدولة معه صائب سلام رفضه شمعون فاستقال اليافي وطارت الحكومة... وانقسم لبنان وأضحى مصيره على كفّ عفريت...

***

الفتنة نائمة...
لعن اللّه من يوقظها

في تلك الفترة من الزمن أُعلنت حال الطوارئ في البلاد، وفرضت الرقابة المسبقة على الصحف، فكنّا نأخذ "البروفات" إلى الطابق الأرضي الشمالي من السراي القديم للحكومة حيث كانت عهد ذاك مكاتب وزارة الأنباء. وكان يتولّى الرقابة ضبّاط من الجيش اللبناني عرفنا منها يومها الملازم أوّل أحمد الحاج الذي وصل في ما بعد إلى رتبة لواء، ورئيسًا للغرفة العسكرية في القصر الجمهوري خلال عهد الرئيس اللواء فؤاد شهاب، ثمَّ سفيرًا للبنان في لندن في عهد الرئيس شارل حلو، ثمَّ قائدًا لقوّات الردع العربية ومديرًا عامًّا لقوى الأمن الداخلي في عهد الرئيس الياس سركيس... ورئيسًا لرابطة أصدقاء الرئيس اللواء فؤاد شهاب حاليًّا...

وذهب وفد من مجلس نقابة الصحافة لزيارة قائد الجيش عهد ذاك اللواء فؤاد شهاب لينقل له ما يجري في غرف الرقابة على الصحف وللتداول معه في إمكانية التخفيف من غلوائها وتحسين الأمور ما أمكن... وعندما حاول بعض أعضاء الوفد، ومن بينهم نسيب المتني إبداء بعض الملاحظات خاطبهم قائد الجيش بالقول: مع العسكر ليس ثمّة من مناقشة أو اعتراض... وعندما قال له نسيب المتني: نحن لسنا بعسكر... نحن رجال فلم يهمّنا الحفاظ على حرّية الكلمة والصحافة استاء شهاب وأجاب: نحن عسكر، أمّا أنتم فروحوا بلطوا البحر... واعتبر مجلس نقابة الصحافة ما جرى في اللقاء صورة مصغّرة عن حكم العسكر، فاستعاذوا بالله... وأدركوا أنهم أمام امتحان قاسٍ عليهم اجتيازه بحذر وببعض من التضحيات والتنازلات...

وأخذت رياح الطائفية والنفخ في أبواقها تهبّ وتتعاظم... وبدأت ردّات الفعل في الشارع تتنوّع: تظاهرات هنا تأييدًا لمصر ولقائدها جمال عبد الناصر... يرافقها أحيانًا تكسير بعض السيارات والمحال التجارية... وعندما شكا نسيب المتني لرئيس الكتائب الشيخ بيار الجميل من أنَّ أعداد "التلغراف" تؤخذ من الباعة وتمزّق وتلقى أرضًا بسبب تأييده لعبد الناصر أجابه الشيخ بيار: "أنا لا أستطيع أن أضبط الشارع"... وراح نسيب المتني يكتب

ويتساءل: «أيّ شارع هذا وإلى أين يتّجه؟ ولماذا يمكن أن يتعاطف أيّ إنسان في لبنان، إلى أيّ دين أو طائفة انتمى، مع بريطانيا وفرنسا وإسرائيل في عدوانها على بلد عربي هو مصر؟ وهل قُدِّر لمسيحيي لبنان والشرق العربي أن تقودهم بعض الزعامات القاصرة إلى أسوأ مصير، فيما بطريرك إنطاكية وسائر المشرق الماروني يدعو إلى التهدئة وإلى الحفاظ على الوحدة الوطنية والعيش المشترك بين المسيحيين والمسلمين؟!

في هذه الأثناء كان همّ رئيس الجمهورية التحضير لانتخابات نيابية جديدة تضمن له قيام أكثرية نيابية تعدّل الدستور وتجدّد له رئاسته لمدّة ستّ سنوات أخرى... فهو لم يعد يشعر أنه رئيس جمهورية في نظام ديمقراطي برلماني جمهوري... بل لقد حلم بأنه «فخامة الملك»... والملك لا يغادر سدّة الملك أو الحكم... إلاّ إلى المثوى الأخير! هذا ما خيّل إليه أو تراءى له في المنام وهو يرقد سعيدًا في فراش أبي سعدى: الأمير الشهابي بشير الثاني في بيت الدين... وهل سيترك بشارة الخوري ليكون أشطر منه أو أفضل؟

المعارضة كانت قد انقسمت إلى معارضتين: جبهة الاتّحاد الوطني التي التقى فيها صائب سلام وعبد الله اليافي وحسين العويني وأحمد الأسعد وحميد فرنجية وبعض رموز الدستوريين كالدكتور الياس الخوري وخليل أبو جودة وإميل الخوري وعلي بزّي وتقي الدين الصلح وسواهم. أمّا كمال جنبلاط فاختار أن يبقى بعيدًا وكان يكتفي بالقول: «للأميركان حصّتهم سواء في جبهة الموالاة أو في جبهة المعارضة... والله يستر... فله نهجه وطريقته في التحرّك ولهم نهج آخر ومسيرة أخرى...

ويوم دعت جبهة الاتّحاد الوطني إلى تظاهرة تنطلق من محلّة الحرج (حرج بيروت) إلى وسط العاصمة نصح كمال جنبلاط أركانها بأن لا يفعلوا... وأبلغهم بواسطة بعض الوسطاء والأصدقاء أنه «اعلم منهم وأخبر» بكميل شمعون وبطباعه وبنواياه... فالرجل لا ولن «يوقّر» أحدًا، وقد يرسل فرقة أو فريقًا من رجال الأمن ليعتدي عليهم شخصيًّا وجسديًّا على الأرجح... لكنَّ الأصدقاء في جبهة الاتّحاد الوطني لم ينتصحوا، وأصرّوا على النزول إلى الشارع، وعلى التظاهر...

وفي اليوم المحدّد تجمّع المواطنون في المحلّة المحدّدة، وبلغ تعدادهم بضعة آلاف وكان على رأسهم صائب سلام وبعض أركان المعارضة. وكنت أنا أغطّي الحدث لجريدة «التلغراف» و «الطيّار» ومعي مصوّر الجريدتين. حشد كميل شمعون قوّة من الدرك والشرطة وعلى

رأسها ضابط من منطقة الشوف ينتمي إليه وهو الضابط مسعود لطيف. وعندما أخذت التظاهرة تستعدّ للانطلاق تقدّم الضابط من صائب سلام وقال له: التجمّع قد يكون مقبولاً، أمّا التظاهر فممنوع... وأنا لدي أوامر بقمع التظاهرة بالقوّة إذا لزم الأمر... فالزموا مكانكم، وإيّاكم أن تتحرّكوا...

لكنَّ صائب بك المشهود له بالجرأة والإقدام، وهو ابن أبو علي سلام، وشقيقه الأكبر محمّد كان رئيسًا لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية التي لها مدارسها ومؤسّساتها الخيرية والمستشفى الذي يحمل اسمها في بيروت، رفع صوته في الضابط ورفع يده وهو يقول له بلهجته البيروتية: زيح... "بيسع"...

وذكر البعض أنَّ صائب سلام دفع الضابط بيده، وقال آخرون أنه ربّما صفعه، فما كان من الضابط لطيف إلاّ أن استعمل بندقيّته... رفع البندقية وضرب سلام بعقبها على رأسه فشجّ له رأسه... وسال الدمّ من جبهة سلام ورأسه، فحدث هرج ومرج، واندفع المتظاهرون يحملون صائب سلام إلى مستشفى الدكتور نسيب البربير المحاذي لمكان التجمّع. فتمّ تضميد الجرح، ولفّ رأس صائب بك بالشاش والقماش الأبيض، وأطلّ الزعيم الشعبي من نافذة المستشفى وراح يحيي الناس الذين أخذوا يهتفون بحياته وبسقوط شمعون وحكمه... وبعد ذلك أخذ علي المملوك، وهو كان أحد مستشاري صائب سلام، يطلّ على المتظاهرين من نافذة المستشفى ويلوّح لهم بقميص صائب بك المغمس بدمائه... وكرّر ذلك أكثر من مرّة، فتمّ تصوير المشهد ونشر الصورة في الصحف في اليوم التالي... وقد وصف بعض من هذه الصحف قميص صائب بك وكأنها "قميص عثمان" الجديد المتجدّد...

أمّا كمال جنبلاط، الذي صحّت توقّعاته، فقد استنكر ما جرى... وكانت عينه شاخصة نحو الانتخابات النيابية المزمع إجراؤها، وعلى ما سيتخلّلها من ضغوط ومداخلات، فوجّه كتابًا مفتوحًا إلى الرئيس شمعون ذكّره فيه بالأيّام الخوالي، أيّام المعارضة والنضال الشعبي في عهد بشارة الخوري... وكيف كان يقف إلى جانبه ويدافع عنه عندما كان خصوم "الجبهة الاشتراكية الوطنية" يحاولون الإساءة إليه... وختم جنبلاط كتابه المفتوح مخاطبًا شمعون بالقول: "يا رفيقي القديم: فإن سمعت منّي سمعت... وإلاّ فإنّي أقول كلمتي غير آبه ولا عاتب عليك... فلن يستطيع رجالك، ولن تستطيع أنت نفسك، ولا الشيطان، ولا ربّ العزّة في عرشه، ولو كان غير ذات الحقّ ذاته، أن يخنق كلمة الحقّ في نفسي... تلك هي رسالتي في الحياة"...

وصار يردّد في مجالسه أبياتًا من الشعر، ومنها:

ربّ يوم بكيتُ منه، فلمّا صرتُ في غيره بكيتُ عليه

أو:

وحين غدت ركائبكم بنجد تنكّرتم لمن قاد الهجينا

لكنَّ كميل شمعون لم يكن يصغي إلاّ لصوت نفسه، وهمّه الأوّل أن ينجح أنصاره في الانتخابات، وأن يومّن في المجلس النيابي المقبل أكثرية مطواعة تعدّل له الدستور وتجدّد له ولايته ستّ سنوات جديدة...

وهكذا استمرّ في مخطّطه وفي سياسة النكاية والحزبية الضيّقة والترهيب والترغيب: نعيم مغبغب في وزارة الأشغال يوزّع المغانم من كيس الدولة والشعب... وإميل البستاني رئيسًا لمصلحة التعمير، بعد زلزال ١٩٥٦، يغدق المساعدات على من يعد بالسير معه في الانتخابات... وبارك يا سيِّد!.

ومع مشاريع الأشغال ومنافع إعادة التعمير، كان التحضير للفتنة والنفخ في أبواقها يستفحل ويستجير... وراحت الشائعات تُنشر وتنتشر: كمال جنبلاط يريد تعديل الدستور ليتسلّم الحكم... والمعارضة تنشط وتتآمر لضمّ لبنان إلى حكم عبد الناصر، وإلغاء الرئيس الماروني وتنصيب رئيس مسلم بدلاً عنه... وصار البطريرك الماروني «حجًا»، وأخذ كميل شمعون يهدّد بأن يجعل العشب ينبت على «أدراج بكركي»...

وعلى مثال ما قمنا به نحن في أيّامنا، وقام به سوانا، في الدفاع عن بكركي ومواقفها وخيارات سيِّدها البطريرك صفير في الدفاع عن سيادة لبنان واستقلاله والعيش المشترك الأخوي بين بنيه، إنبرى نسيب المتني في تلك الحقبة من تاريخ لبنان يؤيِّد البطريرك المعوشي في مواقفه الوطنية الجامعة ويقول: «إنّهم يريدون إخضاع بكركي للتجديد لكن فكرة التجديد ستنهار على رؤوسهم»... وقال صاحب «التلغراف» ورئيس تحريرها موجّهًا كلامه إلى البطريرك: «أيّها البطريرك الماروني الجليل: إنَّ أعصابك الفولاذية وروحك الدينية العالية، ووطنيتك الشريفة السامية، وبعد نظرك الهازئ بقصيري النظر في لبنان وبعض ساسة لبنان، ورسالة المحبّة الحقيقية التي كنت دعامتها، وتحمّلك كلّ تضحية ضدّ الفساد والمفسدين، والرشوة وأهل التزوير والمرتشين، وإنقاذك لبنان من فتن الذين دبّروا ويدبّرون الفتن في ظلمة ليل حالك، وشجبك سياسة المذابح الأهلية نتيجة للسياسة الضيّقة

الرعناء (أحداث زغرتا، مزيارة والعاقورة وسواها) واحتلالك مع أبنائك الخلص المركز الذي يحسد عليه الموارنة في هذا الشرق. كلّ هذه الصفات والمزايا جعلتك في مصاف القدّيسين. أمّا هؤلاء المشكّكون الذين لا يدفعهم إلى موقفهم سوى منفعة ذاتية وخطّة مفضوحة لا أثر فيها لمصلحة عامّة وشعور وطني. أمّا هذه الببّغاوات التي يديرها متاجر بالمُثُل... أمّا نقيق الضفادع التي تزعج ولا تؤثّر ولا تقدّم أو تؤخّر... فإنّها كلّها تريد جرّ بكركي إلى تأييد التجديد، وإلى إخضاع بكركي لحماية الكرسي. إلى اللعب بالدستور وإلى اللعب بالنار، وإلى البطش بالحرّية والأحرار، ومن بعدها الطوفان والدمار... إنَّ هذا لن يكون ولن تكون بكركي مبخرة للحاكمين، وأداة للسكوت على الفساد والمفسدين».

وكان كميل شمعون قد حرّض على قيام تظاهرة كسروانية توجّهت إلى بكركي وهي تهتف:

الموارنة مجتمعة وجايي تحتجّ بدّا بيكركي بطرك، ما بدّا حج...

ولم يكن لمقرّ البطريركية يومذاك أيّ حاجز أو تصوينة، بل كانت السيارات كما الناس تصل إلى بوابتها الرئيسية دونما عائق... الأمر الذي حمل الذين داخل الصرح على التحرّك فاتّصل النائب البطريركي المطران يوسف الخوري بمنزل قائد الجيش فؤاد شهاب القريب من المقرّ البطريركي فأرسل اثنين أو ثلاثة من حرّاسه، من جنود الجيش، تولّوا حماية المدخل وإطلاق النار في الهواء لتفريق المتظاهرين... فلولا ذلك لكان حصل ما لاتحمد عقباه...

* * *

انتخابات التزوير والتجديد وحكم القهر والانحراف والاستبداد

خلال شهر حزيران ١٩٥٧، وفي أجواء محمومة ومسمومة طائفيًّا، ومجازر وحوادث (مجزرة مزيارة وأحداث العاقورة وسواها) جرت الانتخابات النيابية على مراحل... في الشوف وعاليه سقطت لائحتا كمال جنبلاط بالكامل. وفاز قحطان حمادة بمقعد كمال جنبلاط في دائرة الشوف المجزّأة والمشلّعة وفق أهواء الدكتاتور الصغير والحاشية. وفاز إميل البستاني وأنور الخطيب المتحالف معه في دائرة دير القمر شحيم... وخسر صائب سلام وعبد الله اليافي مقعديهما في بيروت وفاز سامي الصلح وخليل الهبري والحصّ... وخسر الزعيم الوائلي أحمد الأسعد مقعده في الجنوب وفاز صبري حماده في الهرمل بعدما طوّق رجاله السراي ومنعوا تبديل النتائج وسط قطع الكهرباء والمحاولات التي جرت من أجل إحداث التزوير...

وفي الشمال حيث كانت زغرتا ومنطقتها تعاني ذيول أحداث مزيارة ومحاولات الحكم الدائبة لإحداث الفتنة بين أبنائها، جلس حميد فرنجية في زاوية من منزل شقيقه سليمان في محلّة التل بطرابلس وأمامه جهاز هاتف كان مفتوحًا بشكل دائم مع قائد الجيش فؤاد شهاب. كانت الآنسة سونيا سليمان فرنجية هي التي تتوجّه إلى زغرتا ثمَّ تعود بالأخبار والمعلومات إلى عمّها، وكان حميد يبلغها إلى شهاب... «مون جنرال» كانت العبارة التي يلفظها حميد فرنجية وهو ينقل الشكاوى إلى قائد الجيش فيعمد فؤاد شهاب إلى تصحيحها فورًا... قضيت ثلاث ساعات إلى جانب حميد فرنجية الذي كنت أحبّه ومعجبًا به رجل دولة ورجل علم وزعيمًا وطنيًّا منزّهًا ومتألّمًا ممّا جرى ويجري من مآسٍ وتجاوزات ومحاولات إحداث فتن بين الأهل والجيران وأبناء البلدة الواحدة والمدينة الواحدة... كنت يومها أغطّي انتخابات الشمال لجريدتي «التلغراف والطيّار» لصاحبيهما خاليّ نسيب وتوفيق... ثمَّ انتقلت إلى دارة آل كرامي في طرابلس حيث كان الرشيد يتابع النهار المحموم وإلى جانبه شقيقيه معن وعمر... وكانت تربطنا بهذا البيت وشائج صداقة وقربى روحية من أيّام الطيب الذكر عبد الحميد كرامي وكتلة التحرّر الوطني التي قادها مع كمال جنبلاط

والرفاق. وبعدما قصدت منزل مالك العلي شقيق سليمان الذي كان يلازم الفراش متابعًا انتخابات عكّار. وكان سليمان العلي قد خرج من السجن منذ فترة قصيرة بعد أن قضى فيه سنوات بتهمة التحريض على اغتيال خصمه الانتخابي محمّد العبّود على درج القصر الجمهوري في بيروت عام ١٩٥٣...

فاز حميد فرنجية وحليفه رينه معوّض الذي كان هاربًا من حكم شمعون إلى اللاذقية... فازا بمقعدي دائرة زغرتا - الزاوية، وفاز رشيد كرامي في طرابلس وسليمان العلي في عكّار.

لكنَّ انتخابات الشوف وما رافقها من استفزازات وضغوط أدّت إلى انسحاب مندوبي لائحة كمال جنبلاط من عدد كبير من أقلام الاقتراع، وذكر أنَّ بعضهم أخرج منها بالإكراه ليخلو الجو للائحة المنافسة، فتمّ قراءة أوراق الاقتراع على هواهم، وإعلان النتائج التي يحلو لهم إعلانها. تكهرب الجوّ إثر إعلان النتائج، وغصّت دار المختارة بالرجال الذين كانوا «يحدون» ويطالبون بالهجوم على دوائر القائمقامية في بيت الدين... لكنَّ وجود كمال جنبلاط في بيروت أخّر التحرّك... وكان كمال بك قد غادر دار المختارة مساء الأحد من الباب الجانبي بعدما بلغته أنباء وأجواء اليوم الانتخابي المثير في دائرته الانتخابية... ثاني يوم الانتخاب قام جنبلاط بنزهة من بيروت باتّجاه الدامور فسبلين، ثمَّ عاد إلى بيروت... متفاديًا الردّ على مكالمات رجال الصحافة أو استقبال أيّ منهم مكتفيًا بالقول: إنَّ موعدنا هو غدًا الثلاثاء في مركز الحزب ببيروت.

عصر ذلك اليوم الإثنين ١٧ حزيران ١٩٥٧، فوجئ كمال جنبلاط بوصول صائب سلام وأركان المعارضة في بيروت إلى منزله في محلّة الظريف. كان صائب سلام ما زال معصوب الرأس بالشاش الطبّي نتيجة إصابته في تظاهرة ٣٠ أيار (أوردنا تفاصيلها سابقًا) وقد بادر سلام جنبلاط بالقول: "أنتم الجبل ونحن بيروت... وبيروت تمدّ يدها إلى الجبل. ولم نأتِ للمواساة، فكلّنا مستهدفون. أتينا لنؤكّد أننا جبهة واحدة".

وجرى حديث مطوّل حول إصدار قانون الانتخابات النيابية وتقسيم بيروت والشوف والجبل في عهد شمعون بمرسوم اشتراعي دكتاتوري. وقال جنبلاط أنه لم يكن يتصوّر أن يمضي كميل شمعون في مخطّطه الجهنّمي لإسقاطه شخصيًّا وإسقاط أقطاب المعارضة في بيروت والجنوب وهو ما لم يفعله بشارة الخوري من قبل.

أفاض كمال جنبلاط في شرح خطورة المرحلة المقبلة على لبنان وهدفها الأوّل تجديد رئاسة شمعون ستّ سنوات جديدة مشدّدًا أنَّ مثل هذا التوجّه يفترض التصدّي له بكلّ الوسائل المتاحة، وخلص إلى القول: «إنَّ كميل شمعون ارتبط بحلف مع الولايات المتّحدة الأميركية عبر توقيع «مشروع أيزنهاور».

في اليوم التالي عقد كمال جنبلاط مؤتمرًا صحافيًّا في مركز الحزب ببيروت، بدا خلاله هادئًا كعادته، تقاسيم وجهه تعكس ما في داخله من نقاوة وصفاء، وتصميم وإقدام، على انتهاج مسيرة الحقّ والحقيقة أيًّا تكن النتائج والاحتمالات...

قال كمال جنبلاط في مؤتمره الصحافي: «إنَّ المؤامرة التي تعدّ للبنان بدأ تنفيذها ورئيس الجمهورية هو الضالع الرئيسي والمباشر في تدبير المؤامرة التي استهدفت رؤوسًا كبيرة في البلاد من الصفّ الوطني المناهض للأحلاف الأجنبية ولمشروع تجديد الولاية. وشدّد على أنَّ العهد الذي «أضاع صوابه» بدأ لعبة الفتنة الطائفية الخطيرة التي تنذّر بأوخم العواقب.

وتساءل كمال جنبلاط عن مغزى تلك الحملة الشرّيرة التي استهدفته قبل الانتخابات، بتدبير من رأس السلطة، لإظهاره على أنه معاد للكيان اللبناني، وذلك بقصد إثارة المسيحيين ضدّه وخصوصًا رجال الإكليروس وقال: «مَنْ يستطيع في لبنان وخارج لبنان أن يسجّل نقصًا في لبنانية ووطنية دار المختارة ولبنانية ووطنية عائلتي عبر مئات السنين»؟ ودعا رجال الإكليروس المسيحي ورجال الدين المسلمين ومشايخ الموحّدين الدروز إلى التلاقي والتعاون لرفض أيّ دعوة إلى التفرقة والتحريض الطائفي الذي هو أخطر مؤامرة على وحدة لبنان ورسالة لبنان...

وردًّا على سؤال صحافي أجنبي ابتسم كمال جنبلاط وقال: «على أيّ حال أنا أشكر الرئيس شمعون لأنه أراد، على ما يبدو، أن أرتاح من مهمّة النيابة لكي أتفرّغ إلى ما يعرف أنه أهمّ في نظري... لكنه ما لبث أن أجاب على سؤال آخر حول ردود الفعل المحتملة على ما جرى قال وقد تبدّلت ملامح وجهة وتعابيرها: «لقد وضعونا في موقف حرج وخطير جدًّا. فإمّا أن نقبل بما حصل ونعتزل هذه الحياة السياسية التي أضحت سخرية، وإمّا أن نأذن إلى بعض المواطنين الذين يحزّ في نفوسهم ما جرى بأن يقوموا بما تفرضه عليهم بعض واجبات البطولة فيعلّموا المسؤولين وغيرهم أن لا يلعبوا بمقدّرات الوطن»...

وأعلن كمال جنبلاط في افتتاحية كتبها لجريدة «الأنباء» أنَّ البلاد على شفير خضّة كبيرة جدًّا، وقد تكون الساعة أزفت لشيء ربّما خطير جدًّا...

واتّسعت الحملة ضدّ انتخابات التزوير والتجديد وانتقلت إلى الصحافة وعلى الأخصّ إلى صحيفة «التلغراف» لصاحبها نسيب المتني. فقد كتب الصحافي المناضل مقالاً ناريًّا افتتاحيًّا اتّهمّ فيه رئيس الجمهورية كميل شمعون بتزوير الانتخابات النيابية بهدف تجديد ولايته وجرّ البلاد إلى الأحلاف الأجنبية المشبوهة، وإثارة الشائعات والحملات المغرضة بقصد إحداث فتنة طائفية في البلاد قد تجرّنا إلى الاقتتال في ما بين اللبنانيين خدمة لأغراض خارجية لم تعد خافية على أحد. كما أنَّ صحفًا أخرى هاجمت الانتخابات وما تخلّلها من تجاوزات. لكنَّ صحفًا أخرى وكبرى كانت في المعارضة وأصبحت مع الحكم ومن أبرزها «النهار» و «البيرق» و «صوت الأحرار» و «الزمان» وسواها. وكان غسّان تويني قد خسر مقعده النيابي في بيروت في مواجهة نسيم المجدلاني نائب رئيس الحزب التقدّمي الاشتراكي عهد ذاك... وبناء لتوجيهات شمعون وأوامره حرّكت النيابة العامّة التمييزية التي كان يتولاّها فرنان أرسانيوس، المحسوب على شمعون، دعوى ضدّ «التلغراف» ونسيب المتني بتهمة «تحقير رئاسة الجمهورية» وإثارة الاضطراب العامّ فتمَّ اعتقال صاحب التلغراف إحتياطيًّا وسوقه إلى نظارة بعبدا. ثمَّ نقل إلى مستشفى بعبدا الحكومي حيث بقي في التوقيف الاحتياطي ١٩ يومًا. وكذلك ادّعت النيابة العامّة على خيري الكعكي صاحب «الشرق» فأوقف احتياطيًّا وأودع غرفة مجاورة لغرفة نسيب المتني في مستشفى بعبدا. وكان عهد شمعون قد أعدَّ العدّة لمواجهة الصحافة ومحاولة إسكات أصواتها المعارضة للتجديد وللأحلاف، فسنَّ قانون مطبوعات تضمن توقيف الصحافيين احتياطيًّا وإنشاء محكمة خاصّة لرجال الصحافة تحاكمهم على درجة واحدة بحيث تكون أحكامها مبرمة لا استئناف لها ولا تمييز على غرار أحكام المجلس العدلي وكأنَّ الصحافيين هم مجرمون تشكّل كتاباتهم خطرًا على أمن الدولة وسلامة أراضيها...

وأعادت جبهة الاتّحاد الوطني المعارضة تنظيم صفوفها وتكثيف اجتماعاتها وإصدار بياناتها، فتصدّى كميل شمعون لحملات المعارضة في خطاب ألقاه بمناسبة عيد سيِّدة التلّة شفيعة دير القمر (يحتفل بالعيد في الأحد الأوّل من شهر آب كلّ سنة) وهاجم رجالاتها، ولا سيّما الذين خسروا مقاعدهم النيابية في الانتخابات الأخيرة، وممّا قاله شمعون: «إنّه

يتلقّى بواسع التفهّم وبعميق الشفقة التصرّفات العصبية التي تصدر عن بعض من خانهم الحظّ في الانتخابات فأعوزتهم حاجة نفسية فيهم إلى البحث عن تفسير لسوء طالعهم يُرضي كبرياءهم»...

تجلّى في ردّ شمعون على أركان المعارضة أمران: الأوّل سخافة أسلوبه ومكناته العقلية في مواجهة أوضاع البلاد، والثاني إصراره على ركوب رأسه وتجديد ولايته والسير في سياسة الانحراف والأحلاف المشبوهة...

إلى جانب حلف بغداد الذي كانت بريطانيا صاحبة فكرته، واجهت واشنطن لبنان وبلدان المنطقة بما أسمته «مشروع أيزنهاور» (الرئيس الأميركي) وفيه أعلنت عزمها على «ملء الفراغ» في المنطقة بنفوذها وجيوشها، ووعدت بمنح مساعدات اقتصادية ومالية إلى كلّ دولة توقّع على هذا المشروع وتدور في فلك نفوذ الولايات المتّحدة الأميركية. ووقّع شمعون وحكومته على ذلك المشروع، أي أنهم أدخلوا لبنان في دائرة الصراعات الدولية الكبرى بين الجبارين... وكعادته في تمايز موقفه عن الآخرين ولجوئه إلى منطق العقل والعلم، أدلى كمال جنبلاط ببيان شامل قيّم فيه المشروع. وممّا قاله: «إنَّ مشروع أيزنهاور يركّز على الخطر السوفياتي على الشرق الأوسط ويوحي بضمانات لدول هذه المنطقة ضدّ أيّ اعتداء سوفياتي، إلاّ أنه يخلو من أيّ ضمان لحدود وكيانات الشرق الأوسط ضدّ سائر أخطار العدوان، وخاصّة الخطر المتمثّل بالاستعمار السياسي الذي صدر عنه الاعتداء على مصر (العدوان الثلاثي البريطاني - الفرنسي - الإسرائيلي) وكذلك الخطر الإسرائيلي المتمثّل باعتداءات متكرّرة على حدود وكيانات الدول العربية المتاخمة.

وأمّا عمّا تضمّنه «مشروع أيزنهاور» عن استعداد واشنطن للتعاون مع أيّ دولة في الشرق الأوسط لتنمية قوّتها الاقتصادية، قال كمال جنبلاط: «إنَّ لا قوّة سياسية ولا مناعة وطنية حقيقية في هذه البقعة من الشرق الأوسط التي تشهد تطاحن الدول الكبرى على السيطرة والنفوذ إلاّ إذا تقوّت الشعوب العربية اقتصاديًّا بادئ ذي بدء وأنمت إمكاناتها المادّية بشكل سريع ومنسجم وشامل بفائدته الأهلين كافّة، وذلك يكون بحسن استخدام أموال النفط العربي وإقامة نوع من التكامل الاقتصادي بين دول المنطقة.

وأوضح كمال جنبلاط نقطة مهمّة كانت غافلة عن الجميع وهي أنَّ مشروع الرئيس الأميركي قد أدخل منطقة الشرق الأوسط فعلاً وواقعًا، ودون إرادتنا وإرادة شعوب المنطقة،

ضمن نطاق النفوذ السياسي والاستراتيجي الأميركي... ورد على نظريّة «الفراغ وملء الفراغ» فقال: «إنّه يعود للوطنية الإيجابية ولتنمية عناصرها، وبعث التراث الحضاري العربي والشرقي أمر ملء هذا الفراغ دون اللجوء إلى أيّ مصدر غريب عن المنطقة»...

بعد انتخابات حزيران ١٩٥٧ شكّل كميل شمعون حكومة جديدة برئاسة سامي الصلح وأسند فيها وزارة الخارجية إلى الدكتور شارل مالك. دامت جلسات مناقشة بيان الحكومة لنيل ثقّة النوّاب على أساسه أيّامًا شهدت مواجهات حامية بين شارل مالك وعدد من نوّاب المعارضة. كان شارل مالك يخاطب النوّاب وكأنهم تلامذة عنده في صفّ هو المتكلّم فيه وهو الآمر الناهي، فراح يشرح «مشروع أيزنهاور» على طريقته ويشيد بسياسة واشنطن في لبنان وفي المنطقة العربية وتجاهل أيّ كلام على إسرائيل ودور أميركا في قيام إسرائيل ودعمها بالسلاح والمال والسياسة، فتصدّى له حميد فرنجية. وقف فرنجية ووضع يديه وراء ظهره وارتجل خطابًا دام ساعة كاملة تولّيت أنا ضبطه وكتابته ونشره نسيب المتني في «التلغراف» اليوم التالي، وجعل له عنوانًا رئيسيًّا يقول: «قنبلة حميد فرنجية في مجلس النوّاب». قال حميد فرنجية مخاطبًا شارل مالك: «تتحدّث إلينا وكأنك معلّم مدرسة ونحن تلامذتك فتدّعي أنّك تملك «مونوبول» الحقيقة (الحقيقة الحصرية أو حصرًا) فتزوّر التاريخ ووقائعه ومعطياته. وفتح حميد ملفًّا أمامه أخرج منه نصوص بعض تقارير شارل مالك يوم كان سفيرًا للبنان في واشنطن، وكان فرنجية وزيرًا للخارجية وقال لشارل مالك: «أنت تكذب وتزوّر، وتلفّق، فهذه تقاريرك إلينا تتحدّث عن الخطر الصهيوني ومخاطر إسرائيل وأطماعها في مياه لبنان وثروات العرب، وعن انحياز السياسة الأميركية بالكامل إلى إسرائيل ضدّ العرب... فكيف تريدنا اليوم أن نصدّق مزاعمك وترهاتك عن هذا العشق الأميركي للبنان وللعرب ولمصالحهم. ووصف فرنجية حلف بغداد ومشروع أيزنهاور بأنهما استعمار جديد للمنطقة، وإدخال لها في صراعات الكبار التي ستكون شعوبنا كبش محارقها وضحية استغلالها وتحكّمها بمصائرنا وبثرواتنا.

ويوم نشرت «التلغراف» خطاب حميد فرنجية في مجلس النوّاب حضر حميد إلى مكتب نسيب المتني وتبادلا العناق الحميم. ثمّ سمعت أبا قبلان يقول لنسيب المتني: «من هو المحرّر الذي التقط خطابي وكتبه؟ فظننت أنّي ارتكبت خطأ ما فاختبأت وراء الحائط في الممرّ... وسأله نسيب: هل ثمّة ما يستدعي التصحيح والتصويب؟ فأجاب الزعيم الوطني: لا، لا، أبدًا. إنّه تسجيل رائع، لم يترك نقطة ولا فاصلة إلاّ ووضعها مكانها أو في المكان الذي

يفترض أن توضع فيه... فقال له نسيب المتني عندها: «هذا ابن أختي عزيز». فقال حميد فرنجية: «أين هو؟ أريد أن أُقبّله بين عينيه... ودخلت عندها الغرفة فاقترب حميد منّي وغمرني وقبّلني بين عينيّ الاثنتين، وربت على كتفيّ وقال: «عفارم الشاطر»... فكان ذلك مصدر اعتزاز وفرح لي، أنا الذي كنت حينها في الواحدة والعشرين من سنيّ عمري.

أمّا رشيد كرامي فلقد هاجم انحياز الحكومة والحكم إلى سياسة المحاور والأحلاف، وإصرار عهد شمعون على التجديد، الأمر الذي لم يعد خافيًا على أحد... ووصف حكومة سامي الصلح الماثلة أمام المجلس النيابي بأنها امتداد لحكوماته السابقة: الصلح لرئاسة الحكومة والداخلية، وشارل مالك للخارجية التي خصّها للعمل على تفريق الصفوف وتمزيق الوحدة الوطنية. ووصف كرامي الحكومة وسياساتها الخرقاء بأنها كالبجع الذي يضع رأسه تحت جناحيه ويحسب أنَّ الناس غافلون عنه.

ووصف معروف سعد حكومة سامي الصلح بالمتآمرة على العرب وعلى القومية العربية وسأل رئيسها: «ماذا تعمل في وزارة الداخلية وعهد كميل شمعون يوزّع السلاح على الأنصار بالآلاف ويعطي رخص حمل السلاح للأزلام حتّى أنَّ لبنان في عهدكم يتحوّل ناديًا للمتآمرين والخونة، ومركزًا للنشاط الاستعماري بعدما تمَّ القضاء على الميثاق الوطني، وانحرف الحكم عن مفهومه القائم على فكرة الحياد وعدم الانحياز والارتباط.

وجاء دور تقي الدين الصلح فتحدّث عن موقفه من حكومة نسيبه سامي الصلح القديمة – الجديدة فقال: «من ثورة مصر إلى الانقلابات في سوريا، إلى أزمة السويس والعدوان على مصر، لا نرى ما يدعو لبنان إلى التخلّي عن السياسة الوطنية الحكيمة التي أُرسيت عام ١٩٤٣ والتي تقول بأننا لا نريد لبنان للاستعمار مقرًّا أو ممرًّا إلى البلاد العربية الشقيقة، بل إنَّ على لبنان أن يتعاون مع شقيقاته العربيات إلى أقصى الحدود. وسجّل تقي الدين الصلح على الحكومة تعريض الإرادة اللبنانية المستقلّة لقيود الارتباط بـ «مشروع أيزنهاور» وتصديع الوحدة الوطنية، وجعل اللبنانيين ينقسمون إلى فريقين بما يعيدنا إلى مرحلة ما قبل الميثاق الوطني، إضافة إلى توسيع الخلاف والبعد بين لبنان وسوريا أقرب شقيقاته إليه وألصق جاراته، وكذلك بالنسبة لمصر الشقيقة الكبرى، والقضاء على دور لبنان الطليعي في كلّ الشرق العربي.

في مواجهة حكم الفساد والقمع والقهر وتزوير الإرادة الوطنية، ومحاولات إثارة

العصبيات الطائفية الذميمة، وتدخّل سلطات العهد في كلّ شيء: في الانتخابات النقابية والطلاّبية، وفي انتخابات الجمعيّات والأندية الأهلية، لم يجد المواطنون مناصًا من الاستعداد لمواجهة كلّ الإحتمالات. كان السلاح يأتي من العراق والأردن وتركيا حلف بغداد وإيران الشاه إلى شمعون وجماعاته ومؤيّديه في بعض الأحزاب الطائفية و «القومية» منها، كما تُغدق الأموال على الأتباع والمحاسيب، ولعب الملحق العسكري العراقي عهد ذاك العقيد عبد الخالق السامرائي دورًا بارزًا في هذا المجال. وظهرت، في ما بعد، بعض اللوائح والوثائق بالأسماء والأرقام خلال جلسات «محكمة الشعب» التي ترأسّها العقيد المهداوي أثناء حكم عبد الكريم قاسم. وقد نشرت وقائعها في كتاب خاصّ.

كما كان سفيرا مصر اللواء عبد الحميد غالب والسعودية عبد العزيز الكحيمي ينشطان في أكثر من جهة ومجال، وعلى الأخصّ في تأليب وتنظيم المعارضة لحلف بغداد.

وأخذ الناس في الجهة المقابلة، أي في جهة المعارضة: أنصار كمال جنبلاط في الجبل وصائب سلام وسواه في بيروت، وصبري حمادة في بعلبك – الهرمل، ورشيد كرامي وبعض الأحزاب العروبية واليسارية في طرابلس وعكّار وجوارها، يتسلّحون ويستعدّون، بما تيسّر لهم من إمكانات ومصادر تسلّح، لمواجهة كلّ التطوّرات والاحتمالات.

وفقدت سلطات الحكم أعصابها، وعقلها ربّما، فراحت تصدر مذكّرات توقيف بحقّ أركان المعارضة ورجالاتها. بدأت بفؤاد عمّون، ابن دير القمر والمرشّح المدعوم من كمال جنبلاط في دائرة دير القمر، شحيم ١٩٥٧، أمّا التهمة فلأنه عقد مؤتمرًا صحافيًّا فضح فيه التدخّلات السافرة في الانتخابات من قبل الرئيس شمعون شخصيًّا. ثمَّ صدرت مذكّرة توقيف بحقّ الزعيم الوائلي أحمد الأسعد ورفيقه في اللائحة علي بزي. وشملت لائحة التوقيفات في ما بعد أركان المعارضة: صائب سلام وعبد الله اليافي وحميد فرنجية وصبري حمادة ونسيم مجدلاني وعبد الله المشنوق...

ووصلت المواجهة مع كمال جنبلاط في تلك الأيّام أن أرسلت قوى السلطة قوّة مدرّعة من الدرك، الذي كان يترأّسه سيمون زوين زلمة شمعون، إلى بيت الدين وأمرتها بأن تطوّق بلدة المختارة بقصد اقتحام دار المختارة... ثمَّ أقدمت على تطويق منزل الدكتور بشارة الدهّان في صوفر، وكان أحد أركان الحزب التقدّمي الاشتراكي، أمّا السبب فكان وصول كمال جنبلاط إلى منزل الدهّان عصر ذاك النهار. واشتدّ الحصار ليلاً فأجرى

جنبلاط اتّصالاً بقائد الجيش اللواء فؤاد شهاب ووضعه في الأجواء وسأله عمّا ينويه كميل شمعون، وعمّا إذا كان يريد فتنة في البلاد وعلى الأخصّ في الجبل... وانتشر الخبر أنَّ كمال جنبلاط مطوّق في صوفر، فهبّ العشرات من الحزبيين والأنصار من بلدات الجرد المجاورة لصوفر وشكّلوا طوقًا أمنيًّا حول القوّة المطوّقة لمنزل الدهّان... وجاء العميد ريمون إدّه الذي كان يصطاف في صوفر لاستطلاع حقيقة الأمر فعاين القوّة التي تطوّق المنزل الذي يتواجد فيه كمال جنبلاط، فعاد إلى منزله واتّصل بكميل شمعون وقال له بصوت عال: ليكن معلومًا أنَّ ما من أحد في البلاد يرضى بأن يمسّ كمال جنبلاط...

وأجرى قائد الجيش اللواء فؤاد شهاب بالرئيس شمعون ليلاً وقال له: "فخامة الرئيس، أنت تعرف أنَّ دار المختارة في لبنان مثل بكركي... وليس ثمّة من لزوم لأقول لك مَنْ هو كمال جنبلاط المحاصر في صوفر... يجب أن لا ننسى تاريخنا يا فخامة الرئيس". وأقفل شهاب سمّاعة الهاتف وأمر قيادة أركان الجيش اللبناني بإبلاغ قيادة الدرك عدم السماح باستمرار الحصار حول منزل الدكتور بشارة الدهّان حيث كمال جنبلاط، وكذلك فكّ الحصار عن دار المختارة. وتمّ إبلاغ قيادة الدرك أنَّ قوّة من الجيش ستتحرّك من ثكنة حمانا نحو صوفر لمنع وقوع أيّ خطأ، وأنَّ الأمر نفسه ينطبق تمامًا على الوضع في الشوف...

وهكذا تمَّ تفادي الأسوأ وسفك الدماء وتفادي الوقوع في فتنة كبرى... على الرغم من أنَّ كمال جنبلاط قد مال في ما بعد، وخلال أحاديث عدّة جرت بيننا إلى أنَّ شمعون لم يكن يجرؤ لا على اقتحام دار المختارة ولا على اعتقاله شخصيًّا، وربّما لم يكن في نيّته القيام بذلك... وأنَّ الإجراءات التي اتّخذتها قوى الدرك تصبّ في خانة حرب الأعصاب ومحاولة التخويف والإخضاع. ويبقى السرّ أمانة عند الله وحده، عزّ وجلّ...

كانت قد مضت ثلاثة أشهر ونيف دون أن يظهر كمال جنبلاط في مناسبة عامّة. وفي ذكرى أوّل شهيد على "طريق السلاح" دعا كمال جنبلاط إلى حضور حفل تأبيني في بلدة مزرعة الشوف (قاسم أبو كروم ٢٢ عامًا)... وغصّت ساحات البلدة الشوفية بجماهير غفيرة قدمت إليها من بلدات الجبل والعاصمة والجنوب والبقاع. كان في مقدّمة الحضور صبري حمادة وصائب سلام وعبد الله اليافي ومعروف سعد وفؤاد عمّون ونسيم مجدلاني وفيليب البستاني ورؤساء الأحزاب اليسارية. وارتجل صائب سلام خطابًا مدويًا أعلن فيه قيام حلف معارضة ومقاومة بين بيروت والمختارة.

وعندما وقف كمال جنبلاط بطلته المحبّبة الساحرة انفجرت الجماهير بالحداء والتصفيق والهتافات... وتكلّم الزعيم التقدّمي بصعوبة فقاطعت خطابه رشقات نارية ربّما كانت لتحيّة الشهيد، ولكنّها أثارت استياء جنبلاط الذي تابع كلامه مذكّرًا رئيس الجمهورية بأنه كان هو شخصيًّا قبل بضعة أسابيع، على رأس تظاهرة مسلّحة استقبلته في عيد « سيِّدة التلّة » في دير القمر، وهو من ذلك الموقع الديني في مدينته هاجم كلّ أقطاب البلاد الذين أسقطهم في الانتخابات.

كان كمال جنبلاط صارمًا جدًّا في مسألة ضبط استعمال السلاح فبادر في اليوم التالي إلى تسليم أربعة أشخاص من الذين أطلقوا النار إلى مخفر درك المختارة... وقال في نداء وجّهه إلى الحزبيين والأنصار: «إنّنا كنّا ولا نزال دعاة نظام واستقرار وقانون وحقّ وعدالة. فلا يجوز أن يظهر بعضنا بمظهر المخالف للقوانين عندما لا يدعونا واجب المبدأ أو العدالة أو الحقّ، أو الرجولة والشرف والكرامة إلى ذلك».

في أواخر تشرين الأوّل ١٩٥٧ شكّل كمال جنبلاط وفدًا شعبيًّا وحزبيًّا من العاصمة والجبل وتقدّمه هو في موكب زاد على المئة سيارة إلى بكركي لزيارة البطريرك الماروني مار بولس بطرس المعوشي. وعلى درج الصرح توجّه جنبلاط إلى البطريرك قائلاً له: أنتم مؤتمنون على وحدة اللبنانيين، وأنتم أمناء عليها. وردّ البطريرك متوجّهًا إلى كمال جنبلاط: «مع اسمكم واسم حزبكم يذكر الناس النزاهة والإخلاص... والمهمّ يا كمال بك أن تمرّ الأشهر الأخيرة من الولاية على خير...».

وقابل كميل شمعون الزيارة بحملة شنّها سياسيون محسوبون عليه على البطريرك المعوشي ودعوة إلى مقاطعة بكركي وسيِّدها...

في تلك الفترة من الزمن جرت محاولة لاغتيال الصحافي الوطني نسيب المتني بواسطة موس الحلاقة إذ كمن له شخص أمام منزله. ولدى وصول المتني تقدّم منه الرجل وسأله: كم الساعة؟ وكأنه أراده أن يحني رأسه للنظر في الساعة فيذبحه بالموس من الوريد إلى الوريد... لكنَّ نسيب المتني الذي كان حذرًا وينتظر أن يُعتدى عليه، صرخ في الشخص قائلاً: يا كلب، يا جبان، مين باعتك؟ (من أرسلك) فارتبك المعتدي وشطبه بالموس في وجهه فأصاب أنفه وشفته... وفرّ...

وتابع كمال جنبلاط جهوده مع صائب سلام خاصّة لتوسيع حلقة المعارضة فالتقى في قصر هنري فرعون في بيروت حوالي مئة شخصية لبنانية من مختلف الطوائف والمناطق وعدد من الصحافيين وبينهم جورج نقّاش وغسّان تويني ونسيب المتني وسعيد فريحة وزهير عسيران ومحي الدين النصولي وسواهم. وصدر عن المجتمعين بيان يؤكّد على التمسّك باستقلال لبنان وبالميثاق الوطني، ويدعو رئيس الجمهورية إلى الحفاظ على الدستور وعدم تعديله لغاية التجديد. وتألّف وفد من فرعون والحاج حسين العويني وشارل حلو وبهيج تقي الدين وجورج نقّاش والدكتور يوسف حتّي وغسّان تويني وغبريال المرّ ونجيب صالحة وحمل الوفد بيان المؤتمر إلى القصر وذكر يومها أنَّ الرئيس شمعون توجّه بكلام بذيء إلى كلّ من هنري فرعون وشارل حلو. وحصلت في نهاية اللقاء حادثة طريفة، إذ أقدم الحاج حسين على الخروج من قاعة الاجتماع موجّهًا وجهه إلى الرئيس شمعون وظهره إلى باب الخروج فضحك شمعون وسأله: شو القصّة يا حاج؟ فأجابه العويني ضاحكًا: ما حا خلّيك «تبعصني»...

وكان من عادة شمعون أن يوجّه إلى «ظهر» بعض الزائرين الذين لا يروقون له أصبعه الأوسط الكبير!...

وأصبح الاستقرار في البلاد معلّقًا على كلمة يقولها رئيس الجمهورية: نعم أو لا للتجديد... وأصدرت البطريركية المارونية ودار الفتوى الإسلامية بيانين دعتا فيهما إلى احترام الدستور. كما وجّه شيخ عقل الموحّدين الدروز الشيخ محمّد أبو شقرا نداء إلى شمعون اختصره بكلمة: «قلها يا رجل»...

لكنَّ الرجل ظلّ يكابر ويناور علّه يستطيع تمرير التجديد... فسرّب معلومات منسوبة إليه قال فيها أنه ليس ملزمًا بالكشف عن نواياه لا سلبًا ولا إيجابًا... وإنَّ معارضيه يحاسبونه على النوايا ليس إلاّ...

وفسّر ذلك الموقف بأنَّ رئيس البلاد اتّخذ قراره بتجديد الولاية مدعومًا من معسكر حلف بغداد ومن واشنطن ولندن على الأخصّ... أمّا فرنسا فقد ساءت علاقاته بها بعد أن أصرّ على طلب منح خطّ طيران إضافي من وإلى باريس لشركة «ليا» للشحن الجوّي التي كان يملكها زوج السيّدة م.ع... ونشرت جريدة «لوكانار أنشينيه» Le Canard enchainé الباريسية أنَّ الرئيس اللبناني شمعون قد هدّد بقطع العلاقات الدبلوماسية مع باريس إذا لم

تعطِ «ليا» هذا الخطّ... وأردفت «الكانار» أنَّ شمعون رفض سحب سفيره من باريس احتجاجًا على «العدوان الثلاثي» على مصر بعد تأميم قنال السويس... لكنه الآن يهدّد بسحب السفراء إرضاء لإحدى صديقاته...

وانتقل الخبر إلى مسارح محلّة «البيغال» الشهيرة في باريس... وراح المنشدون ينشدون: «من أجل قنال السويس رفض رئيس جمهورية لبنان قطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا... ولكن من أجل قنال صغير لإحدى محظياته هدّد ويهدّد بالويل والثبور وعظائم الأمور»... ويا أمّة ضحكت من جهالتها الأمم!.

في نهايات العام ١٩٥٧ راحت دمشق تواجه ضغوطًا هائلة من جيرانها: العراق وتركيا والأردن ومعهم الدول الغربية الكبرى لأنها رفضت الدخول في حلف بغداد و «مشروع أيزنهاور» بل هي عقدت حلفًا سياسيًّا مع مصر عبد الناصر وسعودية الملك سعود، وبلغت التهديدات حدًّا جعل تركيا تحشد جيشها على الحدود مع سوريا فلم يجد حاكموها وساستها سوى المتنفّس المصري الناصري يلجأون إليه... توجّه وفد سوري إلى القاهرة وهو يحمل معه مشروعًا بديلاً عن وحدة القيادة العسكرية بين البلدين هو الدخول في وحدة سياسية ودستورية لم يكن قد أُعِدّ لها الإعداد الكافي... كان عبد الناصر قد أمر بإرسال قوّات بحرية ومظلّية إلى اللاذقية، وأعلن الاتّحاد السوفياتي أنه سينفّذ عقود تزويد سوريا أسلحة تحتاج إليها للدفاع عن سلامة أراضيها.

وفي الأوّل من شباط ١٩٥٨ أعلن قيام «الجمهورية العربية المتّحدة» وباتت مصر وسوريا في دولة واحدة موحّدة رئيسها جمال عبد الناصر... الوحدة هي حلم الشعوب العربية ومعقد آمالها وقبلة توجّهاتها، والترحيب بأيّ وحدة بين بلدين عربيين هو الأمر المنطقي، ولو كانت «إسرائيل» تتوسّط هذه الوحدة وتفصل ما بين شمالها وجنوبها، بين مشرقها ومغربها...

كان ينقص لبنان قيام الوحدة حتّى تتصاعد موجات الهمس ونفثات أفاعي الشرّ والفتنة: وهي أنَّ كمال جنبلاط والمسلمين مع الوحدة ومع عبد الناصر، وإنَّ الخطر على كيان لبنان قد ازداد وتضاعف... وإنَّ حامي حِمى المسيحيين في هذه «المعمعة» هو كميل شمعون ومن ورائه الغرب الذي زرع «إسرائيل» سرطانًا خبيثًا في أرض القداسة والأنبياء فلسطين.

لكنَّ كمال جنبلاط سارع إلى توضيح المواقف وإلى محاولة وضع التقاط على الحروف. ففي التاسع من آذار ١٩٥٨ ترأّس وفدًا شعبيًّا ضمّ الآلاف لتهنئة الشعبين السوري والمصري بقيام دولة الوحدة بينهما. وعلى شرفة قصر الضيافة في دمشق وقف كمال جنبلاط إلى جانب جمال عبد الناصر وشكري القوتلي (المواطن العربي الأول كما أطلق عليه) وراح صوته يصدح بالقول: "هذه الوفود التي تتمثّل فيها جميع العائلات الروحية ومختلف المناطق اللبنانية لا ترى أنَّ بين اللبنانية والفكرة العربية أيّ تناقض أوتعاكس. وهل انفصلت، على مرّ التاريخ، اللبنانية عن الفكرة العربية؟ "وهل يمكن فصلها أبدًا؟ وبدا كمال جنبلاط وكأنّه يخاطب الداخل اللبناني من دمشق وعبر عبد الناصر ومهابته...

وقال كمال جنبلاط في كلمته: "على شطآن النيل الخالد، هذا البحر الصغير الجاري الذي انعكس فيه ضياء أوّل الحضارات وأعظمها، وعلى ضفاف بردى أقدم المدن، على ما تروي أساطير التاريخ: جدّد أيّها القائد الكبير حلم الأجيال الغابرة، وليكن فيك عدل عمر وسطوة صلاح الدين وحكمة الملوك الحكماء الأقدمين من بني قومك... هكذا نظر إليك اللبنانيون وسواهم من أبناء الشعوب العربية، على مدنيّة جديدة متجدّدة تقدّمية متقدّمة تأخذ لتعطي، وقد جمعت أبرز ما في الإسلام الأصيل من ديمقراطية وسماح، وأبرز ما في المسيحية الأصيلة من عدالة وأخوة ومحبّة"...

وكانت نظرة كمال جنبلاط إلى عبد الناصر أنه الحاكم العربي الأشدّ حرصًا على كيان لبنان واستقلاله، والأكثر تفهّمًا لصيغته الفريدة وتركيبته الداخلية ولدوره المميّز في العالم العربي وعالم الانتشار...

بعد أسابيع قليلة من قيام الجمهورية العربية المتّحدة أعلن عن قيام الاتّحاد العربي الهاشمي: فيصل العراق ملكًا عليه وحسين بن طلال نائبًا له، على أن تكون بغداد عاصمة له...

اعترف لبنان الرسمي بالجمهورية العربية المتّحدة وبالاتّحاد الهاشمي وعيّن شمعون وقلبه على التجديد وعلى حلف بغداد... أمّا عبد الناصر فلقد أرسل موفدًا خاصًّا إلى البطريرك الماروني المعوشي يؤكّد له الحرص على كيان لبنان واستقلاله وموضّحًا أنَّ الجمهورية العربية المتّحدة تطلب من لبنان أن لا ينحاز إلى حلف ضدّها...

وتضاربت التحليلات واختلفت التأويلات حول انعكاسات هذا الوضع الناشئ على

الداخل اللبناني: فريق السلطة رأى أنَّ الوضع المستجدّ سيصبّ في مصلحة التجديد لشمعون الذي قرّر التوجّه غربًا ومعاداة عبد الناصر وعرب العروبة والتحرّر، فيما رأى كمال جنبلاط ومعه أقطاب المعارضة أنَّ حلم التجديد قد انتهى وأنَّ الغرب لن يختار شمعون بل الوقوف إلى جانب مصالحه النفطية والاقتصادية...

وبين حلّ وربط، وتفاؤل وتشاؤم، وحقيقة وتصوّرات أقبل الربيع على لبنان مزهرًا باسمًا، وعاصفًا وملبّدًا بالغيوم في آن واحد...

في الثاني من شهر أيار ١٩٥٨ كان موعد محاكمة جريدة "التلغراف" ونسيب المتني أمام محكمة المطبوعات في الدعوى التي أوقف فيها احتياطيًّا خلال تمّوز الفائت، وهي تحقير مقام رئاسة الجمهورية وإثارة الاضطراب العامّ، من خلال اتّهامه الرئيس شمعون وسلطته بتزوير الانتخابات النيابية بهدف تجديد الولاية... وحشد نسيب المتني لهذه المحاكمة أشهر المحامين وأبرعهم: المحامي الكبير والخطيب المفوّه يوسف السودا وبهيج تقي الدين وأنور الخطيب وحبيب ربيز وإدمون نعيم وسواهم...

وقدّم هؤلاء المحامون لائحة بأبرز شهود الدفاع: كمال جنبلاط، صائب سلام، أحمد الأسعد، صبري حمادة، سهيل شمّاس ابن شقيقة فؤاد غصن الذي أجبره شمعون على الانسحاب لمصلحة شارل مالك في دائرة الكورة...

كان موعد المحاكمة يوم جمعة فالتأمت المحكمة، وكانت تتألّف من قاضٍ واحد هو جان باز من دير القمر. افتتح الجلسة المحامي الكبير يوسف السودا فانبرى يدافع عن نسيب المتني وعن حرّية الصحافة المقدّسة، إيمانًا واحتسابًا بأنه يدافع عن حرّية القول والكتابة، وعن كرامة الإنسان في وجه كلّ ذي سلطان، توطيدًا لدعائم الديمقراطية في لبنان ومنعًا للحيف ينزله الظلم بصاحب الحقّ وحامل القلم. وخاطب السودا رئيس المحكمة القاضي جان باز بالقول: إنّنا نعيش في لبنان في ظلّ نظام ديمقراطي برلماني جمهوري ولا نعيش في ظلّ نظام "سلطان البرّين وخاقان البحرين" (السلطان العثماني) حتّى يُسْجَنَ الصحافيون إحتياطيًّا بتهمة " سبّ دين السلطان" وكأنهم مجرمون. وندّد بتزوير الانتخابات، وذكّر بانتخابات ١٩٤٧ التي زُوِّرت في عهد بشارة الخوري وكان هو من ضحاياها الذين أُسقِطوا عمدًا... ووصف تجديد الولاية للرئيس كميل شمعون بأنه يوازي الخيانة العظمى لأنّه طعن للديمقراطية وللدستور في الصميم.

وشجب السودا محاولات إثارة العصبيّات الطائفية ووصفها بأنها أخطر مؤامرة على الوحدة الوطنية وعلى رسالة لبنان وقال: «إنَّ الأديان تجمع ولا تفرّق لأنها من مصدر واحد. وقال: «الأرزة الخالدة على عَلَمِنا هي أرزة لبنان لا أرزة مسيحي ولا أرزة مسلم.

وأنشد السودا أبيات شعر له فقال:

لبنانُ بين جنوبه وشماله
وَطَنٌ يَدُلُّ على الزمان مآلِهِ

إن لم يكن أعلى الجبال فليس في
التاريخ ما يسمو لمجد جبالِهِ

مجذافه خاض البحارَ مغامرًا
وأذلّها لشطوطه ورمالِهِ

فتيانه رادوا السماء فسخّروا
هادي النجوم فكان من عمّالِهِ

ثمَّ نودي على الشاهد الأوّل، وكان السفير سهيل شمّاس فأفاد أنه رافق خاله فؤاد غصن النائب والمرشّح عن دائرة الكورة، إلى القصر الجمهوري بناء لاستدعاء الرئيس شمعون. وقال الشمّاس إنَّ شمعون طلب من فؤاد غصن الانسحاب لمصلحة ترشيح الدكتور شارل مالك وزير الخارجية، وعندما رفض غصن عَمِدَ شمعون إلى شتمه، ثمَّ شدّه من شعره وراح يوجّه إليه التهديد والوعيد... ولم يدعه يخرج من القصر إلاّ بعد أن وقّع على بيان أُعِدَّ سلفًا ويعلن فيه المرشّح فؤاد غصن سحب ترشيحه من الانتخابات وتأييده الكامل لمرشّح شمعون الدكتور شارل مالك!.

بعد أن انتهى السفير سهيل شمّاس من الإدلاء بشهادته، أعلن رئيس المحكمة أنَّ الدور الآن هو للأستاذ كمال جنبلاط. وقف كمال جنبلاط بقامته الفارعة وأخرج من حقيبة كانت معه خريطة للجمهورية اللبنانية أمسك بها شخصان فيما حمل «الكمال» مسطرة وراح يفنّد على الخريطة كيف حصل التزوير من خلال تقسيم الدوائر الانتخابية العشوائي وقال: «التزوير يا حضرة القاضي، بدأ بتقسيم الدوائر الانتخابية بشكل لا يقرّه عقل سليم أو منطق قويم، فلا القضاء اعتمد أساسًا ولا المحافظة، ولا احترم التاريخ ولا الجغرافيا... وأضاف كمال جنبلاط: «لنأخذ مثلاً على ذلك دائرتي الانتخابية التي فصّلت بشكل غريب. فهي تبدأ من المديرج مرورًا بعين دارة وعين زحلتا والباروك نزولاً إلى بعقلين وصعودًا من بيت الدين إلى المختارة وعماطور وباتر نزولاً إلى مزرعة الشوف والمطلّة ومزرعة الضهر وجون والرميلة وحدودها جسر الأوّلي... فيما سلخ إقليم الخرّوب وأكثرية

سكّانه من إخواننا السنّة والشيعة عن الشوف وأُلحق بدير القمر... وسُلخت الدامور وأُلحقت بدائرة عاليه الانتخابية...

وبعد ما أفاض جنبلاط، بأسلوب علمي رصين، وعلى الخريطة، في شرح التزوير الذي حصل من خلال «قصقصة» الدوائر الانتخابية... انتقل إلى تفصيل بعض الوقائع والمداخلات التي سبقت عملية الانتخاب ومنها قوله: إنَّ اجتماعًا حصل في القصر الجمهوري حضره كميل شمعون وبعض أعوانه من آل مغبغب جرى خلاله توزيع أموال لشراء أصوات لمصلحة اللائحة المؤيّدة لشمعون...وسمّى الحضور بالأسماء، وعندما وصل إلى أحدهم بادره القاضي باز بالسؤال:

ـ أما كان فلان يعمل عندكم يا كمال بك؟ فكيف تقولون إنّه حضر الاجتماع وقبض المال لشراء الأصوات؟

وردّ جنبلاط على القاضي بهدوئه المعهود:

ـ أَونعتب على أجير عمل عندنا ثمَّ خاننا، ولا نعتب على مَنْ أوصلناه إلى رئاسة الجمهورية بعدما تعهّد لنا وللناس وأقسم بشرفه وبمعتقده على تنفيذ مبادئ الحزب التقدّمي والإصلاح، وما إن وصل إلى سدّة الرئاسة حتّى تنكّر لكلّ ما تعهّد به وخان الشعب والقسم؟!

وراح القاضي باز يضرب بمطرقته على قوس المحكمة ويقول بصوت عال:

ـ لا أسمح لكم بهذا القول... وأطلب أن تسحبوا كلامكم...

وقبل أن يجيب كمال جنبلاط القاضي، علا صوت نسيب المتني في وجه رئيس المحكمة وهو يقول: ومَنْ أنت حتّى تقول لكمال بك جنبلاط: أسمح لك أو لا أسمح لك؟!

وصفّق الجمهور في القاعة فغضب القاضي وراح يردّد موجّهًا كلامه إلى نسيب المتني: أنت موقوف بتهمة تحقير المحكمة... ولسوف أصدر أحكامًا تبكي الصحافة.

فأجابه المتني: الصحافة تبكيك وتبكي سيِّدك... ولا أحد في لبنان يمكنه إذلال الصحافة.

على الأثر انسحب القاضي جان باز لإعداد حكم بسجن نسيب المتني بتهمة تحقير المحكمة ورئيسها، فحدث هرج ومرج في القاعة، وطلب منّا كمال جنبلاط وعفيف الطيبي

إخراج صاحب «التلغراف» من القاعة فرفض. فحملناه إلى سيارة كمال جنبلاط التي كانت متوقّفة في باحة العدلية القديمة المحاذية للسراي الحكومي، وكانت سيّارة مرسيدس سوداء تسير على المازوت ورقمها ٣٦١. فاصطحب كمال بك نسيب المتني إلى قصر نجيب جنبلاط في محلّة عين المريسة خشية توقيفه. إلاّ أنه وبعد تدخّل محامي الدفاع وكان من أبرزهم يوسف السودا وبهيج تقي الدين وأنور الخطيب وحبيب ربيز وسواهم ومعهم نقيب الصحافة عفيف الطيبي تمَّ تسوية الإشكال واتّفق على تأجيل الجلسة إلى يوم الجمعة التالي الموافق ٩ أيار. وصدرت جريدة «التلغراف» في اليوم التالي، أي الثالث من أيّار، وهي تحمل عنوانًا رئيسيًّا نصّه: «محاكمة «التلغراف» تنقلب إلى محاكمة عهد شمعون»... وتضمن العدد تفاصيل ما جرى في جلسة المحاكمة وأقوال الشهود وأبرزها أقوال كمال جنبلاط.

* * *

اغتيال نسيب المتني يفجّر الأزمة الكبرى!

«كان نسيب المتني وجريدته «التلغراف» جبهة وطنية شعبية متحرّكة...».

كمال جنبلاط

«كان نسيب المتني رسول الصحافة الأمين الذي ضحّى بحياته في سبيل حرّيتها، وذهب ضحيّة إخلاصه لمبادئه الوطنية وفي طليعتها المحافظة على حرّية لبنان واستقلاله وكرامته».

البطريرك بولس المعوشي

«نريد لبنان، هذه العشرة آلاف كيلو متر مربّع، سيِّدة مستقلّة، واحة للحرّية والحوار والديمقراطية والعدالة الاجتماعية ، سندًا للإخوان العرب لا مقرًّا ولا ممرًّا للاستعمار، أو للتآمر على الجيران والإخوان».

نسيب المتني

كان منتظرًا في الجلسة التالية من محاكمة جريدة «التلغراف» أن يدلي المزيد من الشهود من أقطاب المعارضة بما لديهم من وثائق ومعلومات تثبت تزوير الانتخابات النيابية. إلاّ أنه وفي ليل ٨-٩ أيّار وتحديدًا عند الساعة الثانية من بعد منتصف الليل، وفيما كان سكرتير تحرير «التلغراف» ميشال الحلوه، يوصل نسيب المتني من المكتب إلى منزله وكلاهما كانا في شارعين متفرّعين من شارع بشارة الخوري جنوبًا، وما إن ترجّل المتني من سيّارة «الفولس فاكن» وهمّ بدخول الدرج المؤدّي إلى منزله حتّى أطلقت عليه أربع رصاصات من مسدّس حربي أصابت منه مقتلاً فوقع أرضًا يتضرّج بدمّه... فسارع الحلوه إلى حمله ووضعه في السيارة لنقله إلى مستشفى أوتيل ديو لكنَّ نسيب المتني لفظ أنفاسه الأخيرة قبل وصوله إلى المستشفى... ووجدت في جيوب الجاكيت البيضاء التي كان يرتدي ستّ رسائل تهديد بالقتل لم يفصح عنها لأحد...

وفي صباح يوم الجمعة الباكر الموافق التاسع من أيّار ١٩٥٨ وصل كمال جنبلاط إلى منزل نسيب المتني في بيروت حيث كان الأهل الأقربون حول الجثمان المسجى فعلا البكاء... وبكى كمال جنبلاط صديقه المقرّب بصمت وخشوع...

وجرى لنسيب المتني مأتم شعبي كبير، فنقل جثمانه إلى كنيسة مار جرجس المارونية

في بيروت حيث صلّي عليه بحضور أركان المعارضة وممثّلي النقابات المهنيّة والعمّالية وكان هو واحدًا من أركانها ومناضليها.

وخلال الصلاة تلي الرقيم البطريركي الذي كتبه وأرسله البطريرك الماروني بولس المعوشي وجاء فيه: "ذهب نسيب المتني ضحية إخلاصه لمبادئه الوطنية وفي طليعتها المحافظة على حرّية لبنان واستقلاله وكرامته. كان نسيب رسول الصحافة الأمين الذي ضحّى بحياته في سبيل حرّيتها ولم يسكته يومًا عن قول الحقّ تهديد أو وعيد. كان مؤمنًا بالله، محبًّا للصرح البطريركي، فقام في كلّ مناسبة يدافع عنه وعن رسالته التاريخية ضدّ أيّ محاولة للنيل من كرامة الصرح. كان نسيب يتطوّع دائمًا من تلقاء نفسه للدفاع عن كرامة البطريرك ضدّ المتهجّمين عليه من الذين باعوا ضمائرهم وتنكّروا لدينهم ومارونيّتهم وخانوا وطنهم... هؤلاء الذين لا يجهلون ما قام به هذا الصرح والقيّمون عليه من البطاركة من خدمات سجّلها التاريخ".

وعلى باب الكنيسة وبعد الصلاة وقف الرئيس صائب سلام يرثي صديقه فقال: "يا لها من فاجعة عاطفية أليمة أفقدتنا الأخ والصديق والرفيق. يا لها من مصيبة إنسانية قضت على عنوان المروءة والشهامة والشرف والنبل. يا لها من كارثة وطنية أضاعت على لبنان، بل على العروبة جمعاء مناضلاً فذًّا لم تَلِن له في الحقّ قناة، ولم تفتر له في ميدان الجهاد همّة. ضحّى نسيب المتني أيام حياته وصرف سواد لياليه في خدمة لبنان وقضاياه، فرفع اللواء عاليًا وجاء اليوم يبذل دمه الغالي في سبيل حياة لبنان وبنيه وفي سبيل كرامتهم وعزّتهم واستقلالهم والمحافظة على كيان بلادهم". وأضاف صائب سلام يقول: "أخطأ الغادرون إن توهّموا بأنَّ في القضاء على نسيب المتني الشهيد قضاء على ما يمثّل نسيب وعلى ما ناضل في سبيله إلى آخر لحظة من حياته. إنَّ دمّ الشهيد القاني سينصبّ زيتًا كريمًا في المشعل الذي يضيء لإخوانه المناضلين فيستمرّون في طريقه إلى أن تتحقّق الأماني ويزول الطغاة الظالمون".

بعد صائب سلام تكلّم كمال جنبلاط فأشاد بوطنية نسيب المتني وبنضاله في معارك الحرّية والديمقراطية والكرامة الوطنية، ووصفه بأنه، ومع جريدة "التلغراف" كانا يشكّلان جبهة شعبية سياسية متحرّكة. وقال جنبلاط في كلمته: "إنّه اتّصل بنسيب المتني صبيحة يوم اغتياله، وبعدما قرأ آخر افتتاحية كتبها ضدّ تجديد الولاية لشمعون، فدعاه إلى الحذر والتنبّه

وقال له أنه سيكلّف بعض شباب الحزب بمرافقته، إلاّ أنَّ نسيب الجريء البطل الذي لا يخاف أي سلطان جائر، ولا ترهبه أيّ تهديدات ولا تهمّه لومة لائم في قولة الحقّ والدفاع عن حرّيات الشعب وكرامة البلاد أجاب بالقول: «أنا لا أخاف من هؤلاء الجبناء وأنا ليس عندي سلاح إلاّ القلم الذي أكتب به وهو هدية منك يا كمال بك».

وختم جنبلاط كلمته مخاطبًا نسيب الشهيد: «إنَّ الرصاصات الغادرة التي أطلقت عليك، وإنَّ استشهادك المضيء، سيكون آخر مسمار يُدقّ في نعش عهدهم الفاسد المجرم...».

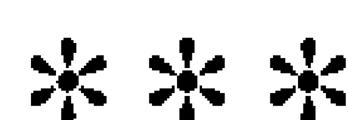
وحُمِل جثمان نسيب المتني من أمام كنيسة مار جرجس المارونية على الأكفّ وسط تظاهرة شعبية حاشدة لم تشهد بيروت لها مثيلاً. وسلك موكب التشييع طريق اللعازاريه فشارع بشارة الخوري، رأس النبع فحرج بيروت، وبلغ مطلع التظاهرة محلّة الحرج فيما كان آخرها لا زال يغطّي شارع بشارة الخوري بأكمله.

مشى زعماء المعارضة ونقابة الصحافة وراء نعش الشهيد وسط المراثي الشعبية وأبيات الندب التي كانت الوفود الشعبية تردّدها، ومنها هذين البيتين من الشعر الشعبي للشاعر الجنوبي الزجلي علي الفقيه:

الأرز الشاكي عمّا يبكي — والعروبة عانضالك
يا نسيب المتني إحكي — مين دبّر اغتيالك؟

وتجدّدت المناحة في الناعمة والدامور، مسقط رأس الشهيد، فحمل الجثمان من الناعمة إلى مثواه الأخير في مدافن البلدة في جوار كنيسة مار الياس الحي... ومعروف عن الدامور أنها أعطت العديد من رجال الصحافة وأركان الكلمة والحرف، ولعلّ من أبرزهم: شهيد الوطن سعيد فاضل عقل والشاعر الكبير ونقيب الصحافة ونائب جبل لبنان ورئيس بلدية الدامور وديع عقل القائل:

واخلع نعالك قبل دوس ترابه — فتراب لبنان رفات رجاله



نسيب المتني: عصامي فذ وبطل وقدوة، وعَلَمٌ لا ينطوي

كتب عزّت صافي في الصفحة ٢٨٠ من كتابه: "طريق المختارة: زمن كمال جنبلاط" يقول: "... وعاد الولد اليتيم الذي غادر بلدته الدامور في الربع الأوّل من القرن الماضي..." وفي هذا القول خطأ كبير وجسيم.

فنسيب المتني لم يكن قط يتيمًا... بل كان عصاميًا فذًّا بدأ حياته عامل مطبعة فمؤسّسًا لأوّل جمعية لعمّال الطباعة في بيروت وجبل لبنان التي انتخب أوّل رئيس لها... فمناضلا مميّزًا من أجل حقوق العمّال وحرّياتهم، فمحرّرًا صحافيًا فنقيبًا لمحرّري الصحافة في لبنان، فصاحبًا ورئيس تحرير لأكبر جريدة شعبية وأوسعها انتشارًا هي "التلغراف" فعضوًا دائمًا ومجليًا في مجلس نقابة الصحافة ومسهمًا في إنشاء العديد من الجبهات الوطنية والهيئات الشعبية والمطلبية وعضوًا محرّكًا في معظمها.

كان نسيب الولد البكر في عائلة تتألّف من خمسة أولاد: ثلاثة صبيان وابنتان، واحدة منهما الكبرى ضمياء وهي والدتي التي فقدتها وأنا في سنّ السادسة من عمري. والده كان أسعد المتني ووالدته أسماء الخوري مارون. وكان نسيب يشبه والدته في قامته المعتدلة وفي وجهه وأنفه وعينيه. كان معجبًا بها وكان هو الولد الأحبّ والأقرب لـ"أمّ نسيب". وكنت أنا كذلك، وقد عشت معها سنوات وأنا أتوجّه كلّ يوم لتلقي الدروس في مدرسة الحكمة في الأشرفية ببيروت. ومن أبرز ما علّمتني إيّاه، إلى جانب الأخلاق الرضية والصبر على المكاره وعاديات الأيام، مجانبة الثرثرة والنميمة فكانت تقول لي: "يا ابني، حتّى ترتاح، إعمل دَينةِ سطح ودَينة مزراب"... (والدينة في العامّية هي الأذن بالفصحى).

عانى نسيب المتني الأمرّين مع أفراد عائلته خلال الحرب العالمية الأولى (وهو مولود عام ١٩٠١). وما إن وضعت الحرب أوزارها حتّى توجّه إلى بيروت فتعلّم مهنة صفّ الأحرف في المطابع... وسرعان ما تلاقى والتقى مع زملاء له في المهنة ومن أبرزهم: مصطفى العريس، سعد الدين مومنة، ميشال العازار وحنّا الزرقا، أنيس محيو، جورج جرجورة وفارس سميا فتصادقوا وتقاربوا... كانوا في السهرات يتداولون في شؤون وشجون مهنتهم

والساعات العشر التي كانوا يشتغلون فيها يوميًا، والأجور البخسة التي يتقاضون فقرّروا تأسيس أوّل جمعية لعمّال المطابع في تاريخ لبنان، وانتخب نسيب المتني أوّل رئيس لهذه الجمعية (لم تكن سلطات الانتداب تسمح بتأليف نقابات في ذلك العهد)... كما قرّروا إصدار نشرة أو مجلّة تنطق بآسم الجمعية وتدافع عن حقوق العمّال وقضاياهم العادلة، فأسموها «اليقظة» وكان نسيب المتني أوّل رئيس تحرير لها وكاتب المقال الافتتاحي فيها... وحملت تلك المجلّة أكثر من شعار في صفحتها الأولى ومنها: «إلى النهضة، إلى ملاشاة الجهل والتضعضع يا عمّال البلاد... » و«نهضات العمّال أمل الإنسانية الوحيد... » و« بتنظيم الجماعات يضمحل الفقر والشقاء»... و« النهضات غذاؤها التضحيات... » و «بالعمل حياة الأمم وسواها...». كان ذلك بين سنة ١٩٢٥ و ١٩٣٢. وفي العدد السابع من «اليقظة» تاريخ شباط ١٩٣٠ كتب نسيب المتني في مقاله الافتتاحي يقول: «العاطفة، خصوصًا إذا كانت إنسانية، فهي أجمل ما يملك الإنسان. لذلك نحن والمعجبون بالاقتراح الذي رفعه النائب ميشال أفندي زكّور إلى المجلس النيابي لتقديم خمسة آلاف ليرة سوريّة لمنكوبي الفيضان في فرنسا نرى أنَّ مثل هذا التبرّع يعني أنَّ في خزينة البلاد المال الكافي... والمنكوبون الجديرون بالمساعدة والمؤاساة أوّلاً همّ هؤلاء العاطلون عن العمل في كلّ مدينة وبلدة لبنانية... وإذا كان للشعب من رجاء، بعد إقفال المستشفيات وإلغاء المدارس وإلغاء وظائف كثيرين من الموظّفين فهو ينحصر في أن تنشئ الحكومة أو تساعد على إنشاء المصانع وإحصاء العاطلين عن العمل وإيجاد فرص عمل لهم تحول بينهم وبين اليأس والهجرة...».

بعد سنوات قليلة انتقل نسيب إلى «البيرق» جريدة آل عقل من الدامور، الناطقة بآسم حزب إميل إدّه (الكتلة الوطنية) وكان يصدرها الشقيقان أسعد ويوسف عقل ويتدرّب على مهمّة تسلّم رئاسة تحريرها في ما بعد فاضل نجل الشهيد سعيد عقل... كان نسيب المتني يتولّى مهمّة تنضيد الجريدة أو تركيب المقالات والأخبار وإخراجها في صفحات... كان مغمّسًا بالحبر وبالعرق، عرق الجبين وعرق اليدين، قبل أن يتحوّل إلى محرّر رئيسي فيها يتمتّع بمحبّة زملائه المحرّرين وبثقتهم فينتخبونه نقيبًا للمحرّرين بعد معركة كتابية مع خير الدين الأحدب رجل الفرنسيين عهد ذاك ورئيس وزرائهم المعيّن وهي حال تنطبق على حال ومثال حبيب باشا السعد الذي عيّنه الانتداب الفرنسي رئيسًا للجمهورية فكتب كرم ملحم كرم في مجلّته الأسبوعية «العاصفة» يقول: «كيف نهنّئ حبيب باشا؟ أرئيس

جمهورية وتعيين؟! ووصف الوضع بأنه مهزأة ومدعاة للأسى على الرئيس وعلى الجمهورية ...

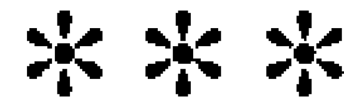
وجاء الاستقلال مع سبيرز وبشارة الخوري ورياض الصلح فآثرت "البيرق" أن تحافظ على قديمها، وأن تبقى جريدة إميل إدّه والكتلة الوطنية الموالين للانتداب وعلى الأخصّ بعدما ارتضى إميل إدّه أن يُعيَّن من قبل المفوّض السامي للانتداب الفرنسي رئيسًا للحكومة بعد اعتقال الخوري الصلح، كرامي، شمعون وعسيران... فآثر نسيب المتني الاستقلالي رقم ١، والذي كان معجبًا برياض الصلح وصديقًا لتقي الدين وكاظم وعادل، أن ينسحب فأسّس له صحيفة بدأت أسبوعية متنوّعة، ثمَّ تحوّلت يومية سياسية بمسعى ودعم من هنري فرعون الذي كان يتولّى وزارة الداخلية فوقع لنسيب وتوفيق المتني على ترخيص سياسي يومي اسمه "تلغراف بيروت" والذي تحوّل بعدئذٍ إلى الجريدة الشعبية الأولى في لبنان بفضل نضال نسيب المتني الذي كان يتنفّس حرّية ويأكل ويعاني مع الفقراء في صحن واحد هو صحن الكدح والعرق والكفاح من أجل غد أفضل، وديمقراطية جمهورية برلمانية تنبثق من الشعب وتعمل لخير الشعب وللفئات الفقيرة المعذّبة الكادحة منه على الأخصّ.

يوم أصدر نسيب المتني العدد الأوّل من جريدة "التلغراف" اليومية السياسية حدّد موقفها فقال: "إنّها جسر تلاقي الفريقين (المسيحيين والمسلمين) ومنبر الوحدة الوطنية التي لا بدَّ منها لضمان استقلال لبنان والتعاون القوي المفيد مع الإخوان العرب والجيران... ودعا باستمرار إلى رصّ صفوف المواطنين لتحصين حرّيات الشعب وخير أبنائه، كلّ أبنائه... ومن كلماته الشهيرة في "التلغراف": "نريد هذه العشرة آلاف كيلو متر مربّع سيِّدة مستقلّة، واحة للحرّية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، سندًا للإخوان العرب، لا مقرًّا ولا ممرًّا للاستعمار، أو للتآمر على الجيران والإخوان...".

وكان نسيب المتني يفضّل الجلوس والكتابة في "متخّت" صغير أقامه في المطبعة ضمَّ طاولة خشبية عادية وجهاز راديو. وإلى جانبه طاولة الخطّاط منيمنة الذي كان يتولّى حفر عناوين الجريدتين (التلغراف والطيّار) على الكرتون عهد ذاك يكتبها بالقلم الرصاص ثمَّ يحفرها بالسكّين الخاصّ... فنسيب كان يعشق رائحة الحبر والورق، وضجيج الآلة الطابعة، ومشاركة إخوانه العمّال لأنه بدأ حياته العملية واحدًا منهم.

وبقدر ما كان نسيب المتني عصاميًّا فذًّا وصاحب طاقات فكرية وقلميّة وإنتاجية هائلة

(كان يعمل أحيانًا ما بين ١٨ و٢٠ ساعة) كان صاحب قلب كبير وصف بأنه قلب طفل: إذا صادق أخلص وإذا عاهد وفى... قلب متدفّق إنسانية ووطنية ومحبّة وتواضعًا وتهذيبًا، وحدبًا على الفقراء والمعوزين والمستضعفين. لم تكن له هواية خاصّة لأنه لم يكن لديه وقت لممارستها، لم يقتنِ سيّارة ولم يتعلّم قيادة السيّارة... ولا اقتنى تحفًا أو أثاثًا أو رياشًا مميّزة، بل كان بيته كما مكتبه مشابهًا لبيت أيّ عامل أو مزارع صغير ممّن قصرت باعهم وشحّت مواردهم... وبكلمة كان راهب صحافة، راهب كلمة، راهب حرّية... ولقد اكتشفنا بعد استشهاده بأيّام أنه كان يساعد نحو عشرين عائلة معوزة وفقيرة بصورة سرّية... ودون أن تعلم يده اليسرى بما تفعله يده اليمنى...



زمن الثورة والسلاح...
والأشباح... والليالي الملاح!

في اليوم التالي لاغتياله انطلق زمن الثورة والسلاح، خصوصًا وبعدما احتجبت الصحف بقرار من نقابتها ثلاثة أيّام عن الصدور... قالوا إنّها حدادًا على الشهيد... وهي كانت في الواقع تمنّيًا وطلبًا من السلطة ليسود الصمت وتُمتص النقمة وثورة الغضب والكلمة... لكنّ ثورة السلاح سبقت ثورة الكلمة فانطلقت الأحداث من طرابلس وسقط فيها قتلى وجرحى... وقيل يومها أنَّ الضابط المسؤول عن منطقة الشمال تلقّى أوامره المباشرة من قصر شمعون بإطلاق النار على المتظاهرين، وكان البابا سامي الصلح رئيسًا للحكومة ووزيرًا للداخلية بالاسم: مجرّد قناع بربارة للقابضين على زمام الأمور بأُمرة شمعون الذي توسّل وجه "دراغولا" (مصّاص الدماء)... وبدل اكتشاف قتلة نسيب المتني وإدانتهم أمام العدالة، تساقطت الضحايا بالعشرات في طرابلس وبيروت وصور وصيدا وكلّ أرجاء الجمهورية...

عقدت جبهة المعارضة اجتماعًا لها في منزل صائب سلام في المصيطبة وأصدرت بيانًا أعدّه كمال جنبلاط حمّل فيه عهد شمعون مسؤولية اغتيال نسيب المتني، ودعا إلى إعلان العصيان المدني لمنع رئيس الجمهورية من تجديد ولايته...

أمّا في مقلب الحكم والسلطة فقد خرج وزير عدل كميل شمعون بشير الأعور ليزعم أنَّ أجهزة الأمن على وشك القبض على قتلة نسيب المتني، وأنَّ التحقيقات الأولية أظهرت أنَّ الأسباب خاصّة وشخصية (كذا)... وذلك على طريقة تقارير العسكر العثماني: قبضنا على القتيل... أمَّا القاتل فقد فرّ إلى أحضان بعلثبوث، رئيس الشياطين...

وهكذا يقتلون رجل الفكر والكلمة، ثمَّ يتّهمونه بألف فرية وفرية... ولا ضمير يردع ولا وجدان، ولا ذرّة من عدل أو منطق أو أخلاق...

وانطلقت بوادر العصيان المدني من تلال بيت الدين الشوف ففوجئ المتمترسون في

التلال بأنَّ طائرات الجيش (الهوكي هنتر) تمرّ فوقهم وتمطرهم برشقات الرصاص. وتبيّن أنَّ الجيش مُختَرقٌ من قبل شمعون وأنَّ قائدي سلاح الجوّ ومنطقة الشمال إميل البستاني (الذي أصبح في ما بعد قائدًا للجيش، وأنور كرم من بلدة الرميلة الشوفية الساحلية) يتلقيّان أوامرهما من رئيس الجمهوريّة كميل شمعون... وأنَّ السياسة الوسطية التي ينتهجها قائد الجيش اللواء فؤاد شهاب لم تعد تجدي نفعًا... فكميل شمعون هو غير بشارة الخوري وسياسة النعامة تضرّ ولا تنفع... وعمّت الثورة كلّ المناطق اللبنانية...

وبدأ كميل شمعون وشارل مالك بتنفيذ المخطّط المعدّ سلفًا لافتعال أزمة علاقات وعداء مع الجمهوريّة العربية المتّحدة وقائدها جمال عبد الناصر ومع ظلّ الحكم القائم في دمشق... فأخذت الأبواق الناطقة بأسم السلطة تتّهم المخابرات السورية في دمشق بتهريب السلاح وتسهيل مرور المقاتلين إلى جبهات المعارضة... وكأنه ليس في لبنان شعب يقاوم وينتفض ويقاتل وينتصر... كان هؤلاء ينتمون إلى فئة المغرضين الجهلة الذين يفتقرون إلى أبسط مبادئ المعرفة والإلمام بتفاصيل التاريخ والجغرافيا... فإذا ما قدم عشرات من الموحّدين الدروز من جبل العرب في سوريا لنصرة إخوانهم الموحّدين في جبال لبنان، أفهل يعني ذلك تدخّلاً مباشرًا من الجمهوريّة العربية المتّحدة يستدعي تقديم شكوى من الحكومة اللبنانية ضدّها أمام مجلس الأمن الدولي والأمم المتّحدة؟ فالإخوة الموحّدون هنا وهناك أهل وإخوة ينتمون أحيانًا إلى عائلات واحدة أو إلى عائلات تربطها صلات قربى ووشائج المصاهرة ووحدة المصير... لذا فالمؤازرة والمساندة تأتي هنا من باب «تحصيل الحاصل» والواجب المتوجّب، ومبادئ النخوة والشهامة والأخوّة... والإخوان للإخوان في كلّ حين وآن...

لكن مثل هذا المنطق لم يقنع الحكم والحاكمين في ذاك الحين فتقدّمت وزارة خارجية شمعون ممثّلة بشارل مالك بشكوى رسمية إلى مجلس الجامعة العربية وإلى مجلس الأمن الدولي تتّهم الجمهوريّة العربية المتّحدة بالتدخّل في شؤون لبنان ووضعه في حالة خطر... فاستقال وزيران هما رشيد بيضون وزير الدفاع وبشير العثمان وزير البريد والهاتف، واستنكرت جبهة المعارضة الشكوى وشجبتها، واتّهمت دول حلف بغداد بإرسال الأسلحة والأموال إلى كميل شمعون والأحزاب الموالية له والمؤتلفة معه في تأييد التجديد وسياسة الأحلاف... وفي حمل السلاح.

وبادر البطريرك الماروني مار بولس المعوشي إلى اتّخاذ موقف جريء وشجاع، فاستدعى سفراء الولايات المتّحدة الأميركية والدول الأوروبية وأبلغهم اعتراضه واعتراض البطريركية المارونية على الشكوى المقدّمة من حكومة شمعون ضدّ الجمهوريّة العربية المتّحدة. وصدر بيان عن بكركي جاء فيه: إنَّ البطريرك الماروني والشعب اللبناني بأسره يعارضان بشدّة هذه الشكوى ويدافعان عن استقلال لبنان وعن كرامة لبنان، ولا يسمحان أبدًا بأن يصبح لبنان "كوريا ثانية" نتيجة للسياسة الخارجية والداخلية التي يتبعها الحاكمون في لبنان...

في هذه الأثناء عقد لقاء ثنائي بين كمال جنبلاط وقائد الجيش اللواء فؤاد شهاب في سبلين تمَّ فيه الاتّفاق على هدنة في الشوف وتمركز قوة صغيرة من الجيش على هضبة في عين زحلتا، وأن تفتح طريق بيت الدين أمام المدنيين غير المسلّحين والمؤن.

وأصدر كمال جنبلاط بيانًا أعلن فيه أنَّ سياسة الثورة الشعبية في الشوف وعنوانها المثل الصالح الذي أعطاه كافّة الرؤساء الروحيين المسيحيين يهدف إلى قطع دابر الدسائس والوقوف في وجه الدعايات الطائفية، وتآلف الناس واتّفاقهم وجمعهم حول قضيّة لبنان وكيانه واستقلاله، والولاء لتقاليده الرحبة السمحة عبر العصور. وتوجّه هذا البيان إلى أهالي دير القمر والدامور وعموم المسيحيين في منطقة الشوف مشدّدًا على أنَّ الحركة الوطنية الثورية في الشوف إنَّما تهدف إلى القضاء على الفساد وإنهاء عهد الظلم والتفريق والتمييز والمحسوبية، واستعادة الكرامة الإنسانية والقيم الروحية التي داسها العهد.

وكان المناضل فيليب البستاني، من دير القمر، قد انضمّ إلى الثورة في المختارة ومعه حوالي مايتي شابّ مسيحي من الدير ومن القرى المحيطة بها.

ونتيجة للشكوى التي تقدّمت بها حكومة شمعون إلى مجلس الجامعة العربية ومجلس الأمن الدولي اتّخذ مجلس الأمن قرارًا بإرسال مراقبين دوليين إلى لبنان للتحقّق من وجود متسلّلين أجانب إلى لبنان. وحضر أمين عامّ الأمم المتّحدة داغ هامرشولد في ١٩ حزيران ١٩٥٨ إلى بيروت لدرس ومراقبة الوضع عن كثب. وقدّم هامرشولد في ٣ تمّوز تقريره إلى مجلس الأمن وقال فيه إنَّه لا يمكن التأكيد بوجود عمليّات تسلّل جماعية عبر الحدود. وكانت واشنطن قد ربطت تدخّلها العسكري بما يحتويه تقرير الأمين العامّ للأمم المتّحدة.

ـ الإنزال الأميركي... والتسوية الشهابية!

لكن انقلاب العراق الذي حصل في ١٤ تمّوز وأطاح بالملكيّة وبعهد نوري السعيد وعبد الإله، الراعيين الأساسيين لحلف بغداد، وقَلَب كلّ المعادلات وشرّع أبواب لبنان والمنطقة على كلّ الاحتمالات...

عقد الرئيس الأميركي "دوايت أيزنهاور" اجتماعًا لخليّة الأزمات، واعتبر أنَّ الوضع مقلق جدًّا ومن شأنه القضاء كليًّا على النفوذ الغربي في الشرق الأوسط... وفي بيروت استدعى الرئيس شمعون سفراء أميركا وبريطانيا وفرنسا وطلب منهم تدخّل دولهم... فكان القرار الأميركي سريعًا... وتمّ في ١٥ تمّوز ١٩٥٨ إنزال ١٧٠٠ جندي من رماة البحرية التابعين للكتيبة الثانية من فوج البحرية الثاني على شواطئ الجناح في مسبحي (السان سيمون والسان ميشال الشهيرين عهد ذاك)... وعندما هرعنا وزملائي الصحافيين اللبنانيين والعرب والأجانب إلى مكان الإنزال قال لنا الناطق باَسمهم ببساطة: "قالوا لنا في حاملة الطائرات إنَّ الملك قد قتل"... كانت العبارة الوحيدة التي نطق بها ضابط المارينز الأميركي... وسرعان ما تقدَّمت القوّة باتّجاه مطار بيروت وسيطروا عليه... ووضعت أكثر من ١١٠٠ طائرة أميركية في حالة تأهّب، وانتشرت حوالي ٧٥ سفينة من سفن الأسطول السادس الأميركي في البحر الأبيض المتوسّط، وحلّقت الطائرات الحربية الأميركية في سماء بيروت حتّى بلغ عديد الإنزال الأميركي خلال عشرة أيام ١٦ ألف رجل أخذوا يقومون بدوريّات في شوارع بيروت وضواحيها عبر الدبّابات والعربات البرّمائية والمدافع... وفي الوقت نفسه تمَّ إنزال قوّات بريطانية في الأردن لحماية العرش الذي أوجدته بريطانيا...

تمَّ الإنزال الأميركي بدون أيّ إشكال يذكر فلم يواجه الاحتلال الأميركي الجديد أيّة مقاومة... وإن كان قائد الجيش اللبناني فؤاد شهاب قد أصدر أمرًا بتوجيه المدافع اللبنانية باتّجاه الأسطول السادس في إشارة رمزية وفولكلورية في الدفاع عن السيادة التي انتهكها كميل شمعون فأعاد لبنان إلى عهد الاحتلال الأجنبي بعدما تسلّمه عام ١٩٥٢ مُحرَّرًا من آخر جندي أجنبي جلا عن بلادنا بتاريخ ٣١ كانون الأول سنة ١٩٤٦ (اللوحة التذكارية المعلّقة على صخور نهر الكلب)...

في تلك الأثناء وفيما كان كمال جنبلاط يستمع عبر الراديو إلى تطوّر الأمور إلى حدّ الإنزال الأميركي أقفل الراديو وقال لمن حوله:

الأميركيون نزلوا في بيروت... وكان على الجيش اللبناني أن يتصدّى لهم ولو على سبيل إثبات الوجود... أمّا وقد تخلّى الجيش عن هذا الواجب، فنحن سنتقدّم باتّجاه جيش الاحتلال الجديد حتّى لا يقال إنَّ الأميركيين دخلوا بيروت من دون إنذار ومن دون أن يلقوا أيّ مواجهة... وفي هذه اللحظة أدعوكم إلى تشكيل فرق مقاومة.

كتبنا نحن، في حينه، في صحفنا شاجبين الاحتلال الأميركي المتجدّد، داعين أبناء الشعب اللبناني إلى مقاومته والتصدّي له بكلّ الوسائل المتاحة، وكتب غسّان تويني، الذي كان مواليًا لشمعون حينذاك، في «النهار» يقول: «القرار الذي اتّخذه رئيس الجمهوريّة ووزراؤه هو أخطر قرار اتّخذه حاكم لبناني منذ الاستقلال... بل قد لا يعادل هذا القرار خطورة سوى قرار الاستقلال نفسه... نقول، ونعني ما نقول، إنَّ الأسطول السادس في بلادنا قد يؤدّي إلى نهاية الاستقلال اللبناني... ونقول، ونعني ما نقول، إنَّ الأيدي التي شجّعت في تاريخنا، دعوة الأسطول السادس إلى المجيء، سجّلت أسود نقطة وأحلك صفحة في تاريخنا الحديث... من هنا إنَّ على اللبنانيين الذين يريدون الحفاظ على لبنان أن يقابلوا الأحداث التي نقدم عليها بإحلال الشعور الوطني محلّ أيّ شعور آخر، فيحولوا دون تحوّل مجيء الجيوش الأجنبية إلى مناسبة لإعادة النظر في الكيان اللبناني مرّة ثانية... فينفسخ جغرافيًّا بعد أن كاد ينفسخ اجتماعيًّا وسياسيًّا...».

وإذا كان الأسطول السادس قد رسا في المياه الإقليمية اللبنانية، وسيّر «المارينز» الدوريّات في العاصمة والضواحي، إلاّ أنَّ الحدث المشؤوم ترافق مع تحرّك سياسي للإدارة الأميركية انطلاقًا من المقترحات التي أرسلها الرئيس جمال عبد الناصرإلى الإدارة الأميركية والتي كوّنت أساس الحلّ وهي: أن يستمرّ شمعون رئيسًا حتّى انتهاء ولايته في ٢٣ أيلول على أن ينتخب اللواء فؤاد شهاب رئيسًا للجمهوريّة خلفًا له، ويتمّ العفو عن المتمرّدين وما تخلّل الأحداث من جرائم... وأرسل الرئيس الأميركي أيزنهاور موفده الخاصّ روبرت مورفي فعرّج على القاهرة أوّلاً ثمَّ جاء إلى بيروت حيث التقى الرئيس شمعون في قصر القنطاري ووصفه فيما بعد في مذكّراته بأنه بدا سجينًا ومحاصرًا وقلقًا... ولم يمانع في انتخاب شهاب رئيسًا...

والتقى مورفي قائد الجيش فؤاد شهاب والبطريرك الماروني مار بولس بطرس المعوشي. ولقد حاول البطريرك المعوشي تسويق اسم الشيخ بشارة الخوري فقال له مورفي:

لا يمكننا أن ننهي ثورة ضدّ رئيس بالإتيان برئيس أنزله الشعب بشبه ثورة... واقتنع البطريرك من ثمّ بتأييد ترشيح شهاب للرئاسة...

والتقى مورفي في بيروت الرؤساء حسين العويني وصائب سلام وعبد الله اليافي ورشيد كرامي والعميد ريمون إدّه ونقل إليهم رسالة واضحة بأنَّ واشنطن اتّفقت مع الرئيس عبد الناصر على أن يأتي الجنرال شهاب رئيسًا للجمهوريّة...

وبقي لمورفي أن يلتقي كمال جنبلاط فاتّفق على أن يتمّ اللقاء في سبلين بعدما أبدى الموفد الأميركي تحفّظًا على الصعود إلى المختارة. وبعد مصافحة حارّة وودّية بين الرجلين دخلا غرفة أقفل بابها لحوالي ساعتين، وروى كمال جنبلاط في ما بعد بعض ما جرى خلال ذلك اللقاء.

قال جنبلاط: أبلغت موفد الرئيس الأميركي أنَّ نزول قوّات الأسطول السادس على شواطئ عاصمتنا قد ذكّرنا بنزول القوّات الأميركية والحلفاء على شواطئ النورماندي الفرنسية في نهاية الحرب العالمية الثانية... ولكن مع فارق كبير وهو أنَّ لبنان ليس محتلاً من دولة أجنبية نازية، ولا هو مهدّد من دولة شيوعية ولا من أيّ دولة أخرى... بل إنَّه في حالة ثورة وطنية داخلية ضدّ سلطة فاقدة الشرعية الشعبية، سلطة تثير الفتن وتحاول أن تبقى في كرسيها ولو بالقوّة... وقد استنجدت بكم لتحموها وتنقذوها... فهل من مبادئ الدستور الأميركي أن تحمي أساطيلك الحكومات التي تثور شعوبها ضدّها طلبًا للعدالة والقانون والحرّية والديمقراطيّة؟

وسأل جنبلاط روبرت مورفي: هل أنَّ كميل شمعون خدعكم أم أنتم خدعتموه؟ وقال له: هذه البلاد لا تريد أيّ حلف أجنبي... إنَّها تريد أن تبقى حرّة مستقلّة، ولا عدوّ لها إلاَّ إسرائيل. فلا تخدعكم بعض المظاهر التي قوبل بها جنودكم في أماكن معيّنة... فلبنان ليس هذه المساحة من الشاطئ الذي نزلتم فيه. ولبنان ليس فقط جبل لبنان الذي انطلقت منه الثورة. يجب أن تعرفوا لبنان وتنظروا إليه على حقيقته لا كما صوّره لكم كميل شمعون وشارل مالك.

"لبنان لبناني عربي متمسّك بالحرّية والديمقراطيّة، ويريد الحفاظ على كيانه مستقلاً دون أن يتخلّى عن واجبه في قضيّة فلسطين"...

وممّا قاله كمال جنبلاط لمورفي: يجدر بك أن تذهب إلى الجامعة الأميركية في بيروت

وأن تسأل أساتذتها عن أزمة لبنان... ففي هذه الجامعة التي تديرها وترعاها بلادكم ـ كما في سواها ـ نخب من الأساتذة الوطنيين والقوميين العرب واليساريين الذين تخرّجوا منها ويدرّسون فيها، وهم أشدّ المندّدين بسياسة حكومتكم المنحازة إلى إسرائيل وإلى حكم فاسد مستبدّ...

ووجّه كمال جنبلاط نصيحة إلى مورفي تقول أن يرحل الجيش الأميركي من لبنان قبل انتخاب رئيس جديد للجمهوريّة... هكذا على الأقلّ تحافظون على المظهر الديمقراطي للعمليّة الانتخابية، فلا يقال إنَّ رئيس لبنان قد انتخب في ظلّ الحراب الأميركية... والنتيجة، نتيجة الانتخاب معروفة ومضمونة وهي مجيء اللواء فؤاد شهاب رئيسًا...

وسجّل روبرت مورفي انطباعاته عن زيارته للبنان، فقال: إنَّ لدى لبنان بطريرك تنطبق عليه مواصفات رئيس جمهوريّة، وإنَّ لديه جنرالاً تنطبق عليه مواصفات بطريرك... وفي هذا الانطباع الكثير من الدلالات والعبر حول ما سيكون عليه حكم الجنرال فؤاد شهاب...

بعد انتهاء زيارة مورفي للبنان تمّ تحديد الواحد والثلاثين من تمّوز ١٩٥٨ موعدًا لانتخاب رئيس جديد للجمهوريّة اللبنانية... جرت الانتخابات على دورتين. في الدورة الأولى نال فؤاد شهاب ٣٤ صوتًا وريمون إدّه عشرة أصوات ووجدت ورقتان بيضاوان. أمّا في الدورة الثانية، فنال فؤاد شهاب ٤٨ صوتًا ونال ريمون إدّه سبعة أصوات وصفها عميد الكتلة الوطنية بأنها أصوات الديمقراطية... ولم يكن كمال جنبلاط نائبًا في ذاك المجلس...

١٧ تمّوز ١٩٥٨: نزول جنود المارينز الأميركيين على شاطئ الجناح (السان سيمون والسان ميشال عهد ذاك).

ـ «التلغراف» وأيام النضال والكفاح

نتوقّف هنا عن متابعة الأحداث ونعود قليلاً إلى الوراء لنرى ما الذي حلّ بالتلغراف بعد رحيل نسيب المتني. دام إضراب الصحافة ثلاثة أيام (١٠ و١١و١٢ أيار) واغتنمنا نحن هذه الفسحة من الزمن لنعدّ عددًا خاصًّا عن نسيب زدنا صفحاته واستكتبنا فيه كلّ الأصدقاء والزملاء الذين أحبّوا الصحافي العصامي المناضل وقدّروا إخلاصه وجرأته ورسوليّته في ممارسة مهنة المتاعب والمكرمات.

كتب كرم ملحم كرم مقالاً عنوانه: «نسيب المتني بطل وقدوة»، وكتب الأستاذ الكبير إميل خوري سفيرنا الأسبق في روما والفاتيكان مقالاً تحت عنوان: «نسيب المتني عَلَمٌ لا ينطوي»، ونظمت القصائد في رثاء الصحافي البطل وكتب أركان المعارضة كلمات الرثاء والتقدير. قال غسّان تويني في مقاله الافتتاحي في «النهار»: إنَّ الذين أسالوا دم نسيب المتني مكّنوه منهم، ونصروه عليهم، وما قتلوا في النهاية إلاَّ أنفسهم...

وتحت عنوان HONNEUR أو «تقدير» كتب جورج نقّاش مقالاً افتتاحيًّا ملؤه عاطفة وتقدير لصديقه الشهيد وختمه بالقول: «الأبطال يعيشون بيننا، ولكنّنا لا نكتشفهم إلاَّ بعد أن يسقطوا...». وكتب وكتب الكثير الكثير...

وكتبت أنا كلمة تحت عنوان: «وقع القلم ولم ينكسر» عاهدت فيه نسيب المتني وقرّاء «التلغراف» أنَّ المسيرة مستمرّة، وأنَّ قلم نسيب وقع ولم ينكسر، وكلّنا نسيب على درب الوطنيّة والكرامة والشهادة... وكتب توفيق المتني شقيق نسيب بقول: الحرّية قد ديست في هذا العهد بالأقدام، وحملة الأقلام زُجَّ بهم في السجون واعتدي عليهم بكلّ سلاح... وإنَّ مصرع شقيقنا الشهيد نسيب المتني هو الدليل الساطع على ردّ زعم رئيس الجمهوريّة بأنَّ تلك الحرّيات مصانة. أمّا وجود لبنان والحرص على كيانه واستقلاله فإنّنا نقول: إنَّ كميل شمعون لم يكن يومًا أشدّ غيرة من المعارضين والأحرار اللبنانيين المخلصين الأوفياء على الكيان والاستقلال...

تلقّى توفيق المتني اتّصالاً هاتفيًّا ملؤه التهديد، فترك منزله ولجأ إلى منزل محامٍ صديق في شارع بدارو... وصباح الخامس عشر من أيار تلقّينا اتّصالاً هاتفيًّا من النائب إميل البستاني أبدى رغبته بزيارة مكتب «التلغراف»، فظننّا أنه آتٍ إلينا للتضامن والمؤاساة. استقبلناه السيِّدة لولا زوجة خالي توفيق وأنا، فأقبل علينا باشًّا معانقًا. وما إن استقرّ به المقام

حتّى أفصح عن المهمّة التي كُلِّف بها. قال البستاني: أنا مكلّف بمهمّة من الرئيس كميل شمعون. هو يقول لكم: إذا لم توقفوا "التلغراف" عن الصدور فسيلاحق توفيق ويعتقله... (كان ذلك يعني أنَّ شمعون لا يريد ربّما وقف التلغراف وحدها، بل و"الطيّار" كذلك). نزلت علينا رسالة شمعون نزول الصاعقة، فأجابته السيِّدة لولا بكلّ تهذيب ووجل: سنبلّغ توفيق الرسالة وسنرى ما يكون جوابه... أمَّا أنا، وقد أسخطتني مهمّة البستاني فأجبته بوضوح وإصرار، قلت: أنا من يمثِّل عائلة نسيب المتني في هذا اللقاء، فأبلغ الرئيس شمعون أنّنا لن نوقف "التلغراف" عن الصدور وليفعل هو ما يشاء... ربَتَ إميل البستاني على كتفي وقال: يا ابني أنت ما زلت شابًّا صغيرًا لا يقدّر عواقب الأمور... فبانت على وجهي أمارات الغضب واختنقت في حلقي الكلمات، وانحبست في عيني الدمعات، وأيقنت أنَّ الصمت هو أبلغ جواب في مثل هذه المناسبات...

انتقلنا إلى حيث يقيم توفيق المتني وأبلغناه حقيقة ما جرى، فقال لي: أحسنت، لكن يجب أن نرى إلى أين يمكن أن ألجأ... اقترح هو دارة الشيخ بشارة الخوري في الكسليك، فقلت: إنَّ شمعون لن يوقّر الدار، بل سيقتحمها إذا أراد اعتقالك. فقال خذوني إلى المختارة، فقلت: المختارة بعيدة، وأنا يجب أن أبقى على تواصل يومي معك من أجل تأمين استمرار صدور الصحيفتين يوميًّا (كانت التلغراف تصدر صباحًا مع باقي الصحف، أمَّا الطيّار فتصدر عند الساعة العاشرة قبل الظهر).

فقال: ماذا تقترح إذًا؟ قلت: أن نتوجّه إلى بكركي فقد يوافق البطريرك على لجوئك فتكون في مأمن وتبقى قريبًا منّا، فأقصدك كلّ يوم... هزَّ رأسه وقال: فكرة جيّدة، فلنحاول... توجّهنا السيِّدة زوجته وأنا إلى بكركي، فالتقينا البطريرك المعوشي وشرحنا له حقيقة الحال، فلم يجب لا بلا ولا بنعم... بل سمعناه يقول: ابعثوا إليّ بمخايل... ولم نكن نعلم من هو الرجل.. وما هي لحظات حتّى أطلّ كاهن في أواسط العمر، مربوع القامة، فخاطبه البطريرك المعوشي بالقول: يا مخايل، قامتك مثل قامة توفيق... أحضر لنا من عندك بذلة وقبّعة (وأشّر بيده وهو يبتسم: الحلوة المبرومة) وهويّتك.. ذهب الخوري مخايل الحلو إلى غرفته، ثمَّ عاد وهو يحمل كيسًا ويقول: هذه هي الأغراض المطلوبة وسلّمني الهويّة في يدي ، فنظر البطريرك إلينا وقال: اتّكلوا على الله، والباقي علينا...

ألبسنا خالي توفيق بزّة الخوري مخايل ووضع على رأسه القبّعة الجميلة وعلى عينيه نظّارات سوداء، واستدعينا سيّارة تاكسي فجلس هو إلى جانب السائق وجلست أنا في

المقعد الخلفي، واعتذرنا من الزوجة حتّى لا ينفضح أمرنا ونقع في المحظور... كان علينا أن نجتاز حاجزًا كبيرًا للدرك على جسر نهر الكلب.. وعندما وصلنا إلى الحاجز أبرز توفيق هويّة الخوري مخايل وأبرزت أنا هويّتي، فسأله الضابط أين مقرّ إقامتك، فأجابه: عند سيِّدنا في بكركي، فتلفّظ «ابن الدولة» بكلمات غير لائقة... وعندما وصل إليّ قال بنبرة غير مهذّبة: ـ وإنتَ شو؟ فأجبته: أنا «القندلفت»، فأشار علينا بالمرور وهو غاضب «مسكون» مثل سيِّده.

كان توفيق المتني هاوي كنارات وحساسين، يضعها في أقفاص من «الكروم»، المعدن الغالي، ويعلّقها في «قواعد» لها من المعدن الأنيق إيّاه... فنقلنا منها إلى بكركي، وعلى دفعات حوالي ثمانية من عصفور الكنار والحسّون، فصار في بكركي غرفة اسمها «غرفة العصافير» يأنس لها وبها البطريرك المعوشي ويطرب لأناشيد «كورسها» وهو يصدح بأعذب وأشجن الألحان...

وكان عليّ أنا ابن الثانية والعشرين من سنيّ عمري أن أُصدر، ولو مكرهًا، جريدتين يوميّتين هجرهما معظم المحرّرين: إمَّا خوفًا وإمَّا نتيجة لممارسة الضغوط والتهديد. ومقرّ الصحيفتين يقع في منطقة باتت وكأنها خطّ تماس بين المنطقتين اللتين أخذتا أحيانًا تتبادلان طلقات النار. أضف إلى أنه وفي بناية من عدّة طبقات قائمة للجهة الجنوبية الغربية من مقرّنا (الخندق الغميق) مكتب لرئيس حكومة شمعون البابا سامي الصلح تمترس في حمّامه المشرف علينا قنّاص راح يمارس ضدّنا هواية القنص ليلاً ونهارًا، في فترات وأوقات يختارها هو، فحرمنا من الجلوس في مكاتب الجريدتين. وثقبنا جدارًا محاذيًا لمطلع الدرج الداخلي لجهة المطبعة الكائنة في الطابق الأرضي، ووضعنا طاولة خشبية كنّا نستخدمها للكتابة وللنوم أحيانًا. وظلّ رفيقي الدائم أثناء النهار والليل صديق نسيب المتني المخلص الخوري طانيوس منعم، طيِّب الله ذكره.

وكان الخوري طانيوس أديبًا وشاعرًا، يُعدّ ويشرف على الصفحة الأدبية ـ الثقافية من «التلغراف» التي تظهر في عدد يوم الاثنين من كلّ أسبوع، الذي أُطلق عليه «العدد الممتاز». ودرجت الصحف اليومية عهد ذاك على أن تحتجب عن الصدور يوم الاثنين بحيث يعطّل محرّروها وعمّالها يوم الأحد. لكن نسيب المتني كان يُصدر «التلغراف» و«الطيّار» يوم الاثنين بصفحات مضافة، فتحظيان بإعلانات مضافة وتبيعان في الأسواق كمّيات مضاعفة

عن الأيام العادية إن لم يكن أكثر. وكان يكتب في صفحة الأدب والثقافة: الشيخ عبد الله العلايلي ورئيف الخوري وعمر فاخوري وحنّا نمر ويخصّها "الشاعر القروي" رشيد سليم الخوري ببعض من قصائده. ويجري الخوري منعم أحاديث ومقابلات مع عدد من الأدباء لعلّ من أبرزهم ميخائيل نعيمه.

وفي هذه الصفحة أجرى نسيب المتني مناظرة مع الأديب العربي الكبير طه حسين دامت أسابيعًا ودارت حول تمسّك عميد الأدب العربي بنظريّة "الأدب للأدب" و"الفنّ للفنّ" ودفاعه عنها. فيما خالف نسيب المتني هذه النظريّة ودعا إلى أن يكون الأدب والفنّ، وكلّ إبداع ثقافي ملتزمًا قضايا الإنسان: حرّيات الإنسان وتقدّمه وترقّيه أولاً وأخيرًا. وشمل الحوار اختلافًا بينهما حول موجة ما سُمّيَ "الشعر الحديث" غير المقيَّد بالقافية وبأوزان الخليل المعروفة. وقد اعتبره نسيب المتني أقرب إلى النثر منه إلى الشعر الفصيح الموزون المقفّى، ومحاولة للإساءة إلى الشعر العربي الأصيل.

كان الخوري طانيوس يلازمني نهارًا وليلاً. كنت أنا أستمرّ في العمل حتّى أنهي الصفحة الأولى من "التلغراف" بعد منتصف كلّ ليلة لتبدأ أعمال الطباعة لأفيق في أو قبل السادسة صباحًا وأنصرف إلى إعداد الصفحتين الأولى والأخيرة من "الطيّار"... هذا إذا تيسّر لنا أن ننام ولو لساعتين أو ثلاث... فقد كانت شرطة المطبوعات تزورنا بعد منتصف الليل، عندما نبدأ بطباعة الصفحات الأخيرة فنخبّئ الأعداد المطبوعة بين مواعين الورق، وننتظر انصرافهم قبل أن نعود لمتابعة الطبع من جديد... كنّا نقفل باب المطبعة الخارجي (وهو من الزنك أو ما يسمّى التنك) ونوقف أمامه أحد العمّال، فإذا ما أطلّت شرطة المطبوعات من هذه الجهة أو تلك من الشارع ضرب هو بعصاه على الباب، فأوقف المسؤول عن الطباعة الآلة الطابعة.

وذات فجرٍ من تلك الليالي المظلمة السوداء أقبلت علينا تلك الشرطة، التي لا نلوم أفرادها بل مرسليها ومن هم وراءها، وكان على رأس الدورية المفوّض عادل عبد الرحيم (وكان ذا مشاعر وطنية وأخلاق رضيّة) وخاطبني بهدوء قائلاً: معي أمر من رئيس الحكومة ووزير الداخلية سامي الصلح بان أفكّك صفحات الرصاص عن الآلة الطابعة وأن أبعثرها وأرميها أرضًا حتّى لا تعاودوا الطباعة عندما نرحل... فقلت له: هل هو أمر خطّي أو شفهي؟ فقال: لا، أمر شفهي... ثمَّ ربت على كتفي وقال: تعرف أني أحبّك كما كنت أحبّ

خالك نسيب... انتبه لنفسك فالعين محمرّة منّك، وسمعتهم يقولون: خلصنا من الكبير فلن (يكعى) علينا الصغير...

بسملت وحمدلت كلمتان علّمني إياهما العلاّمة الشيخ عبد الله العلايلي الذي غالبًا ما كنت أزوره بصحبة صديقه الحميم الخوري طانيوس منعم في دارته في محلّة البطريركية ـ زقاق البلاط... (و البسملة تعني: بآسم الله، أمّا الحمدلة فتعني الحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه).

كان العلايلي يقول لي: يا ابني، روح شوف مستقبلك... المثل بيقول: «ما متّ، ما شفت مين مات»... نحن نعيش في غابة وحوش، في غابة ذئاب... وأنا جرّبت قبلك، والمثل بيقول: «اسأل مجرّب ولا تسأل حكيم»...

لكن على من تقرأ مزاميرك يا علايلي... فلقد كتب عليّ أن أكمل مسيرة نسيب المتني أيًّا تكن التضحيات والمخاطر وعاديات الزمان...

كنت قبل ظهر كلّ يوم مجبرًا على أن أزور المقرّين: مقرّ القيادة العسكرية في دارة آل سلام حيث صائب بك وشقيقه اللواء مصباح وأركان الحرب... ثمَّ أزور المقرّ السياسي في دارة الحاج حسين العويني على بولفار مطار بيروت حيث كان يلتقي الدستوريون السابقون: الدكتور الياس الخوري وإميل الخوري وخليل أبو جودة (مع حفظ الألقاب) وحميد فرنجيّه وحبيب ربيز والدكتور جورج حنّا وحسن البحصلي وعبد الله المشنوق ولا أنسى الرئيس عبد الله اليافي والرئيس رشيد كرامي الذي كان قليلاً ما يحضر من طرابلس فيزور مقرّي المعارضة: دارة آل سلام وشقيقته هي زوجة مالك سلام شقيق صائب، ودارة الحاج حسين العويني...

وكنت أعرّج أحيانًا على الشابّ المقاوم ابراهيم قليلات في محلّة الطريق الجديدة ـ طلعة أبو شاكر ـ تارةً للتحيّة وطورًا لإنقاذ بعض المخطوفين من أهلنا المسيحيين، وهذا واجبنا... وكان أبو شاكر لا يزال شابًّا في العشرينات من عمره يرخي لحيته ويعلّق قنبلة يدوية أو اثنتين في وسطه...

وكثيرًا ما كانت تنفجر عبوة ناسفة ونحن في الطريق من هنا وهناك فتطير بنا سيّارة معلّم الطباعة محرز زعيتر وهو من إخواننا أهل زغرتا أصلاً...

كنت في تلك الفترة من الزمن على تواصل شبه يومي مع زعيم ثورة الشوف، كمال جنبلاط. كان يرسل لي بين الحين والآخر تصريحًا أو مقالاً للتلغراف، كما كانت تمرّ بنا يوميًّا شاحنة صغيرة لنقل أعداد الجريدة لتوزّع في منطقة الشوف فتوضع الرزمة أو الرزم بين أكياس الطحين أوالحبوب التي تنقلها الشاحنة حتّى لا تصادرها قوى السلطة وهي في الطريق... وكان أركان المعارضة على اتّصال هاتفي دائم معي لتزويدي بكلّ جديد وطارئ...

ومن ذكريات تلك الأيام «الجميلة» المضحكة ـ المبكية أحيانًا، أني كنت مضطرًّا للتوجّه كلّ يوم إلى بكركي للقاء خالي توفيق اللاجئ هناك في حمى البطريرك صاحب المهابة الوقور والطلّة الفارعة البهيّة، فكان يسلّمني (أي خالي) بعض ما كتب ودوّن، وعندما أصل إلى بيروت أطالعها وأراجعها فأدفع ما ينطبق مع سياسة «التلغراف» ومنهجه إلى المطبعة وأُلقي بالباقي في سلّة المهملات، فيقابلني هو بالغضب عندما يطّلع على الجريدة فلا يجد في صفحاتها ما كتب... وذات يوم علا صوته في وجهي وكاد يهجم عليَّ فحضر البطريرك المعوشي وسأل: ما الخبر؟ فشرحت له الأمر فتوجّه إلى خالي بالقول: هالولد معو حقّ... الصحيفة مثل المرأة، إذا انحرفت وحادت عن الخطّ المستقيم طلعت ريحتها وكبرت مصيبتها!...

ثمَّ ربت على كتفي وقال: الهيئة ما عم تنام كثير. فقلت: قليلاً جدًّا يا سيّدنا... ثمَّ أضاف: كيف هالخوري «الأحمر» من صوبك... انتبه ما «يعديك»... (وكان الخوري منعم يلقّب بالأحمر، ويُتّهم بأنه منتسب إلى الحزب الشيوعي...).

* * *

اختطاف فؤاد حدّاد
والثورة المضادّة لإجهاض عهد فؤاد شهاب

«إنَّ الحلّ الناقص سوف يكون أساسًا لثورات، واضطرابات جديدة ضدّ النظام اللبناني في المستقبل»

كمال جنبلاط
(أيلول سنة ١٩٥٨)

كان من المفترض أن ينتهي عهد كميل شمعون في ٢٢ أيلول وأن يقسم الرئيس المنتخب اللواء فؤاد شهاب اليمين الدستورية يوم ٢٣ أيلول، كما درجت العادة والعرف... لكن ما حدث يوم الجمعة في ١٩ أيلول كان مفاجأة للجميع...

درجت الكتب والصحف والمجلاّت التي صدرت منذ ذلك التاريخ على القول: «اختطاف الصحافي فؤاد حدّاد» وهذا خطأ تاريخي بارز. فؤاد حدّاد لم يكن صحافيًّا عاملاً في الصحافة أو مسجّلاً على الجدول الرسمي للصحافة اللبنانية، فمن هو إذًا؟

هو نجل الأديبة حبّوبة حدّاد التي كانت تقدّم «برنامج الأطفال» من الإذاعة اللبنانية الرسمية. كان فؤاد موظّفًا رسميًّا في وزارة التربية الوطنية رتبته «رئيس دائرة الفنون الجميلة» ومقرّ عمله في وزارة التربية قرب قصر الأونسكو. صباح كلّ يوم يقصد فؤاد حدّاد أول شارع المعرض في بيروت (تحوّل اليوم إلى مطاعم ومقاهٍ في ما يسمّى الوسط التجاري) فيستقلّ سيّارة «سرفيس» تقلّه إلى مركز عمله ثمَّ يعود ظهرًا بالوسيلة ذاتها إلى منزله الكائن في أول حيّ السراسقة.

يوم ١٩ أيلول قصد فؤاد شارع المعرض وتوجّه إلى عمله، وظهرًا استقلّ سيّارة تاكسي لتعيده إلى منزله الكائن في أول شارع السراسقة في الأشرفيّة... لكن ما إن بلغت السيّارة التي كان يستقلّ المكان الذي كانت تقوم فيه المدرسة الإيطالية في شارع فردان (أي ما بين فندق البريستول وبناية الكونكورد حاليًّا) حتّى تقدّمت سيّارة التاكسي سيّارة من نوع «سيمكا» يستقلّها شابّان أشارا إلى السائق أن يتبعهما. ونظر السائق في المرآة فوجد سيّارة مرسيدس تتبعه ومن فيها يشير عليه أن يكمل سيره... وما أن بلغوا حديقة الصنائع حتّى

انحرفت السيّارة الأولى باتّجاه محلّة «الظّريف» وتبعتها السيّارتان الأخريان، وهناك تمّ إطلاق السيّارة التي كان يستقلّها فؤاد حدّاد مع سائقها، أما هو فنقل إلى سيّارة الخاطفين واختفى مع كلّ أثر له... لا جثّته وجدت، ولا أعلنت جهة ما عن مسؤوليّتها... وانتشرت يومها روايتان: الأولى تقول أنه نقل فورًا إلى دمشق، والثانية أنه تمّ اقتطاع أصابع يده اليمنى ولسانه... وتمّت تصفيته ودفنت جثّته في مكان ما...

أمّا لماذا اختطف فؤاد حدّاد؟ الجواب لأنه كان يكتب زاوية في أسفل العمود الأخير في الصفحة الأولى من جريدة «العمل» الناطقة بلسان حزب الكتائب، كان يوقّعها باَسم «أبو الحنّ»... وكان فؤاد قصير القامة «مروّس» الذقن، تلاميح وجهه تشبه إلى حدّ كبير وجه عصفور «أبو الحنّ» الصغير الحجم والقامة.

دأب فؤاد حدّاد على انتقاد الرئيس جمال عبد الناصر بشكل لاذع جدًّا وربّما غير مهذّب أحيانًا... كانت الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة قد أصدرت قرارًا يدين الجمهورية العربية المتّحدة بالتدخّل في شؤون لبنان بأكثريّة ٥٤ صوتًا... فكتب فؤاد حداد تعليقًا في زاويته في جريدة «العمل» تحت عنوان: «٥٤ بصقة في وجه عبد الناصر»... الأمر الذي أثار على الأرجح القوى الناصرية أو بعض أجهزة المخابرات التابعة لها فقامت بعمليّة الاختطاف التي تمّ استغلالها في ما يسمّى «الثورة المضادة»... وذهب بعض المحلّلين إلى القول إنَّ الحادثة ربّما تكون مفتعلة للقيام بما حدث بعدها، كما قيل في جريمة اغتيال نسيب المتني...

المهمّ أنَّ الأجواء تلبّدت بالكثير من الغيوم فدعا حزب الكتائب إلى الإضراب العامّ اعتبارًا من صباح يوم الاثنين ٢٢ أيلول وتضامن معه أنصار الرئيس شمعون والحزب القومي وكلّ المتضرّرين من انتخاب فؤاد شهاب... وجرت في ذلك اليوم تصادمات بين الفريقين وسقط قتلى وجرحى في شوارع العاصمة بيروت.

ويوم الثلاثاء ٢٣ أيلول أقسم فؤاد شهاب اليمين الدستورية وسط إعلان حالة الطوارئ ومنع التجوّل في شوارع بيروت...

قبل أسبوع من ذلك التاريخ نزل كمال جنبلاط لأول مرّة من المختارة إلى بيروت متوجّهًا إلى جونيه للقاء فؤاد شهاب في بيته. عرّج على منزل المهندس نديم مجدلاني، شقيق نسيم ونعيم الكائن في بناية ابتناها نديم وتطلّ على البحر في شارع الروشة. كان كمال بك قد اتّصل بنا لملاقاته إلى هناك، فوافيناه خالي توفيق وأنا... سأل عن أحوال الجريدتين واهتمّ

أكثر بالسؤال عن عائلة الشهيد نسيب المتني وأحوالها. وعندما وقف ليخرج إلى السيّارة طلب منّي أن أوافيه ليلتقيني بعد عودته من زيارة شهاب. كانت تواكب كمال جنبلاط قوة من الجيش اللبناني على رأسها ضابط اسمه أحمد الحاج وكان يومها برتبة ملازم أول أو نقيب. سار موكب جنبلاط باتّجاه جونيه وتوجّهت أنا إلى مقهى ومطعم دبيبوجث أنتظر عودته، ثمَّ رحت أتمشّى على رصيف كورنيش البحر حتّى عاد موكبه وصعدت إلى الطابق الرابع للقائه. سألته: كيف كان الاجتماع فقال: ممتاز جدًّا، ولقد بحثنا في الأوضاع العامّة وفي تشكيل الحكومة المقبلة (أول حكومة في عهد فؤاد شهاب)... وأضاف: شدّدت على ضرورة تمثيل المسيحيين الوطنيين... ثمَّ تكلّم هامسًا قال: رشيد كرامي سيكون رئيس الحكومة وسيكون فيها صاحبك وصاحبنا السودا وعندما سألته: ماذا تعني بالمسيحيين الوطنيين أجاب: المسيحي الوطني هو من قدّم ولاءه للوطن ولقضايا شعبه على ولائه للعصبيّة الطائفية التي كثيرًا ما تكون ضدّ مصالح الطائفة الحقيقية التي يدّعون الدفاع عنها. وأضاف: التعصّب هو نقيض الدين والتديّن، وهو أخطر مؤامرة على صيغة لبنان، وعلى رسالة لبنان وعلى وحدته الوطنية. ونشرت أنا هذا التصريح، اليوم التالي، في جريدة "التلغراف".

يوم الأربعاء ٢٤ أيلول أعلن رشيد كرامي من الإذاعة الرسمية عن تشكيل حكومة من ثمانية وزراء برئاسته وتوزّعت حقائبها على النحو الآتي: رشيد كرامي رئيسًا للحكومة ووزيرًا للداخلية وللدفاع الوطني، فيليب تقلا وزيرًا للخارجية، يوسف السودا وزيرًا للعدل وللشؤون الاجتماعية، شارل حلو وزيرًا للاقتصاد والإنباء، محمّد صفيّ الدين وزيرًا للتربية والصحّة، رفيق نجا وزيرًا للمالية، فريد طراد وزيرًا للأشغال العامّة والتصميم وفؤاد نجار وزيرًا للزراعة وللبرق والبريد. وقدّم كرامي حكومته على أنها حكومة الإصلاح والوحدة الوطنية، وختم كلمته بالقول: "تعالوا معًا نقطف ثمار الثورة"...

قامت القيامة ولم تقعد، خصوصًا وأنَّ كمال جنبلاط كان قد أدلى بتصريح قال فيه: إنَّ الثورة الشعبية قد انتصرت؛ وتألّب كلّ خصوم الإصلاح ومحاسبة الفاسدين في دوائر الدولة وأجهزتها وبين السياسيين على الأخصّ... وتحرّكت كلّ الدوائر الأجنبية التي لا تحبّ أن تسمع لا بالثورة ولا بثمار الثورة، فأقيمت المتاريس في شوارع العاصمة الرئيسية ووضعت بعض الحجارة في محلّة المتحف والتباريس ـ الناصرة والصيفي وسواها، وذكر يومها أنَّ بعض دوائر المكتب الثاني في الجيش والأمن العامّ والدرك الموالية لشمعون شاركت في وضع الحجارة... كما لم تبادر إلى رفع أيّ منها من الشوارع... وتولّى بيار

الجميّل التصريح يوميًّا فدعا إلى استقالة الحكومة وإلى تأليف حكومة على أساس «لا غالب ولا مغلوب» وكان شمعون يؤيّده ويحرّضه... وجرت بعض أعمال الخطف على الهويّة في قسمي بيروت الشرقي والغربي لإضفاء الطابع الطائفي على مجريات الأمور... وفي بكفيّا هاجم كتائبيون منزل الوزير يوسف السودا واتّهموه بالخيانة لأنه شارك في حكومة رئيسها رشيد كرامي من زعماء الثورة الشعبية، وأهانوا الرجل التاريخي وضربوه بعد أن رفض توقيع كتاب استقالته، ثمَّ وضعوه في سيّارة «فان» مكشوفة وراحوا يتلون من حوله أناشيد الجنّاز التي تقال للميّت (أي جنّزوه وهو حيّ)... لكنَّ الرجل الكبير الذي كان في ملامح وجهه الكثير من صلابة صخور صنين المطلّ على بكفيّا صمد وتحمّل الإهانة والمهزأة في عقر داره إلى أن أرسل كمال جنبلاط سيّارتين من الرجال تولّتا مواكبته ليلاً إلى منزله في بيروت الكائن يومها في محلّة «عصور» فوق ساحة رياض الصلح، في مبنى أثري ابتناه الأديب الكبير الشيخ ابراهيم اليازجي وأقام فيه...

(كان ابن شقيقة يوسف السودا المحامي سامي نصّار عضوًا ناشطًا في الحزب التقدّمي الاشتراكي، وفي مصلحة الطلاّب يومها إلى جانب شكيب جابر وسواه. وكان قد انتسب إلى الحزب عدد لا بأس به من أهالي بكفيّا من عائلات الجميل وقزح وسواهما، ولعلّ أبرزهم سليم القزح الذي تولّى في ما بعد مهمّات قيادية في الحزب ومنها أمين السرّ العامّ للحزب التقدّمي الاشتراكي. وخلال أحداث ١٩٥٨ قام سليم بإخفاء أرشيف الحزب وملفّاته السرّية في قبو تابع لدير «سيّدة النجاة» للآباء اليسوعيين في بكفيّا، وكان يرأسه شقيقه الأب التقدّمي مكرم القزح).

وفي اليوم التالي لنزوله إلى بيروت توجّه الوزير يوسف السودا إلى مكتبه في وزارة العدل، في مبنى السراي القديم، فاستدعى مدّعي عامّ التمييز إميل الهنود وطلب منه فتح ملفّ التحقيق في استشهاد نسيب المتني، كما طلب وضع الآليّة القانونية للبدء في تطبيق قانون الإثراء غير المشروع «من أين لك هذا» وفي مقدّمة الأسماء التي وضعها السودا وسلّمها للمدّعي العامّ التمييزي اسم كميل شمعون وعدد من كبار معاونيه...

اتّخذ كمال جنبلاط من تلك الحركة ـ الردّة موقفًا حاسمًا وأدلى بتصريحات أكّد فيها أنَّ الرئيس السابق كميل شمعون هو محرّك الثورة المضادة... وأعلن جنبلاط أنَّ السلطة الشرعيّة ملزمة استخدام القوّة لقمعها. وخاطب الرئيس شهاب قائلاً: يكفي لحقن الدماء

وضبط الأوضاع مئتين أو ثلاثمائة جندي مع عدّة آليّات لوقف هذا التدهور المسيء في أوضاع البلاد. وناشد بيار الجميّل التخلّي عن مؤامرة الردّة الشمعونية ـ الأجنبية... واقترح كمال جنبلاط على الرئيس شهاب أنه وفي حال حجب الثقة عن حكومة رشيد كرامي أن يلجأ إلى حلّ مجلس النوّاب وتأليف حكومة وطنية تخوّل حقّ إصدار القوانين حتّى انتخاب مجلس نيابي جديد...

أمّا رئيس الحكومة رشيد كرامي والذي تولّى حقيبتَي الداخلية والدفاع والذي كنّا نزوره يوميًّا في منزله المتواضع في محلّة زقاق البلاط فكان يردّد في مجالسه الخاصّة: قلنا يوم استقلنا في عهد شمعون أنَّ الحكم يمشي بكبسة زرّ، وأثبتت التجربة يومها أنَّ هناك من كان يكبس الزرّ في مكان آخر (وكان يقصد الرئيس شمعون) أمّا في هذه الأيام الكالحة السوداء فيبدو أنَّ العمليّة تتكرّر ولكن بشكل آخر... بالأمس كان الزرّ يكبس من فوق، أمَّا اليوم فهو يكبس من الزنار وما تحت الزنار... وكان يقصد بكلامه العقيد أنطون سعد رئيس المكتب الثاني الذي بدأ كرامي يشكو باكرًا من تدخّلاته لغير مصلحة الحكومة...

وسارت الأمور في اتّجاه آخر ومنحى آخر... أخذ صائب سلام الذي كان على علاقة وثيقة بالسفير الأميركي ماكلنتوك يرفع شعار «لا غالب ولا مغلوب» كحلّ للخروج من الأزمة، والحاج حسين العويني، المقرّب من السعوديين يتحدّث عن صوابيّة مقولته: «هيك وهيك»، فعاد كمال جنبلاط إلى الكلام فوصف هذا الشعار بأنه أسخف نظريّة تفتّقت عنها مخيّلة بعض الذين يحلمون بإعادة الأمور إلى سابق عهدها... وحذّر كمال جنبلاط من **أنَّ الحلّ الناقص سوف يكون أساسًا لثورات واضطرابات جديدة ضدّ النظام اللبناني**، فكان في موقفه ذاك، كما كان أبدًا، صاحب الرؤية المستقبلية التي لا تخطئ...

وراح كمال جنبلاط، في مجالسه الخاصّة، يهزأ من هذه الشعارات ومن مطلقيها، ويقول بوجوب البحث عن خلفيّاتها، وما الذي تعنيه في الحقيقة... مذكّرًا بقول كونفوشيوس الشهير: «إنَّ العالم لا يحتاج إلى شيء مثل حاجته إلى قاموس جديد يحدّد معاني الكلمات»...

ويوم توجّه رشيد كرامي إلى جونيه لتقديم استقالة حكومته الأولى في عهد الرئيس فؤاد شهاب (لم تعمر أكثر من ٢٠ يومًا) قال كمال جنبلاط جملته الشهيرة: «إنَّ عهد اللواء الأمير فؤاد عبد الله حسن شهاب قد انتهى قبل أن يبدأ».

الوزير الوحيد الذي قصد في اليوم التالي منزل فؤاد شهاب في جونيه كان الرجل التاريخي يوسف السودا الذي وصف ذات يوم بأنه "رمز العنفوان اللبناني" فخاطب الرئيس العسكري قائلاً: ما هكذا تدار شؤون البلاد يا فخامة الرئيس اللواء... أنا أرفض أن أتقدّم باستقالتي إلاَّ أمام مجلس النوّاب فأشرح الأسباب ثمَّ أطرح الثقة بشخصي فتأخذ اللعبة الديمقراطية مجراها الصحيح... لكنهم ردّوا عليه فقالوا: السودا دخل في مرحلة "الخرف"...

وتطبيقًا لسياسة التسويات والمساومات وأنصاف الحلول، وكلّ الضغوط الأجنبية الهادفة إلى إجهاض الثورة الوطنية وأهدافها الإصلاحية وإلى تحجيم عهد فؤاد شهاب وتحديد مساراته، تمّ تشكيل حكومة رباعية تضمّ اثنان من المسلمين هما رشيد كرامي وحسين العويني واثنان من المسيحيين الموارنة هما ريمون إدّه وبيار الجميّل... وجيء بالمطربة الشهيرة صباح فألّفوا لها ولحّنوا أغنية راحت الإذاعة اللبنانية تكرّرها أكثر من عشر مرّات يوميًّا ومطلعها: "يسلمولي الأربعة، الطلّوا يوم الأربعاء"... وكانت حكومة كرامي هذه قد أبصرت النور يوم الأربعاء ١٥ تشرين الأول ١٩٥٨...

... وكرّت سبحة التنازلات والعودة عن مسلّمات الإصلاح: العفو عن جرائم الحرب (وسموا الثورة الوطنية حربًا أهلية ربّما وكالعادة...) بما فيها جريمة اغتيال نسيب المتني وجريمة خطف الأديب فؤاد حدّاد وإخفائه... والعفو عن سرقات كبار السارقين والمرتكبين والذين أعادوا لبنان إلى عهد الاحتلال الأجنبي... وإذا كان يقال : "العفو من شيم الكرام" فهو في حكم الدول والتقرير في مصائر الشعوب يعتبر تهاونًا واستهتارًا بكلّ القيم والحقوق والكرامات...

ولأنَّ كمال جنبلاط لم يكن نائبًا، في تلك الفترة من التاريخ، وبعدما "انفخت الدفّ" وتفرّق عشّاق الثورة الوطنية ورجالاتها... ولأنَّ الزعيم التقدّمي المشبع علمًا وثقافة وتأمّلاً في أعماق الأحداث آمن ويؤمن بأنَّ الحاجة الرئيسية التي يحتاجها لبنان لتستقرّ مسيرته على طريق بناء دولته ومجتمعه وتحصين ديمقراطيّته وتقدّمه، وهي وجود رأي عامّ سياسي وشعبي فاعل وقادر، فقد لجأ إلى إلقاء المحاضرات التي أصبحت شبه دورية ولا سيَّما في الخليّة الاجتماعية في محلّة البسطة التي أنشأها عبد الله المشنوق بأموال السعودية، وفي النادي الثقافي العربي، وفي زيارته لأحياء العاصمة بيروت ومنتدياتها، شارحًا حقيقة الثورة اللبنانية

التي قامت عام ١٩٥٨ في مواجهة حكم الانحراف والفساد والطغيان واصفًا حكومة صباح الرباعية بأنها تمثّل الانقسام الطائفي البغيض وهي نوع من العودة إلى نظام القائم مقاميّتين الذي أنشأه الحكم العثماني: قائمقاميّة النصارى وقائمقاميّة المسلمين.

شدّد كمال جنبلاط في محاضراته على أنَّ ثورة ١٩٥٨ قد أبرزت عن إرادة الشعب اللبناني وطموحه إلى تصفية نظام الطائفية السياسية والانتقال إلى بناء مجتمع مدني ودولة قادرة على تحقيق الإصلاح السياسي والإداري والقضائي وعلى تنفيذ مبادئ الديمقراطية والعدالة الاجتماعية... وحذّر من مغبّة التلكّؤ في اتّخاذ تدابير حاسمة بحقّ الرئيس السابق كميل شمعون الذي عاد إلى الظهور في البلدات والمجتمعات المسيحية يرافقه حرّاس مسلّحون فأظهر نفسه بمنظر الحمل الوديع الذي اضطهده المسلمون لأنه دافع عن حقوق المسيحيين؛ وكان جنبلاط يطالب بمحاسبته ومحاكمته على ما ارتكبه خلال عهده في حقّ الشعب اللبناني من مظالم ومفاسد وعلى الأخصّ أنه سلّم عهد الرئيس فؤاد شهاب وطنًا ممزّقًا مشلّعًا مرهقًا بالمآسي والفتن الطائفية ودنّسه في نهاية عهده باستدعاء الجيوش الأميركية لحماية كرسيه ولتتحوّل إلى جيش احتلال ووصاية بكلّ ما في هذه الكلمة من معاني... وكان المسيحيون المضلّلون، وعلى الأخصّ الموارنة منهم قد استقبلوا انتخاب فؤاد شهاب رئيسًا للجمهوريّة بقرع أجراس الكنائس حزنًا، وظلّت هذه العقدة النفسية ترافق الأمير اللواء الرئيس طوال عهد حكمه، بل طوال حياته، وهو الرجل الآتي من الطائفة السنّية إلى الطائفة المارونية واسم جدّه لوالده حسن... وكان كميل شمعون، وقبل نزوله من سدّة الرئاسة بأربعة أيام قد أعاد الترخيص للحزب القومي السوري بالعمل علنًا وجهارًا بعد أن كان هذا الحزب قد حلّ إثر أحداث تموز ١٩٤٩ وإعدام زعيمه أنطون سعادة رميًا بالرصاص، فردّ كمال جنبلاط بوجوب التنبّه لنشاطات الحزب القومي التي عادت إلى العلن وإلى عمليّات التسلّح التي يمارسها مع بعض أنصار شمعون، التي قد تكون تمهيدًا للقيام بانقلاب في القريب من المقبل الآتي... وقد صدق حدسه في هذا المجال أيضًا وأيضًا...

ودأب كمال جنبلاط في مقالاته وتصريحاته على الدعوة إلى تحقيق الإصلاح الإداري والقضائي وإلى فصل الموظّفين الذين ظلّوا على ولاء وارتباط بالرئيس شمعون، وإلى قطع دابر دوائر المخابرات الأجنبية التي قدّمت المال والسلاح إلى المنظّمات اللبنانية التي مارست سرًّا إعداد وتغذية النزاعات الطائفية...

ولمّا يئس من أيّ إقدام للسلطة في هذا المجال أعلن أنَّ كلَّ ما يجري في بلادنا لا يتجاوب مع روح العصر... ففي النصف الثاني من القرن العشرين حيث تجري في كلّ مكان عمليّة توحيد الناس في اتّجاه التضامن البشري والإنساني وقيم الحقّ والعدل والحرّية، فإنَّ النظام الطائفي الانعزالي المتبقّي في لبنان يبدو أنه تركة عفا عليها الزمن، وهذا الإرث الثقيل الظلّ يعيق تطوّر البلاد ويعيدنا إلى الوراء...

مكّن كميل شمعون في عهده الموارنة وعلى الأخصّ الذين يدينون بالولاء له من القبض على كلّ مفاتيح الدولة ووظائفها الرئيسية. فرئيس الجمهوريّة كان مارونيًّا، وقائد الجيش مارونيًّا، ورئيس أركان الجيش كاثوليكيًّا (توفيق سالم)، ورئيس مجلس القضاء الأعلى مارونيًّا، ومدّعي عامّ التمييز مارونيًّا، ومدير عامّ وزارة الخارجية مارونيًّا، ومدير عامّ وزارة الداخلية مارونيًّا، ومدير عامّ رئاسة الجمهوريّة مارونيًّا، ومدير عامّ وزارة العدل مارونيًّا وقائد الدرك مارونيًّا ومدير عامّ الأمن العامّ مارونيًّا ومدير عامّ الجمارك مارونيًّا، ورئيس الشعبة الثانية (المكتب الثاني) في الجيش مارونيًّا، ومدير عامّ الأحوال الشخصيّة مارونيًّا ومحافظ جبل لبنان مارونيًّا وقائممقام الشوف مارونيًّا ومدّعي عام جبل لبنان مارونيًّا ... إلخ... إلخ.

ولكن ماذا أفادت الطائفة المارونية من كلّ ذلك؟ وماذا أصاب مناطقها وبلداتها من عمران وتنمية وخدمات؟

النتيجة لم تكن لا شيء على هذا الصعيد وحسب... بل إنَّ طريقة ممارسة العديد من هؤلاء لوظائفهم واستغلالها للمنافع الخاصّة وللإثراء غير المشروع وللقفز على القوانين، أساء في الحدّ الأقصى إلى هيبة الطائفة وجرّ عليها الويلات والنكبات. وكانت من نتائج السياسات الحزبية الضيّقة والتحريض والاستفزاز حدوث مجازر بين الفلاّحين أو ما يسمّى (الأهالي) في بلدة العاقورة وبين المشايخ من آل الهاشم الذين كانوا يمتلكون في ذلك العهد معظم الأراضي، كما وقعت أكثر من جريمة في بلدة زغرتا وجوارها تكلّلت بمجزرة مزيارة بين آل دويهي وآل فرنجيّة ومعوّض وأنصارهما وانتهت بملاحقة سليمان فرنجيّه ورينه معوّض والعشرات من العائلتين. وقد تولّت سيّارة من الجيش قادها يومها النقيب أنطون سعد نقل سليمان فرنجيّه ورينه معوّض إلى اللاذقيّة في سوريا حيث أقام فرنجيّه عند آل الأسد، ويقال عند والد حافظ الأسد بالذات في القرداحة بصافيتا ونشأت بين العائلتين منذ ذلك الوقت علاقات صداقة يمكن أن توصف بالعائلية...

وكان مدّعي عامّ التمييز فرنان أرسانيوس قد طالب أمام المجلس العدلي بإنزال عقوبة الإعدام بحقّ كلّ من سليمان قبلان فرنجيّه ورينه معوّض ومعهما أكثر من عشرة زغرتاويين... وأذكر أنني كنت في تلك الفترة من الزمن أتابع دراسة الحقوق وأعمل كمندوب قضائي لجريدة «التلغراف» في دوائر وزارة العدل، وخلال محاكمة المتّهمين أمام المجلس العدلي برئاسة القاضي بدري المعوشي، جاء الأب سمعان الدويهي (الذي صار في ما بعد نائبًا) للإدلاء بشهادته فراح يتّهم سليمان فرنجيّه شخصيًا بأنه حاول قتله بواسطة مسدّسين اثنين شهرهما داخل كنيسة مزيارة، وراح الأب دويهي يكيل الاتّهامات لعدد من المتّهمين الواقفين في قفص الاتّهام، وإذ بواحد من هؤلاء القبضايات ويدعى حنّا الصيصا يقف ويصرخ بأعلى صوته مخاطبًا الدويهي قائلاً له:

ـ اكذب يا قسّيس، اكذب... اليوم مزرابكم عمّا «يونتر»، لكن لا بدّ ما يجي يوم مزرابنا «يونتر» فيه... ومنأرجيكم!

فضرب رئيس المجلس العدلي بمطرقته على القوس، وهدّد بسجن الصيصا مضاعفًا وبإخراجه من القاعة، فتوقّف القبضاي الزغرتاوي عن الكلام غير المباح...

وانفجرت في عهد شمعون أزمة ما سمّي «الدعارة السرّية» العلنية وفضيحة القوّادة «عفاف» وحماتها... ونشرنا نحن في «التلغراف» تحقيقًا شاملاً واقعيًا لما يجري في بناية الطوابق الأربعة غربي فندق «البريستول»، تحت حماية مراكز قوى معروفة في السلطة...

واتّسعت الحملة فراحت الحكومة والعهد تحثّ القضاء على محاولة امتصاص النقمة الشعبية بتقديم رأس مسؤول ما على طبق من فضّة لإرضاء الرأي العامّ ولو جاء على طريقة «سالومي» وقطع رأس يوحنّا المعمدان... وكان في داخل قصر العدل شبكة أو سلسلة تتولّى الحماية والتغطية، تبدأ في داخل النيابة العامّة الاستئنافية وتمتدّ إلى قاضٍ منفرد كان يمتّ بصلة نسب إلى الرئيس، وإلى رئيس محكمة استئناف كان يتمتّع بحمايته ورعايته. واشتدّت الضغوط على مجلس القضاء الأعلى الذي كان يرأسه القاضي بدري المعوشي، والذي راح يؤجّل بتّ الموضوع لأنه يدرك، وفي ظلّ الضغوط المتمادية والمتعاظمة، أنه لن يتمكّن من تحقيق العدالة المجرّدة. وإزاء إصرار المراجع العليا ورئيس الحكومة سامي الصلح، الذي كان يحمي قاضي النيابة العامّة، طرح الموضوع على التصويت وتمّت «البزرة» على أن يُقدّم رأس المدّعي العامّ الأورثوذكسي الكوراني الذي لا يتمتّع بدعم أو بحماية فاعلة. لكنَّ ممثّل

الطائفة الأرثوذكسية في مجلس القضاء الأعلى، وكان قاضيًا من بيروت رفض الانصياع وإحناء الرأس أمام الضغوط مهما عظمت... فقد كان ذو علم ونزاهة ومهابة... وعندما أصرّوا صوّت ضدّ القرار وامتنع عن التصويت ممثّل الطائفة الدرزية فأُخذ القرار بالأكثرية... وجاءت العدالة منقوصة وربّما متجنّية، وتمّ التشهير بقاضٍ محترم لم يُعرف عنه لا انغماسه بالموبقات ولا حبّه للمال أو للظهور... وهكذا كانت كرامات الناس تُداس حتّى لو طالت من يفترض بهم الحفاظ على حقوق الناس وعلى حرّياتهم وعلى كرامتهم الإنسانية...

* * *

محاضرات... وتكريم شهداء

"الحياة في أصالة تحقّقها ثورة دائمة لا تتوقّف. لذا
كن ثائرًا على الدوام... النصر لشعب لبنان"

كمال جنبلاط

"في كلّ موقف وقضيّة ومواجهة غالب ومغلوب:
الغالب هو الحقّ والمغلوب هو الباطل.
الغالب هو الإصلاح والمغلوب هو الفساد.
الغالب هو الوحدة الوطنية الشعبية والمغلوب هو
الفتنة والعصبيّة الطائفية والخيانة العظمى"

كمال جنبلاط
(١٩٥٨ ـ ١٩٥٩)

في هذا الوقت الضائع انصرف كمال جنبلاط إلى اهتمامين: المحاضرات وتكريم الشهداء. مجموع المحاضرات التي ألقاها في تلك الفترة من الزمن جمعها في كتاب أسماه: "حقيقة الثورة اللبنانية" وفنَّد فيه مقولة اللاغالب واللامغلوب فاعتبرها نوعًا من المنطق المعكوس ومن الهرتقة والانتقاص من شهادة الشهداء وتضحيات المضحّين...

ففي كلّ موقف وقضية ومواجهة غالب ومغلوب جسّدها كمال جنبلاط في مقال للأنباء تحت عنوان: "بلى: هناك غالب وهناك مغلوب" وجعلت منه أنا العنوان الرئيسي للعدد الذي صدر بالخطّ العريض والفمّ الملآن... الغالب هو الحقّ والمغلوب هو الباطل. الغالب هو الإصلاح والمغلوب هو الفساد. الغالب هو الوحدة الوطنية الشعبية والمغلوب هي الفتنة والعصبية الطائفية والخيانة العظمى التي ارتكبها من جرّ جيوش المعتدين إلى تدنيس أرض الكرامة والبطولات.

وكأنّي بالشاعر اللبناني الكبير، ابن بلدتنا الدامور وديع عقل قد اختصر هذا العنوان في بيت شعر له إذ قال:

واخلع نعالك قبل دوس ترابه   فتراب لبنان رفات رجاله

ولأنَّ كمال جنبلاط وفيّ للشهادة ولما تمثّل من قيم الرجولة والكرامة والفداء إذ إنَّ السيِّد المسيح قال: «ليس أعظم من أن يبذل الإنسان نفسه فداء عن أحبّائه...» فقد اتّخذ قراره بتكريم شهداء انتفاضته وثورته على الظلم والطغيان، والفساد والانحراف، بإقامة مقرّ لرفاتهم على منبسط من الأرض اختار له منطقة بقعاتا الشوف، وكانت حينذاك خالية من أيّ بناء، ولم تتحوّل بعد كما هي الحال الآن إلى سوق تجاري يعجّ بالمحال الحديثة الملأى بشتّى أنواع سلع الاستهلاك ومن حضارة الاستهلاك التي كان يخشاها ويحذّر من أن تجتاح كلّ شيء.

وكنت أرافقه أحيانًا إلى هناك حيث كان يحضر الفنّانان المبدعان: رسمًا ونحتًا، الصديقان عارف الريّس ووهيب البتديّني اللذان شاركا كمال لجنبلاط في تصميم المشروع وفي الإشراف على تنفيذه، وقد قام به فريق من المهندسين والبنّائين والنحّاتين ينتمون إلى مختلف العائلات الروحية في لبنان... وقد نقشت أسماؤهم على لوحة حجرية... وفي شرح للوحة الشهداء وضعه كمال جنبلاط ضمن كتيّب صغير يتبيّن التالي: على مدخل الواحة، المفتوحة للزائرين مجّانًا، عمودان مضلّعان ثمَّ بحيرة صغيرة مستطيلة يليها مجسّم نسر كبير من الصخر يبسط جناحيه على مداها ويُلقي رأسه على قاعدة بين مجسّم منحوت بشكل بيضة كبيرة ترمز إلى تجدّد الحياة واستمرارها من جهة، وعمود منحوت بشكل شمعة، رمز النور الداخلي والتأمّل من الجهة الثانية. وعلى القاعدة ذاتها قبّة تظلّل مجسّمات لحكماء ومتصوّفين، وهرم صغير مخمّس الأضلاع على كلّ ضلع منه كلمة «أحد»، وفي عمق الواحة مسلّة عالية يتوّجها هرم صغير...

كما تواجه الزائر على المدخل لوحة صخرية نحت في قلبها وجه جمال عبد الناصر وخلفه، وعلى مدار المدافن والنصب، ركّزت مجسّمات مدافع حجرية... وبين الأضرحة توزّعت رموز دينية. فهناك رمز للسيِّد المسيح والصليب، ورمز للقرآن الكريم، ورمز الموحّدين الدروز.

وهناك وصيّة لافتة كتبها كمال جنبلاط وحُفرت على صخرة، ونصّها هو الآتي: «أيّها المارّ في هذا السفح الذي شاهد على كرّ قرون التاريخ ثورات الجدود من أجل الحرّية والاستقلال والشرف والكرامة تذكّر: إنّنا ناضلنا وحاربنا واستشهدنا لأجلك ولأجل تحرير بلادك من الطغيان ومن الفساد والاستعمار، ولتقويم الانحراف الخارجي، وللقضاء على

الخيانة، ولصيانة السيادة الوطنية والعروبة والدستور والقانون، ولتوطيد مبادئ الحرّية والأخوّة والعدالة، ولتدعيم الوحدة الوطنية... وإنّنا انتصرنا في ثورة شعبية شاملة كان القطاع الأوسط في الشوف طليعتها ومحورها وأملها.

«التضحية والاستشهاد في حياة الأمم؛ شهادة كفاح ودافع استمرار ومحور تقدّم وبقاء... والحياة في أصالة تحقّقها ثورة دائمة لا تتوقّف. لذا كن ثائرًا على الدوام... النصر لشعب لبنان...».

تحوّل المكان إلى مزار يقصده كلّ الذين يحبّون أن يستقرئوا التاريخ ويفيدوا من عبره، ويكرّموا الشهادة والشهداء الذين لم يبخلوا بدمائهم من أجل تحرير وطنهم وتحقيق المستقبل الأفضل لأبناء شعبهم...

ولكن أيّ مستقبل أفضل يكون إذا لم تسُد سيادة القانون، نصًّا وروحًا، وإذا لم يُساءل ويُحاسب كلّ الذين أفسدوا وطغوا واستبدّوا، وسرقوا مال الشعب فأثروا على حساب غده الأفضل، وأثاروا الفتن والعصبيّات الطائفية... وانتهى بهم الأمر إلى استجلاب جيوش الغرب لحماية ما تبقّى من كرسيهم التي نخرها سوس الخيانة والانحراف وعفنه...

كان كمال جنبلاط يسأل ويتساءل، وهو يزرع هذه الواحة المباركة، جيئة وذهابًا: هل كان من الضروري أن يستشهد كلّ هؤلاء الأبطال من أجل أن يأتي صاحب «الهيك والهيك» (الحاج حسين العويني) والشيخ بطرس (بيار الجميّل) والعميد (ريمون إدّه) وأفندي طرابلس (رشيد كرامي)؟!

لقد اعتمدت الحكومة الرباعية: حكومة القائمقاميتين التي أعادتنا إلى نظام حكم يعود في جذوره إلى نظام ١٨٦٤ الذي أنشأه الحكم العثماني، فحوّل الطوائف والمذاهب إلى «أحزاب» طوائفية مذهبية، ووزّع الناس والبشر إلى أجناس مختلفة (منها درجة أولى ومنها درجة ثانية وثالثة) فلم يعد عندنا ثمّة مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات، بل قطعانًا من الغنم والماعز لا تشعر، كما يتوجّب، بوحدة الوطن، بوحدة العيش، بوحدة الصيرورة والمصير بحيث يكاد لبنان يتحوّل ويبدو وكأنّه اتّحاد فدرالي بين الطوائف والمذاهب، أكثر منه دولة في المعنى الصحيح والسليم...

اعتمدت حكومة الأربعة النصفيّة والمساومات، فأصدرت قانون عفو عامّ ساوى

المجرم بالبريء والخائن بالوطني، والصادق بالكاذب، والشريف النزيه بالسارق والمرتكب... فضاعت القوانين والمبادئ وديس الدستور... والنصفية والتسويات الناقصة لا تؤسِّس وطنًا ولا تبني دولة... بل إنّها تقود إلى المزيد من الشرذمة والشعور بالغبن وتؤدّي في النهاية إلى بعث روحية الاختلاف وإثارة الفتن وإبراز التناقضات... فيضمحلّ الشعور بالوحدة الوطنية وتبرز فكرة إقامة الدويلات الصغيرة... وهي كلّها معدّة لخدمة «إسرائيل» ومخطّطها التفتيتي للمنطقة العربية بأسرها... والكلام هنا هو لكمال جنبلاط وليس لنا بالطبع...

* * *

«الأنباء»... والأهواء...
وعاديات الزمان...

«الأنباء» قطعة من ضمير شعبنا ورأس حربة النضال الوطني الجامع»
«إنَّ الثورة اللبنانية جعلتني أكثر عروبة ممّا كنت عليه من قبل، أي أكثر تحسّسًا بالتضامن العربي، بالواقع العربي، ولكن في الوقت ذاته أكثر لبنانية، أكثر تعلّقًا بلبنان وباستقلاله كما برز من خلال المحنة والتعاضد العربي والثورة»

كمال جنبلاط

في ذلك الوقت كنت أنا قد تسلّمت مسؤولية «الأنباء»، وتحوّلت خلال أسابيع إلى مدير لتحريرها ومدير مسؤول لها ومدير إدارة، ومحرّر، ومصحّح ومسوّق إعلانات واشتراكات، وكلّ ما يلزم... ويتبع!

سألت أمين صندوق الحزب وأمين صندوق «الأنباء» صديقي وزميل الدراسة لي في معهد الحكمة بالأشرفية عفيف الهشّي عن الاشتراكات والمشتركين في الجريدة فأجابني: ليس لدينا شيء واضح في الموضوع. نحن لا نعرف من سدّد الاشتراك ولا مَن يسدّد. فانكببنا على تنظيم الموضوع. طبعنا قسائم لتحمل أسماء المشتركين ولنعرف من هم المنضبطون منهم وغير المنضبطين وتوجّهت إلى كمال بك وسألته أن ينقل الجابي السابق إلى وظيفة أخرى في سبلين أو سواها فاستجاب. ثمَّ عهدت بالجباية إلى الموظّف الهمّام حسيب الديبيسي وكذلك بمهمّة التوزيع: توزيع الرزم وتسليم أعداد الجريدة إلى «المتعهّد» كما كان يُسمّى ولم تكن ثمّة بعد شركات منظّمة لتوزيع المطبوعات فتوجّهت إلى مكتب المتعهّد في محلّة الخندق الغميق (كان اسمه أبو علي حمّود من الجنوب) وعقدت معه اتّفاقًا خطّيًا واضحًا بذلك. ثمَّ توجّهت إلى المطبعة وإلى الزنكوغراف (إدفا) وإلى تاجر الورق (الحاج عدنان الطرابيشي) فتحفّظوا على التعاون معنا، فتعهّدت لهم شخصيًّا بأنني أنا من سيسدّد كلّ الفواتير... ووقّعت تعهّدًا خطّيًا بذلك، فقبلوا. ثمَّ عهدت بكتابة خطوط الجريدة (العناوين) إلى الخطّاط المبدع محسن فتوني. وبدأنا نسدّد كلّ المتوجّبات على الوقت وقبل الوقت أحيانًا. وراح حسيب يوزّع الشيكات المصرفية كلّ شهر، الموقّعة منّي ومن عفيف إلى كلّ هؤلاء...

وافتتحت مرحلة تسويق الإعلانات فقمت بزيارة شركة طيران الشرق الأوسط (نجيب علم الدين) وشركة موارد الشرق الأدنى (سليمان علم الدين) وشركتي نجّار، ومصرف أنترا وشركة كازينو لبنان وعقدت معها اتّفاقات سنويّة لنشر إعلانات في « الأنباء»... ثمَّ بدأت أتوجّه ناحية كبار التجّار (فتال وكتانة وأبو عضل وفرعون وسواهم)... ثمَّ رحت أستدعي الموظّفين المسؤولين في شركات الإعلان يومها (سنيب وفرعون ومدام بسول وحتّي ونوّار وسواها) وأغريهم بدفع عمولات خاصّة مقابل إمدادنا بالإعلانات أسبوعيًّا للأنباء جاءت أوّلاً من الاحتياط. وأصبحت في السنوات التالية مدوّنة في صلب موازناتها السنوية. ولا أنسى هنا الأصدقاء آل عسّاف (لا سيّما الشيخين الكريمين توفيق وأنيس في بنك بيروت والبلاد العربية وشركة بيبسي كولا). وعندما عقدنا في ما بعد اتّفاقًا خطّيًّا مع إحدى شركات الإعلان لتسويق الإعلانات لحساب «الأنباء» صار عفيف الهشّي، أمين الصندوق المركزي للحزب وللأنباء يتوجّه إلى مكتب الشركة لإجراء المحاسبة وتسلّم شيك بريع الإعلانات نهاية كلّ شهر.

ثمَّ توجّهت إلى بعض السفارات العربية لتأمين اشتراكات سنوية منتظمة للأنباء مع دولها وحكوماتها. وأذكر جيِّدًا أنه يوم اصطحبني كمال جنبلاط إلى منزل سفير مصر اللواء عبد الحميد غالب في شارع ڤردان سألني السفير اللواء: كم تريدون في الشهر؟ فأجبته: لسنا من هذا النوع ولا نحن في هذا الوارد... أنتم في حاجة إلى كمّية من أعداد الجريدة أسبوعيًّا لدوائر رئاسة الجمهورية ولوزارة الإعلام عندكم (كان اسمها وزارة الإرشاد القومي) ولغيرها من وزارات ودوائر الدولة. ونحن على استعداد لتأمين هذه الأعداد إلى سفارتكم مساء يوم إصدار الجريدة مقابل أن نقبض بدلات اشتراكاتها بالمهل والوسائل التي تريحكم... و «صفّر» اللواء غالب وقال: يبدو أنك من طراز جديد غير الآخرين! وعلّق كمال بك ـ صحيح... ما قلتلّك يا عمّي...

بعدها صار اللواء غالب يستقبلني شخصيًّا في مكتبه في السفارة مرّة في الشهر، وأحيانًا أكثر من مرّة فأتسلّم منه مبلغ الاشتراك المحدّد بموجب إيصال كان ينظّمه بخطّ يده... فيما كان كبار الزملاء الصحافيين يتوجّهون إلى مساعد الملحق الصحافي في السفارة أنور الجمل ليقبضوا جعالات شهرية لا بدلات اشتراكات...

... وهكذا، وخلال أشهر قليلة من تسلّمي لمسؤولياتي في «الأنباء» كنّا نتوجّه بالجريدة

نحو تأمين الاكتفاء الذاتي المادّي، وهذا ما لم يكن يؤمن به أحد من المحيطين بكمال بك... لكنَّ الرجل المتصوّف، المتقشّف، النزيه المتجرّد عن ملذّات هذه الفانية، وعن كلّ ما فيها من مغريات ومنزلقات، كان يقول لي في لقاءاتنا الحميمة ـ يا عمي، السيِّد المسيح خاف من المال، وخاطب مريديه بالقول: «لا تعبدوا ربّين: الله والمال». لكنَّ المال، كان يضيف، ضروري لتأمين حاجاتنا الملحّة، ولتوفير حياة الكفاية والقناعة، لا الانجراف في عيش البذخ والاشتهاءات... وبدا كمال بك مرتاحًا جدًّا إلى ما توافر للأنباء من ضبط وانضباط وتأمين موارد، وكثيرًا ما كنت أفاجئه وهو في فراشه في المختارة، يحمل مسطرة يقيس بها الإعلانات والدعايات المنشورة في «الأنباء» ويقول: يا عمّي كثير مليح... الهيأة راح نلحق «النهار» بالإعلانات!...

إلاّ أنَّ المهمّة الأصعب ربّما كانت أن أتّفق مع المفكّر التقدّمي الموسوعي الثقافة، السابق عصره بمسافات ومسافات، صاحب الحدس الذي لا يخطئ، على أمور التحرير والتبويب، والمحتوى والإخراج. عقدنا أكثر من لقاء من أجل ذلك. واتّفقنا في وجهات النظر، وعلى الأخصّ أنَّ لأيّة مطبوعة: صحيفة كانت أو مجلّة، مهمّة ثقافية ودورًا بارزًا في توعية الرأي العامّ وفي تنويره... فهو كان يحبّ كثيرًا كلمات النور والتنوير والمتنوّرين، وكان يقول لي: المسيحية، وكذلك عدد من الديانات التي سبقتها، وصفت الله بأنه «نور من نور، إله حقّ من إله حقّ»... ولعلّ من أفضل الصفات التي يمكن أن تطلق على كمال جنبلاط أنه «أمير النور»... فحياته كلّها تختصر بأنها نور من نور هدفت وتهدف إلى خلق جبل من المتنوّرين يناضل من أجل وحدة المجتمعات، وحدة الوطن ووحدة العيش بين مكوّناته في سعي دائم نحو وحدة الصيرورة والمصير...

ولكم قال وأوصى وأوحى بأنَّ الجداول والأنهار تسير في أوديتها المختلفة في اتّجاه البحر الواحد، وتُفرغ فيه ماءها العذب الزلال، لتذوب وتزول فيه، فاقدة الاسم والشكل، فلا يقال في ما بعد إلاّ أنه البحر... وكذلك الأديان والمعتقدات، على تنوّعها، في توجّهها إلى المطلق...

كمال جنبلاط صحافي بامتياز. فالصحافي الأصيل لا يمكن أن يكون رجل إنباءٍ وإخبارٍ وإعلامٍ وحسب، بل هو، أوّلاً وأخيرًا، صاحب رسالة: الكلمة في قلمه ومداده والورق هي نورٌ وحقّ وعدل وحرّية، وخيرٌ وجمال مهمّتها إيصال الحقيقة إلى الناس، بعد كنهها

والإحاطة بكلّ تفاصيلها ومنعرجاتها... و«في البدء كان الكلمة... والكلمة هو الله» على حدّ ما جاء في مقدّمة إنجيل يوحنّا...

وضع كمال جنبلاط تصوّرًا لعدد من الزوايا المؤطّرة (أي ضمن إطار يحيط بها) تظهر كلّ أسبوع في العدد (أو الجزء وهو الأصحّ لغويًّا كما كان يقول عبد الله العلايلي لي) الصادر كلّ أسبوع من «الأنباء»: زاوية في العمود الثامن من الصفحة الأولى وتحمل عنوان: «للمثال والقدوة» وزاويتين تظهران في الصفحات الداخلية: واحدة عنوانها «الصحّة والحياة» وثالثة عنوانها «أدب الحياة». الأولى كانت تتضمّن أقوالاً مأثورة لحكماء وفلاسفة وأدباء ومتصوّفين... والثانية إرشادات وتوجيهات صحّية عن انواع الغذاء التي تفيد الجسم البشري وتسهم في تجنّب الأمراض، وإطالة العمر... توسّع بها ونشرها، في ما بعد، ضمن كتاب حمل عنوان: «نكون أو لا نكون» وهو خلاصة وانعكاس لنمط عيش كان يتبعه شعب صغير يدعى شعب «الهونزا» يعيش في واد صغير ما بين التيبت والهند والصين... شعب لم يعرف المرض وكان أفراده يعمّرون لأنهم كانوا يأكلون طعامهم وينتجونه دون استعمال أيّ سماد كيماوي أو عضوي مصنّع. وثالثها تشير وتؤشّر إلى كيفيّة التصرّف في عيش البشر بعضهم مع البعض الآخر ومنها: أدب المجالسة والمحادثة والتخاطب، أدب الأكل، أدب النوم، أدب الزيارة للأصحّاء والمرضى وسواها، وقد توسّع بها وجمعها في كتاب هو من أروع ما كتبه أسماه «أدب الحياة».

وكانت «الأنباء» تتضمّن مقالاً افتتاحيًّا لكمال جنبلاط ونصّ محاضرة أو «ندوة» له، ومقالاً في العقيدة التقدّمية الاشتراكية يكتبه الدكتور إدمون نعيم، وتعليق سياسي ينشر في الصفحة الأخيرة وتناوب على كتابته عصام كرم وفؤاد سلمان وكامل العبد الله ومفوّض الدعاية والنشر في حينه المحامي إميل طربيه وهو كان رفيق كمال جنبلاط في مدرسة عينطورة ومنافسه على المرتبة الأولى في الصفوف الابتدائية والتكميلية والثانوية... أمّا الأخير في الصفّ، ووفّق دفتر العلامات الذي حصلنا عليه من المدرسة العام ١٩٧٧، (أي بعد استشهاد «المعلّم» فكان سليمان قبلان فرنجية الذي انتخب رئيسًا للجمهورية عام ١٩٧٠ وشارك الأوّل في الصفّ كمال جنبلاط في انتخابه الذي كان يصف وضعه فيه بأنّه وضع «المكره أخاك لا البطل»... (ولا يحمد على مكروه إلاّ سواه: أي الله)...

كان العنوان الرئيسي في الصفحة الأولى من «الأنباء» ناريًّا وملفتًا على نحو ما تعلّمته

من خالي نسيب المتني وعلى ما كان يحبّه كمال جنبلاط ويريده ومعه الخبر الرئيسي في الصفحة الأولى، وكثيرًا ما كنّا نتّفق على مضمونه قبل صدور الجريدة. وفي الصفحة الأولى رسم كاريكاتوري كان يعدّه لنا العام ١٩٥٩ صديقي ورفيق الدراسة الفنّان المبدع بيار صادق... وكان حينها مبتدئًا لا يوقع رسومه... وعندما أعجب كمال بك بالرسم وسألني عن صاحبه، أشار عليّ بأن يكون في "الأنباء" رسم ثانٍ ينشر في صدر الصفحة الأخيرة. وهكذا كان... أمّا البدل عن الرسم الواحد فهو، يومها، ٢٥ ليرة لبنانية لا غير... وقد لفتت رسوم بيار في "الأنباء" أنظار وانتباه غسّان تويني و "النهار" فأطلقه منها منذ عام ١٩٦٠ ولا زال... لم يكن معي محرّرين ثابتين (أي يتقاضون أجرًا شهريًّا ثابتًا ومحدّدًا) لأنَّ الموازنة لم تكن تسمح بذلك بعد... بل كنت أشتري التحقيقات من زملاء صحافيين معروفين ننشرها دون توقيع بل كنّا نضع عبارة: إعداد قسم التحقيقات في "الأنباء" لأنَّ هؤلاء الزملاء الأعزّاء المشكورين لم يكونوا أعضاء في الحزب. كما كان يكتب بعض التعليقات الحزبية والطلاّبية أنطوان بتلوني وشكيب جابر، وفي ما بعد عبّاس خلف ووليد أبو مرشد وبدري يونس وخليل أحمد خليل وفؤاد شاهين وحنّا يعقوب حنّا وإميل الكك. وتولّى تحرير زاوية العمل والعمّال: أسعد عقل وبهجت أبو الحسن وغالب نمّور ومنيف نعمان، وبرز من تمَّ في المجال الطالبي المناضل أنور الفطايري الذي انتخب أكثر من مرّة رئيسًا للاتّحاد الوطني للطلاّب الجامعيين. وكان أنور شاعرًا ومشروع أديب تولينا في ما بعد إصدار ملاحق طلاّبية خاصّة للاتّحاد كنّا نتبرّع بتكاليفها ويتولّى أنور تحريرها يعاونه عدد من رفاقه الطلاّب أذكر منهم صلاح أبو الحسن ويوسف نويهض وخالد بركات ونزيه يمين وسواهم...

ونشأت بيني وبين كمال جنبلاط صداقة حميمة وشبه أخوّة، فقد اكتشفنا مع الأيام ومع الالتصاق اليومي أنَّ بيننا نقاط لقاء كثيرة وكثيرة جدًّا في النظرة إلى الحياة وإلى الوجود وإلى "الما بعد" و"الما قبل"، إلى ما هو منظور وفي المتناول، وإلى ما هو غير منظور وغير متناول... فصرت أحضر إلى بيته في الصباح الباكر، ثمَّ أرافقه في غدواته وروحاته، في المحاضرات والزيارات والندوات... وأصبح هو يرتاح لوجودي إلى جانبه، ويطري مجهودي الدؤوب في "الأنباء" فيقول لي: "أرحتني، أراحك الله".

ولكم فوجئت ودهشت يوم صدرت الطبعة الأولى من كتاب: "ربع قرن من

النضال» الذي أبرز نضال الحزب التقدّمي الاشتراكي خلال فترة ١٩٤٩ - ١٩٧٤، إنَّ ذلك الكتاب الذي كتب كمال جنبلاط مقدّمة مطولة له، وتعب صديقنا الدكتور خليل أحمد خليل في جمع معلوماته وصفحاته، ... كيف أنَّ الكتاب لم يتضمّن سطرًا واحدًا أو صفحة واحدة أو فصلاً خاصًّا بتاريخ نشأة «الأنباء» وبمن تعاقب على تولّي تحريرها ومهمّة المدير المسؤول وسواها من التفاصيل، علمًا أنَّ «الأنباء» لعبت دورًا بارزًا وأساسيًّا في مسيرة الحزب وفي مسيرة نضال كمال جنبلاط المشرفة البطولية، الرائدة... وكانت تمثّل قطعة من ضمير شعبنا الزاخر بالبطولات والنضالات.

وما أستطيع التأكيد عليه هنا أنَّ «الأنباء» لم تتوقّف أسبوعًا واحدًا عن الصدور في المدّة التي تولّيت مسؤوليتها (١٩٥٩-١٩٧٥)، وإنَّ كمال جنبلاط كان طوال هذه السنوات هو هو روح «الأنباء» ومثالها وقدوتها، وهو هو كان ملحها ولونها وطعمها ونكهتها الخاصّة المستحبّة... وأنا لم أكن معه إلاّ معاونًا مخلصًا ووفيًّا وأمينًا.

لكنَّ العمل في «الأنباء» لم يكن كلّه سمنًا وعسلاً، وراحة وارتياحًا. فلقد نشأ في الحزب، من حول كمال جنبلاط، أكثر من جناح أو محور، أو مركز قوى يستند ربّما إلى مخابرات هذا البلد أو ذاك. وكنت أنا حريصًا على أن أبقى خارج هذه المحاور، أو على مسافة واحدة منها، أحاول التنسيق والتوفيق بين مطالبها ومتطلّباتها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. ولقد عانيت كثيرًا أحيانًا ممّا يحصل، لكنّي حافظت على علاقتي المميّزة بكمال جنبلاط الذي كان يقول لي: لا تهتمّ كثيرًا لما يحصل ويدور من حولنا. علاقتك هي معي شخصيًّا، وأنا أمحضك كلّ ثقتي وكلّ دعمي وتأييدي. وإزاء تصاعد الضغوط والحرتقات، من هنا وهناك، اتّخذ قرار في مجلس إدارة الحزب بتكليف أمين سرّه العام العقيد المتقاعد أسد جمال مواكبتي عن قرب لمدّة أسبوعين على الأقلّ للاطّلاع عن كثب على طريقة وأسلوب عملي في «الأنباء»، وكيفية صدور العدد الأسبوعي منها. وكانت فرصة لأتعرّف عن قرب إلى أخلاقيّات وترفّع ونزاهة هذا العسكري السابق الذي خدم الدولة والمواطنين بكلّ إخلاص. واكبني العقيد جمال لمدّة أسبوعين على الأقلّ. كان يحضر صباح كلّ يوم إلى المكتب الصغير الذي كنت قد استأجرته من زميلنا صاحب جريدة «النضال» مصطفى المقدّم فوق «مكتبة أنطوان» أوّل شارع المعرض... يتابع ما أقوم به من كتابة وأعمال تحرير وخط عناوين واتّصالات بشركات الإعلان. ولقد حرص على أن يزور الخطّاط محسن

فتوني الذي كان مكتبه قريبًا منّا في شارع المعرض بالذات. ويوميّ الخميس والجمعة رافقني إلى المطبعة وشهد وتابع كيف كنت أقوم شخصيًّا بتبويب الصفحات و"تركيبها" إلى جانب معلّم التنضيد في المطبعة... لم أكن أرسم له الصفحات على أوراق يتولّى هو تنفيذها، وهو ما سُمّي ويُسمّى "الإخراج"... بل كنت أقف إلى جانبه أضع بيديّ العناوين المحفورة على "الزنك" يومها، ثمَّ يتولّى هو، أي "المعلّم"، وضع أسطر الرصاص المصفوفة على آلة "الأنترتيب"... فإذا ما زاد بحث أو مقال أعمد إلى اختصاره بالقدر المطلوب، وإذا ما نقص خبر أو إضافة كنت أتولّى كتابته فورًا لتكتمل الصفحة "المركّبة" على قاعدة من الألمنيوم... ثمَّ ندفع بالصفحات إلى الآلة الطابعة: صفحتين تلو صفحتين، فتستلزم طباعة الصفحات الثماني الكبار (حجم الجريدة العادية) أربع طبعات كنت أتولّى مراجعتها حتّى لا يمرّ فيها أيّ خطأ مطبعي. وكنت أنا من يتولّى تصحيح "البروفات" وتدقيقها، ولم يكن لدى "الأنباء" مصحّح أو سكرتير تحرير أو محرّر ملتزم متفرّغ إلاّ عزيز المتني...

الخلاصة أنه، وبعد أسبوعين من المعاناة والتعب بالنسبة لرجل متقاعد في سنّ العقيد أسد جمال، توجّه الرجل إلى اجتماع مجلس الإدارة (هكذا كان يُسمّى قبل أن تحوّل إلى مجلس القيادة) وخاطبهم بالقول: "الأنباء" تقوم، وتصدر وتستمرّ على إخلاص هذا الشاب الذي اسمه عزيز المتني. وصار كلّما شاهدني يقول لي: جاءت "الأنباء"، وذهبت "الأنباء". وتحوّل العقيد جمال إلى صديق شخصي لي.

ويوم نويت وقرّرت نهائيًّا أن أنسحب، وأن أقدّم استقالتي في شباط سنة ١٩٧٥، نظر إليّ كمال جنبلاط، والدمعة تكاد تنساب من مُقلتيه، وقال لي: أتتركني، وأنا لم يبقَ لي أكثر من سنتين.

فأجبته والكلمات تكاد تختنق في حلقي: أنا لا أتركك، بل سأبقى إلى جانبك، لكنّي في هذا الموقف أشبه كثيرًا قول من قال: "مكره أخاك لا بطل"...

وكنت الوحيد ربّما الذي أعرف سرّه الكبير: إنّه راحل في سنّ الستّين. وطلب منّي أن أكتم ذاك السرّ الرهيب فكتمته إلى ما بعد رحيله المضيء... كما كنت أعرف سرّ القرار الذي اتّخذه عام ١٩٧٠ وكتمته وما زلت أكتمه بناء لطلبه وتمنّيه... لكنّي سأذيعه وأنشر تفاصيله في سياق هذا الكتاب... كما ائتمنني على العديد العديد من أسراره الحميمة منها والعائلية، الخاصّة والعامّة، فكنت الأمين عليها... ولقد أحبّني، أكثر ما أحبّني، لأنّي كنت

أمينًا ووفيًّا وصادقًا معه ومع نفسي. «ومَنْ لم يقتنع بما يقول ويفعل، فكيف يمكنه إقناع الآخرين» هكذا كان يقول، وهكذا علّم، وهو «المعلّم» الذي لم يطلب يومًا أجرًا أو منّة مقابل علمه وتعليمه وعطاءاته...

خرج كمال جنبلاط من تجربة ثورة ١٩٥٨ بسلسلة من الدروس والعِبر ضمّنها المحاضرات التي ألقاها عاميّ ١٩٥٨ و ١٩٥٩، وفيها النقد الذاتي المتجرّد والمنزّه لتلك التجربة ومنها قوله في سياق إحدى تلك المحاضرات: «... إذا أذن لي أن أقول ما أضمره بصراحة، فإنَّ الثورة اللبنانية الأخيرة، من حيث إنّها اختبار وجودي واجتماعي وسياسي في آن واحد، قد جعلني أصبح أكثر عروبة ممّا كنت عليه من قبل، أي أكثر تحسّسًا بالتضامن العربي، بالواقع العربي، ولكن في الوقت ذاته أكثر لبنانية، أكثر تعلّقًا بلبنان وباستقلاله كما برز من خلال المحنة والتعاضد العربي والثورة...».

* * *

الأمير والإمارة...
وبيت الدين وسوء المصير!

«نقول هذا الوطن، والمرارة في نفوسنا لأنّنا نوشك أن نرى هذا الوطن ذاته يتحوّل إلى اتّحاد فدرالي للطوائف، ولا يعود وطنًا لأحد على الإطلاق».

«ليس من فطرتي السياسة، بخاصّة تلك السياسة التي ألفها رجالات بلادنا وليس لها وجه أو دين، وإنّما تستند إلى الحزازات الصغيرة ونزعة المشاغبات والأنانية، والسير مع التيّارات الضيّقة التي تتقاذف رجالات السياسة ذات اليمين وذات اليسار كأنّها ريشة قلقة في مهبّ الرياح.

إنَّ الغاية عندي لا تبرّر الوسيلة التي توحيها الأخلاق ويقرّها الضمير، بل هي الطريق الوحيد لتقديس الغاية التي نسعى إليها، وإلى الزيادة في ثباتها وسموّها».

كمال جنبلاط

كان الشيخ بشارة الخوري قد نقل رفات الأمير بشير الشهابي الثاني من الاستانة في تركيا إلى بيت الدين خلال سنة ١٩٤٥. وضعت الرفات على عربة مدفع من مرفأ بيروت إلى القصر حيث ووريت الثرى. وألقى الشيخ الرئيس خطابه الشهير الموجّه إلى أمير المهابة والتقلّب والمزاجية، وقال له فيه مرّات: «يا أبا سعدى».

لكنّ بيت الدين سنة ١٩٥٩ هي غير بيت الدين سنة ١٩٤٥، والرئيس اللواء الأمير فؤاد عبد الله حسن شهاب، الذي جدّ جدّه حسن هو شقيق الأمير السابق الخطير، لكنّه لا يشبهه إطلاقًا في أسلوب عمله، أو في ما تجلّى عنده وفي شخصيّته من طباع وتصرّفات.

كان فؤاد شهاب مثال أخلاق وصدق ووفاء في تعامله مع الآخرين، لا سيّما الكبار منهم الذين يوحون بالثقة ويبادلون الصدق والوفاء بمثلهما.

أبلغني كمال جنبلاط في الأسبوع الأخير من شهر تمّوز سنة ١٩٥٩ أنَّ الرئيس شهاب سيزور الشوف لأوّل مرّة في نهايات الشهر للمشاركة في حفل استقبال يقام تكريمًا للمغتربين في قصر بيت الدين مساء يوم ٢٧ من تمّوز، وأوصاني بضرورة إعداد استقبال للرئيس في بلدتنا الدامور. كلّفت نجّارًا بإعداد «قوس النصر» ودفعت أتعابه من جيبي الخاصّ،

واستكتبنا خطّاطًا في بيروت لافتتي ترحيب وتأهيل... وقصدت صيدا فأقنعت معروف سعد بعد طول جهد بأن يأتي مع وفد من أصدقائه لمشاركتنا الترحيب بالرئيس شهاب فقبل وحضر وشارك... وما إن عبر الموكب الرئاسي بلدتنا الدامور حتّى استقلّيت سيّارة كانت تنتظرني لتقلني إلى بيت الدين لتغطية الحدث.

حشد كمال جنبلاط عشرات ألوف المناصرين والأصدقاء من مختلف المناطق اللبنانية، وقفوا إلى جانبيّ الطريق أوّلاً ثمَّ سدّوا الطريق بالكامل وخصوصًا لناحية مفترق معاصر بيت الدين صعودًا إلى بلدة كفرنبرخ وجوارها.

وصلت، وكان كمال جنبلاط يلقي خطابه وإلى المنصّة الرئيسية انضمّ الرئيس شهاب وأركان الدولة... وبعد دقائق لمحنا ضابطًا في الجيش يقترب من فؤاد شهاب ويهمس في أذنه معلومة ما، ثمَّ ينتقل إلى كمال بك ويفعل الشيء عينه. وأكمل كمال جنبلاط خطابه حتّى تحرّك الموكب الرئاسي نحو القصر الأميري، واستقلّ "عمود السما" الزعيم التقدّمي سيّارة توجّهت به إلى دار المختارة.

ما إن وصلت إلى بيتنا في الدامور حتّى رنَّ جرس الهاتف، وكان نسيم مجدلاني هو المتكلّم، فسألني: شو عرفت عن مقتل نعيم مغبغب؟!

فأجبت: ما عرفت شي... حتّى أني لم أسمع بالخبر...

قال لي نسيم مجدلاني: اتّصلت بدار المختارة فقيل لي أنَّ كمال غاضب ومستاء وأنه حبس نفسه داخل غرفة أقفلها، وهو يرفض أن يتحدّث إلى أحد...

اتّصلت بدار المختارة فقيل لي الشيء نفسه. انزعجت ولم أنم كثيرًا تلك الليلة. صباح اليوم التالي أبكرت في النزول إلى بيروت، وكان أوّل ما فعلته أني جمعت صحف الصباح ورحت أتصفّحها واحدة واحدة فأسخطتني جدًّا عناوين التحريض والتجنّي التي ازدحمت بها قبل الاطّلاع على حقيقة ما جرى وما حصل، ولفتني مقال كتبه ميشال أبو جودة في عموده اليومي، في الصفحة الأولى من جريدة "النهار" تحت عنوان: "في حمى الأمير" حمّل فيه الرئيس شهاب ومسؤولي الأمن التابعين له مسؤولية الجريمة النكراء.

اتّصلت بنسيم مجدلاني فأبلغني أنه أوفد اسكندر غبريل إلى المختارة، وسيوافيني لاحقًا بالتفاصيل. اتّصلت بدار المختارة فأبلغوني أنَّ "المعلّم" ما زال معتصمًا وهو يرفض أن يردّ على أحد...

وجاء الأدهى والأعجب بعد ظهر ذلك اليوم. صدرت جريدة «لو سوار» لصاحبها ديكران توسباط النائب الأرمني عن برج حمّود وزميل كميل شمعون وكمال جنبلاط في الجبهة الاشتراكية الوطنية وفي صدر صفحتها الأولى عنوان تحريضي يتّهم جنبلاط وشبلي العريان بالتحريض على قتل نعيم مغبغب ويطالب الخبر التابع للعنوان بمحاكمة جنبلاط والعريان سريعًا... ثمَّ نظرت إلى المقال الافتتاحي في «لو سوار» الذي يكتبه الصحافي الشمعوني كسروان لبكي فإذا به يلقي تبعة الحادث كليًّا على كمال جنبلاط وعلى جريدة «الأنباء» والمسؤول عن تحريرها متّهمًا إيّانا بأنَّ كتاباتنا وتعليقاتنا التحريضية هي السبب المباشر وراء حصول الجريمة... عاودت الاتّصال بنسيم فأبلغني أنَّ كمال بك ما زال معتصمًا وقد رفض استقبال أحد بمن فيهم اسكندر غبريل، فاتّصلت بحسيب الدبيسي وطلبت منه أن يوافيني غدًا صباحًا إلى الدامور فنصعد سويًّا بسيّارة الحزب إلى المختارة.

كان ذلك في ٣١ تمّوز. اشترينا ص حف الصباح وسلك حسيب بنا طريق شحيم – غريفة – بعقلين صعودًا إلى المختارة. وصلت فأرشدوني إلى الغرفة التي يعتصم فيها كمال جنبلاط وكان بابها في الرواق ما قبل الصالون الكبير للاستقبال... فرحت أقرع وأقرع على الباب وكان حالي ما قاله الشاعر:

قرعت الباب حتّى كلّ متني　　　فلمّـا كلّ متنـي... كلّمتنـي

واصلت قرع الباب حتّى سمعت صوتًا من الداخل يقول: من هو هذا المزعج الثقيل الظلّ؟!

فقلت: هذا أنا عزيز المتني...

فخاطبني بالقول: حسنًا... لكن ماذا تريد؟

فقلت: الوضع خطير ومقلق... ويجب أن نردّ على حملة التحريض...

فتح الباب فبدا الإرهاق على تقاسيم وجهه، عيناه غائرتان وسط تلك الطلّة التي تعكس ما في الداخل من صفاء ونقاء ووجدان قويم مستقيم... نظر إليّ وقال: «لنطلع عالسطيحة» وهكذا فعلنا. توجّهنا إلى السلّم الخشبي المثبّت إلى جانب باب المطبخ والمؤدّي إلى غرفة نومه البسيطة، ومن غرفة النوم دلفنا إلى السطيحة التي فوقها عريشة. سألته: كيف أمضيت هذين اليومين، فقال: «بالتأمّل والصلاة... وما كان أغنانا عمّا حصل. لم يكن في

البال ولا على الخاطر... ولو أعلمنا الرجل أنه آت إلى الاحتفال لكنّا أمّنا له الطريق والسلامة».

وضعته في الأجواء، وكان قد تمّ دفن نعيم مغبغب في مأتم بسيط جرى في بيروت. صلّي عليه في كنيسة مطرانية الروم الكاثوليك المواجهة لكلّية الطب الفرنسية في محلّة رأس النبع ودفن إلى جوارها.

سألني: ماذا في هذه الصحف؟ فقلت: مقالات تحريض ومنها ما يطالب بمحاكمتك وبمحاكمة «الأنباء» والمسؤول عن تحريرها بتهمة التسبّب بالحادث. ولفته إلى مقالة تلميذه ميشال أبو جودة (وكان ميشال تلميذًا لكمال جنبلاط في كلّية العلوم السياسية والاقتصادية التابعة للأكاديمية اللبنانية) فعلّق بالقول: حتّى أنت يا بروتس!

بعد الاطّلاع لمامًا على الصحف أملى عليّ تصريحًا أبدى فيه أسفه البالغ لما تعرّض له النائب نعيم مغبغب وتوجّه بالتعزية الحارّة إلى أفراد عائلته. وممّا قاله: ما كان يجدر بالرجل أن يقتحم هذا التجمّع البشري الكبير على هذا النحو، فالطريق مقفلة ومسدودة والجماهير المحتشدة تعتبره من ألدّ الخصوم والأعداء، فحصل ما حصل، وكانت ساعة شيطانية ما كان أحد منّا ينتظرها. وتمنّى وقف حملات التحريض التي لن تؤدّي إلاّ إلى مزيد من الشحن والتفرقة. ثمَّ طلب من بعض من في الدار إعداد لقمة طعام فأعدّوا البيض البلدي المقلي واللبنة مع الزيت والزيتون وبعض الخضار البلدية التي لم تُلَوَّث بالأسمدة الكيماوية فأكلنا، ثمَّ ودّعته وانصرفت إلى بيروت لتوزيع التصريح على الصحف ووكالات الأنباء وخاطبني بالقول: انتبه لحالك، وعد إليّ غدًا أو بعد غد لنكتب مقالاً خاصًا للأنباء. وكان نسيم مجدلاني قد أصدر في بيروت بيانًا بأسم الحزب التقدّمي شجب فيه الحادث ودعا إلى إحقاق العدالة بعيدًا عن حملات التحريض والإثارة.

لم تمضِ أيّام حتّى زارني شرطي في مكتب الحزب و «الأنباء» وسلّمني مذكّرة جلب تدعوني كمدير مسؤول للأنباء للمثول أمام قاضي التحقيق بتهمة «تعكير النظام العام والحض على العنف».

اتّفقت مع كمال بك على تلبية الدعوة وأن يرافقني المحامون الأساتذة: أنور الخطيب ووجدي الملاّط وإدمون نعيم. وفي اليوم المحدّد وفيما كنّا نستظلّ شجرة العدلية الشهيرة اقترب منّي شاب لا أعرفه وسألني: هل أنت فلان، وعندما أجبت بالإيجاب قال: اتبعني.

فتبعته وقادني إلى رواق في الطابق الأرضي للعدلية ثمَّ قرع بابًا وأدخلني، فإذا بي في مواجهة المحقّق منيف عويدات، وكنت لا أعرفه شخصيًّا بعد. رحّب بي الرجل وهو يبتسم وقال: نحن أبناء شحيم وأهالي الدامور جيران وأصحاب. وانا أحبّ كمال بك وأقدّره. وسأتكلّم معك بصراحة: لقد طلبوا منّي أن أصدر بحقّك مذكّرة توقيف وأنا لا أريد ذلك. اتبع غسان فسيرشدك إلى درج خلفي تصل منه إلى محلّة باب إدريس، فاذهب إلى كمال بك وسلّم عليه... وتبعت غسانًا فأرشدني إلى الدرج وقبل أن أغادره سألته: ما هو اسمك الكامل؟ فأجاب: غسان شحاده من شحيم.

بعدها صار منيف عويدات من أعزّ أصدقائي وكذلك غسان شحاده الذي كان شابًّا يتابع دراسة الحقوق وصار في ما بعد مديرًا عامًّا للأحوال الشخصية، حافظت على صداقته وظللت أزوره أحيانًا.

بعد أقلّ من سنتين أخبرني منيف عويدات، الذي أصبحت ألتقيه دوريًّا، أنَّ من طلب توقيفي احتياطيًّا في حينه كان العقيد أنطون سعد رئيس المكتب الثاني.

ما لبثت أن هدأت الضجّة فأوضحت في «الأنباء» إنّنا ما دعونا يومًا إلى استخدام العنف ولا حرّضنا عليه، وإنّما كنّا وما زلنا ندعو إلى التهدئة والإقلاع عن محاولات الاستفزاز التي كان يقوم بها شمعون وأنصاره. وكنّا ولا زلنا نقول: إنَّ دماء الشهداء لم تجفّ بعد، وإنَّ الحفاظ على النظام العامّ يكون بإحقاق الحقّ وبمساءلة ومحاكمة الفاسدين المفسدين الذين سرقوا أموال الشعب وانتهوا إلى ارتكاب الخيانة العظمى باستدعاء الجيوش الأجنبية لإعادة احتلال الأراضي اللبنانية.

بعد أقلّ من شهرين، أي قبل آخر أيلول ١٩٥٩، تحدّد موعد لإجراء انتخابات فرعية لملء المقعد الذي شغر بوفاة النائب نعيم مغبغب، فاقترح كمال جنبلاط ترشيح هنري فرعون كمرشّح تزكية لكنَّ «الخواجة» لم يوافق، فتمَّ ترشيح سالم عبد النور. وشاركت «الأنباء» في الحملة الانتخابية فأصدرت ملاحق خاصّة تتألّف من صفحتين لمواكبة الحدث ودعوة الناخبين إلى الإقبال بكثافة.

* * *

لقاء عبد الناصر والمراسيم الاشتراعية فالانتخابات النيابية...

يوم ٢٥ آذار ١٩٥٩ تمَّ لقاء بين الرئيس جمال عبد الناصر والرئيس فؤاد شهاب في خيمة نصبت على الحدود اللبنانية نصفها في الأراضي اللبنانية والنصف الآخر في الأراضي السورية. وكان ذلك من قبيل الفولكلور النصفي ومن قبيل إنقاذ المظاهر. رافق الرئيس عبد الناصر نائبه أكرم الحوراني ووزير الداخلية في القطر السوري عبد الحميد السراج والسفير عبد الحميد غالب واكتفى الرئيس شهاب بمرافقة وزير الخارجية الحاج حسين العويني له...

وشدّد البيان المشترك الصادر عن الاجتماع على تأييد لبنان لسياسة الجمهورية العربية المتّحدة في المجالين العربي والدولي، وعلى تعهّد القاهرة ودمشق عدم التدخّل في شؤون لبنان الداخلية. وأرسى ذلك اللقاء اليتيم بين الرئيسين علاقات ودّية بين البلدين.

وخلال شهر حزيران سنة ١٩٥٩ أصدرت حكومة «النصف بنصف» مجموعة من المراسيم الاشتراعية التي نصّت على إنشاء مجلس الخدمة المدنية والتفتيش المركزي وكلّ هيئات الرقابة، فرحّب كمال جنبلاط بتلك المراسيم لكنّه أضاف أنَّ العِبرة هي في التطبيق لا في التنظير وحسب، وشدّد على ضرورة تطهير جهاز الدولة بشكل جذري من الموظّفين الموالين للعهد السابق وخصوصًا أولئك الذين لوّثوا سمعتهم وسمعة الدولة بالفساد، وتلك مهمّة يتعذّر تنفيذ الإصلاح بدونها... ودعا الحكومة إلى أن تكون أكثر عدلاً وإنصافًا في توزيع «كعكة» السلطة خصوصًا وإنَّ معظم موظّفي الدرجة الأولى ينتمون إلى طائفة معيّنة. ولفت الأنظار إلى الفوارق الصارخة في مستوى التطوّر الاقتصادي والاجتماعي بين مختلف المناطق اللبنانية.

وكتب كمال جنبلاط في مقال افتتاحي نشرته «الأنباء»: إنَّ الإبقاء على نظام الطائفية السياسية، كما هو معمول به في لبنان، ينطوي على خطر الإمعان في تشرذم اللبنانين وتفريقهم على أساس الانتماء الديني والمذهبية التي تمزّق الصفوف وتحول دون لمّ شمل الوطن في إطار مجتمع مدني يوفّر الحقوق المتساوية والفرص المتكافئة للجميع. وأطلق

صرخته التاريخية فقال: "نقول هذا الوطن ـ والمرارة في نفوسنا ـ لأنّنا نوشك أن نرى هذا الوطن ذاته يتحوّل إلى اتّحاد فدرالي للطوائف، ولا يعود وطنًا لأحد على الإطلاق...".

في مطلع تشرين الأوّل ١٩٥٩ استقال العميد ريمون إدّه من الحكومة. وذكر أنَّ السبب يعود إلى أنَّ رئيس المكتب الثاني أنطون سعد صفع وضرب أمين الصندوق في الكتلة الوطنية فيليب خير لأنَّ الأخير تفوّه بكلمات نابية ضدّ الرئيس شهاب... وخرج العميد إدّه من الحكومة ليشنّ أعنف حملة ضدّ المكتب الثاني وضدّ تدخّل العسكر في كلّ الشؤون والشجون وأجري تعديل وزاري أدخل فيه خمسة وزراء إلى الحكومة، فرأى كمال جنبلاط في تلك الخطوة عود إلى الوضع اللبناني العادي، وشدّد على أنه لن يؤيّد الحكومة إلاّ إذا باشرت، وبشكل جدّي، بتطهير جهاز الدولة من الموطفين الفاسدين، وسارت في عملية تنفيذ المراسيم الاشتراعية فعلاً وليس قولاً...

في نيسان عام ١٩٦٠ بدأ الإعداد لإجراء الانتخابات النيابية العامّة على أساس قانون جديد نصّ على رفع عدد النوّاب من ٦٦ إلى ٩٩، واعتماد القضاء أساسًا للدائرة الانتخابية. أمّا العاصمة بيروت فجرى تقسيمها إلى ثلاث دوائر انتخابية فأُلحق الناخبون الأرمن بالأشرفية وسمّيت الدائرة الأولى، كما أُلحقت برج حمّود ومنطقتها بدائرة المتن الشمالي. وكان كميل شمعون قد جعل خلال عهده، من برج حمّود دائرة منفردة يُنتخب لها نائب أرمني واحد.

نقل كميل شمعون ترشيحه من دائرة الشوف إلى المتن الشمالي، وألّف كمال جنبلاط لائحة من ثمانية مرشّحين ضمّت: كمال جنبلاط وبهيج تقي الدين عن الموحّدين الدروز، أنور الخطيب وعصام الحجّار عن السنّة، سالم عبد النور عن الروم الكاثوليك، والأمير عبد العزيز شهاب وعزيز عون وجورج ميخائيل عيد البستاني عن الموارنة. ودعم ترشيح لائحة في قضاء عاليه فاز منها فضل الله تلحوق. ورشّح الحزب نسيم مجدلاني وفريد جبران في بيروت ودعم ترشيح شبلي آغا العريان في دائرة راشيا ففاز الثلاثة.

كان كمال يردّد في مجالسه الحميمة:

ـ يا عمّي، صار حفيد المير بشير الشهابي الثاني المباشر رفيقنا في الانتخابات، شي مش قليل... ورئيس جمهوريّتنا جدّ جدّو اسمو حسن وهو شقيق الشهابي الكبير... وبيلبس جزمة. والجزمة، يا عمّي جزمة سواء كان لونها أسود أو بنّي أو بين بين... وأنا يا عمّي لا

أحبّ الجزمات ولا لابسي الجزمات... ثمَّ يدندن «ردّة» بالعامّية تقول:

ما شا الله عسكر لبنان بطرابيشو المكويّه
قايدهم اسمو سمعان وهوّ رئيس الواويّه

وعندما تسأل: مَنْ هو سمعان يجيب: سمعان بالضيعة. وربّما كان يقصد بـ «سمعان» رئيس أحد الأجهزة عهد ذاك، وليس قائد الجيش أو الرئيس شهاب بالتأكيد.

واتّخذ المير عبد العزيز مقرًّا ومكتبًا انتخابيًّا له في بيت الدين قريبًا من قصر جدّ جدّه الشهابي الكبير، وكان مدير حملته الانتخابية قائمقامًا سابقًا للشوف اسمه عدنان نادر، وهو من منطقة عكّار... راح عدنان يستدعي مخاتير القرى المسيحية إلى بيت الدين حيث وضع في غرفة الجلوس صورتين واحدة للأمير بشير الكبير والثانية للمير عبد العزيز. وذات أمسية زرت المقرّ مكلّفًا بمهمّة من كمال بك فشاهدت الجمع في تلك الغرفة، ووقفت قرب الباب أراقب وأستمع... راح عدنان يخاطب المخاتير بالقول: ـ انظروا إلى الصورتين: عيونو مثل عيونو، وحواجبو مثل حواجبو... نفس الجبين، نفس المنخار... إلخ وانزعج واحد من المخاتير كان، على ما أذكر، مختار بلدة وادي الستّ، كان يرتدي الشروال ويعتمر «الطربوش» على رأسه فخاطب المختار عدنان بالقول:

ـ «فلقتنا يا زلمي»... ما نحنا كلّ مصايبنا بهالمنطقة من المير بشير... هلّق جايي حضرتك تقوّم الموتى... قلنا إنّو بدكم تزفتوا الطرقات، بدكم تأمنوا المي والكهرباء للناس... بدكم تدبّروا شغل لولادنا حتّى يبطلوا يهاجروا... وصفّق الحضور للمختار فحضر المير عبد العزيز على التصفيق وسألني بلهجته المحبّبة:

ـ شو القصّة يا «أبو العزّ»؟ فرويت له الحكاية، فأطلق ضحكة مدويّة وقال:

ـ معو حقّ المختار. ثمَّ توجّه إلى عدنان نادر بالقول: شيل ها الصور يا عدنان، وغيّر كل هالاسطوانة...

وعندما نقلت الواقعة إلى كمال بك انفرجت أساريره وقال: «عفارم» المختار، ما قصّر فيهم!...

جرت الانتخابات على أربع مراحل في شهر حزيران وتمّوز. ومساء يوم الانتخابات في الشوف انتدبني كمال جنبلاط لأكون عضوًا في لجنة الفرز في قائمقامية الشوف ببيت

الدين مع الشيخ عارف أبو حمزة. وراحت النتائج النهائية تشير إلى فوز لائحة جنبلاط وإلى خسارة عضو واحد فيها هو أنور الخطيب، وإلى فوز عصام الحجّار وزوج عمّته قبلان قبلان المرشّح على لائحة شمعون. أغمي على أنور الخطيب فحمل إلى سيّارته. ورحت أنا أعاتب عصام الحجّار الذي جلس إلى جانبي لأنَّ نتائج بلدة شحيم وبعض بلدات الإقليم أظهرت أنَّ حزبيّة آل الحجّار اقترعت لعصام ولقبلان ولم تقترع لأنور الخطيب. وليس صحيحًا ما أورده بعض الكتب والمراجع من أنَّ كمال جنبلاط قد أوعز إلى أنصاره بشطب اسم أنور الخطيب، وذلك انتقامًا منه لأنه تركه عام ١٩٥٧ وترشّح مع إميل البستاني في لائحة واحدة. أمّا لماذا عاتبت عصام الحجّار فلأنّي كنت صلة الوصل بينه وبين كمال جنبلاط. فأنا قمت باصطحاب عصام إلى المختارة وقدّمته إلى كمال بك، بعدما تولّت شقيقة عصام السيِّدة سميرة (زوجة الطبيب رياض طبّارة والخطيبة السابقة للضابط البعثي الشهير في الجيش السوري عدنان المالكي الذي اغتاله القوميون في دمشق) قامت بمهمّة تعريفي بشقيقها عصام القادم حديثًا من لندن، بعدما تخصّص هناك بالحقوق وصار محاميًّا. ورافقت عصام الحجّار في بعض جولاته الانتخابية في بلدات إقليم الخروب. لم يكن أحد يعرفه شخصيًّا، فكان يقدّم نفسه على أنه ابن القائمقام عبد الحليم الحجّار الذي كان محبوبًا من الناس ويتمتّع بشعبية واسعة.

وكان يتولّى مكتب انتخابي في الحزب الاشراف على حسن التنظيم لا سيّما مسألة النقليات والسيارات التي كانت تقلّ الناخبين من العاصمة بيروت وضواحيها إلى بلداتهم في قضاء الشوف ومنطقة الإقليم، وهي تلعب دورًا مهمًّا في سير العملية الانتخابية. من أعضاء وأفراد هذا المكتب أذكر: فوزي عابد وتوفيق بركات وشفيق أبو زكي وشفيق العيّاش وعادل خضر ونايف الزهيري وسواهم ممّن أعتذر منهم، إذا كنت قد نسيت بعض الأسماء.

لكن، وقبل أن نصل إلى إعلان النتيجة النهائية الرسمية، فوجئنا في قاعة لجنة الفرز بمن يستدعي القائمقام غسّان حيدر للردّ على مكالمة هاتفية مهمّة في مكتبه الخاصّ، فاستأذن ودخل، وبعد دقيقة استدعي الأمير عبد العزيز شهاب إلى الداخل. بعدها بقليل فتح المير عبد العزيز الباب وأشار إليّ بالقول: «أبو العزّ»، حاكينا كلمة ودخلت مكتب القائمقام، وفوجئت بما فوجئت، ولم أصدّق في بادئ الأمر ما أسمع... كان الفارق بين النائب إميل البستاني المرشّح على لائحة شمعون وبين منافسه جورج عيد البستاني لا يتعدّى عشرات

الأصوات، وهو لمصلحة فوز جورج على إميل... قال لي المير عبد العزيز: العقيد أنطون سعد اتّصل وقال لازم ندبّر القصّة بحيث ينجح إميل البستاني. سألت: وكيف ندبّر القصّة؟ فقال المير: هيدي شغلة بسيطة لكنّ الأهمّ أن نقنع صاحبك الكبير بالموضوع (وكان يعني كمال جنبلاط)... فقلت وأنا منذهل ومذهول: كيف يعني... أوضح يا مير. فقال: القصّة وما فيها أن تتوجّه جنابك إلى دار المختارة وتقنع كمال بك بالموضوع (على طريقة "جرجي درس الموضوع") هكذا وبكلّ بساطة...

ثمَّ ربّت المير عبد العزيز على كتفي وقال: توكّل على الله، وانطلق... فأجبته بانفعال: أي الله يمكن أن يقبل بمثل ذلك؟

استقلّيت سيّارة المير فتوجّهت بي إلى المختارة (ولم يكن أحد ممّن في لجنة الفرز قد علم بـ"الموضوع". وما إن وصلنا إلى ساحتها حتّى ترجّلت وسلكت الطريق الخلفي المؤدّي إلى غرفة المطبخ ففتح لي، وما إن وضعت قدمي على الدرج الخشبي المؤدّي إلى غرفة نوم "المعلّم" حتّى سمعت صوته يقول: مين؟ كانت الساعة تشير إلى نحو الخامسة فجرًا. ما إن وصلت الباب حتّى عرّفت عن نفسي فقال: ادخل. كانت الشمعة إلى جانبه مضاءة فسألني: شو القصّة؟ شو في؟ وعندما وضعته في أجواء ما حدث قال: عال العال... كان بعد ناقصنا نشارك بالتزوير... يا عمّي أكيد الرئيس شهاب ما معو خبر. ثمَّ أضاف: خلّيهم يطلبو الياس سركيس. فسألته: نوقظه، قال: فليكن، شو هو أحسن منّا.

وفعلنا، فنفى سركيس علمه بالأمر وأبلغ كمال بك أنَّ الرئيس شهاب نائم وهو أكبر من أن يتعاطى مثل هذه الأمور... فقال كمال بك لسركيس: يا عمّي "ضبضبوهم" لهالجماعة قبل ما تتوسّع دائرة البيكار...

وصمت للحظات وأغمض عينيه واستغرق في التأمّل... تركته لحوالي دقيقتين ثمَّ خاطبته بالقول: ماذا أفعل؟ وماذا أقول لهم؟ هم ينتظرون عودتي فقال لي: عد و"طنّش" فهم راح يعملوها فينا وبلانا... شو بدّك نكسر الجرّة معهم من أوّل الدرب؟... وكان في صوته مسحة من الحزن والأسى على أحوال البلاد التي كان يصفها بأنها "بلاد العجايب والغرايب...".

وعدت و"طنّشت"... وفعلوا همّ ما يريدون... ففاز إميل البستاني بالمقعد النيابي... دون أن يلحظ ما حصل إلاّ قلّة قليلة من الحضور... ولاحظ الشيخ بهيج تقي الدين تجهّم

وجهي فسألني: ـ ماذا يا عزيز؟ يبدو وكأنَّ النتيجة لم تعجبك...

فأجبت: لا، لا، النتيجة ممتازة... والله يوفّقكم!

وخرجت من سراي بيت الدين وقصدت بيت أهلي في الدامور لأنام... ولأحاول أن أنسى... وكتمت الأمر وها أنا أذيعه في هذا الكتاب للمرّة الأولى وبعد مرور خمسين عامًا على حصوله...

اللقاء الأوحد بين جمال عبد الناصر وفؤاد شهاب في الخيمة الشهيرة التي أقيمت على الحدود: نصفها في لبنان ونصفها في سوريا... في ظلال حكومة النصف بنصف وقائمقاميتي الموارنة والسنّة...

المشاركة في الحكم
الإكليروس وشيوخ المسلمين

«إنَّ قيامنا بواجب الدفاع عن العمّال والمزارعين ومتوسّطي الحال، وجميع الذين يؤلّفون سواد الأمّة الأعظم، هو حقًّا خير واجب وطني يُؤَدَّى، ضنًّا بكياننا الداخلي أن يتصدّع، ولا سيَّما في مثل هذه الأحوال التي كثرت فيها الدعوات الأجنبية والطائفية التي انتشرت في البلاد».

«ليس من العدل أن يَنْعَم بعض مئات من الناس بقسط وافر من نعيم الحياة وتَرَفِها ومنافع الحضارة وأسبابها، ويشقى ويتألّم ملايين من البشر».

«أظهرت دراسات تقرير الأبّ لوبره وبعثة «إيرفد» أنَّ ثمانين بالمئة من اللبنانيين قد أجبروا على أن يكون لهم احتكار الشقاء والحرمان... فكيف نستطيع أن نجعل هذا الاستعمار الداخلي على ثمانين بالمئة من اللبنانيين يبقى ويدوم؟!

كمال جنبلاط

قدّمت حكومة أحمد الداعوق الحيادية، التي شكّلت خصّيصًا للإشراف على الانتخابات النيابية بعد رحيل حكومة الأربعة، استقالتها في ٢٠ تمّوز ١٩٦٠. لكنَّ الرئيس شهاب فاجأ الحكومة ومجلس النوّاب والبلاد بتقديم استقالته بحجّة أنه أدّى مهمّته كاملاً فأجرى الانتخابات بعد أن عدّل قانونها... وكانت خطوة مدروسة لإعادة مبايعته بالرئاسة الأولى بالإجماع مرّة جديدة، فسارع النوّاب من مختلف الكتل النيابية بمن فيهم العميد ريمون إدّه إلى منزل شهاب وحملوه على الأكتاف وأعلنوا رفض الاستقالة. ولم يغب عن احتفال المبايعة إلاّ كميل شمعون الذي فاز بالنيابة عن مقعد ماروني في المتن الشمالي.

وكلّف الرئيس صائب سلام تشكيل أوّل حكومة بعد الانتخابات وبدأت مشاورات التشكيل فالتقى كمال جنبلاط سلام لهذه الغاية وعُرف أنه طالب بتسلّم وزارة التربية...

وفي اليوم التالي أعلن كمال جنبلاط أنه ينوي المشاركة في الحكومة ليس نيابة عن طائفة الموحّدين الدروز بل بصفته رئيس حزب تقدّمي يشدّد على تمسّكه بالفكرة الوطنية وتحقيق الإصلاح المنشود في مختلف مجالات الدولة. ووضع برنامج عمل مكوّن من ١٦

بندًا طرحه على الرئيس الأوّل فؤاد شهاب خلال الاستشارات. ثمَّ عقد لقاء مع رئيس الجمهورية دام ساعات استعرضا خلاله منهج العمل الذي قدّمه جنبلاط بالتفاصيل وانتهى اللقاء وبالاتّفاق على تبنّي ١٤ بندًا من أصل ١٦. فلم يوافق شهاب لا على تنفيذ قانون الإثراء غير المشروع (من أين لك هذا) ولا على زيادة عدد النوّاب من ٩٩ إلى ١٢١ كما اقترح جنبلاط.

صباح اليوم التالي رنَّ جرس الهاتف في مكتب الحزب و «الأنباء» وكان المتحدّث الصحافي محمّد بديع سربيه، أحد صاحبي جريدة «كلّ شيء» وصهر آل سلام، فقال لي: صائب بك يحبّ أن يراك؟ فسألت: أين هو؟ قال: في دارة آل سلام. فقلت: أنا آتٍ حالاً. سرت مشيًا على الأقدام من المكتب المحاذي للمدرسة البطريركية الكاثوليكية إلى دارة آل سلام المجاورة، وعندما دخلت استقبلني صائب بك بالترحاب وقال لي: اشتقنا لك... كنت تمرّ بنا يوميًا خلال الأحداث عندما كنت في «التلغراف» وبعد انتقالك إلى «الأنباء» لم نعد نراك كثيرًا. فشكرته على عاطفته واعتذرت لأنَّ المشاغل كثيرة وكمال بك يشغلنا أكثر... ضحك وقال: أُريدك أن تساعدنا على حلّ عقدة كمال بك... فقلت: عن أيّ عقدة تتحدّث يا دولة الرئيس؟ قال: كمال بك مصرّ على تسلّم وزارة التربية ورجال الإكليروس المسيحي وشيوخ المسلمين يتحفّظون على ذلك. فقلت: ومن يؤلّف الحكومة... دولتك والرئيس شهاب أمّ الإكليروس ومشايخ المسلمين؟ قال: أنت تعرف وضع البلد وخصوصيّاته... وما منقدر نزعّلهم... وعدته خيرًا وخرجت من دارته وتوجّهت سيرًا على الأقدام إلى منزل كمال جنبلاط في محلّة الظريف... وما إن دخلت وألقيت التحيّة والسلام حتّى رنَّ جرس الهاتف وقال نايف: الرئيس شهاب على الخطّ. وكرّر الرئيس شهاب لكمال بك ما قاله لي صائب سلام: الإكليروس ومشايخ المسلمين معترضين وغير موافقين فأجابه كمال جنبلاط بحزم: وانا مصرّ متمسّك بالتربية ولن أقبل بسواها.

أعلنت بعدها حكومة ترأسّها صائب سلام وضمّت ١٨ وزيرًا تسلّم كمال جنبلاط فيها حقيبة التربية الوطنية ونسيم مجدلاني نائبًا لرئيس الحكومة ووزيرًا للعدل.

كانت مسألة ما يسمّى المدارس المجّانية أو شبه المجّانية التابعة للطوائف هي التي حدت برجال الدين المسيحيين والمسلمين سواء بسواء إلى التحفّظ على تسلّم كمال جنبلاط وزارة التربية، إذ إنَّ لجنبلاط نظرة إلى هذه القضيّة تقول أنَّ الأموال التي تدفع من خزينة الدولة

كهبات لهذه المدارس الطوائفية تكفي، إذا ما استعملت في مسارها الصحيح، لتعميم التعليم الابتدائي المجّاني الإلزامي الرسمي، فلماذا ندفع للطوائف لتدرّس هي على هواها فتعدّ جيلاً منقسمًا على ذاته ولاؤه للطائفة وليس للوطن أو الدولة. لكنه كان يعلّق ويضيف: هذه دولة التنفيعات و "الخاطر شان"!.

حمل كمال معه إلى وزارة "التربية الوطنية والفنون الجميلة" (هكذا كان اسمها قبل أن تصبح في ما بعد "وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي") مشروعًا متكاملاً لتعميم وتعزيز وتطوير وتحديث مناهج التعليم في كلّ مراحله من الابتدائي إلى التكميلي إلى الثانوي، إلى التعليم الجامعي بحيث يتاح لأكبر شرائح من اللبنانيين تلقّي العلم الذي يتلاءم وروح العصر والتوجّه الوطني السليم في آن واحد. وأولى التعليم المهني والتقني اهتمامًا خاصًّا باعتباره مجالاً ومنفذًا لتخريج طلاّب يجدون لهم فرص عمل، فلا يكتفي التعليم بتخريج شباب يتوجّهون إلى واحد من مصيرين: فإمّا البطالة والاكتفاء بتعليق الشهادة ضمن إطار على حائط غرفة الاستقبال، وإمّا الهجرة إلى الخارج، إلى بلدان العالم البعيد المنتشرة في أنحاء المسكونة كلّها...

وإذا كانت الإحصاءات تشير يومها إلى أنَّ حوالي ٧٠ بالمئة من تلامذة لبنان يتلقّون تعليمهم في مدارس خاصّة معظمها ينتمي إلى مؤسّسات دينية وطائفية، إمّا أجنبية وإمّا محلّية تابعة لهذا المطران أو لذاك الشيخ... مدارس تخرّج تلامذة ينظرون إلى شؤون البلاد وأمور الدنيا والحياة نظرات متباينة متناقضة وعلى الأخصّ في مجال النظرة إلى تاريخ لبنان القريب والبعيد... فكيف يمكن، والحال هذه، تكوين الذهنية الوطنية أو الوجدان القومي الذي لا يمكن بدونه بناء لبنان المستقبل، لبنان الوطن المستقلّ الموحّد، لا لبنان فدرالية الطوائف والمذاهب التي تتصارع، على الغالب، ليس على مصلحة لبنان العليا وعلى بناء المجتمع المتناغم المتعدّد الثقافات والحضارات ولكن أن يكون هذا التنوّع من ضمن الوحدة الوطنية الجامعة، وانطلاقًا من إيجاد مجتمع مدني يرتكز إلى ثقافة مدنية إنسانية شاملة.

كان كمال جنبلاط في نظرته الرسولية تلك يرفض احتكار العلم لفئة أو لفئات محدّدة من اللبنانيين... كما كان يرفض احتكار الوظيفة وفرص العمل في القطاعين العامّ والخاصّ لفئة أو لفئات تنتمي إلى لون ديني معيّن فيما يُحرم الآخرون ليس من فرص العمل وحسب، بل ومن فرصة الإسهام في بناء المجتمع الواحد، المتعدّد الثقافات والحضارات، على

أسس من العدل والمساواة في الحقوق والواجبات وتكافؤ الفرص بين الجميع. من هنا نظرته ورؤيته إلى أنَّ هذه المسألة يمكن أن تندرج، بل هي ترتبط فعلاً وتطرح قضية العلاقة بين الديانات... فإمّا أن تبشّر كلّها بغدٍ للتآخي وللتلاقي وللتكامل فيما بينها، أو تنذر بمستقبل خذلان وخصام وتصادم، على المصالح في الغالب لا على القيم، قد يعيد التاريخ على أعقابه القهقري... فالديانات والمؤسّسات التعليمية التابعة لها يفترض أن تكون منارة تلاقٍ وتوحيد، لا شرارات فرقة وتباعد. والحوار المحبّ المنفتح بين اللبنانيين يجب أن يبدأ من المدرسة ومن الجامعة، وبالتالي من مناهج التعليم وكتب التاريخ للاتّفاق على جوامع مشتركة فيما بينهم. من هنا طرح كمال جنبلاط ضرورة تأليف كتاب في تاريخ لبنان يتّخذ أساسًا ومرجعًا لتدريس هذه المادّة الأساسية في جميع مدارس البلاد وألّف لجنة للنظر في هذا الموضوع ضمّت إلى من ضمّت المؤرّخ قسطنطين زريق عن الجامعة الأميركية والأمير موريس شهاب خرّيج الجامعات الفرنسية وألكسي بطرس رئيس الأكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة. لكنَّ توجّهه ذاك لاقى معارضة شديدة من رئيس الكتائب وزميله في الحكومة بيار الجميل وقامت قيامة الأبواق والأصوات التي تنادي بأنَّ لبنان فينيقي ولا صلة له بالعرب إلاّ اللغة المستعملة من الجميع... وراحوا يذرفون دموع التماسيح على حرّية التعليم وعلى الحرّية الاقتصادية والتجارية المركنتيلية فردَّ عليهم كمال جنبلاط بأنَّ الحرّية تعني المعرفة والحكمة وليس الانفلات والفوضى.

وتمكّن كمال جنبلاط من إنشاء العديد من المدارس الرسمية، ولا سيّما في المناطق والمحافظات المحرومة التي لم تكن قد عرفت المدرسة بعد كما افتتح عددًا من المدارس المهنية والتقنية التي كانت تقتصر في السابق على مدرسة واحدة تسمّى "مدرسة الصنائع" وتقوم مكان حديقة الصنائع المعروفة حاليًّا... وأَوْلى الجامعة اللبنانية والتعليم الجامعي اهتمامًا خاصًّا فأصبح إدمون نعيم، أحد أركان الحزب التقدّمي الاشتراكي عميدًا لكلّية الحقوق والعلوم السياسية في الجامعة ورئيسًا للجامعة اللبنانية في مرحلة لاحقة... وصار كمال جنبلاط يدرّس في بعض كلّياتها. ويوم طرح موضوع افتتاح معهد لتعليم الحقوق باللغة العربية في "جامعة بيروت العربية" المنشأة حديثًا وهي فرع من جامعة الإسكندرية، تحرّكت قوى التعصّب واحتكار العلم والمعرفة فواجه كمال جنبلاط إضراب نقابة محامي بيروت باقتراح يهدف إلى إصدار قانون يمنع احتكار مهنة المحاماة لعدد محدّد من مكاتب المحاماة التي تستأثر بالتوكّل عن المؤسّسات التجارية والاستيرادية الكبرى والمصارف وسواها. ودعا

إلى تأمين فرص عمل متكافئة لجميع المحامين. وتمسّك كمال جنبلاط بموقفه المحقّ فتمّ الترخيص بتدريس الحقوق باللغة العربية على أن يكون ذلك الفرع من الجامعة العربية خاضعًا للجامعة اللبنانية ضمن شروط خاصّة.

واجه كمال جنبلاط الحملات المتجنية المهووسة بعقل إغريقي يستند إلى المنطق والعقل، وبلغة هندوكية لا تخلو من الترفّع والروحانية مشدّدًا على أنه لا يضمر أيّ عداء للمدارس الخاصّة، والأجنبية منها حصرًا، فهو تلقّى علومه من الابتدائي حتّى الثانوي في واحدة منها هي مدرسة عينطورة كسروان للآباء اللعازاريين الفرنسيين، وتابع دراسة الحقوق في الجامعة التي يديرها الآباء اليسوعيون... ويوم دعي، بصفته وزيرًا للتربية، إلى إلقاء خطاب التخرّج في الجامعة اليسوعية أدهش بموسوعيته وشمول ثقافته الإنسانية الحضور. ولا زال بعض الخرّيجين الذين التقي بهم يجاهرون بأنهم فخورون بتسلّمهم شهاداتهم من يد كمال جنبلاط شخصيًّا.

في تلك الحقبة من الزمن قام بيننا وبين جريدة «العمل» الكتائبية جدل ناري حام من المقالات والسجالات المتأجّجة بحمم التعصّب والتجنّي والانعزال عن كلّ ما هو عربي فحملوا على الرئيس جمال عبد الناصر وعلى سياسة الجمهورية العربية المتّحدة لا سيّما في مجال التأميم والاقتصاد وكان ذلك بتحريض من كبار المتموّلين الذين لجأوا إلى لبنان من سوريا ومصر والعراق وباتوا يشكّلون قوّة ضاغطة لها ثقلها في السياسة ووسائل الأعلام... فرددنا نحن في «الأنباء» بعنف مماثل، ولا أنسى كم تألّم كمال جنبلاط وأسخطه وصف افتتاحية للعمل له بأنه «نيرون» من طراز جديد يحاول إحراق لبنان فكتبت أنا مقالاً في الأنباء وصفت فيه كمال بك بأنه حكيم متجرّد مترفّع يتحلّى بمنطق الإغريق وحكمة الهند وصلابة الموحّدين المتصوّفين من بني معروف. فأعجبه الوصف وقال لي: هذا يساوي ألف مقال...

أمضينا شهورًا من التوتّر والتصعيد والتهديد أذكاها هذا العداء المجّاني أو غير المجّاني لدى الفريق الآخر ضدّ العرب والعروبة وجمال عبد الناصر فراحوا يحرّضون الشعبين السوري والمصري للانتفاض ضدّه وضدّ سياساته، ويتّهمون كلّ من يؤيّده ويناصره بأنه عدو لبنان والمسيحيين... إلى آخر المعزوفة الممجوجة المستهلكة...

وتلقّيت أنا شخصيًّا أكثر من تهديد ما حمل كمال جنبلاط على أن يضع في تصرّفي سيارة ومرافقين يحملون السلاح المرخّص لحمايتي وتأمين سلامتي...

دام وجود كمال جنبلاط في وزارة التربية عشرة أشهر (من آب ١٩٦٠ وحتّى منتصف أيّار سنة ١٩٦١) وليس شهرين كما ورد في الصفحة ٣٤٠ من كتاب عزّت صافي: "طريق المختارة ـ زمن كمال جنبلاط" أُنجز خلالها الكثير الكثير وتمكّن من مضاعفة موازنة تلك الوزارة التي وصفها بـ "المهمّة والحسّاسة" من ٣٥ مليون ليرة إلى ٧٠ مليونًا، وأَوْلى المناطق اللبنانية المحرومة اهتمامه الأبرز فوصلت، ولأوّل مرّة، المدارس الثانوية الرسمية إلى عكّار والهرمل والبقاع الغربي والنبطية وصور، وبدأ العمل لفتح ١٢ مدرسة مهنية في مختلف المناطق اللبنانية وعلى فتح ١٥٠ مدرسة ابتدائية رسمية مجّانية في كلّ أنحاء لبنان. وأبدى كمال جنبلاط تفهّمًا خاصًّا لمسألة المدارس المجّانية أو شبه المجّانية التابعة للطوائف والمذاهب فأبقى على مخصّصاتها ولو كان يتمنّى تحويل هذه المخصّصات إلى التعليم الرسمي وإلى الجامعة اللبنانية التي حظيت بكامل اهتمامه فتضاعفت موازنتها وكلّياتها وكانت أمنيته أن تكون جامعة الوطن وجامعة الشعب، تستحقّ لقبها الأكاديمي وتمنح خرّيجيها الشهادات الجديرين بها.

وكتب في "الأنباء" مقالاً افتتاحيًّا أعلن فيه: ما من أحد يرضى باحتكار العلم، ولا باحتكار الثروة. واستنادًا إلى تقرير الأب لوبره وبعثة إيرفد فإنَّ ثمانين بالمئة من اللبنانيين قد أُجبروا على أن يكون لهم احتكار الشقاء والحرمان... فكيف نستطيع أن نجعل هذا الاستعمار الداخلي على ثمانين بالمئة من اللبنانيين يبقى ويدوم؟!

اتّبع كمال جنبلاط في منهجية عمله العام ما أسماه: "الموالاة الإيجابية". فهو، وإن كان وزيرًا مشاركًا في الحكومة، فلا يمتنع عن انتقاد ما يراه غير محقّ وغير عادل ويتناقض مع سيادة لبنان وحقّه وواجبه في انتهاج سياسة خارجية محايدة ومتوازنة. كان يقول: نحن لا نوالي أشخاصًا. نحن نوالي أعمالاً ومشاريع وحسن أداء في العمل الحكومي كما نعارض كلّ ما يتنافى مع مبدأ المساواة والإصلاح في الداخل ومع مبدأ عدم الانحياز والانحراف في الخارج. ولقد أزعج هذا النهج كلاًّ من الرئيس فؤاد شهاب ورئيس الحكومة صائب سلام. انتقد جنبلاط بعنف اقتراع الوفد اللبناني الرسمي في الأمم المتّحدة ضدّ مشروع قرار يدعو إلى انتساب الصين الشعبية إلى المنظّمة الدولية. وسخر من هذا الانحياز الأعمى للسياسة الأميركية والخرق الفاضح لسياسة الحياد وإهانة كبرى لشعب لبنان الذي يعدّ ثلاثة ملايين نسمة ضدّ شعب صديق يبلغ تعداده ثلث مجموع سكّان العالم... كما اعتبر ذلك الموقف إهانة شخصية له بصفته رئيس اللجنة اللبنانية للتضامن الآسيوي الإفريقي وصديقًا

للصين... وقال جنبلاط في لقاء له مع الرئيس شهاب: مش قليل يا عمّي، صار لبنان الصغير بدّو يمنع العملاق الصيني من دخول الأمم المتّحدة. فبلع شهاب الملحوظة ووعد بتصحيح الخطأ في سنة لاحقة... كما انتقد جنبلاط التوجّه الدبلوماسي الرسمي المتزايد نحو فرنسا الديغولية المستمرّة في حربها ضدّ الشعب الجزائري المناضل من أجل الحرّية والاستقلال. وشدّد على أنَّ تأييد لبنان الرسمي والشعبي لنضال الشعب الجزائري يتجاوب بالكامل مع المصالح الوطنية للبنان ولشعبه.

وفي نهاية شباط ١٩٦١، وفي الذكرى الثالثة لقيام الجمهورية العربية المتّحدة بعث كمال جنبلاط ببرقية تهنئة إلى الرئيس جمال عبد الناصر قال فيها: "لو أذن للبنان أن يرحّب بكم لزحف بجباله ووديانه". وفي بداية شهر آذار من ذلك العام توجّه رئيس الحزب التقدّمي الاشتراكي على رأس وفد شعبي كبير إلى دمشق لتهنئة الرئيس عبد الناصر الذي كان قد وصل إليها وأعلن عن تأييده لمواقفه الوطنية والعربية ولقرارات التأميم وإعادة توزيع الثروة والأراضي على أبناء الجمهورية العربية الشقيقة. وألقى الرئيس عبد الناصر خطابًا هاجم فيه مواقف شمعون والكتائب والقوميين والصحف الناطقة بأسمهم أو المتحالفة معهم، واتّهمهم جميعًا بالتآمر على دولة الوحدة وعلى الشعبين السوري والمصري. وأدلى كمال جنبلاط بتصريح عبّر فيه عن تقديره للرئيس عبد الناصر وعن إعجابه بما تضمّنه خطابه وقال: إنَّ عبد الناصر تكلّم كزعيم لبناني حقيقي في حرصه على كيان لبنان واستقلاله وعلى الوحدة الوطنية لشعب لبنان. ودعا إلى التشدّد في التعامل مع كميل شمعون والقوميين الذين يحضّرون، على ما لديه من معلومات، لعمل ما ضدّ الحكم وضدّ وحدة الشعب اللبناني وتأييده للحركة العربية النامية بقيادة عبد الناصر.

والغريب العجيب في هذا السياق أنَّ الأحزاب الشيوعية العربية والاتّحاد السوفياتي التقوا مع الرجعية العربية والدول الغربية الكبرى، ولا سيّما الولايات المتّحدة الأميركية، في معاداة دولة الوحدة العربية الفتيّة. وكأن الخوف على المصالح النفطيّة يدفع الأخيرين، والتخوّف من قيام دولة عربية كبرى تضمّ مصر وسوريا والعراق وقريبة من حدود الاتّحاد السوفياتي ومن الدول الإسلامية التي يضمّها هذا الاتّحاد الشيوعي والتي بدأت تنزع إلى خصوصيّاتها وتتوق إلى استعادة استقلالها وملامحها الإسلامية الخاصّة بها. ففي العراق، على سبيل المثال، أقدم الشيوعيون مع عبد الكريم قاسم، على عزل التيّار العروبي

الوحدوي بقيادة عبد السلام عارف ووضعوهم في السجون وعلى تنقية الجيش العراقي من الضبّاط ذوي الميول الناصرية والعروبية.

ـ شهاب المتقوقع... الغائب عن قمّتي العرب ١٩٦٠ و١٩٦٤

لم يكن اللواء فؤاد شهاب زعيمًا شعبيًّا، أو رجلاً قريبًا من الناس، بل عرف عنه أنه إنسان يحبّ العزلة والتقوقع والابتعاد عن المشاكل والهموم. وربّما كان لمرحلة الطفولة والشباب في حياته الأثر البالغ في تكوين تلك الشخصيّة. الذين يعرفون تاريخ العائلة الدقيق يدركون ذلك أكثر من سواهم. فقد كان لنا جارة في بلدتنا الدامور ربطتها بأهلي صداقة ومزاورة هي خالة الرئيس فؤاد شهاب واسمها الشيخة دلال حبيش زوجة الشيخ حبيب محفوظ. الشيخة دلال هي من كسروان أصلاً، أمّا زوجها فهو أصلاً من ساحل بلاد جبيل. ولا أعلم بالتمام ما هي الظروف التي قادتهما لشراء بيت في الدامور والإقامة فيها. وكان للزوجين صبيّ واحد اسمه محفوظ وصبيّة واحدة اسمها هند. كانت الشيخة دلال وابنها محفوظ (وكان لا يقبل أن نلفظ اسمه إلاّ مقرونًا بلقب الشيخ) يرويان لي أنَّ اللواء فؤاد شهاب عرف طفولة تعيسة مليئة بالوحدة والاكتئاب ربَّما. فالوالد الذي كان رزق بثلاثة صبيان هم: فؤاد وفريد وشكيب، ترك زوجته وأولاده ذات يوم وسافر إلى الولايات المتّحدة الأميركية، ولم يعد يراسل العائلة ولا عرف في ما بعد شيئًا عن حياته أو مصيره...

وعندما أصبح فؤاد شهاب شابًّا توظّف في محكمة جونيه برتبة «مباشر»، وهو الذي يتولّى عادة المناداة على المتقاضين: مدّعٍ ومدّعًى عليه وشهود... ثمَّ يدخل إلى القاعة ليصرخ: «محكمة» فيدخل القاضي القاعةَ ويستوي في قوسه ويحمل مطرقته. ثمَّ دخل فؤاد لاحقًا سلك الجيش وترقّى، حتَّى تحقَّق الاستقلال سنة ١٩٤٣ فعيّنه الشيخ بشارة الخوري قائدًا لأول جيش وطني في لبنان، واستمرّ حتَّى تاريخ تسلّمه سلطاته الدستورية رئيسًا للجمهوريّة اللبنانية في ٢٣ أيلول سنة ١٩٥٨. قلَّة هم الذين يعرفون هذه التفاصيل ربّما. لكن هذه هي وقائع التاريخ نوردها على سبيل أخذ العلم وليس من قبيل التشهير أو التقليل من أهمّية الرجل الذي كنّا وما زلنا نكنّ له ولذكراه كلّ محبّة وتقدير.

انعقدت خلال ولاية الرئيس فؤاد شهاب قمّتان عربيتان: الأولى في مطلع سنة ١٩٦٠، والثانية في شهر أيلول سنة ١٩٦٤. وتغيّب الرئيس شهاب عن القمّتين...

عام ١٩٦٠ انعقدت القمّة العربية في القاهرة فتقرّر أن يمثّل لبنان فيها رئيس الحكومة الرباعية رشيد كرامي. ذكر يومها أنَّ الرئيس فؤاد شهاب مريض وينام على فراش وضع على بلاط غرفة نومه. وقيل إنَّه يشكو من آلام في عموده الفقري، وقيل إنَّه مصاب بـ"ديسك" ...

اختارني الرئيس كرامي لأنضمّ إلى الوفد الصحافي المرافق له. استقلَّينا طائرة تابعة لطيران الشرق الأوسط، وفي الطريق إلى القاهرة تحادثنا وتمازحنا مع رشيد كرامي. وكلّما تحدّث واحد من الصحافيين عن الإحراج الذي سيواجهه وفد لبنان في المؤتمر كان كرامي يجيب بطريقته الطرابلسية المحبّبة: "تفاءلوا بالخير تجدوه". ربطتني علاقة صداقة بأفندي طرابلس عندما كنت ألقاه في دارة آل سلام في بيروت خلال ثورة ١٩٥٨. كان يحادثني بتحبّب وعاطفة فيقول: ـ نسيب المتني شهيدنا مثلما هو شهيدكم. كان، رحمات الله عليه، مناضلاً وطنيًّا عربيًّا مقدامًا، كان صوت الناس ومحبوبًا من كلّ الناس.

وعندما صرت أزوره في بيتهم المتواضع في محلّة زقاق البلاط، بعد أن ترأس الحكومة الأولى في عهد الرئيس شهاب، ثمَّ الحكومة الرباعية، وكنت قد انتقلت إلى "الأنباء" كان يخاطبني بالقول: ـ أنت حبيبنا، وكمال بك صديقنا الغالي منذ أيام عبد الحميد (والده). وكان الوالد يحبّه كواحد من أولاده. ولا أنسى مطلقًا رثاء كمال بك المؤثر لعبد الحميد كرامي. (رشيد كرامي أصغر من كمال جنبلاط بثلاثة أعوام).

والحقيقة تقال إنَّ رشيد كرامي كان واحدًا من قلّة من رجالات الدولة النادرين. كان مجبولاً وطنيّة صادقة وعروبة صافية، وتهذيبًا رفيعًا، وخلقًا رضيًّا و "بالاً" ولا أطول، صاحب أعصاب فولاذية ونَفَس طويل طويل. لم يبدُ على أمارات وجهه، ونحن في الطائرة، من بيروت إلى القاهرة، أيّ إحراج. كان يبتسم ويمازح ويبسمل ويحمدل... وعندما راح سليم اللوزي، صاحب مجلّة "الحوادث" ورئيس تحريرها، وهو ابن طرابلس، يسأل ببعض الإحراج والتدقيق عن اسم المرض الذي يعاني منه الرئيس شهاب، وهل هو ديسك أو شيء آخر، أجابه كرامي: والله يا سليم لا أعرف اسمه بالضبط، لكن ما هو "ديسك" على ما اعتقد...

فتدخلت أنا وقلت: قد يكون ما يقال له "عرق الأنثى"، وهذا "اختصاص" طبيب من بلدتنا اسمه عزيز عون.

فقال رشيد كرامي: عفارم عليك... قالوا لي في بيته إنَّهم استدعوا طبيبًا من الدامور وعاينه... وبدا لي كأني أنقذت رشيد أفندي من الإحراج.

وصلنا إلى القاهرة ونزلنا نحن الصحافيين في فندق "شيبرد". وافتتحت الجلسة الأولى للقمّة قبل ظهر اليوم التالي وعقدت في مقرّ جامعة الدول العربية القريب من الفندق. حضرنا الجلسة العلنية والخطب وكان أول المتكلّمين الرئيس جمال عبد الناصر بصفته رئيس المؤتمر والدولة التي تستضيفه. وعندما انتهت الجلسة العلنية لتتحوّل إلى سريّة خرجنا. لكنَّنا كنّا مدعوّين على الغداء مع الرئيس كرامي في السفارة اللبنانية في القاهرة، وكان سفيرنا يومها جوزف أبو خاطر الذي صار في ما بعد نائبًا ووزيرًا للخارجية. وفي الموعد المحدّد حضرنا إلى السفارة، ثمَّ حضر الرئيس كرامي ومن معه ولوحظ حضور صحافيين مصريين كبار من بينهم محمَّد حسنين هيكل (وكان السفير أبو خاطر كلَّما سلّم أو صافح مجموعة من الأشخاص ينتحي جانبًا ويخرج زجاجة "سبيرتو" زحلاوي من جيبه ويطهّر يديه).

تحلّق الصحافيون العرب حول الرئيس كرامي وراحوا يمطرونه بالأسئلة. قال كرامي للصحافيين الذين راحوا يسألون عن نوع مرض الرئيس فؤاد شهاب تحديدًا: اسمه "العروسة"... ويا ليت هذه العروسة جاءتني أنا، فأنا عازب وما زلت في حاجة إلى "عروسة"... وضحك كرامي وضحك معه الجميع.

وعلّق محمَّد حسنين هيكل بالقول: أنت تستاهل أجمل عروسة يا دولة الرئيس الطيّب الوفي...

وبدا للجميع أنَّ رشيد كرامي كان يبذل المستحيل لتغطية غياب الرئيس شهاب عن المؤتمر بالتي هي أحسن...

ومساء استقبلنا الرئيس كرامي في جناحه الخاصّ: الزميلين وفيق الطيبي وسليم اللوزي وأنا. أخبرنا أنَّ أجواء المؤتمر كانت ممتازة، وأنَّ الموضوع الرئيسي الذي بحثه المؤتمر كان مسألة روافد الأردن والقرار الذي اتّخذته حكومة إسرائيل عام ١٩٥٩ بإقامة شبكة مائية عامّة في إسرائيل تتغذّى من حوض نهر الأردن. وقال الرئيس كرامي: لقد عرض علينا أنَّ ترابط وحدات من الجيشين المصري والسوري في الأراضي اللبنانية لحمايتنا من التهديدات الإسرائيلية فرفضت، وقلت إنَّ أوضاع لبنان الخاصّة لا تسمح بمثل ذلك، وإنَّنا

كحكومة لبنانية نفضّل الحصول على مساعدات ماديّة لتطوير قوّاتنا المسلّحة (الجيش اللبناني). وأضاف الرئيس كرامي أنَّ الرئيس جمال عبد الناصر دعم موقف لبنان وتمنّى على جميع الرؤساء والملوك المشاركين في المؤتمر تفهّم أوضاع لبنان الخاصّة واعتباره دولة مساندة وليس دولة مواجهة.

وختم كرامي بالقول: لقد شكرت للرئيس عبد الناصر موقفه الأخوي هذا، كما شكرت له عاطفته النبيلة إزاء لبنان وشعب لبنان.

وبفضل الرئيس عبد الناصر، وجهود الرئيس رشيد كرامي مرّ «القطوع» الأول على خير...

كان شارل حلو قد انتخب رئيسًا للجمهوريّة في لبنان لكنّه لم يكن بعد قد تسلّم سلطاته الدستورية. وتلقّى لبنان دعوة لحضور مؤتمر القمّة العربي الثاني الذي انعقد في الإسكندرية مطلع شهر أيلول سنة ١٩٦٤. كان الرئيس فؤاد شهاب ما زال الرئيس الدستوري الشرعي للبلاد لأنَّ جلسة أداء القسم للرئيس حلو ستعقد في ٢٣ أيلول. لكن الرئيس شهاب قال لمن حوله:

ـ أنا راحل من الرئاسة ولن أذهب إلى مؤتمر قمّة قد يفرض على لبنان ارتباطات معيّنة. أنا أُفضِّل أن يذهب الرئيس المنتخب شارل حلو... وتجاوب الحلو وقال لشهاب، وعلى طريقته المعهودة: ـ رضاك... وأمرك... وسأذهب!

ولم يكن ذهاب شارل حلو شرعيًّا أو ودستوريًّا لكنّه حصل... وحصل الأدهى من ذلك وأعظم...

موضوع المؤتمر الثاني الذي دعا إليه الرئيس عبد الناصر بصورة عاجلة كان هو الموضوع عينه: مياه نهر الأدرن وتهديدات إسرائيل بإنشاء قناة لجرّ المياه إلى صحراء النقب... وكانت التهديدات قد بلغت ذروتها عام ١٩٦٣وتكهرب الموقف على الحدود السورية الإسرائيلية، وكادت الاشتباكات المسلّحة المحدودة أن تدفع إسرائيل وسوريا إلى الحرب... وطرحت في المؤتمر مسألة تحويل الروافد الشمالية لنهر الأردن ومنها نهر الوزّاني، وطرحت مسألة التعاون العسكري، وأنشئت القيادة العربية الموحّدة بقيادة الفريق أول علي علي عامر وهو مصري، فنزل شارل حلو عند الضغوط المصرية والسورية فوافق على مساهمة لبنان في القيادة العربية المشتركة وعلى الشروع بعد فترة بأعمال تحويل مجرى نهر الوزّاني...

وهكذا حوّل شارل حلو، وبشحطة قلم، وهو الذي لم يكن قد صار بعد رئيسًا دستوريًّا وشرعيًّا للجمهوريّة اللبنانية، حوّل لبنان من دولة مساندة إلى دولة مواجهة تسهم في القيادة العربية المشتركة وتكون تحت أُمرتها.

ولم يكتفِ شارل حلو بالموافقة على هذا وحسب، بل وافق على الاعتراف رسميًّا بمنظّمة التحرير الفلسطينية ومنحها صفة الوفد المراقب في جامعة الدول العربية، كما وافق على قرار تشكيل جيش التحرير الفلسطيني لكنّه طلب أن لا تكون لهذا الجيش قواعد في الأراضي اللبنانية وأن يغادر الفلسطينيون الذين ينخرطون فيه أرض لبنان دون رجعة... وهو قرار نظري فالحدود مع سوريا مفتوحة ومشرّعة حتَّى أيامنا هذه...

وقبل دخول شارل حلو القصر الرئاسي رئيسًا دستوريًّا عاد من الإسكندرية وهو يتأبّط "شمعة على طولو"... فإنَّ لبنان بدأ يميل مع موافقات شارل حلو... ومن الآن فصاعدًا وبشكل خطير ومضطرد صوب المشاركة المباشرة في النزاع العربي ـ الإسرائيلي وفي المشكلة الفلسطينية وبشكل مباشر... وهو أمر كان اللبنانيون قد نجحوا في تفاديه سنوات وسنوات طويلة...

ـ زفت ومياه وكهرباء وتصميم عام مع ألاب لوبره

في ٢٠ أيار سنة ١٩٦١ شكّل صائب سلام حكومته الثانية في عهد فؤاد شهاب وجاءت مصغّرة تضمّ ستّ وزراء، تولّى كمال جنبلاط فيها وزارتي الأشغال العامّة والتصميم العامّ... كانت وزارة الأشغال تشمل تقريبًا معظم القطاعات: الطرق والأوتوسترادات، التنظيم المدني، المياه والكهرباء، مصلحة نهر الليطاني، المطار والمرافئ في بيروت وطرابلس وصيدا وصور وسواها...

أمّا وزارة التصميم العامّ فكانت مهمّتها الأولى عهد ذاك التنسيق مع الأب جوزف لوبريه وبعثة "ايرفد". والأب لوي جوزف لوبريه (LEBRE) هو راهب يسوعي يشغل في باريس منصب مدير معهد البحوث والتدريب على الإنماء (ايرفد) وهو معهد معروف جدًّا في أوروبا. وقد استدعاه الرئيس شهاب وعهد إليه مهمّة إجراء مسح شامل وتحليل دقيق للأوضاع الاقتصادية الحقيقية في لبنان، باشرت البعثة مهمّتها في لبنان عام ١٩٦٠. وفي أيار ١٩٦١ قدّمت إلى الحكومة اللبنانية تقريرًا مؤلّفًا من مجلّدين. وخلافًا لما شاع أنَّ عهد كميل

شمعون قد حقَّق الازدهار الاقتصادي في لبنان، فإنَّ تقرير لوبريه أكّد، وبالأرقام، مدى التفاوت الكبير في توزيع الثروات الوطنية بين مختلف فئات السكان ومناطق البلاد. وأفادت معطيات تقرير «ايرفد» أنَّ نصف سكان لبنان هم من الفقراء والمحرومين، وأنَّ نصيب هذا النصف من الناتج الوطني الإجمالي لا يصل إلى حدود ١٨ بالمئة... فيما تتجاوز حصّة النصف الثاني المؤلّف من ذوي الدخل المتوسّط والأثرياء نوعًا ٧٥ بالمئة من الدخل... وتستأثر فئة تتألّف من ٤ بالمئة من السكان بالثروات الكبرى وتهيمن على مراكز النفوذ الاقتصادي في لبنان.

ظنَّ الرئيس شهاب أنَّ تكليف راهب يسوعي بمثل هذه المهمّة قد يكون له وقعه الإيجابي في الأوساط المسيحية على الأخصّ، لكن فات الرئيس العسكري أنَّ المال لا دين له ولا طائفة ولا مذهب (وقصّة قايين الذي قتل شقيقه هابيل طمعًا بماله وبنصيبه في إرث الوالد ماثلة للعيان)... قامت الضجّة في صفوف القابضين على ثروات البلاد واحتكارات الدواء والخبز وكبار المستوردين وانعكس ذلك في مقالات بعض الصحف وتصريحات بعض السياسيين... فوصفوا الأب لوبريه بـ«الراهب الأحمر» وبدأوا يشيعون بأنَّ عهد فؤاد شهاب يقود لبنان نحو الإشتراكية... وربّما لجأ إلى التأميم... وكأنه لم تكفِ فؤاد شهاب حكاية أجراس الكنائس التي قرعت حزنًا في بعض بلدات كسروان وسواها يوم انتخابه... حدادًا على المسيحيين وعلى نفوذهم في الحكم... فالرئيس الآتي من الجيش ينتسب أصلاً إلى الإسلام واسم جدّه وجدّ جدّه حسن شهاب... وهو صديق عبد الناصر «البعبع» الذي كانوا «يخوّفون» به الرأي العامّ المسيحي المتزمّت...

لكن كمال جنبلاط أقام أفضل العلاقات مع الراهب اليسوعي «الأحمر»، فراح يلتقيه دوريًّا وينسّق معه في شأن وضع مقترحاته وحصيلة أرقامه موضع التنفيذ. كما كان يلتقي كذلك مع راهب يسوعي آخر تعاقد معه عهد شهاب اسمه الأب لوجنيسيل LE Jenisselle وهو خبير اجتماعي أجرى مع معاونيه مسحًا إنمائيًّا لمدينة بيروت تبيّن من خلاله أنَّ شبكات مياه الشرب في العاصمة لم تعد صالحة للاستعمال وأنَّ شبكة المجارير الصحيّة القريبة منها تسرّب إليها التلوّث... وأنَّ في بيروت حوالي ٥ ملايين جرذ تهدّدها بالآفات والأمراض... وأنَّ أسلوب ونمط البناء في العاصمة يشوّه البيئة ويهدّد السكان على المدى الأبعد بتنشّق هواء غير صحّي، بل وملوّث...

أولى كمال جنبلاط أوضاع الطرق في لبنان اهتمامًا رئيسيًّا وهو تمكّن، من خلال أقلّ من خمسة أشهر هي المدّة التي استغرقتها فترة حكم حكومة سلام الثانية، من وضع خطّة خمسيّة لتنمية الطرق والماء والكهرباء بلغت موازنتها حوالي خمسماية مليون ليرة لبنانية، وهو رقم قياسي بالنسبة إلى لبنان في ذاك العهد، وأوصى باستغلال مياه نهر الليطاني على منسوب مرتفع (بين ٦٠٠ و٨٠٠ متر) وذلك لكي تغطّي وتروي المياه المستغلّة أكبر مساحة ممكنة من أراضي الجنوب المحروم والذي كان كمال جنبلاط يوليه اهتمامًا خاصًّا، ولكي لا تستمرّ مياه الليطاني تنساب إلى البحر فتزداد أطماع إسرائيل بمياهنا بحجّة أنّنا نحن لا نحسن استغلالها.

وتحوّلت دوائر وزارة الأشغال العامّة إلى خليّة من النحل؛ كان الوزير المثال يداوم فيها قبل الظهر وبعده ومعظم الأيام حتّى ساعة متأخّرة من المساء، يضع تصاميم المشاريع مع فريق من كبار المهندسين والمستشارين العاملين في القطاع الخاصّ، ويوصي موظّفي وزارته بضرورة القيام بواجب الوظيفة بأمانة ونزاهة ووفقًا للقوانين التي كان يدعو لتلمّس روحها لتسهيل معاملات المواطنين، لا الاكتفاء بالتقيّد بالنصّ الجامد الذي هو في غالب الحالات يحتاج إلى تطوير وتعديل. وكان يقول: الإنسان أهمّ من النصّ، وكلّ النصوص يجب أن تكون في خدمة المواطن الإنسان وليس عائقًا في سبيل ذلك...

وعلى سبيل المثال لا الحصر أذكر أنَّ أحد مديري الوزارة كان يفاوض الرهبانية اللبنانية المارونية (أو رهبنة الكسليك كما يطلق عليها) من أجل شراء مياه نبع "حوب" في أعالي منطقة البترون لاستغلاله في إيصال مياه الشفّة (الشرب) إلى عدد من البلدات والقرى، وحصل خلاف على السعر المحدّد فتوسّطني رئيس الرهبانية آنذاك الآباتي إغناطيوس أبو سليمان فأمّنت له موعدًا مع الوزير التقدّمي المقدام... استمع الوزير جنبلاط إلى رئيس الرهبانية، ثمَّ استدعى المدير المعني بالموضوع، وكان مارونيًّا، وخاطبه بالقول:

ـ هذا مال وقف... ولا غضاضة إذا ما رفعنا المبلغ المخصّص للرهبنة... وأضاف مازحًا: يا عمّي تاخدو الرهبنة ولا ياخدوه الحراميّة... وكان ثمّة "خوّة" مفروضة على الرهبانية لإتمام المشروع... وكان المدير المعني مارونيًّا فوضع رأسه في الأرض خجلاً كما يقال... وأتمّ الوزير جنبلاط الصفقة ووقّع الاتّفاق فرفع المبلغ ٢٥ ألف ليرة، ومنع أيّ موظّف من تقاضي أيّة عمولة... فدعاه الآباتي لزيارة دير وقبر الأب شربل مخلوف الذي صار في ما

بعد قدّيس لبنان، في أعالي بلاد جبيل... وكانت ساحة الدير كما طريقه "غير مزفّتة"، فأمر كمال جنبلاط بتزفيتها فاستحقّ الشكر والثناء من رجال "الجيش الأسود" كما كان هو يسمّيهم... والأمثلة على ذلك كثيرة، ففي بلدة قرنة شهوان المتنيّة كوع أمام مقرّ المطرانية المارونية ما زال حتّى أيامنا يطلق عليه "كوع جنبلاط"... كان الوزير قد أمر، بعد زيارة قام بها للمطرانيّة في عهد المطران الياس فرح، ببنائه بالحجر الأصفر المقصوب...

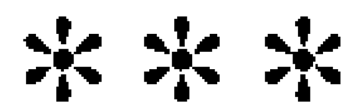
لكنَّ مراكز القوى في الدولة، وكانت تدخّلاتها قد ازدادت وتشعّبت بعد استقالة الرئيس شهاب والعودة عن الاستقالة... لم تكن على علاقة جيّدة برئيس الحكومة صائب سلام الذي يتمتّع بشخصيّة قوية ويدخّن السيكار الهاپاني وينفث دخانه في وجه الرئيس وداخل جلسات مجلس الوزراء... كما كانوا يشيعون ويقولون... اختلفت الأمزجة بين الرجالات الثلاثة: فؤاد شهاب وصائب سلام وكمال جنبلاط وجاء من يحرّض ويدخل على الخطّ... فحصل شجار داخل مجلس الوزراء بين صائب سلام وكمال جنبلاط فانفجر الوضع وأعلن سلام تقديم استقالة الحكومة، فلم يلحظ أيّ ممانعة أو تحفّظ أو مجاملة من قبل الرئيس شهاب، فخرج صائب سلام من الحكم في عهد فؤاد شهاب ولم يعد إليه إطلاقًا... وحصل ذلك في أواخر شهر تشرين الأول سنة ١٩٦١...

كتب كمال جنبلاط في "الأنباء" عن تجربته في وزارة الأشغال، فقال: "إنَّنا تعلّمنا مهنة جديدة، واكتسبنا معارف عملية في حقول التنمية والإنشاء".

وكتب المهندس مالك سلام، الذي شغل مدير عامّ الطرق والمباني والتنظيم المدني سنة ١٩٦١، ثمَّ رئيسًا لمجلس المشاريع الكبرى في مدينة بيروت يوم تسلّم كمال جنبلاط وزارة الأشغال للمرّة الثانية، كتب فقال: "إنَّني وعلى ضوء تجربة علاقتي اليومية مع الأستاذ كمال جنبلاط كوزير للأشغال يمكنني القول إنَّه كان من أنجح الوزراء الذين تعرّفت إليهم، كما كان أقدرهم وأكفأهم وأكثرهم انكبابًا على العمل. وكان لا يخطو خطوة قبل الدرس الدقيق المسبق لها، تمامًا مثلما كان في السياسة. إنَّ تعاوني مع كمال بك كوزير كان تعاونًا مثمرًا بنّاءً أنجزنا خلاله الكثير نتيجة الثقة المتبادلة لدرجة أنه حين استقالت الحكومة عام ١٩٦٧ أرسل لي كتاب تقدير وتنويه بمنجزاتي العمرانية. وما زلت أحتفظ بهذا الكتاب وأعتزّ به اعتزازًا كبيرًا".

وفي عود إلى استقالة الرئيس صائب سلام فنحن نعتقد أنَّ ظروفًا إقليمية ضاغطة

فرضتها وتلاقت مع المعطيات الداخلية الآنفة الذكر. كان الانفصال قد حصل بين مصر وسوريا وانهارت الجمهوريّة العربية المتّحدة في ٢٨ أيلول ١٩٦١. وعرف يومها أنَّ السعوديّة كانت الداعم الأول لحركة الانفصال التي قادها فريق من ضبّاط الجيش السوري الذين لا لون لهم ولا طعم ولا رائحة وعلى رأسهم عبد الكريم النحلاوي، مدير مكتب المشير عبد الحكيم عامر نائب رئيس الجمهوريّة العربية المتّحدة وحاكم الإقليم السوري. وذكر أيضًا أنَّ السعوديّة هي التي موّلت الانفصاليين. وكان صائب سلام أقرب إلى السعوديّة منه إلى عبد الناصر. وكان المطلوب من محيط الرئيس فؤاد شهاب ومن القاهرة وأركان حرب الرئيس عبد الناصر رئيس حكومة في بيروت يكون أكثر قربًا من الاثنين ـ أي من شهاب ومن عبد الناصر ـ أكثر منه إلى السعوديّة... فتقرّر إزاحة صائب سلام والإتيان برشيد كرامي رئيسًا للحكومة. والمسألة ليست مسألة «سيكار» أو «قرنفلة» أو ما شابه، كما ذكر وقيل في روايات الشهابيين والمتشيّعين لهم.



الانفصال... وحكايات المشير
وانكفاء عبد الناصر وانقلاب القوميين

"القضيّة الشرقية كانت ولا تزال هي هي... ولكنّها أضحت خطيرة جدًّا منذ اكتشف الغرب أنَّ ثلثي احتياطي البترول العالمي يرقد تحت رمال الجزيرة العربية، وفي بعض منبطحات بلاد ما بين النهرين. إنَّ دول الغرب تنظر إلى منطقة الشرق الأوسط من خلال الحفاظ على مصالح البترول الضخمة، لا من خلال مصلحة شعوب المنطقة في الاستقرار والتعاون المشترك لتنمية مواردها المحلّية والتغلّب على أزمات الفقر، واحتكار الثروات، والنقص في وضع التخطيطات وتنفيذها".

"المعضلة في لبنان: هل يتوفّر لنا رئيس مقبل يستطيع أن يتابع سياسة الرئيس شهاب، ويحقّق هذا النهج، ويتمرّس بهذه الروح من الشجاعة، ومن الفضيلة والتحرّر والعزّة والكرامة... وبهذا الحدب المحبّ المخلص على الفئات الاجتماعية الشعبية، أيًّا كان لونها ومذهبها وحزبها ومسكنها، وبهذه "الاشتراكية المسيحية"، إذا صحّ التعبير" ؟!

كمال جنبلاط
(١٩٦٤)

في ٢٨ أيلول سنة ١٩٦١ انهار الهيكل على من فيه وسقطت أول تجربة وحدوية في تاريخ العرب الحديث... سقطت الجمهوريّة العربية المتّحدة وحصل الانفصال مجدّدًا بين مصر وسوريا في انقلاب عسكري قام به فريق من ضبّاط الجيش السوري بدعم وتمويل من المملكة العربية السعودية. وجه الغرابة الكبير في الحدث أنَّ الضابط عبد الكريم النحلاوي الذي تصدّر الانقلاب كان مديرًا لمكتب المشير عبد الحكيم عامر نائب الرئيس عبد الناصر وحاكم الإقليم السوري الفعلي. ووقف النحلاوي في اليوم الأول للحدث لأخذ الصورة التذكارية مع رفاقه الضبّاط قادة الانقلاب الانفصالي فإذا هم مجموعة من الضبّاط الذين لا لون لهم ولا طعم ولا رائحة، أي أنهم لا ينتمون لأيّ حزب معروف أو تنظيم سياسي.
اعتبر الحزب التقدّمي الاشتراكي، في بيان لمجلس قيادته صدر في الأول من تشرين الأول، أنَّ ما حصل يعتبر ردّة فعل عن التحرّر الوطني وعن مبادئ الاشتراكية التعاونية التي أعلنتها

الجمهوريّة العربية المتّحدة... وهو امتداد لمخطّط نوري السعيد والملك عبد الله في إنشاء الهلال الخصيب الذي يتمّ بتجزئة كيان لبنان والقضاء على استقلاله.

لكن افتتاحيّات كمال جنبلاط في «الأنباء» خلال شهر تشرين الأول أخذت منحى آخر. في تحليله الموضوعي لأسباب الانفصال والنتائج المحتملة للأحداث وجّه الزعيم التقدّمي عتابًا إلى الرئيس جمال عبد الناصر لإقدام نظام حكمه على منع نشاط الأحزاب التقدّمية في سوريا وفي مقدّمها حزب البعث العربي الاشتراكي، الذي أيّد الوحدة وكان أحد أركانه أكرم الحوراني نائبًا لرئيس الجمهوريّة العربية المتّحدة؛ وقال جنبلاط: كان بإمكان حزب البعث أن يلعب دورًا مهمًّا في تنمية الروح الاشتراكية وأن يقدم لقيادة الجمهوريّة العربية المتّحدة دعمًا فعّالاً في صدّ مقاومة البورجوازيّة الكبيرة والإقطاعيين الذين أغضبتهم قرارات التأميم ولا سيَّما في دمشق وحلب حيث ثمّة فئة كبرى من السكّان تتعاطى التجارة والصناعة وعلى الأخصّ تجارة الاستيراد والتصدير. كما انتقد جنبلاط الإمعان في منع النشاط السياسي في الجيش، ما جعل الضبّاط البعثيين يتركونه أو يفصلون عنه، وما جعل نفوذ الضبّاط ذوي النزعة الانفصالية يتسلّمون معظم قيادات الجيش ومراكز القوى فيه.

وحاول كمال جنبلاط التخفيف من حدّة وقع الانقلاب الانفصالي بعدما زاره موفدون من دمشق فكتب يقول: إنَّ الحركة الدمشقية لم تكن نكسة بالمعنى الصحيح على قدر ما هي ردّة فعل عصبية وغير واعية إلى الوراء... لكنّه نبّه إلى أنَّ الاستقرار السوري لن يتحقّق ويتمّ إلاَّ إذا انسجمت معه الأوضاع المجاورة... ولا بدّ من التنبّه وتأمين مستلزمات الاستقرار في لبنان... وقال، وكأنه يتنبّأ بما سيحصل في نهاية العامّ (أي انقلاب الحزب القومي): إنَّ أحداثًا جسامًا تنتظرنا قبل فصل الربيع!

وفي التحليلات الصحافية والسياسية لما حصل أنَّ الأخطاء تراكمت منذ مطلع عهد الوحدة. فتقارير المخابرات وأجهزة القمع كثيرًا ما تضلّل الحاكم مهما كان صالحًا ونزيهًا فتحرف مسيرة حكمه نحو أبعاد ومنزلقات لم يكن أحد يحسب لها حسابًا. فمنذ الفترة الأولى لقيام الجمهوريّة العربية المتّحدة نقل نائب الرئيس السوري أكرم الحوراني إلى القاهرة فأصبح له مكتب وبيت لكنّه بات بدون عمل في الواقع... فهو يجهل كلّ شيء عن أوضاع مصر وشؤونها وشجونها ناهيك عن أنَّ الصلاحيّات التي أعطيت له لم تكن تخوّله أن يفعل أيّ شيء. ونقل نائب رئيس الجمهوريّة الآخر العسكري عبد الحكيم عامر إلى

دمشق فتسلّم حكم سوريا فعليًّا. وكان سيادته محبًّا لملذّاته الشخصية يقضي لياليه في معاقرة الخمرة وفي معاشرة النساء، وقليلاً جدًّا ما كان يداوم في مكتبه... وإذا جاء ففي فترة ما بعد الظهر معظم الأحيان. وكان عامر لا يعرف خصوصيّات دمشق وشعبها ولا المناطق السورية وحاجاتها... وهو دخل في مناكفة شبه يومية مع عبد الحميد السراج وزير الداخلية في الإقليم السوري، وهو شغل قبل الوحدة منصب رئيس المخابرات السورية وكان يعرف عن وطنه وبلاده الكثير الكثير.

وفي عود إلى الداخل اللبناني، فلقد شكّل رشيد كرامي حكومة تسلّم كمال جنبلاط فيها وزارة الداخلية والعلاقات مع بعثة «إيرفد». واجهت كمال بك مع دخوله مكتبه في الداخلية مسألة المصريين الذين كانوا يتركون سوريا نتيجة لانقلاب الانفصال وبينهم ضبّاط في الجيش المصري ورجال أعمال كانوا يتدفّقون بالعشرات على معبري المصنع والعبودية، أو كانوا يدخلون لبنان عبر معابر التسلّل ـ وما أكثرها ـ فيلجأون إلى السفارة المصرية بانتظار تأمين سفرهم إلى القاهرة. سهر كمال جنبلاط على الاهتمام بهؤلاء الأشقّاء فأسهم في تأمين الحماية والإقامة لهم ريثما يتمّ نقلهم إلى بلادهم فتلقّى رسالة شكر وتقدير من الرئيس عبد الناصر.

وانصرف كمال جنبلاط في ما بعد إلى الإحاطة بشؤون وشجون وزارة الداخلية وما أكثرها وأعقدها... وخصوصًا في مجال تنظيم قوى الأمن الداخلي من درك وشرطة وأمن عامّ وبلديّات، وفيما هو منكبّ على دراسة هذه الملفّات، إذا بالجميع في لبنان يفاجأ بالانقلاب القومي السوري الذي حصل ليلة رأس سنة ١٩٦١ ـ ١٩٦٢. تمكّن الانقلابيون وعلى رأسهم الضابطان فؤاد عوض وشوقي خير الله من احتلال وزارة الدفاع لفترة من الزمن واعتقلوا ضبّاط الأركان وقائد موقع بيروت العسكري وقد أخرجوهم من أسرّتهم بثياب النوم الداخلية... وتوجّهت قوّة منهم بقيادة الملازم علي الحاجّ حسن إلى جونيه لاعتقال الرئيس شهاب لكنّها لم تصل إلى هناك لأنّ الانقلاب قد أحبط عسكريًّا وفرّ قادة الحزب السياسيون وعلى رأسهم الدكتور عبد الله سعاده رئيس الحزب وأسد الأشقر معاونه ورئيس الحزب السابق وسواهم.

وتبيّن للمراقبين أنّ مخابرات العقيد أنطون سعد كانت غبيّة ومخترقة كما جهاز الأمن الذي كان ينسّق معه، بل كان تحت وصايته. وإلاّ كيف كان يمكن أن تمرّ كلّ الاستعدادات

التي قام بها القوميون، لا سيَّما الضبّاط في الجيش لتنفيذ الانقلاب. بعض هؤلاء الضبّاط جاء مع قوّة صغيرة من منطقة الجنوب (قبل صور بمسافة قصيرة)... كما أنَّ رئيس الحزب القومي عبد الله سعاده، ومن قبيل التمويه والتضليل، كان قد حجز "قاعة السفراء" في كازينو لبنان لليلة رأس السنة، كما نقل كلّ أملاكه في بيروت ومنطقة أميون إلى اسم زوجته تحسّبًا لفشل المحاولة الانقلابية ولما قد ينتج عن ذلك من ملاحقات قضائية ومصادرة أملاك الحزب ورئيسه...

وجنَّ جنون العقيد سعد والمخابرات والشرطة العسكرية فراحوا يعتقلون الناس بالمئات وبالآلاف ويسوقونهم إلى المدينة الرياضية التي غصّت قاعاتها وملاعبها بالآلاف منهم... وكان الزمن أول كانون الثاني والأيام التي تلته، أي في عزّ الشتاء والبرد و"التعتير". وغصّت مكاتب وزارة الداخلية بعشرات ومئات المراجعين الذين يسألون عن أهلهم وذويهم فيجري وزير الداخلية كمال جنبلاط الاتّصالات بالمعنيين في الجيش... ولا من يسمع أو يجيب... الأمر الذي حمله على التوجّه إلى منزل الرئيس فؤاد شهاب في جونيه وإلى وضعه في الصورة الحقيقية لما يجري، وعلى مطالبته بتطبيق القوانين والاكتفاء باعتقال من يثبت عليهم في التحقيق أنهم شاركوا فعلاً في الإعداد للانقلاب أو في عمليّات التنفيذ... وأخذ ذلك حيّزًا كبيرًا من الوقت حتّى اقتنع الرئيس العسكري الذي كان مستهدفًا فاستدعى وزير العدل فؤاد بطرس وطلب منه التنسيق مع ضبّاط الجيش لتطبيق القوانين المرعية الإجراء ولمحاكمة المتّهمين بما يكفل إحقاق الحقّ واستقامة العدالة. وكان فؤاد بطرس قبل تعيينه وزيرًا للعدل قاضيًا في مجلس شورى الدولة مسؤولاً عن ملفّات الجيش والالتزامات فيه فأعجب به وبنزاهته قائد الجيش حينها فؤاد شهاب، فسجّل اسمه في مفكّرته وتمّ تعيينه وزيرًا للعدل، كما حصل الأمر مع الياس سركيس من قبل.

لم يكن عدد المشاركين الفعليين في الانقلاب يصل إلى ٢٢٥ شخصًا بينهم ١١ عسكريًّا وفق وثائق المحكمة العسكرية. وقد أثار الانقلاب الهلع في النفوس، فطالب عدد من الوزراء والنوّاب ورجال السياسة والصحافة والقادة العسكريين بإعلان الأحكام العرفية وحالة الطوارئ في البلاد، إلاَّ أنَّ وزيري الداخلية والعدل كمال جنبلاط وفؤاد بطرس عارضا ذلك وأقنعا الرئيس شهاب بوجهة نظرهما.

جرت محاكمة القوميين الانقلابيين أمام المحكمة العسكرية على درجتين. المحكمة

العسكرية العادية كانت برئاسة الزعيم جميل الحسامي وقد حكمت على العديد منهم بالإعدام. ثمَّ مثل المتّهمون أمام محكمة التمييز العسكرية برئاسة القاضي إميل أبو خير. وترافع المحامي الكبير يوسف السودا عن أسد الأشقر والمتّهمين فأعدّ دراسة قانونية مستفيضة بيّن فيها أنَّ الجريمة المرتكبة ذات طابع سياسي، وتمكّن في النتيجة من إقناع المحكمة بأنها جريمة سياسية فصدرت الأحكام بإلغاء الإعدام عن العديد من المتّهمين واستبدالها بالأشغال الشاقّة المؤبّدة. جرت المحاكمات في قاعة قصر الأونسكو الكبرى، وظلّ المحكومون في السجن إلى أن أصدر الرئيس شارل حلو عفوًا عنهم في نهاية عهده...

ولم يظهر لا في سياق المحاكمة ولا في الوثائق التي صدرت عنها ما يؤكّد أنَّ القوميين الانقلابيين كانوا ينوون قتل كمال جنبلاط كما ذكر... فهم كانوا يحفظون له الموقف الذي اتّخذه بعد إعدام زعيم الحزب أنطون سعاده عام ١٩٤٩، ويكنّون له التقدير والاحترام.

مع وجود كمال جنبلاط على رأسها تحوّلت وزارة الداخلية إلى خليّة من النحل: الاجتماعات قبل الظهر وبعده، وأحيانًا في المساء. الملفّات تدرس واحدًا واحدًا، وللمرّة الأولى بأسلوب علمي ووطني وأخلاقي بعيدًا عن الحزبية الضيّقة والمصالح الآنيّة الخاصّة. وبدأ رجل الدولة ـ المثال يوقّع على قرارات إنشاء البلديّات في البلدات والقرى التي ليس فيها بلديّات، على اعتبار أنَّ البلديّة هي التي تهتمّ بإنماء البلدة وبناها التحتية فأنشأ عددًا من البلديّات في أقضية جبل لبنان والجنوب والبقاع عكّار وأقضية الشمال الأخرى. في الشوف استحدث بلديّات في بلدات: المشرف، الجيّه، مزرعة الضهر، المطلّة، الكنيسة وعمّيق وسواها وأجريت انتخابات محلّية بدّلت الكثير في معطيات القوى الانتخابية في هذه البلدات. وعندما تمكّنا من ربح انتخابات هذه البلديّات رنّ جرس الهاتف في مكتبي، وقال الذي كان على الجهة الأجرى من الخطّ: ـ العقيد سعد يريدك عند الساعة العاشرة من قبل ظهر الغد. وعندما حضرت على الموعد المحدّد راح رئيس المكتب الثاني يزرع غرفته جيئة وذهابًا ويقول: ما هذا الذي تفعله؟ وظننت أنا أنني ارتكبت جريمة ما، أو أنَّ ملفًّا ما قد رتّب لي، فسألت: وما الذي فعلته يا حضرة العقيد؟

قال: نحن لا نريد أن نجيّر المسيحيين لكمال جنبلاط... نحن نريدهم أن يكونوا معنا وليس معه.

فأجبته بهدوء: ومن أنتم حتّى تستعمل هذا الـ«نحن» بهذه الطريقة. أنتم يا حضرة

العقيد ضبّاط موظّفون لدى الدولة... اليوم أنتم في هذا المنصب، وغدًا قد تكونون في منصب آخر. أنتم لستم حزبًا ولا جماعة سياسية أو جبهة سياسية ما...

فعلا صوته وانقبضت أسارير وجهه وقال: عمّا تتفلسف عليّ كمان... أنا أنطون سعد وبأرجيك...

أنهى الحوار على هذه الطريقة وتوجّهت إلى مكتبي. فطلبت موعدًا من الزعيم يوسف شميط، وكان قد أصبح رئيسًا لأركان الجيش وزرته ووضعته في الأجواء فقال لي: بدنا نطوّل بالنا. ففهمت وانكفأت، وسكتت شهرزاد وامتنعت عن الكلام المباح وغير المباح...

وكان كمال جنبلاط يضحك، أكثر ما يضحك، عندما ترفع إليه التقارير السرّية التي وضعتها دوائر الاستقصاء في مديريّة الأمن العامّ وفيها المضحك ـ المبكي من الثرثرات التي يسمّونها أسرارًا، والكثير من الأكاذيب والأخبار الملفّقة. الغالب فيها يوضع لإرضاء الوزير أو لتملّقه وليس لخدمة الاستقرار والأمن في البلاد... وحول هذا الموضوع كتب ذات أسبوع في «الأنباء»: «لعلّ أكثر الأشياء التي تحصل في السرّ تبلغنا. ومن مجريات الأمور وتفاصيلها التافهة ندرك هذا الذي جرى في خبث السريّة؛ وما أكثر الكذب وما أكثر التلبّس أحيانًا في لبنان»...

سنة ١٩٦٣ جرت انتخابات عامّة للمجالس البلديّة في لبنان فأجريت بإشراف وزير الداخلية كمال جنبلاط في أجواء من الأمن والانتظام العامّ، ولم تقع خلالها أيّة أحداث تذكر... وكأنَّ مهابة الوزير قد انعكست على هيبة الدولة وقوى أمنها وموظّفي قائمقاميّاتها والمحافظات. وثمّة حادثة صغيرة حصلت وهي أنه يوم قرّر كمال جنبلاط تنظيم مواقف السيّارات العاملة بالأجرة باتّجاه أحياء بيروت وضواحيها (السرفيس) تبيّن له أنَّ لكلّ موقف «قبضاي» يحميه ويتسلّط عليه فيقبض من أصحاب السيّارات جعالة يومية أو أسبوعية أو شهرية... ويوم جاءه مدير الشرطة في بيروت العقيد عزيز الأحدب يبلغه أنَّ قرارات الوزير ستبقى حبرًا على ورق إذا عارضها هؤلاء «القبضايات» الذين يحظون بحماية ودعم من هم فوقهم... سلّمه الوزير جنبلاط أمرًا باعتقال جميع هؤلاء وسوقهم مخفورين إلى مكتبه. وهكذا كان فتحدّث كمال جنبلاط إليهم عن دولة القانون والنظام وأبلغهم أنهم هم من سيتولّى وضع التنظيم الجديد موضع التنفيذ بإشراف قوى الأمن،

وأنهم لن يتقاضوا بعد اليوم أيّة «خوّة» أو «ضريبة» غير شرعية... وأنَّ كلّ من سيفعل سيساق مخفورًا إلى السجن هذه المرّة...

وفي مجال الحرص على أخلاق الشباب وتوفير المناخات الصحّية النظيفة لهم، وانطلاقًا من مفهومه القائل إنَّ الموسيقى هي لتهذيب المشاعر وأنبل الأحاسيس وليس لإثارة الغرائز صوب الانحلال أمر بمنع رقصة «الروك» ورقصة «التويست» كما أمر بتقوية الأضواء في «البارات» والملاهي وبمنع الشباب دون سنّ الـ١٨ من دخولها، كما أمر بمكافحة تهريب المخدّرات والترويج لها في الجامعات والمدارس. وألّف لجانًا خاصّة تضمّنت رجال دين من مختلف الطوائف لمراقبة الأفلام السينمائية والتلفزيونية ومكافحة البغاء السرّي بحيث تمَّ إقفال حوالي ٢٥ بيت ومقرّ مخصّصة لها في العاصمة بيروت وحدها.

وأولى كمال جنبلاط خلال وجوده في وزارة الداخلية أحياء البؤس في العاصمة بيروت وفي ضاحيتيها الجنوبية والشمالية عناية ورعاية خاصّتين، فألّف لجانًا خاصّة لأجراء مسح شامل لهذه الأحياء بغية وضع خطّة شاملة لتحسين أوضاع ساكنيها من العمّال والفقراء الذين كان بعضهم يعيش في بيوت من خشب أو تنك، فتبيّن أنَّ في العاصمة وحدها ٩ أحياء هي «جزر بؤس» بكلّ ما في هذه الكلمة من معنى... ثمَّ أولى الوزير التقدّمي الإنسان المخيّمات الفلسطينية في بيروت وضواحيها عناية أخصّ ومنها أولاً: مخيّم مار الياس، مخيّم صبرا وشاتيلا، مخيّم برج البراجنة، مخيّم تلّ الزعتر ومخيّم الضبيّة كلّ اهتمام. فشكّل لجانًا مماثلة لإجراء مسح شامل فيها ووضع دراسة متكاملة لتحسين أوضاعها الصحّية والإنسانية (والمخيّمات الفلسطينية تابعة لسلطة وصلاحية وزير الداخلية).

تبيّن من الكشف الحسّي على مواقع الأمور ومن الاستقصاءات التي أُجريت أنَّ الوضع الإنساني للمخيّمات يدعو إلى عمل ملحّ وعاجل لتجنيب ساكنيها الأوبئة والأمراض... وأنَّ وجود المصانع في ضاحيتي بيروت كان هو السبب الرئيسي في استجلاب اليد العاملة وبأجور متدنّية من منطقتي البقاع والجنوب وفي قيام أحزمة البؤس في الضاحيتين الجنوبية والشمالية للعاصمة بحيث تهدّد هذه المصانع والأحزمة والمخيّمات بيروت في المدى القريب والبعيد، ليس فقط بالتلوّث بنسب مرتفعة شكت منها عاصمة لبنان وضواحيها ولا تزال، بل هي تشكّل قنبلة موقوتة قابلة للانفجار وتهدّد العاصمة وساكنيها بأفدح المخاطر والأخطار...

اقترح الوزير جنبلاط استحداث نفق في منطقة صوفر المديرج يصل بيروت بالبقاع ونقل المصانع من ضاحيتي العاصمة إلى البقاع، وكذلك مخيّمات البؤس المحيطة ببيروت من كلّ جانب...

حمل كمال جنبلاط الدراسات والتحقيقات التي أجريت إلى الرئيس فؤاد شهاب وتباحث معه في الموضوع، فاقتنع الرئيس بالفكرة وطلب أن تُعرض على مجلس الوزراء لدراستها وإقرارها...

لكن حسابات الحقل لم تتوافق وحسابات البيدر... فلقد قامت القيامة ولم تقعد عندما عرض الموضوع برمّته على مجلس الوزراء. فلقد كان لكلّ فريق حساباته وهواجسه: فريق لم يعجبه نقل المخيّمات المحيطة بالعاصمة إلى البقاع، وفريق تحفّظ على نقل المصانع، وفريق عارض بشدّة إعطاء الفلسطينيين بعض حقوقهم الإنسانية... وضاع المشروع الحضاري الذي يتطلّع إلى البعيد، ويخطّط ربّما لخمسين سنة إلى الأمام... وكان ما كان من أحداث أرهقت العاصمة وضاحيتيها وأغرقتهما في أتون الدم والنار والدمار، والبؤس والفقر وشتّى الأخطار، وما تزال...

وبدا للمسألة، أو للمشكلة، وجه آخر أشدّ خطورة ربّما لأنه يهدّد الأخلاق العامّة في الصميم والشبيبة في سلامتها وحسن البيئة والمناخات المفترض أن تتوافر لها. فبداعي تنشيط السياحة وتوفير الأجواء الملائمة للإخوان العرب القادمين من بلاد النفط والذهب الأسود للراحة والاستجمام حاول البعض تحويل بيروت إلى «مونت كارلو» من نوع جديد: الملاهي والفنادق والمسابح وكازينوهات الميسر والقمار وانتشار تعاطي المخدّرات... وباتت الأخلاق العامّة في خطر وشباب لبنان مهدّد بهذه الموجات الهستيرية من موسيقى الإثارة ورقصات الخلاعة والانحلال، وأفلام الإباحة والمجون المعدّة للشاشات الكبيرة وللشاشة الصغيرة التي دخلت كلّ بيت دون مشورة أو استئذان، ألا وهي التلفاز والفيديو وما شابه... صار الشاطئ الممتدّ من شارع الزيتونه وحتّى السان جورج وشاطئ المنارة وشاطئ الروشة والأوزاعي يعجّ بالملاهي والمراقص وعلب الليل التي تقدّم برامج التعرّي وتتحوّل أحيانًا إلى مباغ... أضف إليها شارع الحمراء، في حينه، وما حوى من هذه البارات...

صار كمال جنبلاط لا يكتفي بالتدابير التي تتّخذها وزارة الداخلية، بل لجأ إلى الكتابة في «الأنباء» وإلى المحاضرات والندوات فهو آمن وقال: «إنّ من لا يكسب معركة الفكر لا

يكسب شيئًا في النهاية». فهو راح يصوّر بيروت هذه على أنها «بابل الجديدة»: المدينة التجارية الرأسمالية وجهًا، الفقيرة عمقًا حيث الحرّية المطلقة تبرز في شتّى ألوان وأشكال التهريب، ليس فقط تهريب المخدّرات والسجاير، بل أيضًا تهريب وعرض الأفلام البذيئة والإعلانات الهدّامة التي تخرّب ذهنيّة الطفل والتلميذ، وتفسد مشاعر الكبير منّا. وقد يأتي دور التلفزيون بعد مآسي المقاهي والملاهي والمحطّات على شواطئ البحر... وكلّ ذلك لكي يعيش اللبناني كالأوروبي «المتقدّم» تمامًا - والتقدّم هنا هو في غير معناه الحقيقي - أي كالذي لا يخجل من شيء والذي لا يرى حرامًا في شيء... وأطلق صرخته الشهيرة: إنَّ هذه الحرّية الفينيقية هي التي نقاوم ونحارب، لأنَّنا نرى أنها ستهدم لبنان... لأنها قد هدمت فعلاً الأخلاق، وهدمت الدين وهدمت الدولة في لبنان.

وصار شعار كتاباتنا ومقالاتنا في «الأنباء»: نريد وطنًا لا فندقًا وملهى وحسب... نريد أن يكون لبنان جامعة العرب ومشفى العرب، ومصرف العرب ومطبعة العرب وصحافة العرب، لا أن يتحوّل ويحوّلوه إلى داعرة العرب.

وفي الفترة ما بين نهاية ١٩٦٢ وبداية ١٩٦٣ حصلت حادثة ملفتة يصحّ أن تروى للدلالة والعبرة ربَّما. كان وزير الداخلية قد منع رقصتي «التويست» و«الروك»، لكن «كازينو لبنان» تعاقد مع ملك التويست والروك المغنّي الفرنسي جوني هوليداي لإحياء حفلات الميلاد ورأس السنة في الكازينو. وقامت إدارة الكازينو بحملة دعائية واسعة للحفلات... ويوم وصل هوليداي إلى مطار بيروت أعدّوا له استقبالاً حافلاً حاشدًا كان معظم أفراده من المراهقات والمراهقين. ولمَّا بلغ كمال جنبلاط الخبر أمر باحتجاز هوليداي في قاعة المطار تمهيدًا لأعادة ترحيله إلى باريس. حضر رئيس مجلس إدارة الكازينو فكتور موسى إلى السراي وتوجّه إلى مكتب رئيس الحكومة رشيد كرامي. واستنجد موسى بابن بلدته بكفيّا العضو القيادي في الحزب التقدّمي الاشتراكي سليم القزح فلاقاه إلى مكتب وزير الداخلية. وأرسل الرئيس كرامي في طلبي لأجد في مكتبه فكتور موسى وزوجته السيِّدة مي. وسألني رشيد أفندي: - ألا تعتقد أنَّ ثمّة مجال لتدبّر الأمر وتداركه؟ فقلت: لا أعتقد، فالمسألة ارتدت طابع التحدّي. وأنت تعرف أنَّ كمال جنبلاط لا يتمّ التعامل معه بالتحدّي، بل بالدبلوماسيّة والإقناع والاقتناع. وعندما راح موسى يشكو خسارته في الصفقة والعقد، قلت: كان عليك أن تراعي شعور الوزير أولاً، وهو من هو، والمسألة ليست

في وارد أن تعالج في ضوء الربح والخسارة. فالرابح يجب أن يكون هيبة الحكم وقرارات الوزير... ولبنان لا يمكن أن يُحكم من كازينو لبنان يا دولة الرئيس...

واقتنع رشيد كرامي ووافق على ترحيل جوني هوليداي وإعادته إلى باريس من حيث أتى. فتمّ إبطال تأشيرة دخول هوليداي وأُعيد إلى باريس على متن أول طائرة أقلعت من مطار بيروت..

وكاد كمال جنبلاط أن يقدّم استقالته من الحكومة في تلك الحقبة من الزمن. فقد كان يشكو التعقيد في تنفيذ القرارات وتلك العقليّة «البوروقراطيّة» العثمانية التي تعيق عمليّة الإصلاح الإداري... كان لديه في وزارة الداخلية مدير عامّ للوزارة اسمه شفيق بربر الخازن يتلقّى، على ما قيل التعليمات من غير الوزير الأصيل، وهو يمتّ في مكان ما بصلة نسب إلى الرئيس شهاب... فأطلق عليه كمال بك اسم شفيق بربر... وكلّما تأخّر قرار ومشروع مرسوم في إدراج المدير العامّ كان كمال جنبلاط يسأل: شوبدّو يا عمّي شفيق بربر؟ وكان يستعين عليه أحيانًا وعلى اعتراضاته العثمانية بفتاوي صديقه ورفيق الدراسة في عينطوره أنطوان بارود الذي كان يترأس هيئة القضايا في وزارة العدل التي كانت مكاتبها متّصلة بمكاتب وزارة الداخلية في السراي القديم... ذلك الوضع الضاغط حمل كمال جنبلاط على أن يكتب في «الأنباء» فيقول: «لولا صداقة مجرّدة من كلّ غاية تربطنا من قبل الحكم وبعده بالرجل الذي يتمسّك بهذه السياسة ويثابر عليها ويوصيها، لما بقينا في ممارسة الحكم، وسط هذه الملابسات العثمانية الملتوية للإدارة ولأجهزة التنفيذ، دقيقة واحدة»...

ـ العلاقة مع شهاب وعَلَم فخر الدين وجهل التاريخ... أو تجاهله...

كان كمال جنبلاط يكنّ لشخص فؤاد شهاب كلّ محبّة وتقدير واحترام، فالرجل يتمتّع بالعديد من مزايا النزاهة والتجرّد والبساطة في العيش والحدب على الفقراء والمعوزين. وكان يتفهّم أوضاع البلاد لا سيَّما ضرورة العناية بالمناطق المحرومة واعتماد الإنماء المتوازن بينها، والعدل والمساواة في الوظيفة والوظائف بين أبناء العائلات الروحية على تنوّعها واختلافها، واعتماد المناصفة في عدد النوّاب ووظائف الدرجة الأولى، الأمر الذي أسخط الفئات المتعصّبة من المسيحيين وجعلهم يناصبون شهاب وعهده العداء. والشاعر القديم قال:

إنَّ نصف الناس أعداء لمن   وُلِّيَ الأحكام، هذا إن عَدَل

وكان كمال جنبلاط يميّز دائمًا بين شخص فؤاد شهاب وبين تصرّفات وتجاوزات بعض العسكر أحيانًا وبعض المحيطين أو المحسوبين على الرئيس من "أكلة الجبنة" أو حماة الاحتكار والمحتكرين.

كان عهد الرئيس شهاب قد أرسى أسس الدولة على ما توافر له من مؤسّسات استحدثها ووضع لها المداميك الأولى بعد أعمدة الأساس، ولعلّ أبرزها، مجلس الخدمة المدنيّة وهيئات الرقابة والتفتيش التي ترعى الإدارة وتراقب حسن سير الأمور في مسيرتها، وديوان المحاسبة ومجلس شورى الدولة وأنشأ المصرف المركزي ليرعى شؤون النقد والمصارف، ووضع أسس الضمان الاجتماعي والصحّي. وأنشأ "المشروع الأخضر" لاستصلاح الأراضي، وما سمّي "المشروع الأزرق" الذي يعنى بالبحر وبثمار البحر وبوسائل وأساليب الصيد والذي لاقى مضايقات وممانعات واسعة. ووضع الخطّة الخمسية لمشاريع الطرق والمياه والكهرباء، وقوانين الدعم للمواد الاساسية لمعيشة الناس: القمح والطحين والسكر والمحروقات على أنواعها. ولا ننسى تعميم التعليم الابتدائي المجّاني ثمَّ الثانوي والمهني والتقني، وتعزيز الجامعة اللبنانية الوطنية، وكلّها انطلقت وأرسيت أساساتها إبَّان تولّي كمال جنبلاط لمهام وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة.

وذات يوم من ذاك العام حمل كمال جنبلاط عَلَم الأمير فخر الدين المعني الثاني، الذي كانت تحتفظ به العائلة في دار المختارة، وتوجّه على رأس وفد نيابي وحزبي إلى منزل فؤاد شهاب في جونيه وقدّم له العلم هديّة تقدير ومحبّة لما قام به الرئيس اللواء الأمير ربّما على خطى المعني الكبير الذي وضع أسس أول دولة حديثة في لبنان وعرف لبنان في خلال حكمه الأمن والاستقرار والعزّة والرفعة والسيادة.

وكتب كمال جنبلاط في هذا السياق يقول: "إنَّ معظم اللبنانيين يجهلون أو يتجاهلون تاريخ بلادهم، إمَّا لأنهم لم يتعلّموه في المدارس، وإمَّا لأنهم تلقّوه على غير حقيقته ففقد روعته وجوهر اتّجاهاته، وإمَّا لأنهم لا تعلق في ذهنهم المكتئب إلاَّ هذه المرحلة من سيرتنا التي تعتبر في الحقيقة نكسة عابرة أو مؤامرة على البلاد سافرة. والكثرة قد لا ترى الوطن الملجأ يستضيفه المضطهدون والضعفاء والمشرّدون من مختلف الأقوام والعقائد ونكاد نقول الأجناس".

وأضاف كمال جنبلاط يقول: "إنَّ الذي ينحني، ولو إلى حين، على صفحات النضال

الاستقلالي المستمرّ الذي كتبه أمراء الغرب والبلاد ـ من آل تنّوخ ثمَّ المعنيون والشهابيون، والعائلات والعشائر التي تعاونت وتضافرت معهم وارتكز إليها كفاحهم في وجه الفرنجة والعثمانيين ومختلف جيوش الولاة المرتزقة وثمَّ الفرنسيين ـ يدرك أنَّ لبنان كان على مرّ سبعمائة إلى ثمانماية سنة من التاريخ الذي طغى فيه الأعاجم على حضارة العرب وسلطانهم... كان مرتكز انطلاق الحركة التحرّرية الاستقلالية وموطن الكفاح والطموح والقوّة، ومستنفر النهضة العربية في الحقلين الأدبي والسياسي، ويوم كان لبنان بدون وجه ولا صفة، لأنه كان كلّه هذا الوجه وهذه الصفة، وهكذا يجب أن يعود»...

* * *

انتخابات نيابية وديمقراطية
وفوز شارل حلو بالرئاسة

«الديمقراطية السياسية التي نمارسها في لبنان ليست في الواقع ديمقراطية صحيحة، وهي، في كلّ حال، أضحت مهدّدة من كلّ جانب. وإذا لم نحرص على تطويرها فهي ستتقلّص تدريجيًّا وتزول، وسنتبع الطريق ذاته ربّما الذي سلكته سوريا: أي من انقلاب إلى انقلاب ».

«المعضلة في لبنان: هل يتوفّر لنا رئيس مقبل يستطيع أن يتابع سياسة الرئيس شهاب، ويحقّق هذا النهج، ويتمرّس بهذه الروح من الشجاعة، ومن الفضيلة والتحرّر والعزّة والكرامة... وبهذا الحدب المحبّ المخلص على الفئات الاجتماعية الشعبيّة، أيًّا كان لونها ومذهبها وحزبها ومسكنها، وبهذه « الاشتراكية المسيحية »، إذا صحّ التعبير »؟!

كمال جنبلاط

(١٩٦٤)

كانت تصرّفات وتدخّلات بعض ضبّاط الجيش والمكتب الثاني في شؤون الحكم والوزراء والمناطق والنقابات والبلديّات حتّى، وعلى الأخصّ ما آلت إليه الأحوال بعد الانقلاب العسكري الذي قام به القوميون... كانت هذه التصرّفات غير الديمقراطية وغير المستحبّة في وطن مثل لبنان يعتبر واحة حرّية وديمقراطية وسط هذه الغابة العربية المحكومة بالانقلابات العسكرية وبـ«حكم الجزمات» كما كان يسمّيه كمال جنبلاط... فحرص المفكّر التقدّمي في مقالاته في «الأنباء» في تلك الفترة على الدعوة إلى الحفاظ على الديمقراطيّة في لبنان، وعلى أن نطوّرها وأن ننمّيها. وتكون المحافظة عليها باحترام الدستور، وفي احترام حكم القانون، وتنفيذ شرعة الاختيار الشعبي بنزاهة وتجرّد، والحرص على جعل المدني هو الذي يحكم، ويسيطر ويوجّه، ولا تعلو فوقه كلمة ولا يزاحمه نفوذ آخر... وفي جعل أجهزة التنفيذ العسكرية، وغير العسكرية، خاضعة بشكل مطلق، ودائمًا وأبدًا، لحكم المدني والدستوري القائم».

حاول كمال جنبلاط، خلال وجوده في وزارة الداخلية وضع قانون عصري للانتخابات يحدّد عدد النوّاب بـ ١٢١ نائبًا (الطائف جعلهم في التسعينات ١٢٨)، ويعيد

النظر في تقسيم الدوائر الانتخابية ويعتمد النسبيّة... إلاَّ أنَّ مسعاه ذاك لم يبصر النور... فالطبقة السياسية التقليدية المصلحية وقفت في وجه ذلك المشروع فبقي فكرة في مخيّلة وفكر صاحبه. وفي ١٩ شباط ١٩٦٤ استقالت حكومة رشيد كرامي لتخلفها حكومة حيادية للإشراف على الانتخابات النيابية برئاسة الحاج حسين العويني.

نقل كميل شمعون ترشيحه من المتن الشمالي إلى الشوف. وأجرى كمال جنبلاط تعديلاً في لائحته فضمّ إليها محمّد أحمد البرجاوي من برجا بدلاً من عصام الحجار، إضافة إلى أنور الخطيب وضمّ فؤاد الطحيني من دير القمر وأبقى على عبد العزيز شهاب وعزيز عون بناء لتوصية من الرئيس فؤاد شهاب. فخسر شمعون مقعده وفازت لائحة كمال جنبلاط بكاملها. وفاز في بيروت نسيم مجدلاني وفريد جبران وفي بعلبك محمَّد عبّاس ياغي...

... وبعد الانتخابات النيابية فتحت معركة رئاسة الجمهوريّة، وكانت ولاية شهاب ستنتهي في ٢٣ أيلول من العام نفسه ١٩٦٤.

افتتح كمال جنبلاط المعركة الرئاسية في مطلع أيار فكتب في «الأنباء» يقول: «إنَّ مسألة الولاية الجديدة لرئاسة الجمهوريّة أضحت قضيّة وطنية عليا، وقضيّة إصلاحية أساسية. فإمَّا أن تدوم مبادئ هذا العهد التي رأى لبنان في ظلّها العدالة والمساواة، وشهد الاستقرار والازدهار في ربوعه، وإمَّا أن تزول هذه المبادئ... وإذ ذاك يكون شمشون قد جنى على نفسه بتخريبه أعمدة الهيكل»... وأضاف جنبلاط: «إنَّ التجديد، لا التمديد، أضحى أمرًا لا مفرّ منه ولا يمكن أن يترك الرئيس فؤاد شهاب لبنان في مهبّ عاصفة المستثمرين والمستغلّين والطائفيين واللابسين لكلّ حالة لبوسها. لذلك أضحى القبول بالتجديد شرفًا وواجبًا على رئيس الدولة الذي وصفه بأنه المسيحي الوحيد الذي اعتلى حتّى الساعة سدّة الرئاسة الأولى في لبنان»...

وأيّد رشيد كرامي بٱسم الأكثرية النيابية التجديد للرئيس شهاب. ووضعت عريضة نيابية تحمل توقيع ٧٩ نائبًا من أصل ٩٩ وجّهت إلى رئيس المجلس النيابي تدعو إلى تعديل الدستور وإعادة انتخاب شهاب. إلى جانب رفض شهاب لتعديل الدستور وتجديد الولاية كان رئيس مجلس النوّاب كامل الأسعد يشترط «الاستئناس» برأي الرئيس قبل طرح الموضوع على المجلس ولم يكن بين شهاب والأسعد ودّ أو انسجام. قام الأسعد بزيارة

الرئيس فؤاد شهاب في منزله الصيفي في عجلتون فلا الرئيس شهاب آنسه ولا هو استأنس بالزيارة... فالأنس والمؤانسة غير واردين في مثل هذا اللقاء. وأعلن الأسعد أنَّ الرئيس شهاب لا يريد تجديد الولاية، مع أنَّ شهاب لم يبحث الموضوع مع الأسعد ولا أبلغه أيّ جواب سلبي أو إيجابي. والمعروف أنَّ فؤاد شهاب كان لا يحبّ رجال السياسة ولا يثق بهم كما صرّح أكثر من مرّة. فالسياسة عندنا لا تقوم على أساس أحزاب ومبادئ وأفكار واضحة، بل هي في معظمها قامت وتستمرّ على أساس حكم العائلات والمصالح الضيّقة والخصوصيّة. وكان تقرير لوبريه قد قال إنَّ ما بين عشر عائلات أو عشرين عائلة يتحكّمون بمصير ومقدرات الشعب اللبناني.

من هنا بدا البحث عن اسم جديد لرئاسة الجمهوريّة. لكن الاسم كان جاهزًا ومعلّبًا لدى الرئيس شهاب ومحيطه، بعد أن حصل على موافقة الرئيس جمال عبد النصر عليه بواسطة سفيره في بيروت اللواء عبد الحميد غالب.

بدا كمال جنبلاط وكأنه يميل إلى ترشيح فؤاد عمون الذي تربطه به وشائج قربى كما يقال ويقولون. فالدكتور عمون (دكتور في القانون والعلوم السياسية) كان مديرًا عامًّا لوزارة الخارجية والمغتربين ومواقفه الوطنية والعروبية معروفة ومشهود لها، وهو يلتقي مع جنبلاط على العديد من الأمور والمواقف. وقد ترشّح للانتخابات النيابية عام ١٩٥٧ عن دائرة دير القمر شحيم وحظي بتأييد كمال جنبلاط. أمَّا «وشائج القربى» فناتجة عن أنَّ فؤاد عمون هو عديل الدكتور بشاره الدهان القطب البارز في الحزب التقدّمي الاشتراكي والمقرّب جدًّا من كمال جنبلاط. وكان الدكتور دهان قد زار جنبلاط أكثر من مرّة إمّا بصحبة عمون أو منفردًا وذلك بقصد كسب تأييد الزعيم التقدّمي الاشتراكي له في الترشّح للرئاسة الأولى.

لكن عقدة فؤاد شهاب ظلّت طوال عهده هي العقدة المسيحية أو «عقدة» الأجراس التي قرعت في كنائس كسروان حدادًا يوم تمَّ انتخاب شهاب رئيسًا للجمهوريّة. وظلّت عقدة كميل شمعون تلازمه كذلك. قال شهاب لكمال جنبلاط: فؤاد عمون كفوء وآدمي لكنّه ابن دير القمر. وسيكون «البوكس» موجّه مباشرة إلى «ابن بو شمعون» كما كان يسمّيه شهاب، الذي كان قد خسر مقعده النيابي في الشوف، فقطع أنصاره طريق السعديّات وهتفوا ضدّ شهاب وحكمه متّهمين إيّاه بالتزوير لإسقاط الرئيس السابق للجمهوريّة...

أُسقط في يد كمال جنبلاط، فهو كان يقول في مجالسه الخاصّة في شارل حلو ما لم يقلْه مالك في الخمر... وأول تحفّظاته عليه كانت أنَّ ليس له «قماشة» الرئيس، ولا روح المبادرة في اتّخاذ القرارات وفي الوقوف عندها...

استنجد حلو بصديقيه وصديقي كمال جنبلاط وجدي الملاّط وجوزف دوناتو... ثمَّ لجأ إلى صديق قديم ومؤثّر على جنبلاط هو الدكتور روجيه غوديل وزوجته أليس... والدكتور غوديل (الفرنسي الأصل) كان رفيق كمال جنبلاط وزوجته السيِّدة مي عام ١٩٥١ في زيارة الهند و«الغورو» المشهور الذي أحبّه جنبلاط كثيرًا شري أتماننداً...

وذات صباح من شهر آب ١٩٦٤ قال لي كمال جنبلاط: الزلمي كان هون مع وجدي ودوناتو... وهو مستعدّ للتعهّد ولو كتابة.

كانت الزيارة قد تمّت قبل السادسة صباحًا وكنت أنا في بيت «المعلّم» في حدود الثامنة... فتمهّلت قليلاً قبل أن أجيب فسأل «المعلّم»: ما بك لا تجيب؟

فقلت: ما زلنا نكتوي بنار تعهّدات كميل شمعون وقسمه المتكرّر: «أقسم بشرفي وبمعتقدي»... فهل لنا أن نصدّق هذا المناور المتحذلق المعروف؟!

ابتسم وقال: «مكره أخاك لا بطل»... وأردف: ماذا في وسعنا أن نفعل؟ شهاب وعبد الناصر وافقا عليه...

كان ريمون إدّه الذي خسر مقعده النيابي في بلاد جبيل عام ١٩٦٤ في مواجهة المرشّح الشهابي الدكتور أنطوان سعيد، يكره شارل حلو وينتقده بشدّة وعنف، مطلقًا في حقّه أقسى النعوت وأشنعها. والحكاية تعود بينهما إلى الثلاثينات ومطلع الأربعينات من القرن العشرين. بدأ شارل حلو حياته العملية كمحرّر في جريدة «لوجور» لصاحبها ورئيس تحريرها المفكّر ـ المصرفي ميشال شيحا. ومعروف أنَّ الشيخ بشارة الخوري متزوّج من السيِّدة لور شقيقة ميشال شيحا، وكذلك هنري فرعون من الشقيقة الأصغر. كانت «لوجور» تنطق بأسم الكتلة الدستورية و«الأوريان» لصاحبها جورج نقّاش بأسم الكتلة الوطنية. وكان شارل حلو كتب سلسلة مقالات في «لوجور» هاجم فيها الرئيس إميل إدّه وأطلق في حقّه أشنع الاتّهامات ومنها أنه ضمّ جزءًا من جبل الباروك إلى أملاكه الخاصّة التي باعها العميد في ما بعد... وأنَّ الشركة صاحبة امتياز مياه بيروت، وكانت فرنسية، هي التي قدّمت منزل آل إدّه إلى الرئيس إميل إدّه الذي كان محاميًا عن الشركة...

وذات بعد ظهر يوم من تلك الأيام الرئاسية، الساعة الثالثة بعد الظهر... كان كمال جنبلاط يجلس على كرسيه الهزّاز، ويتحلّق حوله عدد من مندوبي الصحف كالعادة، دخل علينا صحافي محسوب على ريمون إدّه، وبعد أن حيّا توجّه إلى كمال بك بالقول: عندي لك رسالة من العميد. لكن يجب أن أُبلغك إيّاها على انفراد...

نهض «المعلّم» الرفيع التهذيب، المتواضع، الآنس المؤانس، وأشار إليَّ أن أتبعه وهو يتمتم: تعالَ لتكون شاهدًا. تبعته وما إن دخلنا الرواق القائم بين غرف النوم حتّى أخذ صاحبنا بتلاوة الرسالة الشفهية، قال: يسلّم العميد إدّه عليك ويقول لك: هل من الضروري أن يكون رئيس الجمهوريّة العتيد (وانحنى الرجل وراح يشير بأصابع يده وبإصبع منها إلى قفاه... ولفظ الكلمة بالعربي «المشبرح» كما يقولون...).

دهش كمال جنبلاط لما سمع ولحركات الرجل غير الطبيعية، فسأل: شو قصتو هيدا يا عميّ؟

وقبل أن يتلفّظ أحدنا بكلمة تابع الرجل قائلاً: أي نعم يا كمال بك... كلّ الناس تعرف أنَّ شارل حلو هو من جمعيّة «الخواجا»...

ونهره «المعلّم» بحزم قائلاً: بيكفي يا عمّي، بيكفي ... خَلَص...

ففهم الرجل أنَّ المقابلة انتهت، فانصرف...

عندها دعاني كمال بك للدخول إلى غرفة نومه، وقبل أن نجلس سألني: ما هي معلوماتك عن هذا الموضوع؟

فقلت متحفّظًا: هكذا يحكى ويقال... لكنّي لست متأكّدًا من شيء...

فضحك «المعلّم» وقال: شو قصتك يا عمّي... عم تتصرّف اليوم مثل علي المملوك...

وعلي المملوك هو أحد مساعدي الرئيس صائب سلام وسكرتيريه... كان يقلّد صائب بك بوضع «السيكار الهاڤاني» الطويل في فمه... وعندما يسأل المندوبون الصحافيون عن معلوماته عمّا جرى داخل اجتماع ما في بيت صائب سلام كان يكتفي بالإجابة: ـ لا تعليق...

جلس «المعلّم» إلى فراشه وجلست أنا على «الطرّاحة»، المقعد المحاذي، فقال كمال جنبلاط:

ـ إذا صحّت معلومات موفد العميد عن خصال «الرجل»، فذلك يعني أنهم اختاروه ربّما من أجل ذلك خصّيصًا... وسرح في شطحة تفكير وتأمّل، ثمَّ قال: أبلغ الجماعة أنَّ من تحلّى بمثل تلك الخصال هو سيف ذو حدّين... يمكنهم أن يستخدموه لفترة، لكنّه بالتأكيد سوف ينقلب عليهم في ما بعد، وقد يكون مؤذيًا...

حدَّد رئيس مجلس النوّاب كامل الأسعد يوم ١٨ آب ١٩٦٤ موعدًا لانتخاب رئيس الجمهوريّة الجديد، ففاز شارل حلو بأكثرّية ٩٢ صوتًا مقابل ٥ أصوات للشيخ بيار الجميّل الذي ترشّح ضدّه ووجدت ورقتان بيضاوان. ومن المصادفات أنَّ حلو والجميّل كانا من مؤسّسي منظّمة الكتائب قبل أن تتحوّل إلى حزب سياسي...

ـ المؤسّسة العسكرية قبل وبعد عهد فؤاد شهاب

ولا مناص هنا من إلقاء بعض الأضواء على واقع المؤسّسة العسكرية قبل انتخاب قائدها اللواء فؤاد شهاب رئيسًا للجمهوريّة وبعد تسلّم شهاب مهمّاته الدستوريّة. ففي عهد كميل شمعون كان قائد الجيش مارونيًا (فؤاد شهاب) وكان رئيس أركان الجيش كاثوليكيًا (توفيق سالم وهو شقيق النائبين والوزيرين الأسبقين يوسف ونقولا سالم) وكان رئيس الشعبة الثانية في الجيش مارونيًا (أنطون سعد) ومعظم المراكز الحسّاسة في المؤسّسة العسكرية يشغلها ضبّاط ينتمون إلى الطوائف المسيحية.

لكن، وبعد فترة من انطلاق عهد الرئيس فؤاد شهاب أحدثت تغييرات جذرية ربَّما في بنية المؤسّسة العسكرية. صحيح أنَّ الرئيس شهاب رقّى نسيبه الضابط عادل شهاب إلى رتبة لواء وعيّنه قائدًا للجيش، وربَّما كان اللواء جميل لحّود صاحب حقّ وأفضليّة لهذا المنصب كما ذكر في حينه. لكن تمَّ ترقية الضابط يوسف شميط (من عاليه) وتعيينه رئيسًا لأركان الجيش اللبناني وعيّن العميد فوزي الخطيب (من شحيم) نائبًا لرئيس الأركان، والعقيد أنيس أبو زكي رئيسًا للشعبة الثانية في محافظة جبل لبنان، والمقدّم سامي الخطيب (من جبّ جنّين ـ البقاع الغربي) في مركز متقدّم في الشعبة الثانية وسواهم وسواهم من الضبّاط السنّة والشيعة والدروز الذين أعطوا مراكز لم تكن طوائفهم تشغلها قبل عهد فؤاد شهاب في الجيش. عمل الزعيم يوسف شميط، رئيس الأركان، ما في وسعه لإحلال وإيجاد نوع من التوازن داخل المؤسّسة العسكرية وذلك بالتنسيق التامّ وربَّما عملاً بتوجيهات الرئيس فؤاد شهاب، وكان له فضل كبير في التنسيق ما بين الرئيس شهاب وكمال جنبلاط وإزالة الكثير

من غيمات سوء التفاهم والالتباسات التي كانت تحصل على أرض الواقع أحيانًا، وكذلك العقيد أنيس أبو زكي. وكان الاثنان (شميط وأبو زكي) يتحلّيان بالمناقب العسكرية ويقدّمان ولاءهما للمؤسّسة العسكرية على أيّ ولاء آخر. لكنّهما، وعلى الأخصّ الزعيم شميط كان يصطدم أحيانًا بتصرّفات لرئيس الشعبة الثانية العميد أنطون سعد (من قضاء زغرتا) الذي عرف عنه تعصّبه للطائفة المارونية وانفعاليّته أحيانًا في تأدية مهامه، وهو أمر لاحظه جميع الذين عرفوه وتعاملوا معه من داخل وخارج المؤسّسة العسكرية. لكن، وبعد تسلّم العقيد غابي لحّود (من بيت الدين ـ الشوف) رئاسة الشعبة الثانية في الجيش تغيّر نمط التعامل مع الشخصيّات والأحداث باتّجاه النظرة اللبنانية الشاملة ومفهوم العيش المشترك والمساواة في الحقوق والواجبات ما أمكن إلى ذلك سبيلاً. وهي شهادة متجرّدة للتاريخ وإقرارًا بواقع وبحقيقة. والذين عرفوا العميد أنطون سعد عن كثب يقولون أنه مات فقيرًا وهو لا يملك سوى راتب تقاعده في الجيش، وهي حقيقة أخرى يجدر التنويه بها وإيرادها. فنحن لا نبطن أو نملك أيّ حقد شخصي ضدّ أحد إنّما نورد الوقائع كما اتّصلت بنا وكما تحرّيناها من مصادرها.

وكان كمال جنبلاط حريصًا على صيانة المؤسّسة العسكرية من أيَّة شوائب، وعلى أن تؤدّي دورها كاملاً في الدفاع عن حدود الوطن وكرامة الشعب، دونما الانغماس في شؤون السياسة الداخلية التي قد تسيء إلى الجيش ولا تخدم الدور الوطني الجامع المناط به وفق نصوص الدستور والقوانين.

ـ عهد الانحدار والقلق والتنازلات التي بلغت حدّ الخيانة!

كان كمال جنبلاط يعرف جيّدًا أنَّ شارل حلو هو غير فؤاد شهاب، وأنه بدأ حياته العمليّة في أحضان الرأسماليّة والرأسماليين، ولعلّ من أبرزهم ميشال شيحا وهنري فرعون. وبدعم من شيحا وفرعون عيّن الشيخ بشاره الخوري شارل حلو سفيرًا للبنان في روما والفاتيكان، فاكتسب صداقات مهمّة في دوائر حاضرة الفاتيكان البابوية، ثمَّ عيّنه الخوري وزيرًا في أكثر من حكومة. وهو خرّيج مدرسة اليسوعية وجامعة الحقوق التابعة للآباء اليسوعيين... أي أنه كان "يسوعيًّا" بأمتياز. وهذه الصفة تعطي صاحبها أو حاملها نعوت الخبث والمداهنة وعدم الوضوح في المواقف على الأخصّ. وتحديد اليسوعي في الفرنسية هو الآتي: (Jesuite = Hypocrite).

في عهد الرئيس شهاب عيّن شارل حلو وزيرًا للتربية والأنباء في أول حكومة شكّلها رشيد كرامي، ولم تدم مدّتها أكثر من عشرين يومًا بعدما واجهتها ما سمّي «الثورة المضادة» التي قادها حزب الكتائب بتحريض من كميل شمعون ودوائر السفارات الأجنبية. ثمَّ عيّنه الرئيس شهاب رئيسًا للمجلس الوطني لإنماء السياحة.

واجهت شارل حلو بعد انتخابه رئيسًا بأسبوعين، وقبل تسلّمه سلطاته الدستورية مسألة انعقاد مؤتمر القمّة العربي الثاني في الإسكندرية بدعوة من الرئيس جمال عبد الناصر الذي عقد ما بين ٥ و١٢ أيلول سنة ١٩٦٤. لم يكن الرئيس فؤاد شهاب راغبًا في الذهاب فكلّف الرئيس المنتخب تمثيل لبنان في المؤتمر. كان ذلك أول امتحان عربي إذ إنَّ في عداد حضور المؤتمر الرئيس السوري البعثي أمين الحافظ والرئيس العراقي الناصري التوجّه عبد السلام عارف ناهيك عن العلاقات المعقّدة بين مصر والسعودية... موضوع المؤتمر هو: وضع خطّة عسكرية استراتيجية موحّدة أو مشتركة لتحويل روافد نهر الأردن من لبنان وسوريا والأردن، وحماية عمليّات التحويل في مواجهة مشروع إسرائيل لريّ صحراء النقب عبر قناة تمّ حفرها من قبل دولة العدوّ. وإزاء المزايدات السورية الحافظية والمداخلات العارفية العراقية غير المحبّبة وجد شارل حلو نفسه مستفردًا ومستضعفًا ولم ينقذه سوى تدخّل رئيس المؤتمر جمال عبد الناصر ليحسم الجدل الذي ارتدى طابعًا صاخبًا وتهكّميًا أحيانًا على لبنان الرسمي وعلى نظام الحكم البرلماني، وليعلن بأنه لا بدَّ من احترام الأسس الدستورية لكلّ دولة في عمليّة تحريك القوّات ونقل الجيوش من دولة إلى أخرى. وأنقذ جمال عبد الناصر شارل حلو الذي التزم في النهاية بما يصدر عن القيادة العسكرية العربية المشتركة بقيادة الفريق علي علي عامر.

وعندما شرع لبنان بمحاولة تحويل «الوزّاني» وأُحضرت جرّافات لتبدأ عمليّة الحفر حلّقت طائرات حربية إسرائيلية فقصفت الجرّافات التي تناثرت أجزاؤها في كلّ صوب.

وتمنّى عبد الناصر على شارل حلو الذي زاره لشكره على موقفه من لبنان فدعاه لحضور قمّة عدم الانحياز التي ستعقد خلال شهر تشرين الأول ١٩٦٤ فشكره الحلو ولبّى الدعوة والتقطت صور له مع تيتو وسوكارنو ورئيس حكومة الهند ومع عبد الناصر طبعًا... الذي راق له مزاج شارل حلو المتملّق الضحوك فخصّه بزيارة للسفارة اللبنانية في القاهرة تناول خلالها الغداء إلى مائدة السفير جوزف أبو خاطر... وكتب شارل حلو في مذكّراته عن ذلك اللقاء الودّي، قال: «رحنا نتبادل أطراف الحديث، منه ما هو رصين ومنه

ما هو عادي. وعندي، بشكل عامّ، إنَّ ردًّا يثير الابتسامة أو الضحك لأبلغ وأجدى من معظم الخطب والمحاضرات»... وذلك يعطي صورة عن حقيقة طباع شارل حلو: مداهنة وممازحة، وضحك على الذقون..

في ذلك اللقاء صارح حلو عبد الناصر بأنه مدعوّ لزيارة فرنسا من قبل الرئيس الجنرال ديغول، فتمنّى عبد الناصر عليه أن يزور مصر قبل زيارة فرنسا... وهكذا كان... زار مصر في عيد العمل والعمّال، الأول من أيار، وألقى خطابًا في الاحتفال الجماهيري الكبير الذي أقيم للمناسبة. وعندما حان دور عبد الناصر بدأ خطابه بالشكر والإعجاب والإكبار للبنان الذي وصفه بأنه «وطن الأحرار».

ومن القاهرة توجّه شارل حلو إلى باريس حيث أحاطه رئيسها الجنرال شارل ديغول بالحفاوة البالغة التي عبّرت عن حبّه للبنان ولشعبه... ومن باريس عرّج شارل حلو في طريق العودة إلى بيروت على الفاتيكان حيث استقبله البابا بولس السادس ومنحه بركته الرسولية...

هذه كانت اهتمامات الرئيس الآتي من كواليس «الشهابية» والناصرية: «تلميع» صورة العهد الجديد والإطلالة على فؤاد شهاب ورجال السياسة اللبنانيين بصورة الرئيس الذي فتحت له أبواب قاهرة عبد الناصر وباريس الجنرال ديغول و«فاتيكان» البابا بولس السادس رأس الكنيسة الكاثوليكية في العالم... لكن صورة «لبنان من فوق» كانت غير صورة «لبنان من تحت»، أي لبنان أرض الواقع والوقائع والأزمات.

كان كمال جنبلاط يرى صورة البلاد على حقيقتها التي تثير القلق والمخاوف: أحزمة البؤس وجزر الفقر التي تعجّ بها العاصمة بيروت وضواحيها ظلّت من دون حلّ، وهي تضيّق الخناق على بيروت وعلى أهلها وساكنيها، كما تهدّد البلد بأفدح الأخطار. التضخّم المالي في ازدياد وارتفاع أسعار المواد الغذائية الأساسية كذلك... الإنتاج الزراعي يعاني الكساد والبوار نتيجة سياسة فتح الأسواق اللبنانية لمنتجات الجيران الأقربين والأبعدين دون اعتماد سياسة ممنهجة وروزنامة واضحة من قبل الحكم. الهجرة من الأرياف إلى العاصمة والضواحي في ارتفاع ملحوظ ومستويات ومعدّلات البطالة عن العمل تقفز صعودًا... كان الزعيم التقدّمي الذي رأى منذ انطلاقة حزبه التقدّمي الاشتراكي أنَّ الإنسان هو محور نضاله واهتماماته الأولى... كان يرى أنَّ الإنسان في لبنان هو في خطر: فرص العمل تقلّ وتتقلّص، والضمانات الأساسية معدومة وغير موجودة...

وبدا له أنَّ بداية الحلّ تكمن في إيجاد رأي سياسي عامّ وموحّد يكون هو وسيلة الضغط على الحكم لتحقيق المطالب الشعبية الملحّة اقتصاديًّا واجتماعيًّا وزراعيًّا وثقافيًّا. كان يرى في تحليلاته ونظرته للأمور أنَّ مثل هذا الرأي العامّ موجود ومتحقّق نسبيًّا في معظم بلدان العالم. فلماذا لا يكون الأمر كذلك في لبنان؟ وتمرّ في البال والخيال النتيجة التي توصّل إليها الخبير الاقتصادي البلجيكي «فان زلند» الذي استقدم إلى لبنان في الخمسينات من القرن العشرين والذي قال: كيف يمكنني أن أضع خطّة اقتصادية للبنان والتبغ فيه شيعي، والتفّاح ماروني، والبرتقال مسلم، والزيتون درزي وأرثوذكسي... إلخ.

فيكون القرار: القضايا المطلبية هي التي توحّد الناس. فلنضع جانبًا ما يمكن أن يفرّقنا ولنفتّش عمّا يجمعنا في الأمور الحياتية. وقرّر أن يسلك اتّجاهين: زرّاع الأرض والعمّال. كانت مسألة الإنتاج الزراعي من التفّاح هي المطروحة عهد ذاك والتفّاح يجمع، فهو يُزرع في أعالي الجنوب والجبل: الشوفين والمتنين وأعالي كسروان وجرود جبيل وبشرّي وزغرتا والبقاع وسواها. في ذاك التاريخ (١٩٦٤ ـ ١٩٦٥) بلغ عدد أشجار التفّاح في لبنان أكثر من ٤ ملايين شجرة تفّاح بلغ محصولها خلال عام واحد حوالي ١٢٠ ألف طنّ اشتراه التجّار وأرباب الاستيراد والاحتكار من المزارعين بأبخس الأثمان فخسر هؤلاء ولم يكسبوا ما يساعد على سداد أثمان الأدوية التي تستخدم لمكافحة آفات الشجر وعلى تأمين مؤونة الشتاء المقبل للعائلات ودفع أقساط المدارس والجامعات للأولاد... ناهيك عن أنَّ قسمًا من الإنتاج عانى الكساد فبات عرضة للتلف والضياع...

دعا الحزب التقدّمي الاشتراكي إلى مهرجان شعبي حاشد في بلدة بتخنيه (المتن الأعلى) خلال شهر أيلول ١٩٦٥ شاركت فيه جماهير حاشدة من مختلف المناطق اللبنانية وخطب فيه النائب قبلان عيسى الخوري من بشرّي والنائب مارون كنعان من جزّين واللواء جميل لحّود من المتن الشمالي والسيِّدة نهاد سعيد ممثّلة بلاد جبيل وجرودها الغنيّة بزراعة التفّاح ومعروف سعد وجورج حاوي ومحسن ابراهيم وممثّل عن زحله. وتكلّم أخيرًا الزعيم كمال جنبلاط فدعا إلى خطّة علمية وعملية شاملة لحلّ الأزمة ترتكز إلى مساهمة الدولة في شراء إنتاج التفّاح والمحاصيل الزراعية الأخرى من حمضيّات وزيتون وزيت الزيتون والتبغ وإيجاد اسواق خارجية لها، وإيجاد وسائل التبريد الكافية لاستيعاب الإنتاج وفرض الرقابة المشدّدة على أسعار البيع والشراء بحيث لا يذهب الربح كلّه إلى الوسيط ويعاني المزارع ما يعاني من أعباء لا مقدور له على أن يتحمّلها لوحده...

وتجاوبت الحكومة مع عدد من المطالب فعمد وزير الزراعة جوزف نجّار، صديق كمال جنبلاط القديم، إلى توسيع صلاحيّات مكتب الفاكهة الذي أُنشئ في عهد الرئيس فؤاد شهاب، وسواها من المطالب.

شكّل مهرجان بتخنيه بداية وانطلاقة "جبهة الأحزاب والشخصيّات الوطنية والتقدّمية" التي وسّعت نطاق نشاطاتها فأبدت اهتمامًا كبيرًا بمطالب الفئات العاملة وبمطالب المعلّمين الرسميين وضرورة إنشاء نقابة لهم، كما طاولت اهتماماتها قضيّة مزارعي التبغ في الجنوب وفي البقاع، واستمرّ وتوسّع. وتمكّنت من زيادة أجور العمّال والمستخدمين والموظّفين الرسميين ورفع الحدّ الأدنى للأجور ضمن المستطاع. ولا ننسى مطالب الطلاّب وفئات الشباب وكان تعدادهم في البلاد يزيد على نسبة ٦٠ بالمئة من مجموع السكّان.

في المقابل شهدت البلاد انقسامًا في النظرة إلى الأمور: لم يعد طائفيًّا كما في الماضي، بل شكّل هجمة على ما سمّي "الاتّجاه الاشتراكي"... فراح الفريق الآخر المدعوم من كبار المحتكرين والمتموّلين يهاجم تقارير بعثة "إيرڤد" والأب لوبريه ويدعو إلى تجاهلها ويدافع عمّا يسمّونه "الاقتصاد الحرّ" وهو في الواقع الاقتصاد التجاري المركنتيلي الاحتكاري لصالح فئة الأربعة بالمئة من الشعب، المخاصم والمسيء إلى الغالبيّة الساحقة من اللبنانيين وحقّها في الحياة الحرّة الكريمة المعافاة. وكان وزير المال عهد ذاك من مؤيّدي هذه السياسة الانقلابية الأمر الذي أدّى إلى إفلاس مصرف "أنترا" أكبر المصارف اللبنانية وأوسعها انتشارًا ونشاطًا داخل لبنان وخارجه... تحت تأثير وضغوط المصارف الأجنبية في بيروت والسحوبات الهائلة التي أجريت عليه من بعض كبار متموّلي النفط العربي الداعمين للمصارف البريطانية والأميركية. فدعا كمال جنبلاط إلى معالجة الأزمة في العمق، وإلى تحصين الوضع المصرفي في لبنان ومراقبة المصارف الأجنبية والحدّ من نفوذها وإجبارها على استثمار نصف أرصدتها في مجالات الاقتصاد الوطني اللبناني وقطاعاته المنتجة. والمعروف أنَّ رئيس الجمهوريّة شارل حلو لم يكن يحبّ يوسف بيدس، رئيس مجلس إدارة بنك أنترا ومديره العامّ، وهو فلسطيني الأصل، وكان يتمتّع بحماية ورعاية المكتب الثاني اللبناني (المخابرات) وبنفوذ لا بأس به في أوساط بعض النوّاب والسياسيين ورجال الإعلام.

وبدأ كمال جنبلاط يتحسّس النهج الرأسمالي المعادي للمطالبة بحقوق الشعب وفئاته العاملة والمنتجة، فعمدت الحكومة إلى منع المهرجانات الشعبية ما لم يحصل منظّموها على ترخيص مسبق... وتذرّعت بأنها تهدّد سلامة الأمن والاستقرار... فكتب كمال جنبلاط

مقالاً في «الأنباء» هاجم فيه هذا التوجّه ودعا رئيس الجمهوريّة إلى إعادة النظر في سياساته وفي إدارته، وإلى الاعتماد على رجال أقوياء وأكفّاء صالحين لتبوّ المراكز الحكومية مبديًا خشيته من أنَّ عهد شارل حلو بدأ يرتدّ بالبلاد إلى ما كانت عليه قبل عهد فؤاد شهاب...

ـ زيارة أندونيسيا واكتشاف عالم جديد

ذات يوم من أيام ربيع عام ١٩٦٥ طلبني كمال جنبلاط إلى بيته ليبلغني أنه تلقّى دعوة، بصفته رئيس اللجنة اللبنانية للتضامن الآسيوي ـ الأفريقي، لحضور الاحتفالات العاشرة لتأسيس مؤتمر عدم الانحياز في باندونغ (١٩٥٥ ـ ١٩٦٥) والتي ستقام في جاكارتا عاصمة أندونيسيا. قال لي: أنت تتعب كثيرًا في «الأنباء»، وفي حاجة ربّما إلى القيام برحلة للراحة والاستجمام. وهذه الاحتفالات سترتدي طابعًا سياحيًّا ، فنيًّا وثقافيًّا، وتدوم بضعة عشر يومًا بحيث يقدّم كلّ بلد يشارك أفضل ما عنده من تراث فنّي وفولكلوري... وهي فرصة لا تتكرّر كلّ يوم. فكّرت بك وفي أن تمثّلني في هذه الاحتفالات، فيتاح لك أن تكتشف عالمًا جديدًا لم تتعرّف إليه من قبل...

شكرته على لفتته لكنّي سألت: و«الأنباء»... ماذا سنفعل بها؟ قال: سنتدبّر أمرها، فلا تهتمّ ولا تتردّد...

خطّ الطيران الوحيد ربّما الذي كان يؤمّن التواصل بين بيروت وأندونيسيا يومها هو شركة الطيران الهولّندية (K.L.M). فأندونيسيا كانت في القرن الغابر مستعمرة هولّندية... أجريت الاتّصالات اللازمة بالسفارة الأندونيسية في بيروت للحصول على تأشيرة الدخول، وبشركة الطيران المعنيّة، وملأت جيوبي بالعملة الأندونيسية في محلّ « اليان للصيرفة » في ساحة البرج...

وفي اليوم المحدّد أقلعت بنا الطائرة من بيروت في رحلة طيران تدوم حوالي ١٧ ساعة تحطّ خلالها لساعات أو ليوم في مطارات كاراتشي (باكستان) وبانكوك (تايلاند) وكوالا لامبور (ماليزيا) ووصلنا مطار جاكرتا مساء يوم من شهر نيسان فكان في استقبالنا ممثّلين عن وزارة الخارجية الأندونيسية تولّت فتاة سمراء منهم تعليق عقد من الزهور في عنقي وقالت لي بالفرنسية: اسمي «فجر»، وأنا مرافقتك ومرشدتك خلال مدّة الاحتفالات. ومن المطار توجّهنا إلى فندق «أندونيسيا » الذي ابتناه الرئيس أحمد سوكارنو خصّيصًا

لاحتفالات «الداسا وارسا» أو الذكرى العاشرة لمؤتمر عدم الانحياز الذي انعقد في مدينة باندونغ...

في اليوم الأول للاحتفالات، وفي قاعة فخمة وفسيحة شُيِّدت خصّيصًا للمناسبة، كان هناك الرئيس المصري جمال عبد الناصر، والرئيس اليوغوسلافي جوزف بروزتيتو ورئيسة وزراء الهند أنديرا غاندي ورئيس وزراء الصين شو إن لاي والرئيس الأندونيسي أحمد سوكارنو وإلى جانبه زوجته الثانية وهي فنّانة صبيّة وجميلة وابنته ميغاواتي من زواجه السابق وهي التي حكمت أندونيسيا بعد إزالة حكم العسكر والجنرالات الموالي للولايات المتّحدة الأميركية... والأميرة شمس آل بهلوي ممثّلة شقيقها شاه إيران ورئيسة للوفد الإيراني، وزوجة رئيس جمهوريّة غينيا أحمد سيكوتوري ممثّلة زوجها وبلادها وكانت سيّدة سوداء فارعة الطول على وجهها مسحات واضحة من الجمال الأخّاذ... ورؤساء عرب وأفريقيين وآسيويين.

استمعنا في اليوم الأول والثاني إلى خطب الرؤساء أو ممثّليهم. وكان الرئيس الأندونيسي أحمد سوكارنو، الذي افتتح الاحتفالات باعتباره رئيس الدولة المضيفة، يستهلّ خطابه بهاتين الكلمتين: «سودرا، سودراي» أي «الأصدقاء والصديقات»... و«الا» باللغة الأندونيسية هي للمذكّر و«الاي» للمؤنّث... ثمَّ يصيح ويزعق: «غانن ماليزيا» أي لنربح أو لنسحق ماليزيا... فسوكارنو اعتبر طوال مدّة حكمه أنَّ ماليزيا هي قطعة من أندونيسيا يجب أن تستردّ وتستعاد... ثمَّ استمعنا إلى خطب عبد الناصر وتيتو وأنديرا غاندي وشوان لاي وغيرهم وغيرهم... وقدّر لنا في حفل الاستقبال الذي أقيم مساء اليوم الأول في الصالة الكبرى من فندق «أندونيسيا» أن نلتقي زعماء عدم الانحياز وأن نصافح العديد منهم. وعندما قدّموني إلى الرئيس جمال عبد الناصر سألني: إزّاي الأخّ كمال... لماذا لم يحضر؟

وتعرّفت إلى شقيقة الشاه الأميرة شمس التي تبيّن أنها زارت لبنان وتهتمّ لأخباره، وأنها مقيمة في الطابق عينه الذي أقيم فيه، كذلك زوجة رئيس جمهوريّة غينيا أحمد سيكوتوري وكانت سيّدة سوداء اللون، طويلة القامة، تتمتّع بجمال أخّاذ.

لكن المفاجأة بالنسبة إليّ كانت ما فاتحتني به مرافقتي الآنسة «فجر» بعد انتهاء حفل الاستقبال، من أنَّ والدها الجنرال في الجيش الأندونيسي يودّ رؤيتي ولقائي فوعدتها أن نبحث مساء اليوم التالي إمكانيّة إتمام ذلك اللقاء.

أمّا المفاجأة الأخرى فتمثّلت في ما واجهني في اليوم التالي عندما دعيت للصعود إلى المنبر وإلقاء كلمة والتعريف عن نفسي وعن بلدي؛ ونظرت إلى خريطة كبرى علّقت على الحائط، إلى جانب المنبر، فوجدت اسم إسرائيل ولم أجد اسم لبنان على الخريطة فتوجّهت إلى الحضور، وكانوا مندوبين وممثّلين عن أكثر من مئة بلد آسيوي أفريقي وقلت:

ـ أنا خجل منكم ومن نفسي... فللتعريف عن موطني لبنان أراني مضطرًّا إلى القول وأنا أمثّله في مؤتمر لعدم الانحياز يؤيّد قضايا التحرّر والاستقلال وحقوق الشعوب، أنَّ لبنان يقع في محاذاة إسرائيل الدولة التي احتلّت أرض الشعب الفلسطيني وشرّدت القسم الأكبر منه... وهي لعمري إهانة لي ولبلدي ولكلّ الدول والشعوب الممثّلة في هذا المؤتمر... وصفّق الحضور... ثمَّ وصل الخبر إلى الرئيس الأندونيسي أحمد سوكارنو، فاقتربت ابنته ميغاواتي، في اليوم التالي، مني لتبلغني أنَّ والدها سيعمل على تصحيح الخطأ واستبدال الخرائط... وكان ذلك نصر متواضع للبنان وللعرب...

... وذات مساءً توجّهت بنا السيّارة من الفندق، وسط مدينة جاكارتا إلى ضاحيتها الشرقية حيث يقع منزل "فجر" وأهلها. وفي مدى نصف ساعة اجتزنا أحياء يعتمرها الفقر والبؤس، وتخيّم على أهلها، على ما بدا لي، أجواء القلق وعدم الارتياح. فالناس لا تأكل شعارات ولا خطبًا رنّانة كان الأندونيسيون والأندونيسيات قد ملّوا سماعها، وسئموا تكرارها... الخبز والماء والحرّية هو مبتغى ومنشود دول العالم الثالث التي كانت تفتقر في غالبيّتها إلى التمتّع بحرّياتها العامّة والخاصّة لصوغ نمط حياة وعيش يتلاءم مع تقاليدها ومقدّساتها ويلبّي ولو الحدّ الأدنى من طموحاتها وأحلام وآمال بنيها... وصلنا المنزل فهو من الخارج شبه عادي ومن الداخل مليء بأثاث يليق بمن ينتمي إلى الطبقة الوسطى من الشعب. قدّمتني "فجر" إلى والدها الجنرال، ثمَّ تولّى هو تقديمي إلى ثلاثة زملاء له في الجيش الأندونيسي هم في رتبة ومرتبة "جنرال" أو ما دون بقليل.

كانت مفاجأتي، ربّما، السؤال الذي وجّهه إليّ الجنرال الوالد بلهجة عربية ركيكة:

ـ أمسلم أنت؟ فأجبت بدون تردّد: بنعمة الله، نعم... بدا على وجوه الرجال الأربعة الارتياح. ثمَّ أحضرت كؤوس سكبت فيها الويسكي مع الثلج وقليل من الماء، وبدأ حديث اللقاء بقرع الكؤوس وبالسؤال عن بلد المنشأ، والموقع، والمحيط وسواها من الأسئلة البديهية. قال أحدهم إنَّ موجة إسلامية تجتاح صفوف ضبّاط الجيش وأساتذة الجامعات وأوساط

المثقّفين، وإنَّ المملكة العربية السعودية أرسلت إليهم هديّة هي كناية عن مليون مصحف وزّعت على فريق لا بأس به من هؤلاء... وإنَّ السعوديّة ترسل دعاة ومرشدين لتعزيز التوجّه الإسلامي وتصويب مساره. وفهمت من آخر أنَّ الرأي العامّ الأندونيسي غير راضٍ وغير مرتاح عن الإنفاق الكبير الذي يقوم به الرئيس أحمد سوكارنو على حياته الخاصّة، فهو تزوّج مؤخّرًا ممثّلة سينما هي في عمر ابنته، وهو يبتني له ولها قصرًا من قصور ألف ليلة وليلة فيما الشعب يشكو الفقر وأحيانًا الجوع... وأخذ ثالث على الحكم توجّهه نحو الشيوعية واليسار المتطرّف، والرعاية الرسمية للحزب الشيوعي الأندونيسي الذي يعتبر من أبرز وأنشط الأحزاب على الساحة الأندونيسية عهد ذاك...

وأندونيسيا هي على أرض الواقع نمط من طراز خاصّ من الدول والبلدان، فهي كناية عن أرخبيل يضمّ نحوًا من ثلاثة آلاف جزيرة ليس بينها وسيلة مواصلات إلاَّ القوارب والطائرات. أغلبيّة السكان ينتمون إلى الدين الإسلامي مع أقلّية مسيحية وجزيرة بعيدة تتبع مذهب "كونفوشيوس" الأكثر انتشارًا في الصين، اسمها "بالي"... يعدّها الحكم لأن تكون في المستقبل منتجعًا سياحيًّا عالميًّا يستجلب السيّاح وهواة البحر والسهر والملذّات، وهو ما يتنافى مع الدين الإسلامي، كما أكّد لي الضابط الرابع... الذي أضاف: سوف يأخذونكم إلى هناك بدون شكّ... في نهاية السهرة وكان الوقت حوالي منتصف الليل دعاني الجنرال إلى المبيت عنده تلك الليلة فاعتذرت وودّعت الجميع، فاتّجه بي السائق المغلوب على أمره نحو الفندق في جاكارتا فبلغناه نحو الواحدة فجرًا...

أبكرت "فجر" في الحضور في الصباح التالي، وحرصت أن تصعد إلى غرفتي في الفندق لتبلغني تحيّات والدها وضيوفه وتمنّيهم أن أعتبر ما أدلوا به ليلة أمس كلامًا غير دقيق ولا ينطبق ربّما على الواقع المعيوش تمامًا. فطمأنتها إلى أني نسيت كلّ ما سمعت. أخبرتني هي أنها تتابع دروس السنة الأخيرة في كلّية العلوم السياسية في الجامعة، وأنَّ أمنيتها أن تلتحق بوظيفة في السلك الدبلوماسي الذي ما زال لا يقبل بانضمام الجنس اللطيف إليه. وسألتني: وعندكم، هل الأمر كذلك؟ فنفيت وقلت إنَّ ما لدينا هو شبه مساواة بين الذكور والإناث. فارتاحت للأمر، ثمَّ سألتني: هل أنت متزوّج أو عازب؟ فقلت: لم أتزوّج بعد... فابتسمت وقالت إنَّها معجبة بي وتتمنّى لو أني أصطحبها معي إلى لبنان لعلّ وعسى، فطيّبت "خاطرها" وسألتها ألاَّ تحلم بمثل تلك الأحلام وأن تبقى تعيش على أرض الواقع والمعقول والمقبول، فذلك أضمن لمستقبلها وأكثر ملاءمة...

بعد يومين توجّهنا إلى المطار وأقلعنا في طائرتين تابعتين للجيش باتّجاه جزيرة بالي. لم تكن الطائرتان مجهّزتين بمقاعد قانونية ولائقة، بل وضعوا فيها مقاعد خشبية غير مريحة. بعد ساعة طيران أو أكثر وصلنا وتوجّهنا إلى منتجع قديم العهد قرب شاطئ البحر حيث قضينا ثلاثة أيام. اكتشفنا هناك أنَّ الناس يعيشون على الطبيعة: يربطون قطعة قماش على الخصر تستر عوراتهم لا أكثر، أمّا القسم الأعلى من الجسم: من البطن وما فوق فيبقى عاريًا عند الإناث والذكور على السواء. زرنا في جزيرة "بالي" بقايا المعابد الكونفوشية، وجُلّها من الرخام الأحمر والحجر المحَموَرْ، ويمتدّ الواحد منها على مئات وآلاف الأمتار من الأراضي وبأشكال هندسية تدلّ على عراقتها في الحضارة والتاريخ. وشهدنا مزادًا على مصنوعات حرفية وخزفية وزجاجية، ومن بينها تمثال خشبي لكريشنا نُحِتَ بالمسلاّت والأدوات الخفيفة وبإتقان كلّي، على جذع سنديانة أو شجرة مشابهة...

دخلت في مزاد حول هذا التمثال الرائع لكريشنا وقد صمّمت على أن أفوز به لأحمله هديّة قيّمة لكمال جنبلاط من هناك... وكانت منافستي في المزاد عقيلة الرئيس أحمد سيكوتوري رئيس جمهوريّة غينيا. بدأ المزاد بألف ليرة أندونيسية ووصلنا إلى الخمسة آلاف. عندما سألتني السيّدة سيكوتوري: من أين أنت آتٍ؟ فقلت لها: من لبنان... فقالت مستغربة وشبه شامتة: آه منكم أنتم اللبنانيون... غزوتم بلادنا واستغلّيتم شعبنا الطيّب وجنيتم الثروات... فأجبتها: أنت مخطئة يا سيّدة... نحن أسهمنا في نهضة بلادكم... وإذا كان بعضنا قد استغلّ وأساء فلا يصحّ التعميم... نظرت إليَّ وقالت حازمة: سأفوز أنا بهذا التمثال... وسأحمله من هنا هديّة لأحمد (أي زوجها رئيس غينيا المعروف جدًّا في عالم عدم الانحياز)... فأجبتها ضاحكًا: لنحاول، وسنرى من سيفوز. وكنت قد اتّخذت قراري بعدم التراجع، وأنا، والحمد لله، عنيد في مواقف الحقّ والقرار كما كان يصفني كمال جنبلاط. صار الواحد منّا يزيد كلّ مرّة خمسمئة ليرة، وما أن وصلنا إلى التسعة آلاف، قلت أنا: عشرة آلاف... أعلنت السيِّدة سيكوتوري انسحابها وفزت أنا بتمثال كريشنا الذي وضعته في كيس من الخام، وكان وزنه يزيد على العشرة كيلوغرامات... لكن كان عليّ أن أحمله في طريق العودة من "بالي" إلى العاصمة الأندونيسية جاكارتا حتّى لا ينكسر أي جزء من جناحيه المحفورين بما يشبه الإبداع... ثمَّ كان عليّ أن أحمله في طريق العودة من جاكارتا إلى بيروت في رحلة دامت ١٧ ساعة طيران تخلّلها ثلاث استراحات دامت إحداها ١٢ ساعة في بانكوك عاصمة تايلاند...

عند عودتنا إلى جاكارتا قدّر لنا وخلال أيام أن نشاهد عروضًا مدهشة للفرق الفنّية الوطنية الرسمية التي قدمت من عشرات دول وبلدان عالم عدم الانحياز... وكانت فرصة نادرة من العمر لا تتاح للمرء كلّ يوم أن يحظى بمثلها وفي مناسبة واحدة وفي مكان واحد...

ويوم وصلت إلى بيروت توجّهت فورًا بسيّارة التاكسي من المطار إلى منزل كمال بك حيث قدّمت له الهديّة الرائعة (تمثال كريشنا) فسرّ بها أيّما سرور وأفرد لها مكانًا في زاوية من مدخل بيته محلّة فرن الحطب بحيث يتسنّى لكلّ الزائرين مشاهدة والتمتّع بروعة هذه التحفة الفنّية.

في العدد الأول الذي صدر من «الأنباء» إثر عودتي كتبت تحقيقًا عن احتفالات «الداسا وارسا» أو الذكرى السنوية العاشرة لانعقاد مؤتمر باندونغ ونشرته على مدى صفحة كاملة معزّزًا بالصور الفوتوغرافية التي نقلتها معي من جاكارتا. وكتبت في آخر التحقيق وبحرف بارز ضمن إطار العبارة الآتية: (في العدد القبل: هل أندونيسا مقبلة على انقلاب عسكري؟) وجنَّ جنون السفير الأندونيسي في بيروت وملحقه الصحافي الذي كان شيوعيًّا مسيحيًّا اسمه بيار... فحضرا لزيارة كمال جنبلاط في منزله وتمنّيا عليه عدم نشر التحقيق التالي، فنقل «المعلّم» إليَّ هذا التمنّي مع شبه طلب منه بعدم النشر حفاظًا على علاقاتنا الطيّبة مع الدول الآسيوية الصديقة. فنزلت عند الطلب والتمنّي آسفًا واعتذرت من القرّاء في العدد التالي من «الأنباء»...

ولم تمضِ أشهر قليلة حتّى قام الجنرال سوهارتو بانقلابه العسكري الدامي الذي سقط خلاله حوالي ثلاثين ألف قتيل بسبب شراسة المقاومة الشعبية التي قابلته... وعيّن الجنرال والد الآنسة «فجر» وزيرًا للدفاع، ثمَ قامت هي بزيارة بيروت حيث احتفيت بها وكرّمتها لأيام...

* * *

كمال جنبلاط الإنسان الكبير
ورجل الدولة المميّز...
حكايا وذكريات للعِبرة والتفكّر

«طريق الإسلام هو الاشتراكية، طريق النصرانية هو الاشتراكية،
طريق الوحدة الوطنية هو الاشتراكية، طريق الشعوب ومنطلق
ظفرها هو الاشتراكية.
عزّزها الله في قلوبنا وأنار بها عقولنا، وجعلنا نبصر الحقيقة،
فنكافح كفاح الدنيا وكفاح الأبطال».

كمال جنبلاط

عود إلى الحكم... فالحرب فالهزيمة العربية في حزيران ١٩٦٧

كان كمال جنبلاط قد عاد إلى الاشتراك في الحكومة بناء لإلحاح الرئيس فؤاد شهاب الذي حثّه على ضرورة الوقوف إلى جانب الرئيس شارل حلو حتَّى لا يسقط نهائيًّا في أحضان الفريق الآخر الذي كان يحيط به ويغازله... فتسلّم وزارتيّ الأشغال العامّة والبريد والبرق والهاتف مقابل إسناد وزارة الداخلية للشيخ بيار الجميّل وهي المعادلة السخيفة التي اتّبعها عهد فؤاد شهاب وعاد إليها عهد شارل حلو. وترأّس الحكومة عبد الله اليافي.

في تلك الحقبة كاد أحد المدراء العامّين في وزارة الأشغال أن يتسبّب بأزمة كبرى بين كمال جنبلاط والشيخ بيار الجميّل، وهو الموظّف عينه الذي كان وراء ما سمّي أزمة أملاك الغدير بين صائب سلام وكمال بك عام ١٩٦١. وخلاصة الحكاية أنَّ الشيخ بيار كان وزيرًا للأشغال ويتّخذ من موظّف كتائبي في هذه الوزارة سكرتيرًا له ومديرًا لمكتبه. وعندما عيّن الشيخ بيار وزيرًا للداخلية في الحكومة انتقل هذا الموظّف معه دون استئذان من وزيره. فراح المدير العامّ يحرّض وزير الأشغال الجديد كمال جنبلاط على اتّخاذ تدبير مسلكي بحقّه قد يؤدّي إلى صرفه من الخدمة. وذات يوم رنّ جرس الهاتف في مكتبي بمبنى اللعازارية وكان المتحدّث على الجهة الأخرى من الخطّ الشيخ بيار الجميّل فقال: هناك قصّة صغيرة تحتاج

إلى معالجتك. وسيزورك جورج عميره مع الشخص المعني فتدبّر الأمر بحكمتك... وأقفل الخطّ. وبعد قليل زارني زميلي وصديقي عميره المدير المسؤول لجريدة «العمل» ومعه الموظّف وكان اسمه غيث خوري.

كان غيث زميل دراسة لي في مدرسة الحكمة في الأشرفية وكنت أزوره أحيانًا في منزله الوالدي المواجه لمستشفى القدّيس جاورجيوس للروم الأرثوذكس بمحلّة الجعيتاوي... شرح لي غيث الموضوع وقال إنَّه نادم على ما حصل ولا يريد أن يكون السبب في أزمة ما بين كمال بك والشيخ بيار. أستوعبت الموضوع وطلبت إمهالي حتّى صباح الغد لأتمكّن من معالجة المسألة مع كمال بك...

وتوجّهت فورًا إلى مبنى الوزراة في الشيّاح، وكان الوقت هو بعد الظهر. اجتمعت إلى كمال بك ووضعته في ظروف وملابسات المسألة، ونقلت إليه تحيات الشيخ بيار وتمنّيه بأن تتمّ معالجتها حبّيًا، وتبعًا لحكمته وسعة صدره. استدعى الوزير المدير العامّ فراح هذا يصرّ على رأيه وموقفه في ضرورة اتّخاذ تدبير مسلكي تأديبي بحقّ غيث وإحالته إلى التفتيش المركزي... فلزمت أنا الصمت، ولم أشأ أن أتدخّل بين الوزير ومدير عامّ من مدراء وزارته.

بعد خروج المدير، وكان مارونيًّا، سألني كمال بك: ماذا تقترح؟ قلت: كما تريد وترى... فأنت الوزير والأمر عائد لك ولتقديرك. فاستدعى كمال بك مدير مكتبه وطلب منه إعداد مذكّرة خطّية تنصّ على انتداب الموظّف في وزارة الأشغال غيث خوري، وبصورة مؤقّتة ليكون ملحقًا بوزير الداخلية على أن يعود إلى وظيفته الأصلية بعد استقالة الحكومة. وسألني كمال بك: منيح هيك؟ فقلت: ـ هذا هو موقف رجل دولة من الطراز الرفيع، وهذا ليس غريبًا عنكم وعن مزاياكم. لكن لي تمنٍّ أخير وهو أن أصطحب غيث خوري غدًا صباحًا إلى هنا فيقف على خاطرك ويشكرك، فتسلّمه المذكّرة وننهي الموضوع. فأومأ برأسه موافقًا، وهكذا كان. فتلقّيت في اليوم التالي اتّصال شكر ومحبّة من الشيخ بيار الذي كان يتحلّى بقلب طيّب كبير وبأخلاق رفيعة جدًّا.

ولكم تمكّنّا، جورج عميره وأنا، من حلّ وتفادي الكثير من الإشكالات التي كانت تحصل باللطف والدبلوماسية وحسن التصرّف والنوايا الحسنة. فعندما تحسن النوايا تُذَلّل المصاعب وتستصغر الكبائر...

ربطتنا بالشيخ بيار الجميّل صداقة امتدّت إلى أفراد عائلة والدتي. كان الشيخ بيار وخالتي، شقيقة والدتي وزوجة عمّي أمين في ما بعد، جوزفين أسعد المتني، زميلي دراسة في كلّية الطبّ الفرنسية في بيروت. هو يدرس الصيدلة، وهي تتابع الدروس التي ستخوّلها أن تتخرّج قابلة قانونية مجازة من كلّية الطبّ. وكان بيت جدّي لوالدتي وآل الجميّل (الحكيم أمين والد الشيخ بيار وغبريال) متجاورين في حي اليسوعية من العاصمة. ويوم عقد نسيب المتني قرانه على الآنسة صوفي فيليب أرقش، وتمَّ ذلك في البيت بداعي الحداد كان الشيخ بيار هو إشبين نسيب المتني. وحضر الإكليل الحاج حسين العويني وتقي الدين الصلح، وهما من أصدقاء الصحافي المناضل المقرّبين.

وعندما بدأ نسيب المتني يصدر عدد يوم الاثنين الخاصّ من «التلغراف» كنت أنا قد بلغت الثامنة عشرة. فيكلّفني خالي نسيب بأن أذهب إلى الشيخ بيار في صيدليته، في ساحة البرج، لآخذ تصريحًا منه للعدد الخاصّ. فيستقبلني بيار الجميّل بالترحاب ويسألني: ـ هل أعددت «الكستيون» أي الأسئلة. وكان يلفظها بالفرنسية، فأجيب بالإيجاب، فيدعوني للدخول إلى مكتب له ضمن حاجز خشبي وزجاجي في آخر الصيدلية، ويقول لي: اكتب «الريبونس»، أي الأجوبة، ونادني عندما تنتهي. كنت موضع ثقته أتمتّع بمحبّة منه وبشيء من الودّ. وعندما أنتهي من كتابة الأجوبة أُعلِمهُ فيحضر ويقول لي: اقرأ الأسئلة والأجوبة فأفعل. وعندما نصل إلى كلمة باللغة العربية الفصحى لم يستوعبها كلية يقول لي: ما تعني بالفرنسية؟ ويقولها باللغة الفرنسية، فأتولّى أنا شرح معنى الكلمة أو العبارة حتَّى يتمّ استيعاب المعنى والمقصود، فيشكرني، ويسألني قبل أن أغادر: هل سيعجب هذا التصريح نسيب؟ فأقول: ليس المهمّ أن يعجبه أو لا يعجبه. الأهمّ أن لا تصدر «العمل» يوم الثلاثاء وفيها مقال أو مقالات تناقض ما جاء في هذا التصريح. فيضحك الشيخ بيار ويقول: سوف أُكلّم الياس ولويس (أي الياس ربابي ولويس أبو شرف).

وحادثة أخرى ما زلت أذكرها عن وزارة البريد والهاتف والاتّصالات. فلقد اكتشف الوزير فيها عجائب وغرائب... تبيّن له أنَّ موظّفًا مسؤولاً عن توزيع خطوط الهاتف في بيروت قد ابتنى له بناية من عدّة طوابق في العاصمة. وكان هذا الموظّف محميًّا من ذوي النفوذ والباع الطويل. جمع كمال جنبلاط كبار موظّفي الوزارة وخاطبهم بالقول: الهاتف هو مشروع رابح بالنسبة لخزينة الدولة، ويجب أن يُلَبّى كلّ طلب هاتف بالسرعة القصوى بدون وساطة أو تلقّي عمولة أو رشوة أو «خاطر شان» كما كان يسمّيها...

وذات يوم تلقّيت اتّصالاً هاتفيًّا من رجل الأعمال والمستورد الكبير جان فتّال. كان الرجل يمدّ «الأنباء» بإعلانات عن المواد الاستهلاكية التي يستورد ويوزّع في لبنان وفي البلدان العربية، وربطتني به صداقة ومودّة.

أبلغني التاجر الكبير أنه تقدّم بطلب للحصول على خطّ «تلكس» ثان هو ضروري جدًّا لتأمين حسن سير العمل في مؤسّسته، لكن الطلب لم يحظَ بالموافقة بعد على الرغم من أنه دفع لوسيط خمسة آلاف ليرة لبنانية لتأمين توقيع الوزير السابق على الطلب. وسألني أن يعطيني رقم وتاريخ الطلب علّني أتمكّن من أخذ الموافقة عليه. فأجبته بأنني لا أقوم بمثل هذه الأمور. كلّ ما أستطيع فعله هو أن أحدّد له موعدًا مع الوزير فيشرح له الموضوع، ويبقى القرار للوزير وحده.

دهش للجواب وقال: هل تعتقد أنَّ كمال بك سيستقبل جان فتّال؟ قلت: سوف نرى. نقلت موضوع الاتّصال إلى كمال جنبلاط فقال لي: حدّدوا له موعدًا الساعة الحادية عشرة من قبل ظهر غد.

ولم يصدّق الرجل عندما نقلت له الجواب. حضر في الموعد المحدّد وهو شبه مضطرب تبدو على محيّاه إمارات القلق، فالتقى في غرفة الانتظار النائب ورجل الأعمال توفيق عسّاف فتعانقا وأخبره الزائر بفحوى الزيارة فطمأنه عسّأف وقال له: سوف ترى غير ما سمعت وتظنّ...

وعندما حان وقت الموعد دخلنا شرح الضيف غاية الزيارة. فطلب الوزير حضور مدير عامّ البريد فحضر. فسأله أن يحضر إليه ملفّ طلب السيِّد فتّال ففعل. سأل الوزير مديره: هل الطلب مستوفٍ للشروط القانونية؟

فأجاب المدير العامّ بالإيجاب. أخذ الوزير الطلب فوقّعه وطلب من المدير العامّ أن يتمّ تركيب خطّ التلكس في اليوم التالي وأن تلبّي طلبات الزبائن بالسرعة القصوى. وكان المدير العامّ هو جورج شدياق ابن خالة كميل شمعون، وكان قد مضى على تقديم الطلب أكثر من سنة كاملة...

راقب جان فتّال طريقة عمل كمال جنبلاط في وزارته فأدهشه ذلك فخاطبه بالقول: شكرًا لك يا كمال بك وأطال الله بعمرك. ولو كان لنا وزيران أو ثلاثة على مثالك لسارت

الدولة وأمور الناس على أفضل ما يرام. ثمَّ دخل الرجلان في حديث طويل ومتشعّب أُعجب الفتّال بكمال بك أيّما إعجاب.

وعندما خرجنا من مكتب الوزير خاطبني جان فتّال بالقول: أهنّئك يا عزيز. أنت تعمل مع أفضل وأنزه رجل عرفه لبنان. وفي الطريق سألني رجل الأعمال: بماذا أستطيع أن أخدم الرجل فأردّ له بعضًا من جميله؟ فقلت: لديه في المختارة مستوصف شعبي مخصّص للفقراء. ويوم السبت وصلت إلى دار المختارة سيّارة «فان» محمّلة بمواد الإسعافات الأولية وبعض أنواع الأدوية والأمصال وخلافه. لكنّ كمال جنبلاط كاد يردّها من حيث أتت لولا وجودي هناك وشرحي لغاية الرجل النبيلة. وتكرّر مجيء «الفان» إلى المختارة كلّ شهر تقريبًا.

دامت مدّة عمل حكومة عبد الله اليافي ثمانية أشهر تمكّن كمال جنبلاط خلالها من إطلاق العديد من الاتوسترادات ومشاريع الطرق من خلال مجلس تنفيذ المشاريع الكبرى ومجلس المشاريع الكبرى لمدينة بيروت. ومنها مشاريع ودراسات لبناء سدود على الأنهر واستحداث البحيرات الاصطناعية واستثمار ثروة لبنان المائية. وظلّ موضوع استثمار مياه نهر الليطاني على منسوب ٨٠٠ متر هاجسه وأمنيته، إلاَّ أنَّ الممانعات بقيت هي إيّاها، وجلّها من خارج لبنان.

في هذه الأثناء كانت السيِّدة نهاد سعيد، كغيرها من النوّاب ورجال السياسة، يزورون كمال جنبلاط طالبين تقديم الخدمات لمناطقهم. وذات مرّة راحت السيِّدة سعيد، التي كان لها منزلة خاصّة عند كمال بك، تشكو له ما يحصل معها في زياراتهاومراجعاتها للرئيس شارل حلو. قالت له: لم يلبّ لي أيّ طلب يذكر حتَّى اليوم، وكلّما حدّثته عن أمر ما أجد أنَّ طلبي يواجه بالعراقيل وبعدم التحقّق. فسألها كمال بك مازحًا:

ـ كيف عم تحكي معو يا ستّ نهاد: بالجيد أو بالمقلوب؟

فقالت الستّ نهاد مستغربة: ما فهمت يا كمال بك؟

بادرها كمال بك بالقول وهو يبتسم ابتسامة عريضة: يا عمّي، هيدا زلمي خلقان بالمقلوب... وبدّك تحكي معو بلغتو. فإذا كنت تريدين توظيف شخص ما لا تقولي له: هذا إنسان متعلّم، كفؤ، يتمتّع بأخلاق ومزايا رفيعة... يعني تكونين قد حكمت على هذا الشخص بالإعدام وبالاستبعاد...

بل قولي له: فلان يزعجني كثيرًا ولا يطاق... وعلماتو عا قدّو، ومش خرج هالوظيفة التي يصرّ على طلبها... فإذا فعلتِ سترين أنَّ هذا الشخص قد تمَّ توظيفه...

فأطلقت الستّ نهاد ضحكتها المعهودة، وقالت لكمال بك: يعني، كلّ شيء في هذه الدولة بالمقلوب: من رأسها لكعب رجليها... فعلّق كمال بك بالقول: لكن يبقى فيها بعض الاستثناءات...

٢٧ أيّار ١٩٧٦: «المعلّم» يذرف دمعة حرّى على شقيقته الستّ ليندا التي اغتيلت في بيروت.

الهزيمة... والردّة:
الحلف الثلاثي وانتخابات الرئاسة

"مصيبة العرب تكمن في الذهنية السحرية، ذهنية الكلام التي تمحض ثقة مبالغًا فيها حتّى يقترن في أعماق الوعي بالفعل، ويحلّ محلّه في غالب الأحيان".

كمال جنبلاط

منذ مطلع سنة ١٩٦٧ لاحت في آفاق المنطقة العربية نذر العاصفة المقبلة عليها. ومن تاريخ كانون الثاني ١٩٦٥، وعندما باشرت سوريا شق قناة لتحويل مياه اليرموك، تنفيذًا "لقرارات" مؤتمر القمّة العربي الثاني الذي انعقد في الاسكندرية في أيلول ١٩٦٤، بدأت التهديدات الإسرائيلية تنذر باحتمال حدوث مواجهة ما بين البلدين. وخلال شهري أيار وتموز عام ١٩٦٥ قام الجيش الإسرائيلي بقصف المنشآت السورية المستحدثة شمال بحيرة طبرية فدمّر أجزاء كبيرة منها... وفي ٧ نيسان ١٩٦٧ حصل اشتباك واسع بين الجيشين السوري والإسرائيلي استخدمت فيه الدبابات والطائرات. وفي ذلك اليوم ظهرت الطائرات المعادية ولأول مرّة في أجواء العاصمة السورية. وأخذت إسرائيل بحشد قوّاتها على الحدود مع سوريا وبإطلاق التهديدات ضدّها إذا لم تضع حدًّا لتوغّل الفدائيين الفلسطينيين داخل إسرائيل انطلاقًا من الأراضي السورية... ووجد الرئيس المصري جمال عبد الناصر نفسه ملزمًا بتنفيذ اتّفاق الوحدة العسكرية المعقود بين مصر وسوريا، فطالب بانسحاب قوّات حفظ السلام التابعة للأمم المتّحدة من سيناء واستبدالها بقوات مصرية. وفي ٢٢ أيار أعلن عبد الناصر عن قراره إغلاق خليج العقبة في وجه السفن الإسرائيلية ومثيلاتها التي تحمل المساعدات العسكرية إلى إسرائيل...

وكان واضحًا للمراقبين ولكمال جنبلاط بالذات أنَّ عملاً حربيًا ما سوف يحصل في المنطقة ويكون له تأثير كبير على مصير شعوب المنطقة العربية. وكان الزعيم التقدّمي قد حذّر الحكومة اللبنانية أكثر من مرّة من الأخطار التي تهدّد لبنان فطالب بالتجنيد الإلزامي وتدريب الأهالي وبناء الملاجئ والتحصينات في المنطقة الحدودية من جنوب لبنان وعدم ترك اللبنانيين مكشوفين أمام أي عدوان إسرائيلي محتمل. كما دعا إلى تشكيل لواء خاصّ من الفلسطينيين المقيمين في لبنان يكون تحت أمرة الجيش اللبناني أسوة بما حصل في باقي

الدول العربية المواجهة لإسرائيل ومنها مصر وسوريا والأردن والعراق. وكانت تلك الألوية الفلسطينية قد استحدثت بعد القرارات التي اتّخذها مؤتمر القمّة العربي الثاني بغية ضبط الفلسطينيين الراغبين في القتال ضمن ألوية نظامية تابعة لجيوش الدول المقيمين فيها، وعدم السماح بانفلات الأمور وحدوث الفوضى والتسيّب.

وفي مؤتمر صحافي عقده في ٢ حزيران ١٩٦٧، أي قبل نشؤ الحرب بثلاثة أيام، أكّد كمال جنبلاط أنَّ سبب النزاع المباشر في الشرق الأوسط هو احتلال فلسطين من قبل العدو الصهيوني وتشريد أهلها، وليس إغلاق خليج العقبة أو الذرائع التي تعلنها إسرائيل ومن ورائها دول الغرب وعلى الأخصّ الولايات المتّحدة وبريطانيا.

لكنّ ما حصل يوم الخامس من حزيران ١٩٦٧ فاق كلّ التوقّعات... وجّهت إسرائيل ضربة ساحقة لسلاح الجوّ المصري فحسمت المعركة لصالحها... واجتاحت سيناء ووصلت إلى ضفّة قنال السويس... واحتلّت مدينة القدس بأكملها والضفّة الغربية من فلسطين ووصلت إلى نهر الأردن... وسقط الجولان السوري دون أيّة مقاومة تذكر... وتحدّثت المعلومات والتحليلات عن خيانات حصلت وأدّت إلى إقدام المشير عبد الحكيم عامر النائب الأول للرئيس المصري جمال عبد الناصر والقائد العامّ للقوّات المسلّحة المصرية على الانتحار. وأصيبت الشعوب العربية بالذهول والإحباط... وبكى الملايين خيبة الآمال التي كانت معلّقة على نظامي مصر وسوريا بشكل أخصّ...

بعد الهزيمة النكراء للجيوش النظامية العربية راح الناس وعلى الأخصّ الشبيبة في مختلف بلدان العرب وأقطارهم يتعلّقون ولو بالأوهام...

وراحت الدعوات تنطلق من هنا وهناك إلى اعتماد الكفاح الشعبي المسلّح لاستعادة الأراضي العربية ولتحرير فلسطين... وصارت صور «تشي غيفارا» وماوتسي تونغ وكاسترو ترفع في كلّ مناسبة.

في الأسبوع الأول للهزيمة العربية الكبرى كتب كمال جنبلاط مقالاً في «الأنباء» قال فيه: «خسرنا معركة لم يكن بالإمكان عدم خسارتها لأنَّ أميركا مدّت إسرائيل بالعتاد الحديث وبكل أنواع التقنيات، بينما لم تكن مساعدات السوفيات في المستوى المطلوب»...

وأضاف: أنَّ مصيبة العرب تكمن في الذهنية السحرية، ذهنية الكلام التي تمحض ثقة مبالغًا فيها حتَّى يقترن في أعماق الوعي بالفعل، ويحلّ محلّه في غالب الأحيان.

لكن الهزيمة التي هزّت الضمير العربي وجرحت الكرامة العربية في الصميم جعلت الأضواء تسلّط على حركة المقاومة الفلسطينية وعلى حركة «فتح» بالذات التي ولدت في الكويت وكان من أركانها ياسر عرفات (أبو عمّار) وصلاح خلف (أبو إياد) وخليل الوزير (أبو جهاد). كان ياسر عرفات يأتي إلى بيروت زائرًا فينزل في شقّة صديقه المهندس زهير العلمي ثمَّ يقضي أوقاتًا لا بأس بها في مقهى «شي بول» (Chez Paul) في محلّة الروشة. وكان هذا المقهى الذي اشتهر بحلوياته الشهية (الكاتو) معروفًا عهدذاك. وكان عرفات ناطقًا إعلاميًا ومتحدّثًا باَسم منظّمة «فتح». تعرّفت إليه صدفة ذات نهار من خريف ١٩٦٧ في مقهى «شي بول» عندما كنت جالسًا مع زميلنا، الصحافي سمير شاهين، رفيقي السابق في جريدتي «التلغراف» و «الطيّار» ودخل شاب أسمر، مربوع القامة يضع نظارات سوداء قدّمني إليه سمير على أنه مهندس فلسطيني يعمل في الكويت لكن وبعد مغادرتي عرف من سمير أنني رئيس تحرير «الأنباء» جريدة كمال جنبلاط فابدى رغبة بلقائي ثانية بعدما وضعني زميلنا الصديق في أجواء مهمّة واهتمامات الرجل. في اللقاء الثاني كنت أنا متحفّظًا وجدّيًا، لكن عرفات فتح قلبه قليلاً فشكا مضايقات بعض الأجهزة للفلسطينيين العابرين الحدود الجنوبية، لا سيَّما في طريق العودة. وعندما وقفت مودّعًا سألني أبو عمّار ما إذا كان في الإمكان أن أقدّمه إلى كمال جنبلاط فأجبت بأني سأضع الرجل في الأجواء. وهنا حضر زهير العلمي فسلّمت وغادرت، ولم أعد ألتقي عرفات. في تلك الفترة من الزمن كان كمال جنبلاط منشغلاً بمحاولة إقناع رئيس الجمهورية شارل حلو بضرورة متابعة الخطّة الإنمائية الخماسية التي وضعها خلال عهد فؤاد شهاب والتي تطال المناطق المحرومة وفي مقدّمتها منطقة الجنوب لتأمين مقوّمات الصمود والتشبّث بالأرض للأهالي، وكان حلو قد بدأ بالتراجع عن الكثير من الأمور تحت ضغط الرأسمالية الاحتكارية التي راحت تنادي بالحفاظ على «الاقتصاد الحرّ» وبتحييد لبنان عن الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وكانت قد وجدت في هزيمة حزيران هزيمة للتيّار العربي الوحدوي التحرّري فبدأت تفكّر في تنظيم صفوفها للثأر من خصومها اللبنانيين الممثّلين بالشهابيين وبكمال جنبلاط واليسار اللبناني الحليف... وبدأوا يشيّعون أنَّ الشيوعية تكاد تصل إلى كلّ مكان ويثيرون النعرات العصبية الطائفية ويتهيّأون ضمن ما سمّي في ما بعد «الحلف الثلاثي» بين شمعون وإدّه والجميّل تمهيدًا لخوض الانتخابات النيابية في ربيع سنة ١٩٦٨.

وصار كمال جنبلاط يكتب في «الأنباء» أنَّ الجيش أوجد لحماية الوطن والحدود

والكرامة الوطنية، فليكن هو في المقدّمة، في مقدّمة الأهالي دفاعًا عن الوطن. لكن الأهالي لم يعودوا لبنانيين فقط بل فلسطينيين، مواطنين ولاجئين ومقاومة. فاختلط الحابل بالنابل... وراح بعض في الجيش يقول: إنَّ الجيش هو من يحدّد توقيت المعركة وإطارها ومداها وليس هذا المقاوم الفلسطيني أو ذاك... وراحت هذه الأمور تثير الحساسيات في المقلب الآخر من شرائح الشعب... ووجدت لها أرضًا خصبة وأناسًا يحسنون استغلالها فبدا وكأنَّ البلد مقبل على انقسام وعلى تهيؤ لمواجهة ما.

في ظلّ هذه الأجواء وتحوّل الرئيس شارل حلو من مقلب إلى آخر ومن ادّعى اعتناقه النهج، إلى حلف ثلاثي طائفي مذهبي كان هو أحد صانعيه على طريقته «الجزويتية» اليسوعية المزدوجة الخبث والكذب والتعقيد... وإذا كان الرئيس معقّدًا يشكو من علّة، بل من علل وأمراض نفسية ربَّما، فكيف سيكون الحكم والأحكام؟!

كان فؤاد شهاب قد قطع كلّ اتّصالاته مع شارل حلو فبات لا يردّ على اتّصالاته الهاتفية، وصار المكتب الثاني وأهل النهج يشكون الرئيس الذي انتخبوه مناصرًا، ثمَّ راحوا يحلمون بها حَكَماً، فإذا هو الخصم والحكم في آن. وبات رشيد كرامي يردّد في مجالسه الخاصّة: «فيك الخصام وأنت الخصم والحاكم... لا الحَكَم».

في هذه الأجواء جرت الانتخابات النيابية ربيع عام ١٩٦٨ ففاز الحلف الثلاثي بمعظم المقاعد المارونية في محافظة جبل لبنان وبات هو الممثّل الشرعي للموارنة، ولو أنَّ أكثرية نيابية ما بقيت داخل مجلس النوّاب، لكن لم يعد لها ذاك الثقل المسيحي والوزن الذي كان في السابق... وتكهربت الأجواء في أنحاء البلاد، وجرت مواجهات طالبية بين فريق من الطلاّب يؤيّد إطلاق حرّية العمل الفدائي وفريق يعارض ويشجب ويدعو الجيش لقمع التحرّكات الفدائية ووقع جرحى وقتلى... وفي ٢٦ كانون الأول من ذاك العام هاجم فدائيون تابعون للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة الدكتور جورج حبش، هاجموا طائرة ركّاب إسرائيلية في مطار أثينا، فردّ «كوماندس» الجيش الإسرائيلي بإنزال في مطار بيروت في ٢٨ كانون الأول ١٩٦٨، ففجّر ودمّر ١٢ طائرة تابعة لشركة طيران الشرق الأوسط اللبنانية.

وكتب كمال جنبلاط مقالاً تحت عنوان «فضيحة الفضائح» حمّل فيه الرئيس شارل حلو مسؤولية ما حدث لأنه لم يفعل شيئًا لتعزيز القدرة الدفاعية للجيش وللبلاد... ولم

يتجرّأ مع أعوانه ومساعديه على شراء السلاح للجيش من الاتّحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي، لأنهم ما زالوا يعيشون على الأوهام القائلة أنَّ الدول الغربية لن تسمح لإسرائيل بالاعتداء على لبنان... وكان جنبلاط يرى بحدسه وتحليله العلمي أنَّ هدف الهجمة الإسرائيلية الوقحة هو دفع القوى المعترضة على وجود المقاومة الفلسطينية في لبنان إلى نزاع مسلّح سافر مع الفلسطينين سيؤدّي حتمًا إلى نقل العدوى إلى اللبنانيين أنفسهم... فكتب محذّرًا: «إمَّا أن تمتنع الدولة عن التدخّل لمنع وعرقلة تيّار التطوّر الشعبي في الحقل الوطني والتقدّمي، وإمَّا أن نتوقّع اندلاع موجة من العنف في لبنان ستتصاعد حتمًا في السنوات المقبلة حتَّى تبلغ الذروة»...

كانت الحكومة يومها رباعية شكلها شارل حلو إثر الانتخابات لإعادة صورة حكومة «النصف بنصف» أو حكومة قائمقاميتي النصارى والمسلمين التي شكّلها فؤاد شهاب خريف عام ١٩٥٨ إثر ما سمّي «الثورة المضادة»... وإذ بشارل حلو يعتبر أنَّ نتائج انتخابات ١٩٦٨ هي بمثابة ثورة مضادة جديدة ضدَّ الشهابيين وتيّار عبد الناصر وتنامي المقاومة الفلسطينية. وتألّفت حكومة شارل حلو الرباعية من عبد الله اليافي وحسين العويني عن المسلمين وريمون إدّه وبيار الجميّل عن النصارى. إلاَّ أنَّ هذه الحكومة لم تصمد طويلاً بعد الهجوم الإسرائيلي على مطار بيروت والغضبة الشعبية التي قامت بعده... فقدّمت استقالتها. وكلّف حلو رشيد كرامي تشكيل حكومة جديدة فاعتذر كمال جنبلاط عن الاشتراك فيها وحذّر كرامي من الدخول في «مأزق كبير»... لكن كرامي استمرّ في محاولته فشكّل حكومته في ١٥ كانون الثاني ١٩٦٩ وضمّت بيار الجميّل وريمون إدّه عن الحلف الثلاثي فاحتجّ شمعون واعترض فقدّم إدّه والجميّل استقالتهما من الحكومة فاستبدلوا بوزراء مستقلّين... وفيما كانت حكومة كرامي تستعدّ للمثول أمام مجلس النوّاب في نيسان جرى ما لم يكن في الحسبان. انفجر الوضع في الجنوب بين منطق الثورة والمقاومة ومنطق الدولة وسلطة الجيش فاطلقت النار على فدائيين عائدين من مهمّة داخل الأراضي المحتلّة في بلدة بنت جبيل الجنوبية، ثمَّ أطلقت النار على موكب تشييع أحد هؤلاء الفدائيين في صيدا فسقط ٤ قتلى وحوالي ٢٠ جريحًا، ووقعت اشتباكات في البقاع وقع فيها ضحايا فدعت الأحزاب والقوى الطالبية إلى تظاهرة احتجاج وتضامن مع المقاومة في بيروت في ٢٣ نيسان ١٩٦٩. وما أن انطلقت التظاهرة في محلّة حرج بيروت حتَّى قوبلت بخراطيم المياه والقنابل المسيّلة للدموع... وما أن أكملت مسيرتها حتَّى جوبهت بإطلاق النار على مقدّمتها فسقط

٦ قتلى وحوالي ٢٠ جريحًا... فأعلنت الحكومة حال الطوارئ وفرضت حظر التجوّل وكلّفت الجيش تولّي مهمّة حفظ الأمن...

وفي اليوم التالي عقد مجلس النوّاب جلسة لمناقشة بيان الحكومة الوزاري والاقتراع على الثقة ففوجئ النوّاب بالرئيس رشيد كرامي يعلن استقالة حكومته من مجلس النوّاب مؤكّدًا أنَّ المسألة التي تحول دون أداء الحكومة مهمّاتها تكمن في غياب الموقف الموحّد لدى السياسيين اللبنانيين بالنسبة للتواجد الفلسطيني في لبنان وممارسة المقاومة المسلّحة من الأراضي اللبنانية. وقال: أزاء الدم البريء الذي سال بالأمس يتطلّب التصدّي للوضع مشاركة جميع اللبنانيين بحيث يتّفقون في ما بينهم بعيدًا عن النغمات السابقة لأننا إذا بقينا على شروطنا فلن نخرج بالبلاد ممّا تتعرّض له من أخطار...

من المجلس النيابي عرّج كمال جنبلاط على مستشفى مخلوف في محلّة الصنائع حيث كنت قد خضعت لعملية استئصال الزائدة. قضى عندي في المستشفى حوالي ساعة بدا خلالها حانقًا وغير مرتاح لما جرى. اعتبر الزعيم التقدّمي أنَّ استقالة كرامي هي بمثابة تهرّب من المسؤولية. فقد كان من واجبه الاستمرار في الحكم ومحاسبة العسكريين الذي أمروا بارتكاب المجازر بحقّ الأبرياء من المتظاهرين. وعقد في اليوم التالي مؤتمرًا صحافيًّا طالب خلاله بمنح الفلسطينيين حقّ خوض الكفاح المسلّح من الأراضي اللبنانية، ودعا إلى إقرار قانون التجنيد الإلزامي، وتشكيل مجلس استشاري فلسطيني يتعاون مع السلطات اللبنانية في كلّ ما يتعلّق بوجود الفلسطينيين في لبنان... فيما طالب بيار الجميّل بوضع حدٍّ للعمل الفدائي الفلسطيني ولو بالقوّة... وتمسّك ريمون إدّه بمطلبه المعروف الذي يدعو إلى الاستعانة بقوّات «البوليس الدولي» التابع للأمم المتّحدة على طول الحدود الجنوبية بين لبنان وإسرائيل، أي بتحييد لبنان عن الصراع العربي الإسرائيلي، والتمسّك باتّفاق الهدنة بين البلدين.

أعاد شارل حلو تكليف رشيد كرامي الذي دأب على التوجّه إلى القصر الجمهوري للتشاور مع الرئيس في موضوع تأليف الحكومة طوال ستة أشهر وعلى الوقوف على مدخل القصر والتصريح بالقول: «ما زلنا في مرحلة تظهير الصورة»... نصح كمال جنبلاط صديقه كرامي بوضع لائحة بحكومته وتقديمها إلى الرئيس حلو، فإذا وافق جاء إلى مجلس النوّاب لطلب الثقة، وإذا رفض اعتذر كرامي وحمّل رئيس الجمهورية مسؤولية استمرار الأزمة... لكن كرامي الذي كان ينسّق مع الرئيس فؤاد شهاب ومع القاهرة تريّث

واستمهل... في هذا الوقت أرسل الرئيس جمال عبد الناصر موفده الشخصي الدكتور صبري الخولي للقيام بوساطة بين حلو وجبهة الأحزاب اليسارية المتضامنة مع المقاومة الفلسطينية... وتحرّك بعض الزعماء المسلمين في بيروت فطالبوا بتعديل صلاحيات رئيس الحكومة في موازاة صلاحيات رئيس الجمهورية فيشترك الاثنان في التأليف وتوقيع مراسيم تشكيل الحكومة...

استغرقت رحلة "تظهر الصورة" من وضعها السلبي إلى وضعها الإيجابي ستة أشهر ونيف... وعندما اكتمل « التظهير » جاءت الصورة سوداء قاتمة... فقد ولد يوم ٣ تشرين الثاني ما سمّي "اتّفاق القاهرة" الذي تمّ توقيعه في العاصمة المصرية. وقّع الاتّفاق بآسم لبنان قائد الجيش إميل البستاني وياسر عرفات بصفته رئيسًا لمنظّمة التحرير الفلسطينية. قيل يومها أنَّ الرئيس حلو هو الذي كلّف البستاني مهمّة توقيع الاتّفاق... لكن حلو وعلى طريقته الهروبية الضبابية، نفى في مجالسه الخاصّة أن يكون قد كلّف قائد الجيش خطّيًا بالتوقيع... وحاول المكتب الثاني ورئيس أركان الجيش الزعيم شميط التنصّل من الموضوع معلنين سرًّا لا علنًا عدم رضاهما وموافقتهما على ما جرى... ودخلت البلاد كلّها في مجرى النفق المظلم الذي ما زلنا نعيش تداعياته ومسبّباته حتّى أيامنا هذه. بل قل في مغارة مقفلة يصعب الخروج منها من دون مواجهات وضحايا والتوغّل في المجهول... فالحوار الوطني الذي يدور منذ سنوات حول ما سمّي "الاستراتيجية الدفاعية" هو امتداد للصراع الذي بدأ قبل ومع "اتّفاق القاهرة" حول إمكانية التعايش بين منطق الدولة ومنطق المقاومة... وحول من يتّخذ قرار الحرب والسلم الدولة مجتمعة بما فيها المقاومة... أم المقاومة منفردة وبعيدًا عن سلطة الدولة وما يحفظ سيادة لبنان وسلامته... وأن أختلف بين الأمس واليوم أسماء اللاعبين ونوعية اللعبة ومصادر تمويلها وتسليحها وإملاء القرار في شأنها...

وتلقّى كمال جنبلاط تمنّيًا من الرئيس عبد الناصر وأوساط شهاب في أن يتولّى حقيبة وزارة الداخلية للإشراف على حسن تطبيق "اتّفاق القاهرة"، وهي مهمّة تشبه إلى حدّ بعيد ما يسمّى « المهمّة المستحيلة » في أفلام السينما ووسائل التلفزة...

وعندما اتّخذ الزعيم التقدّمي قراره بقبول التوصية وضع دفتر شروط لدخول الحكومة على أساسه يتضمّن « شروط المسكوب » في مواجهة معضلة يتهاوى البلد معها ويتّجه نحو المجهول...

احتوت المذكّرة التي سلّمها جنبلاط إلى كرامي في مشاورات تأليف الحكومة بضعة عشر بندًا تبدأ: بضرورة تحصيل ضريبة الدخل وتصحيح قواعد جبايتها لتشمل جماعة الـ ٤ بالمئة الذي يملكون معدّل نصف دخل اللبنانيين... وهؤلاء كانوا يمسكون دائمًا دفترين واحدًا خاصّ بالمؤسّسة، والآخر لتقديمه إلى مصلحة ضريبة الدخل وفي محصّلته أنّ المؤسّسة لم تحقّق أية أرباح وهي بالتالي غير مكلّفة دفع أية ضريبة لخزينة الدولة. وحصل مرّة أني كنت في زيارة أحد كبار رجال الأعمال المستوردين والموزّعين، ودخل عليه شابان مجازان بالحقوق كان قد عيّنهما الرئيس كرامي، الذي كان يحتفظ دائمًا بحقيبة وزارة المال، للإسهام في حسن ضبط وتحصيل ضريبة الدخل. وما أن جلس الشابان الموظّفان حتّى سألهما التاجر الواسع الثراء: ما هو الراتب الشهري الذي سيدفعه رشيد أفندي لكلّ منكما؟ وأجاب أحدهما: ٧٥٠ ليرة لبنانية في الشهر. فابتسم رجل الأعمال وقال: ما رأيكما في أن يتقاضى كلّ منكما مبلغ ١٥٠٠ ليرة لبنانية شهريًا مقابل إشرافكما على "تظهير" الصورة الأخيرة لدفاتر حسابات المؤسّسة التي تقدّم لمصلحة ضريبة الدخل... وتثاءب قليلاً ثمّ أضاف: هذا عدا ألـ Bonnus في آخر السنة، ولفظها بالفرنسية، وتعني العلاوة والمكافأة الإضافية... وافق الموظّفان الحديثا العهد بالوظيفة، وعلى ضريبة الدخل ألف سلام...

ومن بنود مذكّرة جنبلاط: حصر المناطق العسكرية ضمن الحدود المهدّدة من العدو الإسرائيلي مباشرة، وإلغاء إحكام الطوارئ المفروضة على نصف مساحة لبنان... وتنظيم وضبط آلية توزيع رخص السلاح على المواطنين ونقل صلاحية منحها من وزارة الدفاع إلى وزارة الداخلية، وإلغاء المرسوم الذي يجيز وضع قوى الأمن الداخلي تحت تصرّف قيادة الجيش... وإلغاء التدابير التي تمارسها مديرية الأمن العامّ لمنع المواطنين من السفر إلى دول أجنبية معيّنة (في المعسكر الاشتراكي) وإلى دول عربية (أبرزها مصر وسوريا)، ورفع الرقابة على البريد والهاتف التي تطبق خلافًا للدستور والقانون، وتعديل قانون المطبوعات وإلغاء النصوص التي يتضمّنها وتتعارض مع مبادئ الحرّية والنظام الديمقراطي... وإبطال الملاحقات في تظاهرات نيسان، والتعويض عن "ضحايا شراسة الدولة في مقتل الرجال والشباب والنساء من الأبرياء"...

أمّا المطلب الذي اعتبره رشيد كرامي موجّهًا ضدّه شخصيًا فكان مطلب إلغاء "ضريبة الليرة" على صفيحة البنزين التي تقتطع من تعب الفقراء فيما الأغنياء وكبار المسؤولين والنوّاب والوزراء والضبّاط يحصلون على البنزين مجانًا من أموال المكلّف اللبناني...

و"ضريبة الليرة" لها حكاية ملخّصها أنَّ الرئيس كرامي أراد تمويل استحداث أوتوستراد يربط بيروت بطرابلس الفيحاء فأجرى مفاوضات مع البنك الدولي لتمويل قرض يؤمّن تكاليف الأوستراد فاشترط المصرف الدولي استحداث ضريبة ثابتة تشكّل ضمانًا لتسديد القرض فكانت ضريبة الليرة على صفيحة البنزين التي قوبلت بمعارضة شعبية عارمة لعلّ أبرزها العنوان الرئيسي الذي وضعه جورج نقّاش في صدر الصفحة الأولى من "الأوريان" ونصّه: "Autostrade: oui, Impôt: Non" وترجمته: "أتوستراد نعم... ضريبة لا" ولو عاش جنبلاط ونقّاش إلى يومنا وعاينا وصول ثمن صفيحة البنزين إلى ٣٥ ألف ليرة لبنانية دون تحرّك من أحد أو اعتراض وممانعة لكتبا وحرّضا: ضريبة نعم، أتوسترادات وخدمات لا...

في الوقت الضائع بين تظهير الصورة على وجهيها السلبي والإيجابي وقع خلال صيف ١٩٦٩ حادث أثار ضجّة كبرى في الأوساط الدبلوماسية والسياسية. فقد نشر بعض الصحف خبرًا عن محاولة قام بها الملحق العسكري السوفياتي، وكشفها المكتب الثاني اللبناني، لسرقة طائرة حربية فرنسية من طراز "ميراج" تابعة لسلاح الجوّ في الجيش اللبناني... وأثارت الحملة سخط الرئيس جمال عبد الناصر فطالب السفير المصري في بيروت المكتب الثاني بضرورة وقف الحملة فورًا لإنها تسيء إلى سمعة بلد صديق يمدّ مصر وسوريا والعراق بالسلاح... واستجلبت الحملة نقمة الزعيم التقدّمي كمال جنبلاط فوصفها بأنها نتيجة لمؤامرة مدبّرة بالاتّفاق مع وكالة الاستخبارات الأميركية للإساءة إلى بلد صديق للعرب هو الاتّحاد السوفياتي.

وعندما جاء العقيد غابي لحود رئيس المكتب الثاني ومعه الضابط المعني بالعملية، وهو من سلاح الجوّ اللبناني، وضبّاط آخرين لمقابلة كمال جنبلاط وشرح التفاصيل له خاطبهم جنبلاط بالقول:

ـ لا أريد أية تفاصيل، فالاتّحاد السوفياتي هو بلد صديق للعرب، فلماذا حشرتم نفسكم بهذه الورطة ودخلتم في مسرحية الهدف منها الإساءة إلى دولة صديقة لخدمة أهداف أخرى؟ وأضاف كمال جنبلاط: لو كنت مكانكم لكنت قدّمت طائرة "الميراج" هدية للاتّحاد السوفياتي، فهو يستحقّها... طالما أنَّ الطائرة عندكم عاطلة عن العمل ولا تؤدّي أي خدمة للدفاع عن لبنان في وجه الاعتداءات الإسرائيلية...

... والإساءة التي كسرت الجرّة
وتسبّبت في القرار الحاسم!

... ثمَّ كانت «القشّة» التي تسبّبت في انكسار «الجرّة» نهائيًّا بين كمال جنبلاط والمكتب الثاني والعسكر الشهابي...

حَدَثَ ذلك صيف سنة ١٩٦٩. أمَّا ملخّص الحكاية فهو أنَّ المفكّر التقدّمي المعجب بالمفكّر الفرنسي تيلاردو شاردان تلقّى في شهر أيلول سنة ١٩٦٨ دعوة للمشاركة في ندوة علمية دولية حول مؤلّفات دو شاردان وفكره المسكوني تعقد في بلجيكا، لإلقاء محاضرة فيها. لبّى كمال جنبلاط الدعوة مع نجله وليد وصديقه المقرّب جوزف دوناتو رئيس مصلحة الإنعاش الاجتماعي في عهد الرئيس فؤاد شهاب ثمَّ السفير في أوروبا في عهد شارل حلو.

استمتع الجميع بما دار في الندوة وتخلّلها من أبحاث ومحاضرات ونقاشات... ثمَّ قاموا بجولة سياحية في بلجيكا زاروا خلالها العديد من المتاحف والآثار الفنية الرائعة لمايكل أنجلو ولسواه من كبار الفنانين وتعرّف كمال جنبلاط إلى عديد من السادة والسيِّدات واستعاد ذكرياته مع صديقه الحميم الدكتور روجيه غوديل من خلال وجود زوجته السيِّدة أليس في الندوة... وعاد إلى لبنان...

وليس صحيحًا البتة ما ورد في الصفحة ٣٤١ من كتاب تيموفييف من أنَّ كمال جنبلاط كان يعاني آنذاك «أزمة نفسية»... أو نفسانية فهذه تعتبر من ضمن الإساءات الموجّهة إلى شخص كمال جنبلاط في كتاب المستشرق الروسي الغريب عن عادات بلادنا وتقاليدها. وفي صيف سنة ١٩٦٩ زارت لبنان شلّة ممّن شاركوا في الندوة لحضور مهرجانات بعلبك الدولية وكان من بين الشلّة آنسة كان كمال جنبلاط قد لقيها سابقًا في ندوة بلجيكا وتدعى ميراي بيغوري، وهي خريجة كلّية علم النفس في جامعة بيركلي بكاليفورنيا مولعة يحب الاطّلاع على التعاليم الباطنية الشرقية تسأل عن رحلاته إلى الهند ولقاءاته مع المعلّم الروحاني شري أتماننداً... وكان لديها تعطّش قوي لمعرفة الحقيقة واكتناه بواطنها وخوافيها... وحدث أن خرج كمال جنبلاط ذات مساء من ذاك الصيف لتناول العشاء مع الآنسة ميراي ومعه صديقيه المقرّبين وجدي الملاّط وجوزف دوناتو وعقيلتيهما.

وفيما هم كذلك اقترب مصوّر فالتقط صورة نشرت بعد أيّام في ثلاث مجلاّت في بيروت بما أوحى بغير ما هي عليه حقيقة وواقع الأمر... ثمَّ سرت شائعات في بيروت وفي بعض عواصم العرب حول الموضوع بما أثار بعض الأسئلة وعلامات الاستفهام. وجاء من يقول لكمال جنبلاط أن بعضًا من جماعة المكتب الثاني هم من قاموا ويقومون بتلك التحرّكات السخيفة... فاعتبر هو أنهم يقصدون إهانته بكرامته الشخصية التي كانت أغلى ما عنده، فاتّخذ قراره بضرورة اقتلاع هؤلاء من الجذور...

قال لي ذات صباح وهو جالس في فراشه الممدود على حصيرة على بلاط غرفة النوم:

ـ لألعن أبو أبوهم... يحاولون النيل من كرامتي... شطّب عليهم... انتهى أمرهم... ثمَّ تمنّى عليّ أن لا أبوح بالأمر لأحد، وكنت عند ثقته بي، كما على الدوام، فكتمت السرّ. إلاَّ أني اكتفيت أحيانًا بإبلاغ بعض الأصدقاء من ضبّاط المكتب الثاني، وكان لي بينهم أصدقاء، إنَّه ليس بهذه الطريقة يتمّ التعامل مع إنسان كبير اسمه كمال جنبلاط.

وكان كمال بك على معرفة تامّة بكل هذه التفاصيل، وكان هو من يكلّفني بالتنسيق معهم، وعلى الأخصّ مع العقيد غابي لحود.

سألته مرّة عمّا جمعه بالآنسة ميراي فقال: التقارب الروحي هو الأهمّ والأبقى... أمَّا حبّ الجسد فهو فانٍ وآنيّ...

وحصل خلال سنة ١٩٧٠ وبعد ترؤّس صائب سلام لأول حكومة في عهد سليمان فرنجيه أطلق عليها "حكومة الشباب"، حصل تلاسن كلامي بين كمال بك وصائب سلام الذي اتّهمه بأنه يقصد الهند بهدف صيد الغزلان، غامزًا من قناته، فردّ عليه كمال جنبلاط بعنف وقسوة إذ خاطبه بالقول: أنت تذهب لصيد الخنازير في رومانيا... "وأنت لا تستحقّ أن تحلّ سير حذاء هذه العذراء المريمية"...

تمنّيت عليه مرّات، وهو يملي عليّ هذا التصريح، أن يحذف هذه العبارة وأن يستبدلها بأخرى لكنّه رفض بإصرار. فقلت له أنت تشبّهها بالعذراء وتسير على خطى يوحنا المعمدان عندما سئل: هل أنت هو المسيح الذي ننتظر؟ فأجاب: أنا لا أستحقّ أن أحلّ سير حذائه...

أذكر جيِّدًا هنا للدلالة والتوضيح ليس أكثر، بل ربَّما واجب الاعتراف بالحقيقة

يقتضينا دائمًا أن نكون صادقين مع أنفسنا ومع الآخرين... أذكر أنَّ كمال جنبلاط كلّفني بالعديد من المهمّات، قبل موعد إجراء الانتخابات النيابية ربيع سنة ١٩٦٨، قام العقيد غابي لحود بتنفيذ مضامينها. ومنها خدمات انتخابية تتعلّق بنقل صناديق الاقتراع من مكان إلى آخر، أو من هذا الحيّ إلى حيّ آخر كان يبدو أكثر ملاءمة للحزبية وللمحازبين.

وكان غابي لحود يكنّ كلّ تقدير واحترام لشخص كمال جنبلاط، ولما يمثّل من قيم ومن روحانيات ومن وطنية جامعة مترفّعة يصحّ أن تتّخذ مثالاً وقدوة في العمل الوطني العامّ. وكان كمال جنبلاط يشدّد دائمًا على القول إنَّ النضال يكون وطنيًّا جامعًا أو لا يكون. ويوم السبت السابق ليوم الانتخابات اضطررت لقطع زياح الشعانين، الذي كان البطريرك المعوشي قد نقله من يوم الأحد إلى يوم السبت، بعدما تلقّيت أكثر من اتّصال من كمال جنبلاط ومن النائب فؤاد طحيني تقول أنَّ الأحوال "خربانة" و "مسكّرة" في وجه لائحتنا... فقمت، بناء لطلب من كمال بك، بجولة في بعض بلدات الإقليم المسيحي، المتوسّط منها والساحلي، وتمكّنت من إصلاح الأمور في بعضها، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وأبلغت كمال بك بالنتيجة هاتفيًّا من الدامور.

ثمَّ قصدنا ليلاً بيروت مع زوجتي وولديّ وكانا: الصبيّ بسنّ سنة وثلاثة أشهر والبنت بسنّ ثلاثة أشهر فقط لا غير. وفي الطريق إلى بيروت كانت زوجتي تشكو أمرها لله وتخاطبني بالقول: إذا كنت لا تستطيع أن تحضر "شعنينة" أولادك، فلماذا تزوّجت؟!

وصلنا إلى بيتنا في محلّة الجميّزة حوالي منتصف الليل. وفي الخامسة والربع صباحًا رنّ جرس الهاتف في منزلي، وكان المتكلّم هو كمال بك الذي قال:

ـ لدينا بعض المطالب العاجلة التي نأمل أن يلبّيها العقيد لحود!... فقلت: أين يمكن أن ألقاه في مثل هذه الساعة؟ طيّب خاطري وأملى عليّ الطلبات، فارتديت ما تيسّر من ثياب وتوجّهت بسيّارتي إلى منزل العقيد غابي لحود قرب كنيسة "سانت لورد" في فرن الشباك، وكانت الساعة تشير إلى حوالي السادسة صباحًا. على مدخل البناية عسكريان أبلغاني أنَّ الصعود إلى منزل العقيد ممنوع منعًا باتًا، بأمرٍ منه، لأيّ كان... فرحت أتمشّى، وما أن لمحتهما يدخلان غرفة الناطور، ويضعان "الركوة" على آلة كهربائية لصنع القهوة، حتَّى تسلّلت إلى المصعد وقصدت الطابق الثالث حيث المنزل، ورحت أقرع الجرس ولا من يجيب... فاستمرّيت أقرع حتَّى فتح العقيد الباب، وهو شبه عارٍ ليقول لي: ما الذي جاء بك في مثل

هذا الوقت؟ ولمّا أبلغته بالسبب راح يتذمّر، فألححت، فدخلنا... وطلب القائمقام لاسلكيًّا وأبلغه وجوب تنفيذ الطلبات فورًا، وكانت تتعلّق بنقل بعض أقلام الاقتراع لضرورات أمنية وانتخابية...

ثمَّ لمحت في منزل العقيد غابي لحود ما لمحت... فابتسم وقال: السرّ مطرحو؟! فوعدت خيرًا، وعدت إلى بيتي لأبلّغ كمال بك بالنتيجة فسألني: قمحة أو شعيرة؟ فقلت قمحة...

وحلقت ذقني وغسلت وجهي، ثمَّ توجّهنا إلى الدامور لمتابعة يوم انتخابي طويل...

حاول كمال جنبلاط من خلال وجوده في وزارة الداخلية ضبط الأمور، وعلى الأخصّ في ما يتعلّق بالعلاقة مع الفلسطينيين الذين منحهم "اتّفاق القاهرة" امتيازات ومكاسب وجزءًا من الأراضي اللبنانية يخصّهم وأطلق عليه: "فتح لاند" أو "أرض فتح"... وكأنَّ الأرض تتجزّأ، وكأنَّ سيادة البلد تقاس بالأمتار أو بالكيلومترات. كان من المستحيل إيجاد تنسيق أو تناغم بين منطق الدولة وانفلات المقاومة. فكل فريق يعزف على أنغام مختلفة، متنافرة أحيانًا، ومهيّأة للتصادم وللانفجار تارة أخرى. وكانت الأجواء الداخلية تسير في اتّجاه التوتّر والتشنّج وعدم التلاقي... والسلاح يأتي من هنا وهناك، لهذا الفريق أو ذاك.

وبدأ كمال جنبلاط يصف الدولة اللبنانية بأنها تشبه إلى حدٍّ بعيد بناية متصدّعة مهدّدة بالانهيار. ويضيف: ليس المطلوب أن يأتي رئيس للجمهورية يقف ناطورًا على هذه البناية، بل رئيس يضع خريطة جديدة للدولة، ويكون مؤهّلاً وقادرًا على إعادة بنائها... فالبلاد في حاجة إلى تعديل أساسي في النظام الاقتصادي والمالي، كما في النظام الاجتماعي والتربوي. وقال: النظام السياسي هو الأساس الذي يجب أن يبدأ منه التبديل والتغيير، وإلاّ نكون كمن يلعب لعبة الأولاد الذي يلهون ببناء البيوت على الرمال...

وفي لقاء صحافي حدّد كمال جنبلاط مواصفات رئيس الجمهورية المقبل، قال المطلوب لهذه المرحلة وللمرحلة المقبلة، رئيس جمهورية له شخصية توحي بالثقة والاحترام، وتطمئنّ إليه القوى الوطنية والتقدّمية، حتّى يتمكّن من تحمّل مسؤولية معالجة المشكلة الفلسطينية في لبنان، وإلاَّ فإنّه سيواجه تحدّيات خطيرة، ومنها التمرد على الحكم.

وبعد فترة وضع كمال جنبلاط برنامجًا هو من نوع "المختصر المفيد" على كلّ مرشّح للرئاسة أن يتبنّاه وأن يطرحه في حوار مفتوح مع جماهير الشعب وفئاته التقدّمية والوطنية

بغية اطّلاعها عليه وإشراكها في مناقشته. وأكّد أنَّ على أي مرشّح أن يعلن التزامه بمبادئ أهمّها: إعادة البلاد إلى المناخ الديمقراطي السليم وحكم الرأي والقانون والشرعية... وذلك بإزالة أجواء التسلّط الذي يمارسه أحد الأجهزة العسكرية (المكتب الثاني في الجيش اللبناني)، وأن يبادر إلى وضع وتنفيذ خطّة ترمي إلى إعداد الشعب وتعبئته للقيام بواجب الدفاع عن البلاد، والاشتراك في معركة المصير العربي، وأن يمدّ الرئيس الجديد يدًا قادرة، وغير خائفة في التعامل مع الفلسطينيين لتنفيذ اتّفاق القاهرة.

وكان اتّفاق القاهرة قد نصّ على الاعتراف بحقّ الفدائيين الفلسطينيين بالوجود المسلّح في لبنان و «المشاركة في الثورة الفلسطينية» بشكل «كفاح مسلّح» من الأراضي اللبنانية على أن يجري ذلك ويتمّ «ضمن مبادئ سيادة لبنان وسلامته وعدم التدخّل في شؤونه الداخلية»، وبالتنسيق مع الجيش اللبناني... وخوّل اتّفاق القاهرة الفلسطينيين حقّ الإشراف على مخيّمات اللاجئين، على أن تستمرّ الدولة اللبنانية في ممارسة صلاحياتها ومسؤولياتها كاملة في جميع المناطق والظروف... لكن كلّ ذلك بقي حبرًا على ورق... وعندما صوّت المجلس النيابي على «اتّفاق القاهرة» دون الاطّلاع على نصوصه باعتباره «معاهدة عسكرية سرّية» كان ريمون إدّه هو النائب الوحيد الذي رفض الاتّفاق، وجاهر برأيه على طريقته الخاصّة المعهودة إذ قال: كيف تطلبون منّي أن أقترع لمصلحة اتّفاق تزعمون أنه سرّي وسائق ياسر عرفات يعرف كلّ تفاصيله، وانا ممثّل الشعب اللبناني أجهل كلّ شيء عنه... فيما أقترع رفيقاه في الحلف الثلاثي كميل شمعون وبيار الجميّل لمصلحة اتّفاق القاهرة ودون الاطّلاع على نصوصه...

* * *

حقيقة موقف كمال جنبلاط من انتخابات الرئاسة:
السرّ الذي كتمه الإنسان الكبير
ولم يتمكّن أحد من سبر أغواره!

«الدولة اللبنانية تشبه إلى حدّ بعيد بناية مهدّدة بالانهيار. والمطلوب رئيس للجمهورية يضع خريطة جديدة للدولة ويكون مؤهّلاً وقادرًا على إعادة بنائها. والمطلوب أوّلاً إعادة البلاد إلى المناخ الديمقراطي السليم وحكم الرأي والقانون والشرعية... وذلك بإزالة أجواء التسلّط الذي يمارسه أحد الأجهزة العسكرية».

كمال جنبلاط

حقيقة موقف كمال جنبلاط من انتخابات رئاسة الجمهورية سنة ١٩٧٠ ظلّت سرًّا لم يتمكّن أحد من اكتشافه أو إعلانه.

احتفظ الإنسان الكبير بسرّه لنفسه واكتفى بأن أطلعني عليه وطلب منّي كتمه إلى ما بعد رحيله.

وحتّى أقرب المقرّبين من كمال جنبلاط ظلّوا حتّى أيامنا يخمّنون ويتكهنون ويؤولّون أحيانًا. خليل أحمد خليل في كتابه الأخير: «مع كمال جنبلاط» خمّن أنَّ وزير الدفاع السوري عهدذاك الفريق حافظ الأسد الذي كان منحازاً إلى انتخاب سليمان فرنجية رئيسًا قد يكون تمنّى على الرئيس جمال عبد الناصر الطلب من كمال جنبلاط أن ينتخب فرنجية... ثمَّ قال خليل: عندما سألت كمال جنبلاط عن سبب انتخابه فرنجية قال لي: اكتشف السرّ بنفسك...

وأن يخصّني الإنسان الكبير بهذا السرّ كما ائتمنني على غيره، فهو مدعاة فخار واعتزاز.

يكفي أنّي كنت عند ثقته بي، وعند حسن ظنّه. ولن أضيف أكثر أو أتباهى.

بل أواصل سرد الوقائع والحقائق بكل ثقة وتواضع وتجرّد.

ففي خلال شهر شباط سنة ١٩٧٠ تلقّى كمال جنبلاط دعوة رسمية لزيارة مصر فقبلها بالطبع وقام بزيارتها يرافقه نجله وليد والزعيم شوكت شقير. وكأنَّ حدس كمال جنبلاط الذي لا يخطئ أوحى إليه أنها ربَّما ستكون الزيارة الأخيرة للرئيس عبد الناصر فأحبّ أن يقدّم نجله وليد إليه... في تلك الزيارة التقى جنبلاط الرئيس عبد الناصر مرّتين مرّة مع وليد وشقير ومرّة وحده. في المقابلة الأولى جرى حديث عامّ عن أوضاع لبنان ومعاناة كمال جنبلاط في سعيه إلى تطبيق بنود اتّفاق القاهرة وما يواجهه من مشكلات. وخصّص جانب منها للاستعدادات والتدريبات التي تجريها القوّات المسلّحة المصرية للمعركة المرتقبة لتحرير الأراضي المصرية المحتلّة من قبل العدو الإسرائيلي منذ حرب حزيران ١٩٦٧. وتمنّى الرئيس عبد الناصر على كمال جنبلاط القيام بزيارة الخطوط الأمامية في جبهة السويس والاطّلاع على ما يجري على الأرض من استعداد لمعركة التحرير. وبالفعل قام الزعيم التقدّمي بتلك الزيارة التي تركت في نفسه أطيب الأثر.

أمَّا اللقاء الثاني بين عبد الناصر وكمال جنبلاط فخصّص القسم الأكبر منه للسياسة الداخلية اللبنانية ولانتخابات رئاسة الجمهورية المرتقبة... لاحظ الرئيس عبد الناصر أنَّ ضيفه وصديقه الذي كان يناديه بـ «الأخ كمال» بقي في العموميات وفي المبادئ: البرنامج الإصلاحي للحزب وللقوى التقدّمية وحسن تطبيق اتّفاق القاهرة... وتجنّب الدخول في الأسماء والتفاصيل كما جرت العادة. كان عبد الناصر يحبّذ عودة فؤاد شهاب إلى الترشّح لرئاسة الجمهورية وألمح إلى ذلك في حديثه مع ضيفه، لكن كمال جنبلاط لم يعط أي وعد ولا أبدى أي تأييد لإعادة ترشيح شهاب...

وفي الليلة التي عاد فيها كمال جنبلاط من القاهرة رنّ جرس الهاتف في بيتي في الدامور. كانت الساعة تشير إلى ما بعد الحادية عشرة ليلاً، ولمّا رفعت السماعة فوجئت بأنَّ المتحدّث على الجهة الأخرى من الخطّ هو السفير المصري ابراهيم صبري. قال السفير:

ـ عذرًا على الاتّصال المتأخّر، لكن أنا في حاجة إلى أن أراك.

فقلت: حسنًا في أي ساعة من يوم غد تريد أن أوافيك؟

فقال: لا، لا، ليس في الغد، بل الليلة إذا أمكن...

قلت: هل الأمر ملحّ إلى هذه الدرجة؟

فقال: رجاء، أنا في انتظارك...

ارتديت ثيابي بسرعة وقدت سيّارتي باتّجاه محلّة مار تقلا في الحازمية حيث منزل السفير. كان ينتظرني. وما أن دخلت، حتّى قال: الخط مع السيِّد علي صبري مفتوح... وسيادة الرئيس يريد أن يعرف: ما هي حكاية كمال بك بالضبط؟

فوجئت بما قاله فسألت: عن أي حكاية تتحدّث يا سعادة السفير؟

قال: الحكاية برمّتها وتفاصيلها... كنّا قد جلسنا، فسألته أن يوضّح عمّا يريد أن نتحدّث بالتمام وعن أي موضوع.

قال السفير صبري: في العادة كان كمال بك يتحدّث مع سيادة الرئيس بصراحة ووضوح. أمَّا هذه المرّة فاكتفي بالحديث في العموميات. في المبادئ. لم يصارح الرئيس عبد الناصر بأسم المرشّح للرئاسة الذي يريد أو يؤيّد. وعندما طرح الرئيس اسم فؤاد شهاب لم يجب كمال بك لا بنعم ولا بلا... وسيادة الرئيس غير مرتاح والحالة هذه. والصورة أمامه غير واضحة...

سألت أنا: وهل الرئيس فؤاد شهاب مرشّح للرئاسة؟ هو لم يقل شيئًا في هذا الصدد. ومعلوماتي أنه لن يترشّح شخصيًا.

قال السفير صبري: وموقف كمال بك؟ هل تعرف عنه شيئًا بالتمام.

قلت: تريد الصراحة. ما اعرفه أنَّ كمال بك لن يؤيّد أي مرشّح ينتمي إلى العسكر أو يؤيّده العسكر. هو يقول إنَّه تعرّض لإهانة ما في كرامته الشخصية من قبل أحدهم أو بعضهم. وكمال بك يمكن أن يسامح في كلّ شيء ما عدا ما يتعلّق بكرامته الشخصية. وهو قد اتّخذ قراره منذ أشهر ولا أعتقد أنه سيعود عنه تحت أي ظروف.

وأضفت: طمئن السيِّد علي صبري وسيادة الرئيس أنَّ موقف كمال بك ليس موجّهًا ضدَّ سيادة الرئيس أو ضدَّ رأيه في موضوع الرئاسة، ولا هو موجّه ضدَّ الرئيس فؤاد شهاب شخصيًّا. فكمال بك يكنّ للرئيس عبد الناصر وللرئيس شهاب كلّ محبّة ومودّة واحترام، لكن موقفه نابع من شعور لديه بأنَّ كرامته الشخصية قد مُسَّت في مكان ما. وفي اعتقادي أنه لن يعود عن هذا الموقف ولن يبدّله، ولن يفصح عنه اليوم، بل ربَّما سيتركه إلى اللحظة الأخيرة.

كان السفير ابراهيم صبري حذرًا ودقيقًا. فهو أول سفير لمصر في بيروت يأتي من

السلك الدبلوماسي، وليس من الجيش كالسفير السابق اللواء عبد الحميد غالب. السفير صبري عمل في بعثة مصر إلى الأمم المتّحدة وفي سفارة مصر في ألمانيا الغربية قبل تعيينه سفيرًا لمصر في لبنان. وهو موضوعي ومتأنّ في العلاقة مع كمال جنبلاط لأنه كان قد خرج منذ فترة من أزمة سؤ فهم بينهما حصلت بسبب طريقة استقبال فاروق المقدّم في القاهرة، وكنت أنا قد تدخّلت في ذلك الحدث وأسهمت في إزالة الغيمة العابرة التي عكّرت صفاء أجواء العلاقة بينهما...

صباح اليوم التالي بكّرت في الوصول إلى بيت كمال جنبلاط في محلّة فرن الحطب في بيروت. حدّثني باعتزاز وإعجاب عن زيارته للخطوط الأمامية من جبهة السويس، وعن الاهتمام الكبير الذي يوليه الرئيس عبد الناصر للقوّات المسلّحة استعدادًا لمعركة التحرير... لكنّه توقّف قليلاً في حديثه ثمَّ قال: نظرت مليًّا في وجه الرئيس عبد الناصر فلمحت فيه إمارات إرهاق وتعب وربَّما اعتلال في مكان ما... الهزيمة جرحت قلب عبد الناصر في الصميم وأنا أخشى عليه... ولقد سألته أن يهتم بصحّته أكثر وأن يوليها كلّ عناية ورعاية.

وعندما وضعته في أجواء اتّصال السفير صبري وما دار خلال زيارتي له قال: سوف أذهب لزيارة الرئيس فؤاد شهاب. فأنا أفصل دائمًا بين علاقتي بالرجل ومحبّتي له وبين كلّ الأمور الأخرى... لكنّي لن أطلب منه الترشّح للرئاسة، ولا أعتقد أنه هو في هذا الوارد. فالرجل ليس ممّن يواجهون. وأخصامه في الحلف الثلاثي وفي دوائر أخرى يعدّون العدّة لمواجهته ولتنفيره...

وقام كمال جنبلاط فعلاً بزيارة فؤاد شهاب، ولمّا عاد وسألته عمّا حصل قال: لا هو طلب شيئًا ولا أنا طلبت منه، أو وعدته بشيء...

كانت العلاقات قد بلغت مرحلة المزاجية. وعندما يواجه كمال بك بمن يقول له أنَّ فؤاد شهاب يحبّه يجيب: إذا كان يحبّني فعلاً فلماذا لا يضع حدودًا لأتباعه «الفلتانين» على الناس كما كان يقول.

حصل ثمّة خشية من أن تنطلق الأحداث في لبنان ممّا حصل يوم ٢٥ آذار ١٩٧٠ في بلدة الكحّالة. فلقد كمن مسلّحون مجهولون على السطوح العالية على كوع الكحّالة وأطلقوا النار على موكب لتشييع شهيد فلسطيني كان متوجّهًا من بيروت إلى دمشق فسقط أكثر من عشرين ضحية ما بين قتيل وجريح. ما أن بلغ الخبر وزير الداخلية كمال جنبلاط

حتَّى أجريت اتّصالات بشفيق الحوت ممثّل منظّمة التحرير الفلسطينية في بيروت وببعض مسؤولي المنظّمات الفلسطينية الأخرى فحضروا إلى مكتب الوزير في السراي القديم. وانطلق الموكب في مصفّحتين للدرك إلى الكحّالة وكنت أنا في عداد الموكب... كانت جثث القتلى لا زالت على الطريق، فطلب الوزير جنبلاط أن يتوجّه الموكب رأسًا إلى منزل رئيس بلدية الكحّالة (أبو جهاد) نعمة الله البجّاني في أعالي البلدة فجرت مصالحة بين ممثّلي الفريقين وأصرّ كمال جنبلاط على وأد الفتنة قبل أن تنطلق... فأخذت صور للقاء الذي تخلّله عناق بين ممثّلي الطرفين وأكّد أبو جهاد البجّاني أنَّ الكحّالة هي براء ممّا حصل وأنَّ عناصر مدسوسة هي التي قامت بتنفيذ الجريمة...

وعدنا إلى السراي ومنها إلى منزل كمال جنبلاط الذي تناول وجبة خفيفة كالعادة ثمَّ انتقل ليرتاح على كرسيه الهزاز الطويل لكنّ جرس الهاتف لم يكن ليسكت خلال دقائق متتالية. كان جوزف كحّالة يحضر آلة الهاتف ويقول: الرئيس فؤاد شهاب، ثمَّ الرئيس شارل حلو، ثمَّ الشيخ بيار الجميّل... ووجه كمال بك «يحمر» و«يعبّق»، ثمَّ يقول: يا عمّي شو هالقصّة. كنّا بالكحّالة صرنا ببشير الجميّل... ثمَّ توجّه إلى جوزف بالقول: اطلب ياسر عرفات... وحدَّث كمال بك «أبا عمّار» بلهجة لا تخلو من عتب وغضب. بشير الجميّل اختطف من قبل عناصر فلسطينية في محلّة «تل الزعتر» وعرفات أنكر معرفته بالأمر ووعد بإجراء الاتّصالات اللازمة. وخلال أقلّ من ساعة أبلغ الوزير جنبلاط بأنَّ بشير الجميّل موجود لدى زهير محسن رئيس منظّمة «الصاعقة» السورية الميول والمرجع... فقام بكل ما يلزم حتَّى تمكّن من إطلاق الشاب الذي بدأ اسمه يظهر ويكبر، والذي تبيَّن من التحقيقات المكثّفة التي أجريت فيما بعد أنه لم يكن على رأس مطلقي النار على الفلسطينيين في الكحّالة كما ذكر أكثر من مرجع وكتاب...

وكتب كمال جنبلاط وصرّح حول ما حدث ويحدث فدعا إلى التنبّه لما يحاك للبنانيين وللفلسطينيين من مؤامرة وفتنة لدفعهم للاقتتال فيما بينهم. وممّا قاله: لنفكّر كلبنانيين في معنى الشهادة من أجل وطننا فنشعر الفلسطينيين، في محنتهم ببعض من التضامن المعنوي والإنساني.

بات السلاح يُوزَّع يمينًا وشمالاً ويجد آذانًا صاغية لمن يقول: إذا كانت قوى الدولة الشرعية لا تستطيع تأمين أمننا وحياتنا فعلينا أن نداف عنها بأنفسنا. وأصبحت الاحتكاكات

والاشتباكات بين الجيش اللبناني والفلسطينيين هنا وهناك وهنالك... شبه يومية وتنذر بما هو أشدّ وأدهى.

في هذه الأجواء المشحونة بالقلق وبالنعرات الطائفية المستعرة، افتتح الحلف الثلاثي معركة رئاسة الجمهورية في بلدة فؤاد شهاب "غزير" تحت شعار: "منع عودة فؤاد شهاب" إلى سدّة الرئاسة. وجعل العميد ريمون إدّه شعار معركته ضدَّ ثلاثة أقانيم: "إسرائيل والشيوعية والشهابية"... وخاف فؤاد شهاب وتهيّب الموقف، فهو لم يكن يومًا يحب أو يهوى المواجهات السياسية، وهو لا يكنّ أي محبّة أو تقدير لرجال السياسة بل كان يجاهر بأنه لا يثق بهم، ويكره طريقتهم في التعاطي بالشأن العامّ. أو بما يسمّى "سياسة". ونجح هؤلاء في تنفير شهاب وفي حمله على عدم التفكير بترشيح نفسه، خصوصًا وأنَّ شهاب لم يتلقّ أيّ إشارة أو بادرة تشجيع أو تأييد من قبل كمال جنبلاط.

صارح فؤاد شهاب حليفيه رشيد كرامي وصبري حماده بحقيقة موقفه وبعزوفه عن ترشيح نفسه لكنّهما تفاجآ عندما قال لهما إنَّه يرشّح الياس سركيس للرئاسة... فاقترح رشيد كرامي عليه أن يبحثا في أسماء أخرى من بين المرشّحين الموارنة لكنّه أجاب أنَّ هذا قراره ولن يعود عنه. ففؤاد شهاب رجل عسكري اعتاد على إصدار الأوامر لمرؤوسيه من العسكريين وهو لا يحبّ ممالقة رجال السياسة أو التودّد لهم، ولا هو كان يتقن هذا الفن... هو عسكري جنرال، لواء، أمير، رئيس اسمه فؤاد عبد الله حسن شهاب... وعندما فاتحه صديقه النائب والوزير الشهابي فؤاد بطرس بالموضوع راح شهاب يبلغه بأنَّ الظروف صعبة جدًّا والحمل ثقيل وعدم ترشّحه هو القرار السليم... أجابه فؤاد بطرس متعجّبًا: إذا كانت هذه معطياتك للعزوف عن الترشيح، فكيف ترشّح الياس سركيس لهذه المهمّة الصعبة والخطيرة؟ وكان جواب شهاب أنه اتّخذ قراره.

وبتاريخ الرابع من شهر آب سنة ١٩٧٠ أصدر فؤاد شهاب بيان عزوفه عن ترشيح نفسه، وتضمّن البيان إدانة للنظام السياسي القائم وللأصول التقليدية المتّبعة في العمل السياسي. قال شهاب في بيان العزوف: "إنَّ مؤسّساتنا التي تجاوزتها الأنظمة الحديثة في كثير من النواحي سعيًا وراء فعالية الحكم، وقوانيننا الانتخابية التي فرضتها أحداث عابرة وموقتة، ونظامنا الاقتصادي الذي يسهّل سوء تطبيقه قيام الاحتكارات، كلّ ذلك لا يفسح في المجال للقيام بعمل جدّي على الصعيد الوطني. إنَّ الغاية من هذا العمل الجدّي الوصول

إلى تركيز ديمقراطية برلمانية أصيلة صحيحة ومستقرّة، وإلى إلغاء الاحتكارات ليتوفّر العيش الكريم والحياة الفضلى للبنانيين في إطار نظام اقتصادي حرّ سليم يتيح سبل العمل وتكافؤ الفرص للمواطنين بحيث تتأمّن للجميع الإفادة من عطاءات الديمقراطية الاقتصادية والاجتماعية الحقّ"...

قرأ كمال جنبلاط بيان فؤاد شهاب فعلّق عليه بالقول: لو كان هذا بيان يعلن على أساسه ترشيح نفسه للرئاسة لأيّدناه وتبنيناه أمّا وأنَّ الرجل قد اختار الهروب إلى الأمام، كالعادة، فالبلاد مقبلة على أوضاع خطيرة والأبواب مشرّعة أمام كلّ الاحتمالات. وعاد جنبلاط بالذاكرة إلى أيّام عهد فؤاد شهاب (١٩٥٨ ـ ١٩٦٤) فقال أنَّ السياسة النصفية التي اتّبعها وعدم الحسم في الأمور الأساسية لا سيّما في تحقيق الإصلاح السياسي وتطبيق قانون الإثراء غير المشروع أو تطبيق مبدأ المساءلة والمحاسبة والعدالة الحقّ هو ما أوصلنا إلى هنا... أضف إلى ذلك سوء اختياره لشارل حلو خليفة له، وهو غير الكفؤ على اتّخاذ القرارات الأساسية لحلّ الأزمات، زاد الطين بلّة والأوضاع خطورة على خطورة.

كان كمال جنبلاط قد دأب منذ سنة ١٩٦٨ على كتابة مقالين افتتاحيين في صدر الصفحة الأولى من "الأنباء"، الأول باللغة العربية، والثاني باللغة الفرنسية موجّهًا خصيصًا إلى شارل حلو وإلى الأوساط الدبلوماسية التي تتقن اللغة الفرنسية ويتضمّن أعنف الحملات والانتقادات ضدَّ الرجل المتقلّب، المعقّد، المتعصّب طائفيًا في قرارة نفسه ووصفه بالفرنسية بالـ (désossé) أي بالرجل الذي لا يملك عمودًا فقريًا صلبا وعظامًا قوية أو الرجل ألـ (بدون عظام) يفتقد أسباب الرجولة ولبّها وأسسها فلا يصلح لا لاتّخاذ قرار سويّ حازم في الحكم ولا لما يماثل ذلك في الحياة العادية... وكان شارل حلو يجيب أحيانًا في مقالات ينشرها في جريدة "لوسوار" (le soir) الناطقة باللغة الفرنسية تحت توقيع مستعار كما أوضح هو، أي شارل حلو، في مذكّراته...

في ١٥ آب ١٩٧٠ فاجأ وزير الداخلية كمال جنبلاط الحكم (رئيس الجمهورية والحكومة) والأوساط السياسية وأوساط الرأي العامّ اللبناني بتوقيع قرارات الترخيص لأحزاب: الشيوعي اللبناني وحزب البعث العربي الاشتراكي وحركة القوميين العرب (محسن ابراهيم) وللحزب السوري القومي الاجتماعي الذي حلّ إثر الانقلاب (ليل ٣١ كانون الأول ١٩٦١) كما رخّص لتنظيم سياسي مستحدث هو "حركة ٢٤ تشرين" التي

أسّسها وترأّسها فاروق المقدّم في طرابلس. وكان فاروق قد لجأ إلى منزل كمال جنبلاط في بيروت لحوالي شهرين بعد اصطدامه بالجيش والمكتب الثاني في قلعة طرابلس قبل أن يتمّ تسفيره إلى القاهرة بمسعى شخصي من الزعيم التقدّمي... وكانت «أم فاروق» تحضر مرّة أو مرّتين في الأسبوع إلى منزل كمال بك لزيارة ابنها فتحضر معها الحلويات الطرابلسية وعلى الأخصّ صابون الغار الذي أحبّه كمال بك وكان يستخدمه للاستحمام ولكل أغراض النظافة الجسدية التي كان يتقنها ويحرص على القيام بها كلّ يوم...

اتّخذ كمال جنبلاط قراره وحسم أمره منذ أشهر، كما أسلفنا، ولكنّه ظلّ يناور حتّى الأيام الأخيرة... فالرجل كان يتقن اللعبة السياسية ويحبّ أن يتسلّى بالعاملين فيها الذين يفتقدون إلى رجاحة الفكر وعمقه وإلى مساحة المناورة والتحرّك في تصرّفاتهم. كان قراره أن يلزم نوّاب الحزب التقدّمي الاشتراكي الأربعة بقراره وهم: كمال جنبلاط، أنور الخطيب، فريد جبران وعزيز عون، وأن يترك للنوّاب الحلفاء حرّية الاختيار وكانوا أربعة وهم: بهيج تقي الدين ونسيم مجدلاني وسالم عبد النور وفؤاد الطحيني. إلاّ أنّ عزيز عون الذي طلب منه فؤاد شهاب انتخاب الياس سركيس كان قد ترك بيته في الدامور ولجأ إلى منزل أحد أنسبائه في الأشرفية ببيروت. وذات يوم سألني كمال بك: هل لك أن تصطحب الدكتور خليل أحمد خليل لزيارته فأجبت بالإيجاب. قدت سيّارتي إلى منطقة الأشرفية وإلى جانبي الدكتور خليل، وعندما بلغنا الشارع المعيّن أشرت إليه أنه موجود في الطابق الأرضي من هذا المبنى، أمّا أنا فسأنتظرك في الشارع المقابل. نزل الدكتور خليل فوجد الرجل يحتسي كأسًا من العرق مع الأنسباء فأبلغه أنّ كمال بك يريده وينتظره، فأجابه الدكتور عون: سلّم على «المعلّم» وقل له إنّني سأزوره بعد الانتخابات... وإنّني سأنتخب الياس سركيس.

كنت أنا على علم مسبق بقرار كمال جنبلاط وبحقيقة موقفه وبدوافعه، فأنكفأت عن المشاركة في «حمّى» المعركة الرئاسية التي كانت تبدو لي وكأنها تسير بالبلاد نحو المجهول. كان في أعماقي تقدير لشخص الياس سركيس ولكفاءاته، وكنت أتمنّى لو أنّ في مقدوري مدّ يد المساعدة له في معركته الرئاسية... لكنّ «العين بصيرة واليد قصيرة» كما يقولون. فالزعيم التقدّمي الاشتراكي كمال جنبلاط كان قد حسم أمره وقراره فوجدت نفسي ملتزمًا به، وبعدم الإفصاح عنه كما وعدته. وعندما طلب الياس سركيس أن أرافقه في

زيارته إلى دار المختارة في اليوم التالي اعتذرت، فقال: حسنًا سوف يرافقني راجي (راجي عشقوتي). وصعد إلى المختارة، وكان لقاؤه مع كمال بك ودّيًا وإيجابيًا كما وصفه لي على الهاتف... ثمَّ أخبرني أنَّ كمال بك طلب منه التوجّه إلى منزله في بيروت في اليوم التالي للتعرّف إلى بعض الإخوان في الحركة اليسارية وفي الحزب فقلت له : إيّاك أن تذهب فلسوف يخضعونك لامتحان أعدّوا له كلّ عدّته وستسقط في الامتحان فتفقد الكثير من مهابتك ومعنوياتك. وعندما أبلغني أنه مضطرّ للذهاب قلت: أنا في المبدأ ضدَّ أن يخضع المرشّح لرئاسة الجمهورية إلى امتحان أمام أيّ كان سواء في داخل أو في خارج لبنان... ثمَّ ما هي علاقة ياسر عرفات والسفير السوفياتي عظيموف، ومخابرات دمشق وسواها وسواها بقرار هذه الانتخابات؟

ثمَّ عاد ليتّصل بي بعد حوالي ساعة ويبلغني أنَّ العقيد غابي لحود أشار عليه بضرورة حضور اللقاء وأنه سيفعل. وسألني ما إذا كنت أرغب في مرافقته فأجبت: كلاّ على الإطلاق... فأنا لن أكون هناك... والعوض بسلامتك...

وكان ما كان وصار ما صار... وخرج جورج حاوي من قاعة اللقاء، وكان الياس سركيس لا زال في داخلها، ليعلن أمام الصحافيين المحتشدين في الغرفة المجاورة:

ـ الياس سركيس سقط في الامتحان... وخرج الياس سركيس من منزل كمال جنبلاط عصر ذلك اليوم ووجهه وآماله في الرئاسة هي غير ما كان قد دخل عليه...

تلا ذلك جلسة امتحان سليمان فرنجية والتصفيق الذي تخلّلها... وظنّ كثيرون أنهم هم من امتحن، وهم من أعدّ الأسئلة وهم من أسقطوا مرشّحًا لرئاسة الجمهورية ورجّحوا كفّة آخر. لكن الحقيقة هي غير ذلك تمامًا. والحقيقة تبقى هي الحقيقة، وكلّ ما عداها فهو سحابات دخان في الهواء، فقاقيع صابون، لا تغني ولا تثمر، وليس لها من وجود أو أثر على أرض الواقع... في نهاية المطاف... فكمال جنبلاط كان قد اتّخذ قراره النهائي والحاسم منذ أشهر. ولم يكن على استعداد للرجوع عنه ولتعديله وتبديله تحت أية ظروف... وقاد فريد جبران حملة شعواء ضدَّ الياس سركيس لأنَّ الأخير لم يوظّف له إحدى بناته في المصرف المركزي.

قبل يومين من موعد الانتخاب الرئاسي، وفي صباح الخامس عشر من آب ١٩٧٠ بالتحديد كان كمال جنبلاط جالسًا في فراشه الممدود على أرض غرفة نومه، وكنت أنا

أجلس إلى «الطراحة» الموضوعة إلى جانب الفراش، نظر إلي وقال: غريب كلّ هذا الذي يحصل؟!

فسألت: وما هو وجه الغرابة فيه؟

قال: لنفترض أنَّ المسيحيين قد جنّوا (أصيبوا بالجنون) فرشّحوا سليمان فرنجية لرئاسة الجمهورية، فهل أنَّ العالم كلّه أصيب بالجنون؟! عظيموف يروح ويجيء ثلاث مرّات في اليوم، وعرفات يتّصل ويوفد «أبا إياد» و «أبا يوسف» النجّار... وذاك يأتي باَسم الشام... وذاك باَسم العراق... وغيره باَسم الأميركان، وكلّهم يتمنّى علينا أن ننتخب سليمان فرنجية، وأنا غير مقتنع بالموضوع... السؤال هنا هو التالي: ما الذي يحضّر لهذا البلد بالتحديد؟! فقلت: تسألني؟ فأنا لا أملك أية معطيات لأجيب عن مثل هذا السؤال...

ابتسم وقال: بدهم يخرّبوا البلد... والله يستر من الأعظم!...

اغتنمت الفرصة لأسأل: أليس في الإمكان التنازل قليلاً عن العامل الشخصي في المسألة وانتخاب سركيس؟!

أجاب متعجّبًا: كرمال مين؟! ألا ترى ذلك المتعجرف الانعزالي المقيم في جونيه كيف يتصرّف؟ إنَّه لم يجر أيّ اتّصال بي، ولا هو طلب مني أيَّ شيء... هو يظنّ أنَّ الناس ستزحف إليه وسترجوه... وكأنه لا يعرف تاريخ لبنان، ولا تاريخ السياسة والسياسيين فيه...

توقّف الكلام عند هذا الحدّ عندما دخل علينا الشاب محمّد ليبلغ «المعلّم» أنَّ السفير السوفياتي عظيموف قد وصل وهو في «الصالون» الداخلي... نظر إليّ كمال بك وقال: تفضّل... وبدون موعد أو اتّصال هاتفي كمان... ووضع «الدشداشة»، العباءة الرقيقة على قامته المديدة وخرج... وتفضّلت أنا فخرجت من الباب وأغلقته ورائي...

قبل يوم من موعد الانتخاب وكانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهرًا رنّ جرس الهاتف في مكتبي الخاصّ بمبنى اللعازارية، وكان المتحدّث العقيد غابي لحود الذي قال لي: «الأستاذ» عندي في البيت، وهو وأنا نحبّ أن نراك. فقلت: حسنًا، سوف أمرّ بكما بعد قليل...

دخلت المنزل فوجدت الياس سركيس متجهّم الوجه، غير مرتاح لمجريات الأمور كمن لا يعرف ماذا ينتظره بالتحديد. وكان الوضع هو كذلك...

سألني بصوت غير واضح كليًا: بصراحة... ما هو آخر تقييم عندك للحال الذي نحن فيه؟

وتدخّل غابي لحود فقال: على أمل أن لا تزيد من حالة الإحباط التي يعيشها "الأستاذ" شخصيًّا...

فقلت: لن أزيد ولن أنقّص. سأقول ما عندي وأخرج.

فعاد سركيس ليسأل: من تعتقد أنه الفائز غدًا؟

فقلت: أنتم في حاجة إلى استمالة نائبين لتأمين الفوز...

فقال غابي لحود: ومن هما هاذان النائبان في رأيك؟

قلت: نسيم مجدلاني وفؤاد غصن.

فقاطعني لحود بالقول وهو يضحك: الاثنان هما معنا... إذا هيدي معلوماتك فنحن سنربح...

قلت: لا يا صديقي العقيد... معلوماتي صحيحة. نسيم مجدلاني قال لي شخصيًا يوم أمس أنه سينتخب سليمان فرنجيه. أمَّا فؤاد غصن فهو واقع تحت ضغوط وتهديدات لا قِبَلَ له على الصمود إزاءها... أمس قال له زميل من نوّاب الشمال بالحرف: اسمع منّي يا فؤاد، لا تغلط مع سليمان بك!... ومساءً تلقّى ابن شقيقته السفير سهيل شمّاس اتّصالاً هاتفيًا قال له بالحرف: أبلغ خالك أنه لن يخرج حيًّا من مجلس النوّاب إذا لم ينتخب سليمان بك...

فقال لي الياس سركيس: هذه هي إذا معلوماتك... وهي خطيرة ولا تدعو إلى الاطمئنان والارتياح...

ثمَّ سألني: إلى أين أنت متوجّه الآن؟

قلت: إلى رويسات صوفر حيث أصطاف مع عائلتي.

فقال: وغدًا؟

قلت: غدًا سأبقى في البيت ولن أنزل إلى بيروت. سأتابع جلسة الانتخاب على شاشة التلفاز...

فقال: أنت متخوّف إذًا من الغد؟

أجبت: الوضع مخيف... وإخواننا الزغرتاويين يحسب لهم ألف حساب... لكن غابي لحود اتّهمني بأني زدت في معدّلات إحباط "الأستاذ"... فوقفت وابتسمت وقلت: الله يوفّق...

يوم السابع عشر من آب كان موعد انتخابات الرئاسة الأولى. حضر الجلسة ٩٩ نائبًا من أصل ٩٩. أُجريت الدورة الأولى من الاقتراع فجاءت النتائج كالآتي: ٤٥ صوتًا للياس سركيس، ٣٨ صوتًا لسليمان فرنجيه، ١٠ أصوات لبيار الجميّل و٥ أصوات لجميل لحود الذي رشّحه كمال جنبلاط على سبيل التفكهة ليس إلاَّ... أُلغيت الدورة الثانية للاقتراع لأنَّ عدد الأوراق في الصندوقة كان ١٠٠ بدلاً من ٩٩. أمَّا في الدورة الثالثة فجاءت النتيجة: ٥٠ صوتًا لسليمان فرنجيه و٤٩ صوتًا للياس سركيس. كان أنور الخطيب يجلس إلى جانب كمال جنبلاط في جلسة الانتخاب. وكان الخطيب يحمل ورقة "مفتاح" من نسيبه الضابط في الجيش فوزي الخطيب. كان أنور يضع الورقة مطوية تحت "كاستك" ساعة يده... وعندما حاول إخراجها ضبطه كمال بك متلبّسًا بالجرم المشهود، فوضع يده على يد أنور وقال له: أنت لا...

ولو نجح أنور الخطيب في وضع تلك الورقة الصغيرة في صندوقة الاقتراع، التي كانت تتجوّل بين نوّاب المجلس، لكان الياس سركيس هو الذي فاز بمنصب رئاسة الجمهورية.

روى لي أنور الخطيب شخصيًا تلك الواقعة وأكّدها كمال جنبلاط يوم سألته عنها وعقّب فقال: أنور هو نائب رئيس الحزب ولا يصحّ أن يشذّ عن قرارات الحزب وتوجّهاته...

مساء يوم ١٧ آب وخلال ساعات الليل كانت مواكب الزغرتاويين المبتهجة بانتخاب سليمان فرنجيه رئيسًا للجمهورية تجول بالسيّارات في بلدات وقرى أقضية زغرتا وبشري والكورة وهي تطلق النار وتهتف باللهجة الزغرتاوية: الله بدوّ سليمان بك، والعذرا بدّا فرنجية...

وفي خلال توجّه الرئيس المنتخب من مقرّ المجلس النيابي في ساحة النجمة إلى القصر الجمهوري في بعبدا جرى له استقبال شعبي لافت في محلّة غاليري سمعان في بلدة الحدث

وواكبه فريق من أهلها وهم يمتطون ظهور الأحصنة من غاليري سمعان وحتَّى مدخل القصر... وبَدَتْ مظاهر الابتهاج والترحيب في المدن والبلدات المسيحية، لا سيَّما المارونية منها، ملفتة وحارّة لدرجة أنَّ بعض المحلّلين السياسيين وصف ما جرى بأنه انقلاب بكل ما في الكلمة من معنى وليس مجرّد انتخاب رئيس جديد للجمهورية...

صباح اليوم التالي كنت إلى جانب كمال جنبلاط كعادتي، لكن الرجل بدا مختلفًا ومتوجّسًا ممّا جرى بالأمس وهو يردّد كلمته المفضّلة:

ـ صحيح يا عمّي... ما جرى هو انقلاب... والبلاد مقبلة على أحداث جسام...

وعادت به الذكريات إلى أيّام الطفولة والولدنة... إلى أيّام كان فيها تلميذًا يتابع تعليمه في مدرسة القدّيس يوسف للآباء اللعازاريين في بلدة عينطورة كسروان... ابتسم وقال لي:

ـ كنت أنا دائمًا في المرتبة الأولى في صفوف الدراسة، وكانت علاماتي محلّقة ومرتفعة على الدوام، وكان معي في بعض تلك السنين تلميذ من زغرتا اسمه سليمان قبلان فرنجيه. كان ذاك التلميذ مشاكسًا بعض الشيء وعصبي المزاج، وكان يحتلّ على الدوام المرتبة الأخيرة في العلامات...

وابتسم مرّة أخرى وقال: هذا التلميذ الأخير في مرتبة العلامات والدراسة صار رئيسًا للجمهورية، أمَّا الأول المتفوّق في علاماته ودراسته فلا يمكنه أن يحلم إلاَّ بأن يكون وزيرًا في جمهورية الأخير... جمهورية الموز والتمييز والتعتير...

ـ صحيح، صحيح يا عمّي... هذا هو واقع الحال في جمهورية التمييز العنصري الطوائفي المذهبي... وربَّما كانت "جمهورية جنوب أفريقيا" أرأف منها وأفضل في تعاملها مع مواطنيها...

قال كمال جنبلاط ذلك بمرارة وألم وتهكّم واستهجان... وكان ربَّما على حقّ في ما قال، وتوقّع، فحدسه في قراءة الأمور والأحداث لم يخطئ مرّة وحتَّى في السنوات الأخيرة في ما قبل بلوغه الستّين من سنوات عمره...

* * *

الستون... والهند وتجلّي الفكر: كما يفكّر الإنسان هكذا يصبح

"نحن ندعو إلى علمانيّة لا تتعارض مع الأديان، بل تتوافق معها في الجوهر والقيم الإنسانية والأخلاقية وقيم الإيمان بالمعتقدات الإلهية... تتوافق مع الإسلام الذي يقول إنَّ الملك لله والإنسان وكيل على الملك. وتتوافق مع المسيحية التي هي رسالة ثورية في دعوتها إلى التجرّد وفي حياة المسيح وتلامذته وأفكاره الاقتصادية والإنسانية وانتسابه إلى الفقراء".

كمال جنبلاط

الستّون هو رقم مفصلي ومصيري في حياة كمال جنبلاط. قال له "المعلّم" الحكيم أتمانندا: سترحل عن هذه الفانية، في الستّين من سنوات عمرك، اغتيالاً. ومنذ بداية الخمسينات في القرن العشرين وكمال جنبلاط يحمل حكاية موته على راحتَي كفّيه، وفي عقله وقلبه ووجدانه، ويمشي...

كتب على ورقة وجدت إلى جانب فراشه، بعد استشهاده المضيء، وهي لا تحمل تاريخًا محدّدًا، كتب يقول: "ما أعرفه أني أحيا الأعراس، وأوقد الحطب، وأعدّ نقط الدم، وأمشي في جنازتي كلّ أسبوع"...

لكنّه كان يحمل موته ويمشي في جنازته بفرح. وعن هذا كتب فقال: "إنَّ أكثر الناس يحبّون الألم لأنهم يتلذّذون به، بينما أنا أرى أنَّ الفرح هو أقرب للوصول إلى الحقيقة من العلم. فكما يفكّر الإنسان هكذا يصبح... عندما نصل إلى هذه الحقيقة، فإنَّنا نتحرّر نهائيًّا بحيث لا يمكن لأيّ شيء خارجي أن يؤثّر فينا، فنصبح أسياد أنفسنا... أي حكماء تحرّروا من جميع قيود وظروف الفكر والمكان والزمان، فيكون التجلّي في الفكر"...

لكن هنا، عندنا، في دنيا العرب شيء آخر... "التاريخ العربي يتوحّد في المقابر، يتوسّع على الزناد، ويدخل حبّه من بلاد الدم والجثث والنار". هكذا كتب، وهكذا قال المعلّم كمال جنبلاط.

ويوم سألته فوجئ، فأكّدت سؤالي فاستغرب، وعندما ألححت جاء الجواب:

ـ بالتأكيد أنا أصدّق ما قاله لي «المعلّم الحكيم» شري أتماننداً. سأرحل في الستّين من عمري... أنزع عنّي هذا «القميص الشحماني» الذي أرتدي... والجهل العربي الآتي من أعماق الظلمات، وبإسم كلّ ما فيها من آفات وما تحتوي من عاهات وبدعٍ وخروج على الأصالة... هو الذي يقتلني لكن حينما يكون مقامنا في النور فلا ظلمات في مقدورها أن تغلبنا، ولا أبواب الجحيم...

كان كمال جنبلاط يؤمن كثيرًا بمعلمه الروحي الهندي شري أتماننداً (١٨٨٣-١٩٥٩) الذي درس الحقوق وعمل قاضيًا يحكم بالعدل بين الناس، ثمّ التقى الحكيم بيو جانندا (Biojananda) في كالكوتا الذي وجّهه نحو الروحانيّات. فترك القضاء ليتحوّل هو إلى حكيم له تلامذة ومريدين من مختلف أنحاء العالم من بينهم الدكتور روجيه غوديل من فرنسا وزوجته أليس وكمال جنبلاط وأرنولد ماير...

منذ منتصف الأربعينات من القرن الماضي شُغِفَ كمال جنبلاط بالهند وبـ«روحها العظيم» المهاتما غاندي الذي قاد معركة تحرير الهند ضد أعظم إمبراطوريّة في وقتها، الإمبراطوريّة التي لا تغيب عن مستعمراتها الشمس: بريطانيا العظمى...

وبعدما زار منزل غاندي، أو على الأصحّ، كوخه المصنوع من تراب الأرض المجبول بالماء «اللبن»، واتّضح له أنَّ كلّ ما تركه «الروح العظيم» بعد اغتياله هي: حذاء قديم شبه بالٍ، ونظّارات كان يستعين بها لتحسين مدى رؤيته، وفراشًا على الأرض ورزمة كتب، الأمر الذي أدهش كمال جنبلاط كثيرًا، فكتب في ذلك يقول: «لا أستطيع أن أشير إلى ما شعرت به، ولا إلى ما أنارت به عليّ هذه «الحصيرة» الممدودة، وهذا الفراش البسيط، وهذه الطاولة التي تعلوها هديّة أحد الفنّانين اليابانيين: «ثلاثة قردة أحدهم واضعٌ يديه على أذنيه (لا تسمع الشرّ) وأخر واضع يديه على عينيه (لا تبصر الشرّ) والثالث على فمه (لا تقُل الشرّ)...».

وأورد كمال جنبلاط في مجال آخر كلمات لغاندي تقول: «ينبغي على الإنسان في نشاطه الاجتماعي والسياسي والديني أن يهتدي بفكرة إدراك حقيقة الخالق كهدف نهائي. والشرط الأول لتنفيذ هذه المهمّة هو خدمة الآخرين، لأنَّ السبيل الوحيد للوصول إلى الخالق هو رؤيته متجلّيًا في مخلوقاته والتوحّد معه»...

أمّا عن حكاية تقشّف الحكيم الهندي وزهده ونشدان الكفاية في حياة غاندي، كتب كمال جنبلاط: "عندما أمتلك ما يزيد على حاجتي فإنّي أسرق غيري...ولو اكتفى كلّ منّا بما يستحقّه لما عانى العالم البؤس والفاقة، ولما مات أحد جوعًا"... وقال كمال جنبلاط: "ما أحوجنا جميعًا إلى اقتباس مَثَل "الروح العظيم" وتطبيقه وإلى اعتبار كلّ ما يتعدّى حاجاتنا الأساسية في الحياة سرقة، سرقة من مال الغير، سرقة من حاجة الغير"...

أقبل كمال جنبلاط إلى الهند ليتعرّف عن كثب، وعلى أيدي معلّمين كبار على المعتقدات الهندوكية التي شغف بها وقرأ عنها من قبل، وأثّرت في حياته إلى حدٍّ بعيد. طلب علمهم وسلك طريقهم في التطوّر الذاتي، ونجح في ممارسة ما تعلّم، وأخلص في ممارسته لما تلقّى وتعلّم، وتوخّى منها الفائدة الجسدية والعقلية والروحية فحوّلته إلى إنسان مميّز قدرة وكمالاً.

والمعتقدات الهندوكية هي نظام وطريق حياة لأجل الصحّة وطريقة العيش وأساليبه ووسائله، والعقلانية، والتفتّح على الكوامن الروحانية والطاقات المميّزة لدى الإنسان. واستمالت كمال جنبلاط حقائق كثيرة جلّها ولبّها أنَّ في الهندوكيّة يتساوى كلّ الأنبياء وتتعادل كلّ الرسالات... كلّهم وكلّها يستقون رسالتهم من النبع الواحد... فوفق الهندوكيّة وتعاليمها: كلّ الأنبياء قد اتّصلوا بالحقيقة الواحدة، وكان اختبارهم من لون واحد... لكن التعاليم اختلفت من حيث الشكل... ومردّ ذلك، في رأيهم، إلى حاجات الناس وتطلّباتهم وفق الزمان والمكان ومدى فهم الناس للحقيقة. وممّا يؤكّد عليه الحكماء الذين يعلّمون هذه التعاليم أنَّ الأتباع والمريدين لا يدركون اختبار الأنبياء، لكنّهم ينظرون ويتأمّلون في ظاهر أقوالهم لا في جوهر الاشياء ومكنوناتها... الأمر الذي ينتج عنه غالب الأحيان التعصّب الديني والخلاف والجدل والنزاع. وفي الهندوكيّة لا تكفير ولا تسفيه لأحد...

اهتمّ كمال جنبلاط أكثر ما اهتمّ، بالنواحي النظرية والعلمية للجانب التوحيدي من المعتقدات الهندوكية، الجانب الذي يرى أنَّ الواحد والتوحّد هي الحقيقة القصوى. ولقد أدرك هذا الحكماء منهم، ذلك لصفائهم النادر وشفافيّتهم المطلقة المتأتّية عن التخلّق بالأمثل، والتركيز التامّ، والفطنة المذهلة.

وفي الهندوكيّة يبلغ المرء الحقيقة إن هو قرأ كتب الحكمة وعَقِلَ معانيها وأخضعها لاختباره الشخصي الذاتي. ومن أجل أن يبلغ المرء الرؤية والاختبار عليه أن يأخذ بالمبادئ

الأساسية: منها، إنَّ الحقّ واحد والإنسان روح في مادّة ووحدة الوجود، وإنَّ التآلف في ما بين الديانات المختلفة حقيقة لا محاباة...

واستهوت كمال جنبلاط "الأنا" الحقيقية، فأكثر من ذكر "الشاهد" و"المشاهد" في كتاباته... وإن تكلّم وقال "أنا" كانت الإشارة حقًّا إلى الأنا الحقيقية، إلى الوعي، إلى الشاهد. وإن أرشد قال: "التمييز بين الشاهد والمشاهد، الأنا الحقيقية والأنا الظاهرة، أولى متطلّبات معرفة الذات"...

وأعجبته (أعجبت كمال جنبلاط) المسالك التي يسلكون للتعرّف إلى الذات ويكون إيّاها، فتذوّق العديد منها؛ رياضته: العمل واحدة من بينها، لأنَّ العمل إذا قام المرء به بغير رغبة في الربح الشخصي أو النفع المادّي يُعَدُّ عملاً روحيًّا يُعطي من يعمل هدوء الفكر في حالتَي الربح والخسارة، النجاح والتقصير.

ومارس كمال جنبلاط رياضة التركيز، التأمّل، أي رياضة الملوك؛ تعاطى مع الفكر وتمكّن من السيطرة عليه، وألمح كيف أنَّ الخبرة الروحانية الحاصلة للسالك من جرّاء رياضة التأمّل لا تقدَّر بثمن... إنَّها عنده غبطة وفرح لا يعادلهما شيء.

أحبّ كمال جنبلاط كثيرًا طريق المعرفة فسلكها، يرشده فيها حكيمه Atmananda شري أتماننندا... عرّفها بالطريق المباشر، إذ بواسطة هذا الطريق، تحصل المعرفة الحقّ. الحقّ وحده حقيقي، والعارف لا يرى إلاَّ الحقّ. لقد سلك كمال جنبلاط هذا المسلك، ولو أنه مسلك صارم، وعر، على الرغم من بساطته. ولقد نجح فيه وتفوّق...

وحظي مسلك المحبّة من كمال جنبلاط بالكثير... أحبّ معلّمه، أحبَّ الذات، أحبَّ الحقيقة، أحبَّ الحيّ، أحبَّ الجماد. تلك هي المحبّة السامية: قدرة عظيمة توقظ في المرء الوعي الإلهي...

لم يكتسب كمال جنبلاط هذه التعاليم والمعارف من معلّم واحد هو شري أتماننندا، بل عرف وزار وتدرّب وتعلّم على أيدي حكماء آخرين. لعلّ من أبرزهم: سري شنكاريا أتشاريا الذي كان يقصده في مادراس ومدوارا، وهو من أبرز الحكماء التوحيديين في الهند. عاش حياته في العزلة والتأمّل والصلاة، كان يبشّر ويعلّم وحدة جميع الأديان (أدفايتا) التي لا تستبعد أيّة ديانة... ومن تلامذته فردريكا ملكة اليونان وابنتها صوفيا ملكة إسبانيا وكمال جنبلاط.

ـ والحكيمة أناندا موييما وهي قد اعتزلت العالم ثمَّ انتقلت إلى الهملايا لتكمل باقي حياتها في العزلة والنسك والتأمّل حيث تبرّع لها محسن صديق ثري ببناء معزل لها في دارادون في جبال الهملايا.

ـ والحكيم رامانا مهاريشي (١٨٧٩ ـ ١٩٥٠) ولقبه قدّيس جبل النور (آروناشالا) جنوب الهند. ولد في ماداري واعتزل العالم وهو في سنّ السابعة عشر حيث مكث في منسكه ١٧ عامًا... ثمَّ راح يستقبل تلامذته من مختلف بلدان العالم. من مؤلّفاته المعرفة: «من أنا. والبحث عن الأنا».

درس كمال جنبلاط على معلّمه أتماننداً في مدينة «ترفندروم»، حيث يقع هيكل «المعلّم»، أسّس نظريّة «الوحدانية المطلقة» أو الفيدانتا أدوايتا فجذبته عناوينها وتفاصيلها فوصفها بأنها «معين لا ينضب» وشبّه أهمّيتها بالنسبة إلى الفكر الهندي بأهمّية أفكار سقراط لكلّ ما جاءت به الفلسفة بعده. وتحدّث عن معلّمه أتماننداً بما يشبه السحر والانبهار فقال: عندما كان أتماننداً يستفيض في طرح مسألة جوهرية تجده وكأنه ينسى نفسه وتتجلّى هيئته فتحيطه هالة نورانية حتّى لكأنّه يشعّ بنورٍ خفيّ هو نور الوجد والمحبّة... وكأنه تجسيد لتقاليد تغوص جذورها في أعماق الدهور... فيقول بالحرف: «والغريب في الهند أنَّ سلسلة هؤلاء «العظماء» من الرجال الذين أدركوا الكينونة واستقرّت أرواحهم في المشاهدة... إنَّ هذه السلسلة لا تزال حيّة لم تنقطع حلقاتها على مرّ الأيام... فواضعو الجيتا والأوبانيشاد والبراهما سوتر لا يزالون أحياء هنا وهناك»...

بعد أيام من استشهاد كمال جنبلاط وكان خبر اغتياله قد بلغ الحكيم شنكارا أتشاريا في «مدراس» وكان التلامذة والمريدون ينتظرون خروج المعلّم من صومعته، ومن بينهم فردريكا ملكة اليونان وابنتها صوفيا ملكة إسبانيا وغيرهما عشرات... احتشدوا جميعًا لأنَّ الحكيم كان قد وعدهم بأن يكون ذاك اليوم يوم احتفالات بهيجة... وانتظروا خروج الحكيم طوال النهار لكنّ الحكيم لم يخرج... كان في حال تأمّل وصلاة على صديقه ومريده كمال جنبلاط. وطال الانتظار حتّى قاربت الشمس من المغيب فأطلّ الحكيم كما لم نرَه من قبل حزين ومكتئب، وطلب إلى المعنيين إضاءة الشعلة التي أضيئت لغاندي ولنهرو من قبل...

وهكذا تكون شعلة الهند، شعلة الحكمة، قد أضيئت لثلاثة: المهاتما غاندي: روح الهند العظيم، وتلميذه وخليفته جواهر لال نهرو، وكمال جنبلاط...

من أخطأ؟ ومن أصاب؟
فؤاد شهاب أم كمال جنبلاط؟

«خطيئتان مفصليتان ارتكبهما فؤاد شهاب: امتناعه عن تجديد ولايته والإتيان بشارل حلو وعزوفه عن الترشيح سنة ١٩٧٠... وترشيحه الياس سركيس دون التشاور مع أحد.
أمّا الأخطاء فكثيرة، والتاريخ هو من يقيّم الحقائق والمواقف ويحاسب...

كمال جنبلاط

في الصفحة ٤٥٧ من كتابه: «طريق المختارة: زمن كمال جنبلاط» طرح عزّت صافي السؤال الكبير فكتب يقول: «وبقي السؤال: من أخطأ؟ فؤاد شهاب، أم كمال جنبلاط؟»

والجواب على هذا السؤال بسيط وواضح. فلماذا اللّف والدوران ومحاولة التعقيد؟!

قال لي كمال جنبلاط في أكثر من جلسة وحوارات أجريناها لتلك المرحلة:

ـ الأخطاء كثيرة، وأكثر من أن تعدّ وتحصى. تبدأ من إطلالة عهد فؤاد شهاب وحكومة الأربعة: حكومة النصف بنصف أو حكومة قائمقاميتي النصارى والمسلمين، والسياسة المبتورة المجتزأة التي اتّبعها في مسألة الإصلاح والمساءلة والمحاسبة لكبار مسؤولي العهد السابق ولكبار موظّفي الإدارة والقضاء فيه... وتنتهي بحكم العسكر أو الحكم بواسطة العسكر، وحكم «التقارير» الاستخباراتية أو «الرابورات» كما كان فؤاد شهاب يسمّيها بالفرنسية...

لكن ثمّة خطيئتان ارتكبهما فؤاد شهاب، والتاريخ هو من يحاسب ويقيّم الحقائق والمواقف، أضاف كمال جنبلاط يقول لي: الخطيئة الأولى يوم امتنع فؤاد شهاب عن التقدّم في اتّجاه تجديد ولايته سنة ١٩٦٤، وجاء بشارل حلو خليفة له... وشارل حلو لم يكن رجل المرحلة ولا هو رجل القرار فكان أن سقط البلد في أفخاخ سياسة اللاقرار وسياسة المراوحة والنفاق حتّى انتهينا إلى حلف ثلاثي طوائفي تعصّبي، وإلى اتّفاق قاهرة اعتبر حلاً لمشكلة، لكنّه لم يشكّل حلاً لها بل بداية أزمة أكبر وانفجار أوسع وأخطر.

أمّا الخطيئة الثانية التي ارتكبها فؤاد شهاب سنة ١٩٧٠ يوم أصدر بيان الاعتكاف أو

الاعتزال، وضمّنه كلّ كا كان يفترض أن يحوي بيان إعلان ترشيحه من إصلاحات أو نوايا إصلاحات كان يعتزم القيام بها لولا... وليس صحيحًا ما أورده عزّت صافي في الصفحة ٤٤١ من كتابه إذ قال: "كان واضحًا أنَّ غموض موقف جنبلاط دفع شهاب في اتّجاه الاعتذار..." الصحيح هو أنَّ كمال جنبلاط أخذ على فؤاد شهاب تفرّده في كلّ قرارات تلك المرحلة. فلا هو فاتحه في رغبته بالترشّح، ولا هو استشاره في قرار التنحّي والاعتذار... ثمَّ جاء تفرّد فؤاد شهاب بترشيح الياس سركيس دون التشاور مع كمال جنبلاط أو سؤاله أو وضعه في أجواء مثل ذلك القرار الهام جدًّا...

وإذا كان الرئيس شهاب قد اعتبر تلك المرحلة مصيرية وصعبة، وبالتالي مهمّته في الرئاسة إذا ما ترشّح وانتخب رئيسًا للبلاد، فكيف يمكن له أن يتفرّد بترشيح الياس سركيس دون استشارة كمال جنبلاط ودون موافقة رشيد كرامي وصبري حماده وكلّ الحلفاء؟

ويمكن اختصار الموضوع بكلمات، وربَّما تكون هي الكلمات عينها التي أوردها كتاب عزّت صافي في الصفحة ٤٥٦: وأكمل الرئيس شهاب ضاحكًا: "لا أنا قلت، ولا كمال بيك قال... لا أنا طلبت، ولا هو عرض. هذه هي القصّة"... والقصّة تعود إلى مزاج الرجلين الآتيين من جهتين متناقضتين مضادتين، لهما في التاريخ أكثر من موقعة ومواجهة. فؤاد عبد الله حسن شهاب: جدّ جدّه حسن هو شقيق الأمير بشير الشهابي الثاني الكبير، وكمال فؤاد جنبلاط: جدّ جدّه هو بشير جنبلاط (عمود السما) الذي أسلمه بشير الشهابي إلى أحمد باشا الجزّار والي عكا... لا الأوّل يتنازل ويطلب من الثاني رئاسة أو خلعة... ولا الثاني في وارد أن يبايع الأول أو لأن يرجوه ليكون رئيسًا... لكنّ كمال جنبلاط ظلّ يردّد دائمًا: أنا أفصل دائمًا بين علاقتي الشخصية بالرئيس فؤاد شهاب. فهو صديق احترم وأقدّر قبل الرئاسة وبعدها.

أمَّا موقفه ممّا ذكر وقيل عن نية كميل شمعون مهاجمة دار المختارة عام ١٩٥٧، فمشكور إذا صحّ أو لم يصحّ. فأنا شخصيًا لا أظنّ أنَّ الرئيس شمعون كان في هذا الوارد في يوم من الأيام...

"هو كان يعرف ماذا أريد أنا... أمَّا أنا فلم أكن أعرف ماذا كان يريد"...

كلام نسبه عزّت في الصفحة ٤٥٧ من كتابه إلى الرئيس فؤاد شهاب. وهو يدلّ بوضوح على أنَّ الرئيس شهاب لم يكن يعرف شيئًا عن الإساءة الشخصية التي كان كمال

جنبلاط قد اعتبر أنها وُجّهت إليه من قبل بعض الأتباع... أو أنَّ شهاب عرف بحكاية الإساءة وأراد أن يتجاهلها. لبّ المسألة ربَّما هو: لو أنَّ فؤاد شهاب تحلّى ببعض التواضع أو بمزيد من الدبلوماسية في تعامله مع كمال جنبلاط في تلك المرحلة بالذات، لكنّا تجاوزنا الأمور بشكل أفضل وأكثر فائدة للبلاد وللعباد.

* * *

رئاسة فرنجية... ورحيل عبد الناصر والدخول في أنفاق الظلمات!

«قضى الرئيس جمال عبد الناصر ضحيّة العرب. كان من كبار بناة التاريخ على مثال عظماء فراعنة مصر الذي كان يذكّرنا بهم جميعًا...

كمال جنبلاط

يوم ٢٣ أيلول سنة ١٩٧٠ أدّى سليمان فرنجيه اليمين الدستورية رئيسًا للجمهورية، وذهب شارل حلو إلى بيته الجديد في الكسليك. تسلّم حلو من فؤاد شهاب جمهورية موحّدة مستقرّة، آمنة. وسلّم فرنجيه جمهورية قلقة حبلى بكل أسباب الانقسام وعوامل التفجير والانفجار.

وكان على فرنجية بعد أداء اليمين الدستورية أن يتوجّه إلى القاهرة لحضور مؤتمر القمّة العربي الذي دعا إليه الرئيس جمال عبد الناصر لمواجهة أحداث «أيلول الأسود» بين الجيش الأردني وفصائل المنظّمات الفلسطينية، وإجراء مصالحة بين الملك حسين بن طلال وياسر عرفات. وإذا كانت هزيمة حزيران ١٩٦٧ قد تركت في قلب عبد الناصر جرحًا لا يلتئم، فإنَّ أحداث أيلول الأردنية ـ الفلسطينية والدم العربي الذي سال من الأخوة، أجهزت على ذلك القلب الكبير فأسكتته إلى الأبد... ورحل جمال عبد الناصر إلى جوار ربّه... وانشد الشاعر المبدع نزار قباني يقول:

«قتلناك يا جبل الكبرياء
وآخر قنديل زيت
يضيء لنا في ليالي الشتاء
وآخر سيف من القادسية
قتلناك نحن بكلتا يدينا
وقلنا: المنيّة»

كان كمال جنبلاط قد التقى جمال عبد الناصر للمرّة الأخيرة في ١٨ أيلول ١٩٧٠ أي

قبل عشرة أيام من رحيل عبد الناصر، وخالجه شعور داخلي بأنها ربَّما تكون المرّة الأخيرة التي يلتقيان فيها. استعرضا الهموم العربية المشتركة وما يتّصل منها خاصّة بلبنان وبفلسطين وبالفلسطينيين الذين أخذوا يتوزّعون منظّمات وفصائل يزايد بعضها على بعض، ويحاول الجميع المزايدة على الأنظمة العربية التي كان ثلاثة منها على الأقلّ تعاني ذيول حرب ٦٧ والهزيمة واحتلال الأراضي العربية في كلّ مصر وسوريا والأردن (الضفّة الغربية والقدس).

لم يكن يدور في خلد كمال جنبلاط أنه سيجد نفسه بعد عشرة أيّام من ذلك اللقاء الأخير أمام الموقف الصعب وهو يرثي صديقه الكبير فيقول فيه:

"قضى الرئيس عبد الناصر ضحية العرب، ضحية خلافاتهم وتناقضاتهم ومحاولاته المضنية، المرهقة، والمستمرّة منذ سنوات، لأجل إحلال التعاون والتضامن: على الأقلّ الأخوّة العفوية الطبيعية فيما بينهم... ذهب عبد الناصر أخيرًا ضحية الجهد الكبير الذي بذله لتحقيق بناء الاشتراكية في مصر، وفي خلق المؤسّسات التي كفلت للشعب المصري التنمية في جميع الحقول. كان من كبار بناة التاريخ على مثال عظماء فراعنة مصر الذين كان يذكّرنا بهم جميعًا عندما كنّا نسترسل في التأمّل بوجهه الأسمر الوسيم الجميل الذي يحتوي على نفس التقاطيع التي كانت تتشخّص في أعيننا منذ أقدم العصور، بالرغم من انتسابه الظاهر، على ما يقولون "إلى قبيلة عربية... ولعلّه تمثيل وتشخيص بيننا لرعمسيس الكبير. كما أنَّ الراحل الكبير كان يذكّرنا ببعض كبار الخلفاء الفاطميين في ما اعتمرت به حياته من أساليب وأهداف وكفاءة للتنظيم".

وقال كمال جنبلاط: "كان لعبد الناصر الفضل الأول والأخير في إدخال مصر في نطاق تطوّرها الطبيعي، أي القومية العربية التي يجب أن يسبق حسّها النامي المتصاعد إمكانية تحقيق الوحدة السياسية. وقد رأيناه حتَّى بالنسبة إلى الوحدة المصرية ـ السورية يتردّد في قبولها لعلمه بأنها لم تصل إلى طور نضجها التاريخي، إذا كان لهذه الوحدة أن تتمّ بوسائل الشعور بالاقتناع الذاتي، لا بالعنف الكابح والمحوّل والمسرّع لعناصرالتاريخ في تكوينها".

مع رحيل جمال عبد الناصر انتقل العالم العربي من مرحلة إلى مرحلةأخرى في تاريخه المعاصر... فلقد استفاقت كلّ التيّارات والنزعات الانفصالية المذهبية المكبوتة، وانحسر المدّ العربي التحرّري... ووجدت بعض أقطاره في مواجهة أنظمة الحديد والنار،

وإن كان بعضها أطلّ ويطلّ تحت شعارات الحرّية والوحدة والعروبة، وعلى الأخصّ في بغداد وفي دمشق...

بعد أقلّ من ستة أسابيع على تاريخ ٢٨ أيلول قام حافظ الأسد في سوريا بتاريخ ١٦ تشرين الثاني ١٩٧٠ بانقلاب عسكري أطاح خلاله برفاقه في الحزب وفي المواطنية نور الدين الأتاسي ويوسف زعيّن وصلاح جديد وبكل طاقمهم في الحكم وفي الحزب، وأطلق على ما قام به اسم "الحركة التصحيحية"...

وتحوّل لبنان في تلك المرحلة، ومع وجود سليمان فرنجيه، صديق آل الأسد القديم على رأس الحكم فيه، إلى الساحة التي استأجروها وأجّروها: تارة بإسم ما سمّي "اتّفاق القاهرة" الذي أجاز للعمل الفدائي الفلسطيني بالعمل في لبنان وانطلاقًا من أراضيه، وطورًا بإسم ضبط المنفلتين والخارجين على هذا الاتّفاق ـ البدعة... وسط تسلّح مضطرد ومتنامٍ للفصائل الفلسطينية عبر الأراضي السورية واللبنانيين المتعاطفين معهم والرافضين وجودهم ونشاطهم... عبر البر والبحر وكلّ وسيلة متاحة... وإذا كان كمال جنبلاط قد تعامل بصدق ومرونة مع ما حفلت به المرحلة من تنامٍ وانفلاش للعمل الفلسطيني المسلّح في لبنان، فإنَّ الآخرين تعاملوا معه وفق مصالحهم وأهوائهم التي لم تكن بريئة وشفّافة غالب الأحيان...

وفيما ذهب سليمان فرنجيه في طريقه ووفق أسلوبه فشكّل مع صائب سلام أوّل حكومة في عهده أسموها "حكومة الشباب"، استبعد كمال جنبلاط وحزبه عنها خلافًا لما كان فرنجيه قد تعهّد به في ما أسموه "الأمتحان"... وهو شكّل واحدة من المهازل التي أودت بنا إلى المصير المجهول...

أجريت في ربيع عام ١٩٧٢ انتخابات نيابية عامّة استمرّت ولاية مجلسها، أو ما تبقّى منه إلى عام ١٩٩٢ حيث أجريت أول انتخابات بعد "اتّفاق الطائف". وفي أيلول سنة ١٩٧٢ أقيم احتفال كبير في قصر الأونسكو ببيروت تمَّ خلاله تسليم كمال جنبلاط وسام لينين للسلام الذي أُعطي له بصفته "رمز نضال الفدائيين اللبنانيين والفلسطينيين". وولدت عهدذاك "الجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية"، خلال مؤتمر عربي دولي انعقد في بيروت، وانتخب كمال جنبلاط أمينًا عامًا لهذه الجبهة. وإذ اتّسع وهج "الكمال" في مدى الشعوب العربية التوّاقة إلى التحرير والنصر، بدأت وجهات النظر بينه وبين نظام الأسد في

دمشق تختلف وتتباين... وبدأ كمال جنبلاط يصف في مجالسه الخاصّة انقلاب حافظ الأسد بأنه «الردّة» وليس حركة تصحيحية...

ومع بداية ربيع سنة ١٩٧٣ وقعت اشتباكات عنيفة بين الجيش اللبناني، والفصائل الفلسطينية، لا سيَّما المتواجدة منها في المخيمات على مداخل العاصمة بيروت، واستعمل في بعضها سلاح الطيران... وكان الجيش اللبناني أصبح يومذاك بقيادة ضابط جاء به سليمان فرنجيه من الاحتياط وعيّنه قائدًا بدل القائد السابق جان نجيم الذي استشهد باصطدام الطائرة التي كان يستقلّها عائدًا من زيارة للرئيس فرنجية في إهدن، وقضى معه ضابطان كبيران. وبعد منتصف ليل العاشر من نيسان ١٩٧٣ رست زوارق حربية إسرائيلية على شواطئ بيروت الجنوبية (ما بين الرملة البيضاء والمسابح السابقة في الجناح ومدخل الأوزاعي) وانتقل من فيها بسيّارات «تاكسي» أعدّت للعملية وتوجّهوا إلى شارع فردان حيث مساكن قادة من منظّمة التحرير الفلسطينية، فدخلوا المبنى واطلقوا النار على كلّ من: أبو يوسف محمّد النجار رئيس اللجنة السياسية العليا في المنظّمة وزوجته، وكمال ناصر ممثّل المنظّمة في بيروت، وكمال عدوان عضو اللجنة التنفيذية لحركة «فتح» الذي كان يشرف على العمليات التي تنفّذ داخل الأراضي الفلسطينية المحتلّة... وقبل أن تنسحب قوّة الكوماندس الإسرائيلي إلى زوارقها عرجت على محلّة الفاكهاني قرب جامعة بيروت العربية حيث قامت بنسف مركز للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين... ثمَّ عادت من حيث أتت وكأنَّ شيئًا لم يكن ولم يحدث...

في اليوم التالي قامت القيامة ولم تقعد وشيّعت العاصمة بيروت القادة الفلسطينيين الثلاثة بمأتم جماهيري حاشد وصُلّي عليهم في المسجد العمري الكبير قرب ساحة النجمة... وتقدّم المصلّين كمال جنبلاط وبيار الجميّل وياسر عرفات. وألقى جنبلاط كلمة غاضبة سلّط فيها هجومه على شعار عهد فرنجية: «وطني دائمًا على حقّ» فتساءل: أين هو الوطن الذي تستثمره سياسيًّا واقتصاديًا جماعة من المستغلّين في الحكم. ووصف الشعار بأنه بات شعار ذلّ يرفضه جميع اللبنانيين... ومن تداعيات الهجوم الإسرائيلي الفاقع والفاضح طالب رئيس الحكومة صائب سلام حليفه رئيس الجمهورية بإقالة قائد الجيش من منصبه على اعتبار أنَّ الجيش هو المسؤول عن عدم التصدّي للكوماندس الإسرائيلي وإحباط جريمته الوقحة... لكن سليمان فرنجية رفض فقدم صائب سلام استقالة حكومته وخرج من الحكم...

حاول كمال جنبلاط وضع فرنجيه أمام مسؤولياته فعقد معه اجتماعًا عاصفًا أكّد له خلاله أنَّ الجريمة الكبرى التي حصلت وسط عاصمة لبنان بيروت شكّلت إهانة للدولة المسؤولة عن أمن اللبنانيين والضيوف المتواجدين على الأرض اللبنانية، وأنَّ دور السلطة ليس إصدار بيان استنكار وشجب للجريمة بل محاسبة المسؤولين ومعاقبتهم، واتّخاذ التدابير الأمنية الآيلة إلى طمأنة الناس إلى حياتهم ومنع تكرار مثل هذه المهازل... والجرائم.

كان سليمان فرنجية رئيسًا متوسّط العلم والثقافة، عصبي المزاج، انفعالي التصرّف. عاش حياته ما بين زغرتا وطرابلس شتاء وإهدن صيفًا. فهو كان الزعيم المحلّي الذي يدير حزبية شقيقه رجل الدولة والزعيم الوطني حميد فرنجية. ولم يسبق له أن كان نائبًا أو وزيرًا، ولا عرف العديد من رجالات السياسة عن كثب. وشكّل المرض الذي ألمّ بحميد فرنجية بعد أحداث مزيارة وتراكماتها المدخل الطبيعي لسليمان لأن يصبح نائبًا ووزيرًا.

أذكر هنا حادثين ملفتين مرّا أمامي عن تلك المرحلة. ففي صيف عام ١٩٧٠، وفي "معمعة" انتخابات رئاسة الجمهورية، دخل علينا في بيت كمال جنبلاط في بيروت ذات بعد ظهر يوم الخطّاط الفنان الشيخ نسيب مكارم. فرحّب به كمال جنبلاط وسأله عن الأحوال ودعاه إلى الجلوس. لكن الشيخ نسيب خاطب كمال بك بالقول: لن آخذ الكثير من وقتك. جئت لأستفسر عن مسألة ولأقول لك هاتين الكلمتين. فابتسم كمال بك، وكان يحبّ الشيخ نسيب، وقال له: وما هما هاتين الكلمتين؟ خذ راحتك يا عمّي...

فقال الشيخ نسيب مكارم: إذا تقدّم مواطن لبناني لوظيفة حاجب في الدولة طلبوا منه سجلّه العدلي رقم ٣. أفهل طلبتم أنتم من المرشّحين لرئاسة الجمهورية مثل هذا السجل؟

وضحك كمال جنبلاط طويلاً وشكر الشيخ نسيب على هذه الملاحظة "القيّمة" والثمينة...

أمَّا الثاني فحصل في قصر الرئاسة في بعبدا ربيع عام ١٩٧٢. كنت أنا قد انتُخبت عضوًا في مجلس نقابة الصحافة منذ عام ١٩٦٧. وفي عهد الرئيس فرنجيه درجت العادة على أن نلتقيه كمجلس لنقابة الصحافة مطلع كلّ شهر، في جلسة عمل، يتكلّم هو فيها، ونسأله نحن من ثمَّ فيجيب. وبعد لقاء العمل نصعد إلى الطابق الأول في القصر فنتناول طعام الغداء إلى مائدة الرئيس بحضور عقيلته السيِّدة "إيريس" التي كانت تشرف على إعداد أطباق الطعام لذلك اليوم المميّز. قبل يوم من موعد اللقاء جهّز كمال جنبلاط حقيبته

للسفر إلى الهند وأبلغني أنه على موعد التاسعة من صباح اليوم التالي مع الرئيس سليمان فرنجية لاستئذانه بالسفر، وفقًا للأدبيات العالية التي كان يعتمدها كمال بك... مررت به قبل أن أوافي الزملاء الصحافيين إلى قصر بعبدا وسألته عن أجواء اللقاء بينه وبين فرنجية فقال لي وهو يبتسم: كان عاصفًا... هو احتدَّ ورفع صوته قليلاً، وأنا كذلك...

خلال لقائنا بالرئيس فرنجية حول طاولة اجتماعات مجلس الوزراء، انفعل الرئيس وهو يستذكر بعض تصريحات كمال جنبلاط العالية اللهجة (حكم الجهالة والقفز على القوانين) ثمَّ رفع صوته أكثر وضرب بيده على الطاولة وهو يقول: كلّ يد سوف تمتدّ إلى لبنان سنقطعها من الإبط... ثمَّ نظر إليّ بغضب قائلاً: مش هيك أستاذ متني؟!

فوجئت أنا بهذا الهجوم وبذلك الإحراج، لكنّي ضبطت أعصابي، كالعادة وقلت: الشخص المعني بالموضوع كان في زيارتك هذا الصباح... وكان الأولى أن توجّه إليه مثل هذا الكلام...

فعقَّب بالقول: مَنَّك قليل أبدًا... وغيّر الموضوع!

إثر انتهاء «لقاء العمل» وقبل الانتقال إلى غرفة المائدة فتح الباب، ودخل شخص ما أن رآني حتَّى توجّه إليّ وغمرني بكلتي يديه وراح يقبّلني بحرارة وكثير من الودّ والمحبّة... كان ذلك الشخص مواطن زغرتاوي اسمه حنّا الصيصا... وفوجئ الرئيس فرنجيه ربَّما بالمشهد فسألني: من أين تعرف حنّا يا أستاذ متني؟

فأجبت اسأل حنّا يا فخامة الرئيس...

فكرّر السؤال مرّتين وثلاثة، ولم ينبس حنّا بأية كلمة، فقلت ببساطة: أنا أعرف حنّا منذ أيام محاكمات أحداث مزيارة أمام المجلس العدلي (١٩٥٧ ـ ١٩٥٨) وكانت جريدة خالي نسيب المتني «التلغراف» هي جريدة المعارضة حينذاك وكنت أنا مندوبًا قضائيًا في العدلية، وربطتني صداقة بهؤلاء «القبضايات» الزغرتاويين...

وما زلت أذكر منهم اثنين لفتا انتباهي أكثر وهما حنّا الصيصا وجواد معوّض... كنت أشتري أحيانًا لهما علبة سجائر يطلبانها. ولفت أنظاري في ذات جلسة للمجلس العدلي كان الأب سمعان دويهي يدلي خلالها بشهادته ويتّهم سليمان فرنجية بأنه كان يحمل مسدسين يطلق منهما النار عليه... واسترسل أكثر فوقف حنّا الصيصا دون استئذان رئيس المجلس القاضي بدري المعوشي ووجّه كلامه إلى الشاهد قائلاً: اكذب يا قسيس، اكذب...

هيدي إيّامكم، ومزرابكم عمّا "يونتر"... لكن لا بدَّ ما مزرابنا "يونتر"... ومنأرجيكم...

وراح الرئيس المعوشي يضرب بمطرقته على قوس المحكمة ويهدّد حنّا بإصدار حكم وجاهي بسجنه للمخالفة وبإخراجه من القاعة...

ومن يومها، من اليوم الذي التقيت به حنّا الصيصا في القصر الرئاسي تبدّلت نظرة سليمان فرنجية إليّ... فأشار إلى مدير عام وزارة الإعلام يومذاك المحامي رامز الخازن أن يدعوني إلى الغداء، وأن يسألني بأسم الرئيس: ما هي طلباتي؟!

وبعد فترة أسدى لي حنّا الصيصا خدمة لم أكن أتوقّعها. البلاد مشرفة على انتخابات نيابية، وكمال جنبلاط متضايق من وجود صائب سلام على رأس الحكومة... طلبت من حنّا أن يرتّب لي لقاء مع النائب والوزير طوني سليمان فرنجية نجل رئيس الجمهورية. وفي اليوم التالي هتف لي حنّا يقول: الموعد يوم الأحد قبل الظهر وبعده، وسيستضيفك طوني بك على الغداء... أخبرت كمال بك فقال لي: أنت وشطارتك... اسأله عن حكومة الانتخابات وعمّن يجب أن يشرف عليها.

يوم الأحد كان حنّا ينتظرني في المكان الذي حدّده لي في ساحة التلّ بطرابلس، فاصطحبني إلى منزل طوني فرنجية قرب معرض طرابلس الدولي. وفوجئت بأنَّ النائب والوزير الشاب "حبوب" و"قريب إلى القلب"، ومتوقّد الذكاء. أجرينا جولة قبل الغداء وجولة أخرى بعده، وتناول حنّا الغداء معنا وراح يخبر طوني بك عن أيام المحاكمات وعن دوري مع الشباب وصداقتي لهم، فأحبّني طوني بك، وكنّا قد احتسينا كأسين من العرق على الغداء.

سألته في جولة ما بعد الظهر: هل يجوز أن يكون رئيس الحكومة التي ستشرف على الانتخابات مرشّحًا؟ فأجاب بصراحة وثقة: إطلاقًا لا... يجب أن تشرف حكومة حيادية على الانتخابات النيابية حفاظًا على سمعة العهد وعلى نزاهة الانتخابات...

وحصلت على ما أريد وجعلت من هذه العبارات عنوانًا رئيسيًّا للصفحة الأولى من العدد المقبل للأنباء... ونشرت تصريح طوني فرنجية الشامل على مدى صفحتين مع عدّة صور التقطها المصوّر الذي اصطحبني... وفرح كمال جنبلاط واغتبط... وأثار تصريح طوني فرنجية استياء صائب سلام فاتّصل مستشاره علي المملوك معاتبًا...

أثر مجازر "أيلول الأسود" في الأردن توافد الفلسطينيون على لبنان من الأردن، من سوريا من العراق، من مصر وسواها... وصار لكل بلد عربي منظّمة فلسطينية تابعة له:

"الصاعقة" تابعة لسوريا، و"جبهة التحرير العربية" تابعة لنظام البعث في العراق، و"فتح" على علاقة جيدة مع مصر والسعودية ودول الخليج... و"الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين" يسارية الميول على علاقة متينة بدول المعسكر الشيوعي... والسلاح والمقاتلون يتدفّقون علينا، وبلادنا أضحت المسرح والساحة أو "الرينغ" المرشّح لاستقبال المواجهات والأفعال وردود الأفعال...

ففي ٢٩ أيار سنة ١٩٧٢ أطلق جماعة من "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" وأفراد من "الجيش الأحمر" الياباني النار على ركّاب إحدى الطائرات في مطار "اللد" الإسرائيلي فلقي ٢٦ شخصًا مصرعهم وجرح العشرات... وردًّا على الحادث شنّت إسرائيل عملية انتقامية واسعة النطاق على جنوب لبنان... وطوال أربعة أيام ظلّت تقصف مخيّمات الفلسطينيين وما أسمته قواعدهم العسكرية من البر والبحر والجو... وأثناء الألعاب الأولمبية في مدينة ميونيخ بألمانيا خلال شهر أيلول ١٩٧٢ احتجزت مجموعة من منظّمة "أيلول الأسود" بقيادة أبو داود عددًا من الرياضيين الإسرائيليين ومدربّهم... ثمَّ تبادلت النار مع الشرطة الألمانية، فقتل الرياضيون الإسرائيليون. وكالعادة كان على لبنان أن يدفع الثمن... فلقي أكثر من ٤٠٠ شخص مصرعهم في الجنوب اللبناني في هجمات إسرائيلية شرسة، وتهجّر الآلاف واهتزّ الأمن والاستقرار...

وسارت عمليات "تطهير" الجيش من المكتب الثاني وإحالة ضبّاطه إلى المحاكمة، ومن الضبّاط ذوي الميول الشهابية في شتّى القطاعات، جنبًا إلى جنب مع عملية تنقية الإدارة وقوى الأمن من الموالين لعهد شهاب وللمكتب الثاني، واستبدالهم بموظّفين ينتمون في غالبيتهم إلى الرئيس فرنجية... وبدأ الناس يعانون أنواع الجور والتنكيل، ففي كلّ تحرّك عمّالي ومطلبي كانت السلطة تستخدم النار فيسقط قتلى وجرحى (تحرّك عمّال غندور في الشيّاح وتحرّك مزارعي التبغ في النبطية والمعلّمين الرسميين... والتحرّكات الطلاّبية لتعزيز الجامعة اللبنانية ورفع مستوى التعليم فيها وسواها من النشاطات) وكان من الطبيعي أن يقف كمال جنبلاط إلى جانب العمّال والطلاّب والمزارعين فرفع الصوت عاليًا في مواجهة حكم "السوط والقمع" الذي يستخدم أفراد الجيش والدرك والشرطة وهم أبناء هذا الشعب الكادح المناضل فيقول للعمّال وللزراع وللطلاّب: لا تحقدوا على هؤلاء فهم إخوتكم وأبناؤكم... بل احقدوا على السلطة الغاشمة التي تصدر الأوامر إليهم...

رحيل فؤاد شهاب
وتفجّر الأوضاع نحو الأسوأ

في ٢٥ نيسان سنة ١٩٧٣ مات الرئيس فؤاد شهاب بنوبة قلبية فاجأته ولم تمهله طويلاً... ولاحظ بعض المقرّبين إليه جدًّا أنَّ الرئيس شهاب بدا في أيامه الأخيرة قلقًا جدًّا على ألأوضاع التي آلت إليها البلاد والملاحقات القضائية بحقّ ضبّاط الجيش المقرّبين منه وفرار بعضهم إلى سوريا. قال بعض هؤلاء أنَّ الرجل عاش مرحلة من الحزن واليأس فأقدم على تمزيق مذكّراته وإحراقها. وجرى له مأتم رسمي ونكّست الأعلام. وكتب فيه كمال جنبلاط يقول: "فقد لبنان في رحيل الرئيس فؤاد شهاب وجهًا مميّزًا من تاريخه، القديم والحديث، وكأنه حدث ظهر في السياسة اللبنانية يصعب تصوّر بروزه في بلاد كلبنان... وقد يكون فاته معرفة فنّ السياسة الحقيقي والقدرة على نظم الجماهير في تشكيلات تؤيّد فكرته وسعيه وأهدافه. وقد كان فيه، ربَّما، خشية من هذه المواجهة وهذا التفاعل مع الناس... وقد يكون في حدسه أنَّ الناس يجب أن تأتي إليه وأن تختاره لأنها تعلم بوجوده دون أن يكون في حاجة إلى الخروج إلى الناس... وهذا التصوّر عطّل، ربَّما، قسمًا كبيرًا ممّا كان يفكّر بتحقيقه، لأنَّ الجنرال ديغول نفسه، لولا الحزب الذي أنشأه، أو الأحزاب التي استند إليها، لما كان استطاع أن يفعل ما فعل في تاريخ فرنسا. فالحزب هو مؤسّسة للإنسان ولفكره، تبقى... ولو ترك الإنسان هذه المؤسّسة أو توفي"...

انتقل فؤاد شهاب إلى جوار ربّه وهو لا يملك سوى معاش التقاعد الذي ستتقاسمه أرملته الفرنسية السيِّدة روزيت مع عدد من العائلات الفقيرة المستورة. أمَّا المنزل الذي أقام فيه في جونيه فهو إرث من أهل والدته آل حبيش. ويوم زرناه للمرّة الأخيرة وهو مسجّى على فراشه البسيط، صديقي المونسنيور منصور لبكي وأنا شاهدنا شقيقه شكيب يبكي كالطفل والمطران أغناطيوس زيادة يقول له: لا تبك يا شكيب... إنَّه في السماء... في السماء... وكان جدّ فؤاد شهاب حسن قد اعتنق المسيحية وانتقل مع عائلته للإقامة في منطقة كسروان.

شهد العام ١٩٧٣ أحداثًا لها دلالاتها وعلى الأخصّ بين الفلسطينيين والجيش اللبناني. ففي ١٤ نيسان دمّرت انفجارات شديدة أنابيب النفط قرب مصفاة الزهراني. وفي ٣٠ نيسان قبضت المخابرات على فلسطينيين حاولا تهريب متفجّرات على متن طائرة متوجّهة إلى بلد أوروبي. وفي أول أيار اعتقلت قوى الأمن خمسة فلسطينيين وجّهت إليهم تهمة محاولة الهجوم على مقرّ السفارة الأميركية في محلّة عين المريسة وردّ الفلسطينيون فخطفوا ثلاثة جنود من الجيش في محلّة حرج بيروت... فتأزّم الموقف ففرض الجيش طوقًا على مخيمي صبرا وشاتيلا ومنطقة الفاكهاني... فتدخّل كمال جنبلاط وزار فرنجية ووعده باستعادة الجنود ووفى جنبلاط بوعده، وما أن وصل الجنود إلى منزله في بيروت حتّى انفجر الموقف وجرت معارك ضارية في منطقة المخيمين المحاصرين. وقصف الفلسطينيون مطار بيروت من مخيم برج البراجنة فتوسّعت رقعة الاشتباكات وقام الجيش باعتقال عدد كبير من الفلسطينيين خارج المخيمات. وبعد وساطات عربية تمَّ في ٨ أيار توقيع برتوكول لتنظيم العلاقات الفلسطينية كتوضيح وملحق لاتّفاق القاهرة. وبدا للجميع أنَّ منطق الثورة ومنطق الدولة ـ هذا إذا وجدت ـ لن يلتقيا ولن يتعايشا... وأنَّ الانفجار المحتّم آت... والجميع دخل في مراحل التحضير والتهيؤ له تسليحًا وتدريبًا وشحنًا للغرائز وتمويلاً كان يأتي من بعض الدول العربية النفطية ومن بلدان الاغتراب... وفتح الأباتي شربل قسيس رئيس رهبنة الكسليك صندوق الرهبانية وتولّى شقيقه تسويق السلاح ونقله إلى مرفأي جونيه وطبرجا.

ـ حكومة تقي الدين الصلح... وثورة إلى ما تحت الخصر!

كلّف تقي الدين الصلح تشكيل الحكومة فعرضت وزارة الداخلية على كمال جنبلاط فجاءه «الفيتو» والاعتراض من صائب سلام وبيار الجميّل وكميل شمعون، ولم يلمس أي تأييد أو تحبيذ عربي قريب أو بعيد لتولّيه هذه الوزارة فاعتذر هو واعتكف... وحاول تقي الدين الصلح إسناد وزارة المالية لجنبلاط إلاَّ أنه قوبل بالرفض إيّاه فقال لكمال جنبلاط مازحًا:

ـ إذا كانوا لم يأتمنوك على بندقيتهم، أفهل تظنّ أنهم سيأتمنوك على صندوق مالهم (أي خزينة الدولة). وأسندت وزارة الداخلية إلى بهيج تقي الدين ووزارة الصناعة إلى توفيق عسّاف. واستمرّت حكومة الصلح الأول بضعة أشهر.

وفي السادس من تشرين الأول ١٩٧٣ انطلقت حرب أوكتوبر أو «حرب الغفران» التي بدأت في شهر رمضان. وحقّق الجيش المصري نجاحات مشهوده فعبر القنال وحطّم خطّ بارليف وتوجّه إلى سيناء في خلال أقلّ من أسبوع. وكذلك فعل الجيش السوري في هضاب الجولان... إلاَّ أنَّ دخول واشنطن الحرب علنًا ومبادرتها إلى إنشاء جسر جوي مع إسرائيل لإمدادها بالذخائر بكل التقنيات الحديثة التي يمتلكها الجيش الأميركي قلب المعادلة وبدّل الموازين والأوضاع على أرض المعركة... ورعى كلّ ذلك بإتقان وزير خارجية الولايات المتّحدة اليهودي هنري كيسنجر الذي كان قد انتقل من رئاسة مجلس الأمن القومي الأميركي إلى وزارة الخارجية وبات هو الحاكم الفعلي في واشنطن مع الرئيس فورد.

واقترن اسم كيسنجر في ما بعد بحرب لبنان التي أطلق عليها اسم «مخطّط كيسنجر»... وفي رماله المتحرّكة ووحوله وأنفاقه تورّط كلّ الفرقاء وانزلقوا مع الفلسطينيين إلى ما أطلق عليه وزير خارجية دولة خليجية صار بعدها أميرًا للبلاد «حقل الصابون» الذي يتزلّج فيه وينزلق كلّ من اللبنانيين والفلسطينيين دون بوصلة أو رعاية أو ضوابط أو مكابح...

ويوم انفجرت أزمة اختطاف وإخفاء تاجر الأسلحة اللبناني الأصل أنطوان قاموع، في قلب العاصمة الفرنسية باريس، في نهاية تشرين من عام ١٩٧٣، تبيّن أنَّ وزير خارجية عهد شارل حلو هو محامي «تاجر الموت» كما كان لقبه... وأنَّ هذا الوزير هو الذي كان الوسيط بين تاجر السلاح ووزراء من العهد الملكي في ليبيا لإنجاز صفقة أسلحة قيمتها أكثر من ملياري دولار أميركي... وأنَّ ثورة أو انقلاب القذّافي عاجل هؤلاء قبل أن يقبضوا عمولاتهم من الصفقة ووضعهم في السجن، فأدلوا باعترافات أدّت إلى اختطاف القاموع وإخفائه، ولم تظهر جثّته قط. كما قيل إنَّ بعض من كانوا في السلطة عهدذاك كانوا من شركاء تاجر الأسلحة المختفي الذي كان يعيش حياة البذخ والمقامرة في أهمّ كازينوهات باريس ويمتلك أكثر من سيّارة رولس رويس واحدة في كلّ من باريس ولندن وجنيف ومدريد... وأنَّ المحامي الوزير والعديد من أصحاب النفوذ الواسع تدخّلوا في ما بعد في عملية وتفاصيل إرث القاموع البالغ مئات ملايين الدولارات، وربَّما أكثر، والتي لا تزال عالقة أمام المحاكم اللبنانية حتَّى أيامنا بين شقيق القاموع وشقيقتيه...

ربيع سنة ١٩٧٢ دعي «المعلّم» لإلقاء محاضرة بدعوة من اتّحاد وطلاّب الجامعة اليسوعية. وكانت الأجواء ملبّدة بألف غيمة وغيمة وعلى الأخصّ مع أركان الحلف الثلاثي

وما سمّي "تكتّل الوسط" وضمّ صائب سلام وكامل الأسعد وسليمان فرنجية وجوزف سكاف. سألني كمال بك أن استطلع له حقيقة ما يدبّر فاتّصلت بزميلنا جورج عميره المدير المسؤول لجريدة "العمل" وعضو المكتب السياسي في الكتائب، فأجابني بالقول:

ـ يبدو أنَّ ابن سماحة ومن معه ناوين على الشرّ... وضحك. وكان ميشال سماحة هو رئيس مصلحة الطلاّب في الكتائب ومعه بشير الجميّل وفريق عمله. فوضعت كمال بك في ما تيسّر لديّ من معلومات وتمنّيت عليه ألاّ يتوجّه إلى المكان المحدّد في سينما شارع "هو فلان" المواجه لكلّية الحقوق. لكن جاء من زوّده بمعلومات مختلفة فقرّر الذهاب. وقامت مواجهة داخل قاعة المحاضرات تخلّلتها تصرّفات غير لائقة وغير مستحبّة، وانتهت بمنع كمال جنبلاط من الوصول إلى المنبر لإلقاء محاضرته ومحاورة الطلاّب والجواب عن أسئلتهم... وانتهى الأمر إلى انتقال جنبلاط مع فريق من الطلاّب إلى مركز "رابطة العمل الاجتماعي" في شارع فردان حيث ألقى محاضرته وأجرى حواره مع من تيسّر حضوره من الطلاّب...

أصبحنا على مشارف سنة ١٩٧٥ وكان كلّ شيء قد تبدّل وتغيّر... "صرنا في حاجة إلى قاموس جديد يحدّد معاني الكلمات" قال لي كمال جنبلاط وهو يتابع تصريحات بعض "الأبوات" وما تتضمّنه من عبارات التخوين ومنح "براءات الوطنية والعروبة" أو حجبها... وكأنَّ ثمّة من أعطى هؤلاء حقّ إعطاء الشهادات... وتحوّل شعار عرفات: "ثورة حتَّى النصر" إلى ما قاله له كمال جنبلاط ذات يوم: شو يا عمّي: من ثورة حتَّى النصر تحوّلنا إلى تحت الخصر!

كان مسؤول أمن الثورة أبو علي حسن سلامه قد تزوّج من ملكة جمال الكون السابقة جورجينا رزق. وأصبح سواه مقيمًا مع شقيقتها "فيليتشينا" وثالث هنا ورابع هناك...

ولم يعد يطيب لأبي علي عيش هنيء إلاَّ إذا توجّه كلّ يوم وفي وضح النهار، وفي ساعة محدّدة، إلى فندق "بيروت أنترناسيونال" الذي كان يستثمره صديقنا الشيخ عارف يحي... للتمتّع بحمّام "السونا" ورياضة التدليك والسباحة وما شابه. فرصده "الموساد" الصهيوني وفجّره ذات يوم داخل سيّارته... ووقفت جورجينا على مدخل البناية حيث يقيم، تبكي وتلوّح له بيديها وهو جثمان يشيّع في تظاهرة جماهيرية... وصار مسؤولون يستعملون الكلمات في غير موضعها.

كنت مرّة في بيت كمال جنبلاط عندما استدعى مسؤولاً في إحدى المنظّمات الفلسطينية ليسأله عن سرقة بيت صديقٍ له مع سيّارته...

وقال كمال بك للمسؤول: شو القصّة يا فلان؟

وأجاب صاحبنا بمنتهى البساطة: القصّة وما فيها أنَّ شابًا استحلى السيّارة فـ «شدّها» وآخر سجّادة عجمية فـ «شدّها» كذلك...

فغضب «المعلّم» ورفع صوته في وجهه وقال: شو يعني «شدّها»... قول سرقها... ورجّعوا السيّارة والسجّادة وحطّوه بالحبس...

وصارت بيروت العاصمة «السائبة»، عاصمة لياسر عرفات وللمنظّمات التابعة له، وعاصمة لجبهات الممانعة و«الرفض» (رفض التسوية السلمية)... وكان الرئيس المصري أنور السادات قد سار في اتّفاق لفصل القوّات المصرية ـ الإسرائيلية على جبهة سيناء وفق اتّفاق رعته الأمم المتّحدة والاتّحاد السوفياتي... ثمَّ سلكت سوريا الأسد الطريق نفسه فوقع اتّفاق للفصل بين القوّات برعاية الأمم المتّحدة والدولتين العظميين... وأصبح أنور السادات يستقبل هنري كيسنجر وزير خارجية واشنطن ويناديه بـ «العزيز هنري»... ورشّح أنَّ السادات يتّجه عكس توجّه جمال عبد الناصر، أي نحو تسوية منفردة مع إسرائيل ووصل به مسار التنازلات إلى حدّ أنه ذهب لزيارة إسرائيل وصلّى في المسجد الأقصى، وفكّ الارتباط مع سوريا الأسد ووصفهم بأنهم «حثالة البشر»... وكان مؤتمر القمّة العربي الذي انعقد في الجزائر قد اتّخذ قرارًا يعترف بمنظّمة التحرير الفلسطينية ممثّلاً شرعيًا ووحيدًا للشعب الفلسطيني فصار ياسر عرفات في منزلة الرؤساء والملوك العرب يحرّك كلّ ألوية جيشه من سوريا والعراق ومصر باتّجاه لبنان ثمَّ يدخل في مفاوضات أوسلو ويقيم سلطته الفلسطينية تحت وطأة احتلال شارون ووصاية جيشه، ويتباهى أحيانًا بأنه حكم لبنان ذات يوم فكيف لا يحكم فلسطين أو ما تبقّى منها ولو في ظلّ الاحتلال الإسرائيلي؟...

ـ ظاهرة موسى الصدر وصعود الشيعة وبروز الإمام

ولا مناص من التنويه بالظاهرة الشيعية الملفتة التي تمثّلت منذ مطلع الستينات من القرن العشرين بوصول رجل دين شيعي من إيران إلى لبنان، رجل دين يتمتّع بقامة مديدة وبطلة بهيّة تكلّلها عينان خضراوان ومهابة ساحرة أخّاذة...كان هو الإمام السيِّد موسى الصدر.

في تلك المرحلة من تاريخ لبنان كان للطوائف الإسلامية الثلاثة: السنّة والشيعة والموحّدون الدروز مرجعية مشتركة هي «المجلس الإسلامي الأعلى» برئاسة مفتي الجمهورية السنّي وبتمثيل متكافئ للمذاهب الأخرى...

لكن مع مجيء السيِّد موسى الصدر ومع بروز نجمه، أصبح للطائفة الشيعية، ولأول مرّة في تاريخها في لبنان، إمام وليس مفتيًا جعفريًا ممتازًا كما كان يسمّى من قبل... وصار للشيعة مجلس إسلامي شيعي أعلى مستقلّ عن السنّة، له مؤسّساته ودوائره وحيثياته. وانخرط الإمام المثقّف، صاحب الشخصية المحبّبة في نشاطات البلاد و «شأنها العام» وسياساتها. وظنّوا في بادئ الأمر أنه موفد من قبل شاه إيران لاستنفار الشيعة في اتّجاه مذهبي ضيق موال لطهران... إلاَّ أنَّ الأيام أثبتت عكس ذلك. أعلن الإمام «أنَّ إسرائيل هي شرّ مطلق» ثمَّ أطلق شعاره الآخر: «السلاح زينة الرجال». كان يتألّم لمعاناة أهل الجنوب الذين يتلقّون كلّ الاعتداءات الإسرائيلية ويعيشون نتائجها المأساوية فأكّد على أن يكون كلّ شيء للجنوب ولمقاومة العدوانية الإسرائيلية، فيؤدّي لبنان دوره الوطني العربي والإنساني، ويتحوّل ضعفه إلى قوّة حقيقية تقي أهله أن يكونوا «مكسر عصا» للآخرين... وسمعناه من ثمَّ يحاضر في كنيسة للمسيحيين في شارع الحمراء فيدعو إلى المحبّة والعيش المشترك بين اللبنانيين بحيث يكون لبنان هذا المختبر الإنساني لتفاعل الأديان والحضارات والثقافات. كما شارك في تحرّكات الناس المطلبية والاجتماعية والمعيشية. فللشيعة حقوقهم كما أنَّ لكل العائلات الروحية اللبنانية حقّها الصراح في أن يكون لها وطن يقوم على العدل والحرّية والمساواة بين مواطنيه في الحقوق والواجبات.

وجبل عامل، في تاريخه الحديث والغابر، هو مرتع بطولات وعلم وفقه تمثَّل في هذا الكمّ الكبير من علماء الدين، ومن المناضلين الأبطال الذين أدّوا واجبهم بصمت ونكران ذات أحيانًا، فكان أجرهم عند الله مضاعفًا وذِكرهم بين أقرانهم ومواطنيهم ملء الدهور.

وقامت بين الإمام موسى الصدر وكمال جنبلاط صداقة وتلاق وتفاهم وتعاون. أحبّ واحدهما الآخر، كما عرفت ذلك وعايشته عن كثب، ومدّ واحدهما يد التعاون والمؤازرة، فاستجاب الآخر وعندما اشتعل أتون الحرب وتحوّلت إلى مسالخ بشرية تذبح الناس على الهوية، اعتصم الإمام في مسجد العاملية وصام عن الطعام وصلّى ليهدي الله أبناء شعبه سواء السبيل... والذي يقول الحقّ ويسلك دروبه، ويسعى وراء الحقيقة والعدل

والخير والمحبّة والجمال يصلب أو يغيّب أو يغتال. هذه هي شريعة الجهل والتسلّط في وجه شريعة الحقّ والعدل: شريعة الله.

هكذا غيّب الإمام، واغتيل «الكمال» لنعيش في ظلامات أنفاق الجاهلية حتّى أيامنا...

في المقلب الآخر، كانت «السيبة» المارونية تكتمل: سليمان فرنجية رئيسًا للجمهورية، المطران أنطونيوس خريش بطريركًا للموارنة خلفًا للبطريرك بولس المعوشي، والضابط في الجيش حنّا سعيد، القادم إلينا من بلدة القليعة الحدودية، قائدًا للجيش اللبناني... وفي عهده انقسم الجيش وتحوّل جيوشًا و «تشرذمات» مذهبية طائفية مموّلة من هذا «الفاتح سبتمبر»، أو من ذاك «الصدّام» المقبل على السلطة في بلاد الحجّاج بن يوسف مكشّرًا عن أنياب فولاذية تذيع: «أرى في صفوفكم رؤوسًا أينعت، وحان قطافها، وإنّي لقاطفها»... كان كمال جنبلاط يرى في هذا الموزاييك العربي لمحات من أيام الخوارج والشعوبية والمماليك... وصار يردّد في مجالسه أمام من يأتي موفدًا من «الإخوان» طالبًا إليه تخفيف لهجته واتّقاء شرّ «الشرير الأكبر»: يا عمّي، لو جابولنا العسكر السنغالي فسيكون أرأف بنا وبشعبنا من هؤلاء... فهؤلاء إذا ما دخلوا فلن يخرجوا إلاَّ بعد أنهر من دم ومئات ألوف من الضحايا وسقوط الهيكل على رؤوسنا جميعًا...

ولكم حاول كمال جنبلاط إصلاح ذات البين وتقريب وجهات النظر بين نظامي البعث في كلّ من دمشق وبغداد، لكنّه كان يقابل بالمزيد من التشنّج والحملات المحمومة ما بين أجهزة إعلام نظام حكم دمشق ونظام حكم بغداد. فخاطبهما أخيرًا بالقول: إذا كنتما أنتما تنتميان في النتيجة إلى حزب واحد، ولا تستطيعان أن تتّفقا على جوامع مشتركة وعلى حدّ أدنى من التعاون والتقارب ووقف الحملات الإعلامية، فكيف تظنّون أنَّ في إمكانكم إقناع الآخرين بصحّة وصوابية شعاراتكم؟! ثمَّ أين هي الحرّية والاشتراكية في ممارسات هذين النظامين؟

وإلى متى تضحكون على أنفسكم وعلى الناس؟!

وانزلق الجميع إلى حقل الصابون، والوحول، والرمال المتحرّكة... وتقاتل الجميع مع الجميع وتذابحوا على الهوية ليصبح الجميع بلا هوية، بلا قضيّة، خارج الزمان والمكان...

وكان هنري كيسنجر يخطّط، وصهاينة إسرائيل يقهقهون: فلقد سقط «المثال»،

وتمزّقت الرسالة، وتحوّل لبنان جحيمًا لا يطاق بدل أن يبقى ويكون منزل الله وواحته على هذه الرقعة الصغيرة من الأرض: أميرًا للمؤمنين لا مجمعًا لحفنة شياطين...

- «زحل»... و«عزرائيل» وكيسنجر وصاعق الانفجار!

خلال عام ١٩٧٤ بدأ كمال جنبلاط يكثر خلال أحاديثه الخاصّة، وتصريحاته الصحافية أحيانًا، من الحديث عن كوكب «زحل» الذي بدأ يتحرّك منذرًا بالكوارث والأحداث الجسام في لبنان والمنطقة، وربَّما في أنحاء أخرى من العالم... وكانت التجاوزات الفلسطينية قد بلغت أشدّها في العاصمة بيروت وضواحيها، في صيدا وصور وفي كلّ مكان، وبدأ اللبنانيون، على اختلاف مذاهبهم يشكون من هذه الأوضاع الشاذّة التي تجاوزت حدود المعقول... وبدأت، في الأوساط المسيحية خاصّة تطرح أفكار ونظريات التقسيم، تقسيم لبنان على أساس «فيدرالي» أو «كونفدرالي»، ويطالب بعضهم باستفتاء شعبي، بإشراف الأمم المتّحدة أو عدد من دول الغرب، حول الوجود الفلسطيني في لبنان وامتداداته وأخطاره؛ وراح فريق من هؤلاء يمدّ يده إلى «إسرائيل» طالبًا العون والسلاح والتدريب لمواجهة الخطر الفلسطيني المتزايد على الصيغة اللبنانية الفريدة... وكان مثل هذا التوجّه هو أقصى ما تتمنّاه «إسرائيل» لتفجير النموذج اللبناني الذي يمكن أن يشكّل «المثال» لقيام دولة ديمقراطية في فلسطين يتعايش فيها اليهود والمسلمون والمسيحيون على أرض الديانات والمقدّسات...

هذه المواضيع مجتمعة كانت مدار بحث ونقاش، وأخذ وعطاء بين كمال جنبلاط وبيني خلال جلسات كانت تدوم أحيانًا لساعات، وخلال أيام وأسابيع. فنقلت له رسائل من وزراء خارجية عرب، على اطّلاع واسع واتّصال دائم بعواصم القرار في العالم، تتمنّى عليه عدم المشاركة في حرب لن تكون على إصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية، بل هو مشروع فتنة تستهدف اللبنانيين والفلسطينيين والعرب في آن واحد...

وإذا كانت «الفدرالية» و«الكونفدرالية» بدأت تطرح داخل لبنان، فهي وردت لدى بعض أنظمة الجوار التي كانت تستهدف إخضاع لبنان تمهيدًا لابتلاعه في اتّحاد فدرالي أو كونفدرالي كتابع لها، وليس كوطن سيِّد حرّ مستقلّ... لكن سعاة آخرين كانوا ينقلون من بعض العواصم العربية المال ويعقدون صفقات السلاح... ومنهم من تورّط ودخل في هذه اللعبة منذ عقد «اتّفاق القاهرة» فأخذوا يجنون الثروات على حساب جرّ اللبنانيين

والفلسطينيين إلى الاقتتال فيما بينهم... وبعضهم جنى عشرات ملايين الدولارات من حسابات تجارة الدم والفتنة...

وكانوا قد أخذوا يحكمون «الطوق» حول كمال جنبلاط من كلّ جهة وناح... أحضر صباحًا، وهو ما زال في فراشه، لنعمل سوية: نكتب أو نتحادث تمهيدًا للكتابة فأجد من حوله ثلاثة أشخاص. قالوا إنَّهم شيوخ دين... الثلاثة غير لبنانيين... ثمَّ أخذنا نكتشف أنَّ واحدًا منهم مرسل من قبل دوائر عرفات، وآخر من دوائر مخابرات نظام الشام... أمَّا الثالث فبقي لغزًا محيّرًا... ولقد اختفى يوم اغتيال «المعلّم» ولم يعد يعثر له على أثر... وإذا ما خرجنا إلى صالة المائدة أو إلى صالة الانتظار أو الاستقبال، وجدنا واحدًا من هؤلاء: أمَّا من مخابرات عرفات أو من مخابرات «الإخوان» الذين تعدّدوا وتكاثروا وتنوّعوا: من الشام ومن بغداد ومن ليبيا القذّافي... حتَّى الجزائر...

بقيت «الأنباء» خارج دائرة نفوذهم لأنني كنت ما زلت أتولّى مسؤوليتها وشؤونها. وكان كمال جنبلاط يقول لي: إذا استمرّيت أنت بقيت «الأنباء» لي، أمَّا إذا خرجت من اللعبة فسوف تكون تابعة لهم... وكان «المعلّم» يعرف كلّ شيء. كان يقول لي: يجب أن تصبر وتبقى إلى جانبي فأنا مستهدف من مخابرات الدول والأمم... وأنا أعرف أنَّ من حولي «جواسيس الأمم»... ويروح يعدّدهم: فلان للأميركان، وفلان للسوفيات، وثلاثة أو أربعة للإخوان... وفلان لبغداد وفلان لعرفات وجهاز أمنه... ويصمت قليلاً ثمَّ يضيف: أمَّا فلان «الشعتول الدندول»، كما كان يسمّيه، فهو لمن دفع أكثر!...

وكان سفير مصر في لبنان اللواء عبد الحميد غالب يقول لي، وقد قالها أكثر من مرّة:

ـ السافل دا يكتب تقارير عن كمال جنبلاط ونشاطاته، ويسلّمها إلى مساعد الملحق العسكري في سفارتنا ببيروت!

وفي خلال الأزمة، أو سؤ الفهم والتفاهم الذي نشأ في ما بعد، أي في السبعينات من القرن العشرين، بين كمال جنبلاط والسفير المصري ابراهيم صبري حول مسألة سفر فاروق المقدّم أو تسفيره إلى القاهرة، كان واحد من هؤلاء السعاة يغذّي سؤ الفهم ومحاولة الإيقاع بين كمال بك وسفير مصر... فأرسل مكتب علي صبري من القاهرة للسفير ابراهيم صبري، بواسطة «الفاكس» صورًا عن تقارير بخطّ يد هذا الأحدهم ترصد تحرّكات كمال جنبلاط وتنسب إليه أقوالاً لم يقلها ولا يمكن بالتالي أن تصدر عنه...

وعندما سلّم السفير صبري نسخًا عن هذه التقارير إلى كمال جنبلاط ذهل الرجل الكبير وقال: لم أكن أتصوّر أنَّ سفالة هذا الحقير يمكن أن تصل هذا الدرك المتهاوي الذي لا يُصدَّق.

ثمَّ جاءني من يقول لي بصراحة: ما بك لا تفهم، ولا تحبّ أن تفهم؟ نحن نريد «الأنباء»، فأمّا أن «تزيح» أو أن «تزاح»...

وعشت أنا شخصيًا فترة من القلق... والرهبة، فلجأت إلى الصلاة واستلهام القرار الذي عليّ أن أتّخذه... وذات نهاية أسبوع من بدايات شهر شباط سنة ١٩٧٥ توجّهت مع العائلة لزيارة القدّيس شربل في دير مار مارون عنايا بأعالي جبيل...

كانت الأرض مغطّاة بالثلوج والسماء ملبّدة بالغيوم. نمنا ليلة في بيت من حجر كان يقال له «فندق»... وصباح اليوم التالي قصدت، مشيًا على الأقدام، محبسة الراهب القدّيس في أعلى «التلّة». ركعت وصلّيت وتوسّطت القدّيس شربل أن يلهمني القرار الصعب...

كان أكثر ما يعذّبني ويؤرقني، ليس خوفي على حياتي، بل مصير عائلتي المؤلّفة من زوجة وأربعة أولاد: صبيّين وبنتين كان كبيرهم لم يبلغ بعد التاسعة من سنّي عمره والصغيرة في سن السنتين وبضعة أشهر. وكان مثال عائلة خالي الصحافي الشهيد نسيب المتني شاخصًا أمامي... فلقد عانت تلك العائلة الأمرّين، وكان الصغير من بين أفرادها في السنة الثالثة من عمره يوم استشهد والده. وكنت في موقف لا أُحسد عليه: فإمَّا أن أُنصت إلى صوت كبريائي وأنانيتي ربَّما فأبقى وأجابه فأستشهد، وإمَّا أن أسمع صوت العقل الذي كان يقول لي: أنت مسؤول عن هذه العائلة وعن مصيرها ومستقبلها... فلا تترك أولادك يكرّرون يومًا ما قاله فيلسوف «المعرّة» أبو العلاء المعرّي: هذا ما جناه أبي عليّ، وأنا ما جنيت على أحد...

ذات يوم من شهر كانون الثاني سنة ١٩٧٥ رافقت الدكتور خليل أحمد خليل، بتاء لإلحاح من كمال جنبلاط، في زيارة لسفير ليبيا في لبنان العقيد عبد القادر غوقه وصلنا إلى مقرّ السفارة وأُدخلنا إلى صالون محاذٍ لمكتب السفير، وكان علينا أن ننتظر، حتَّى بعد حلول موعدنا بدقائق، لأنَّ لدى السفير ضيف مهمّ... بعد دقائق فتح باب مكتب السفير فإذا الضيف المعني هو الشيخ محمَّد يعقوب مساعد الإمام موسى الصدر ووسيطه مع الليبيين ربَّما. خرج السفير غوقه مع ضيفه وأدخلنا نحن إلى مكتبه، وما أن جلسنا حتَّى لمحنا على

المكتب أوراقًا مكتوبة بخطّ الشيخ يعقوب تتحدّث عن «تثوير الجماهير» وما إلى ذلك من عبارات اشتهرت بها تلك الفترة من الأحداث أو الزمن. وعندما عاد السفير غوقه قدّمني الدكتور خليل إليه، فراح العقيد السفير يتحدّث عن ضرورة تحويل «الأنباء» إلى مجلّة لها غلاف بالألوان يحمل رسم قائد ثورة الفاتح من سبتمبر (أيلول) العقيد معمّر القذّافي... وتكون مهمّتها، أي «الأنباء»، الإسهام في تثوير الجماهير وضرب النفير للمرحلة المقبلة علينا والحبلى بالأحداث الجسام. استمعت إلى السفير الليبي لكنّي صارحته بأنه إذا ما تمّ مثل هذا الاتّفاق حول «الأنباء» مع الحزب ورئيسه فلن أكون أنا من يتولّى مهمّة رئاسة تحرير «الأنباء» أو مديرها المسؤول، ولن تكون لي بها عند ذلك أية علاقة أو صلة عمل.

في اليوم التالي أكّدت ذلك لكمال جنبلاط. وقلت: نحن لم نرضَ أن نبيع «الأنباء» لجمال عبد الناصر في عزّ مجده وسطوته. أفهل تريدنا أن نبيعها للأخ معمّر في هذا الزمن الرديء الذي نعيش؟

* * *

مصرع معروف سعد
شرارة الأحداث الأولى

بعد أقلّ من أسبوعين سارت في صيدا تظاهرة كبرى لصيّادي الأسماك احتجاجًا على الترخيص لشركة «بروتيين» الكويتية ـ اللبنانية لاحتكار صيد الأسماك على الشواطئ اللبنانية بواسطة بواخر مجهّزة بتقنيّات حديثة، الأمر الذي سيحرم صيّادي الأسماك في صيدا والجنوب لقمة عيشهم. كان ذلك يوم ٢٦ من شهر شباط سنة ١٩٧٥. تقدّم التظاهرة نائب صيدا الدكتور نزيه البزري ورئيس البلدية معروف سعد. وما إن تحرّكت حتّى أُطلقت عليها النار فسقط قتيلان أحدهما النائب السابق ورئيس البلدية المناضل معروف سعد. كما سقط جرحى... وفي ٢٨ شباط قامت في بيروت تظاهرة احتجاج نظّمها تجمّع الأحزاب الوطنية والتقدّمية. وفي اليوم التالي تحرّك أهالي صيدا وقطعوا الطريق الرئيسية التي تربط عاصمة الجنوب بصور والجنوب. وجرى إطلاق نار على وحدات الجيش التي كانت تتحرّك باتّجاه صيدا من جهة مخيّم عين الحلوة ومن جهات أخرى، فاقتحم الجيش صيدا وأسفر عن العملية سقوط خمسة قتلى في صفوف الجيش و١١ قتيلاً من الأهالي...

كان مقتل معروف سعد الشرارة التي انطلقت منها أحداث سنة ١٩٧٥... ولكن الجمر الذي ما زال متّقدًا تحت الرماد كان في حاجة إلى من يصبّ عليه الزيت لتشتعل النار وتنطلق لتلتهم الأخضر واليابس في هذا البلد الصغير ـ الكبير الذي اسمه لبنان...

عرفت معروف سعد منذ كان مفوّضًا في الشرطة، مقرّبًا من رئيس حكومة الاستقلال رياض الصلح. ورياض الصلح هو ابن صيدا أصلاً، كما هو رفيق الحريري وفؤاد السنيورة وسعد الدين الحريري وعائلته وعمّته النائب السيِّدة بهيّة وكلّ أفراد العائلة المجلّين وسواهم. فصيدا هي مقلع للرجال الوطنيين العروبيين الذين عرفوا بأنهم رجال دولة ورجال موقف ورجال قرار وعطاء ومكرمات.

كان معروف سعد يحضر لزيارة نسيب المتني في مكتب جريدة «التلغراف» حاملاً رسائل من رياض الصلح إلى الصحافي الوطني العروبي المناضل، أو آتيًا لزيارة صديقه الذي كان معجبًا به وبجرأة قلمه. وفي الستّينات صرت ألتقي معروف سعد في منزل كمال جنبلاط، أو في مكتب الحزب.

وكان معروف عضوًا في كلّ الجبهات التي أنشأها كمال جنبلاط وحضر لمدّة لا بأس بها من الزمن، اجتماعات جبهة النضال الوطني النيابية.

وفي كلّ موسم انتخابي كنت أزور صيدا برفقة كمال جنبلاط فيقام مهرجان شعبي في ساحة ميناء الصيّادين يخطب فيه الزعيم التقدّمي داعيًا إلى انتخاب معروف سعد المناضل الشعبي، صديق الفقراء والصيّادين والعمّال. وذات مرّة، وكنّا نجلس إلى منبر خشبي في ميناء الصيّادين، وعندما وقف معروف سعد واتّجه صوب المذياع لإلقاء كلمته، سقط المنبر فينا وكدنا نصاب بجروح لو لم يمسك واحدنا الآخر.

في ٢٨ شباط ١٩٧٥ كتبت سطرين على ورقة بيضاء وضعتها داخل ظرف مغلق، طلبت من شقيقي نقلها إلى منزل الرجل الذي أحببته وأحبّني... قلت لشقيقي: هذا مقال يجب أن يطّلع «المعلّم» عليه. وعندما عاد إليّ قال: أيّ مقال هذا؟ لقد تبدّل لون وجه كمال بك، وكاد أن يقول لي: أنت تحمل ورقة نعوة... كان ذلك كتاب استقالتي من «الأنباء» وانسحابي وانكفائي. ثمَّ كانت بيننا أكثر من جلسة تخلّلها أحيانًا ترغيب وترهيب... لكن أنا كنت قد اتّخذت قراري. قال لي كمال جنبلاط: أنت عنيد جدًّا مثلي. وإلاّ لِما كنّا قد التقينا واستمرّينا معًا طوال هذه السنوات... لكنّنا انتهينا إلى اتّفاق يقضي بأن نبقى أصدقاء وعلى تواصل...

تمنّيت له التوفيق في المهمّة المستحيلة التي يقود فأجاب ضاحكًا: ومن أين سيأتي التوفيق، و«زحل» يدور في مداره؟

وقبل أن أودّعه ويطبع قبلة حرّى على جبيني قال لي: بقي لي سنتين... أريدك أن تبقى إلى جانبي... أمّا «الأنباء» فليرحمها الله!...

ذهبت إلى بيتي والأفكار والذكريات تزدحم في مخيّلتي وعقلي ووجداني... كنت في أقصى حالات القلق والإحباط، والخوف العميق ممّا سينزله بنا تحرّك «زحل» من كوارث ونكبات...

ولم يطل الموعد المشؤوم... حدث ذلك يوم الثالث عشر من نيسان سنة ١٩٧٥ في محلّة «عين الرمّانة» جنوبي شرقي بيروت. كان بيار الجميل يحضر قدّاسًا لتدشين كنيسة جديدة في شارع مار مارون عندما مرّت سيّارة صغيرة أطلق مَنْ بداخلها النار عشوائيًّا فسقط أربعة قتلى من بينهم الشاب جوزف أبو عاصي، المرافق الشخصي لرئيس الكتائب...

وتكهربت الأجواء فلجأ الشباب إلى سلاحهم... ومرّت في شوارع عين الرمّانة، وعلى غير عادة، سيّارة أوتوبيس تقلّ شبّانًا وشابات من الفلسطينيين الذين يرفعون أعلامهم ويطلقون الهتافات... فأطلقت عليها النار بكثافة فسقط كلّ من كان في داخلها مضرّجًا بدمائه... وكانت الحصيلة ٢٧ قتيلاً و١٩ جريحًا...

كنت ذلك اليوم وكان يوم أحد، في ضيافة شقيقتي وصهري الذي هو ابن عمّي، في منزلهما بميناء طرابلس، مع أفراد عائلتي. لم نسمع طوال النهار أيّة نشرة أخبار. تناولنا السمك الطرابلسي الطازج على مائدة الغداء وشربنا كأس عرق... وفي طريق العودة إلى الدامور مساء لمحت على مدخل عين الرمّانة لجهة بوليڤار كميل شمعون في الحدث مصفحة درك أو شرطة دون أن أعير ذلك أيّ اهتمام... وعندما وصلنا إلى الدامور شاهد أولادي محلاً فاتحًا أبوابه وهو يعلّق «بالونات» أو كرات المطّاط، فطلبوا منّي شراء بعضها. وما إن أوقفت سيارتي وترجّلت حتّى سار نحوي حوالي عشرة أشخاص، على وجوههم علامات القلق ليسألوني: ماذا تظنّ أنه سيحدث يا أستاذ؟

سألت مستغربًا: ولِمَ هذا السؤال؟ فأخبروني ببعض ما حصل خلال النهار فأسرعت بالتوجّه نحو بيتي، وما إن فتحت الباب حتّى سمعت جرس الهاتف يرنّ، فأسرعت إليه، والتقطت السمّاعة فإذا المتحدّث كمال جنبلاط الذي بادرني بالسؤال: أين كنت؟ ثمَّ أضاف: ـ نحن مجتمعون في منزل محسن دلول ودولة الرئيس رشيد بك والجميع يريدون التأكّد ممّا إذا كانت طريق الدامور ـ صيدا مقفلة.

أبديت استغرابي واستهجاني وقلت: أنا آت حالاً من ذاك الطريق. الناس في بيوتهم والقلق يعتري الجميع. طلب منّي أن أتوجّه جنوبًا باتّجاه نهر الدامور ومدخل الشوف زيادة في الاطمئنان. أقفلت سمّاعة الهاتف وقمت بما طلب فوجدت المحال التجارية مفتوحة ومضاءة وهي زاخرة بأنواع الخضار والفاكهة والحلويات.

عدت إلى منزلي وطلبت الرقم الذي أعطي لي فردَّ كمال جنبلاط، فقلت له: كلّ شيء طبيعي وعادي. وإذا أردت زيادة في التأكّد فأرسل سائقك حافظ في نزهة ليعاين الوضع على أرض الطبيعة. شكرني وقال: سأعطيك رشيد بك (رئيس الحكومة رشيد الصلح وكان حاضرًا الاجتماع) وتحادثت مع الرئيس رشيد الصلح الذي كان صديقًا لي منذ إن كان قاضيًا يحكم بالعدل بين الناس. وكان مشهودًا له بالنزاهة والتعقّل والعلم

الواسع... فطمأنته إلى أنَّ خبر إقفال طريق الدامور عار عن الصحّة، وأنَّ الأوضاع طبيعية وأنَّ لا شيء يدعو إلى القلق. وضعت سمّاعة الهاتف مكانها، ورحت أسأل نفسي: ـ لماذا مرّ ذاك الأوتوبيس الفلسطيني في منطقة عين الرمّانة؟ وكيف ولماذا حصل ما حصل في الصباح وما بعد الظهر؟ ولماذا يطرح مصير الدامور وطريق الدامور على المحكّ وعلى طاولة المباحثات؟

وطالعني الجواب أو الأجوبة في اليوم التالي وفي الأيّام التي تبعته...

ـ اسحق رابين، رئيس حكومة «إسرائيل» يومها قال في «الكنيست» إنَّ حكومته لن تشنّ حربًا أو هجومًا عسكريًّا كبيرًا ضدّ لبنان في المدى القريب... لكن سياستها قائمة على تشجيع إثارة حرب أهلية داخلية في هذا البلد المتعدّد الطوائف بقصد شلّ قدرة المنظّمات الفلسطينية «المخربة» فيه والقوى المساندة لها...

ـ هنري كيسنجر: وزير خارجية الولايات المتّحدة الأميركية اليهودي حلّل الوضع في مقال إستراتيجي له فقال: إنَّ ثمّة أكثر من احتمال، ومنها: نشوب حرب داخلية في لبنان على غرار الحرب التي قامت في الأردن بين الجيش والفلسطينيين... وأشار إلى إمكانية ارتباط الأحداث بسوريا على اعتبارها دولة قادرة على تفجير الوضع في لبنان ساعة تشاء! وتوقّع كيسنجر استمرار الغارات الإسرائيلية على الفلسطينيين (وكأنه كان يعطي ضوءًا أخضر بذلك)... وذهب كيسنجر في تحليلاته إلى حدّ أن يكون لبنان منطلقًا لأحداث إقليمية ودولية قد تؤدّي إلى حدوث حرب عالمية ثالثة كما حدث في البلقان عام ١٩١٤ وكان ذلك مؤشّرًا على انطلاقة الحرب العالمية الأولى...

أمّا في لبنان فلقد جاء أوّل قرارات اجتماع ليل الأحد ـ الاثنين بعزل حزب الكتائب وبإخراج وزيريه من الحكومة بطلب وتحريض من «أبو إياد»، الرجل الثاني في حركة فتح لأنَّ ياسر عرفات كان خارج لبنان يوم وقوع أحداث عين الرمانة... ثمَّ ما لبثت العاصمة بيروت أن شهدت تحرّكات فلسطينية مسلّحة باتّجاه عين الرمانة والأشرفية... وخلال ساعات الليل انطلقت الاشتباكات المسلّحة التي شاركت فيها المدفعية و«الهاون» و«الآربي جي» في مختلف ضواحي بيروت الشمالية والجنوبية... وبدأت الحرب التي خطّط لها كيسنجر و «إسرائيل»، وانزلق الجميع إلى زواريبها وجبهاتها... وصارت «طريق فلسطين تمرّ بجونيه»... على حدّ تصريح «أبو إياد»... وتحوّل «أبو عمّار» إلى حاكم ومتحكّم بجزء

من العاصمة بيروت وبأجزاء واسعة من لبنان... وراحت قرارات "وقف إطلاق النار" تكرّ ومعها وقبلها وبعدها يتساقط القتلى بالعشرات ثمَّ بالمئات، ثمَّ بالألوف، ثمَّ بعشرات الألوف ومئاتها...

أواخر أيلول سنة ١٩٧٤، كان نظام حكم الأسد في دمشق قد ضاق ذرعًا بوجود تقي الدين الصلح على رأس الحكومة، فهو يعتبره أقرب إلى نظام حكم البعث في العراق منه إليه. فابنا شقيقي تقي الدين منح نجل عادل، ورغيد نجل كاظم يميلان إلى بعث العراق وإلى قيادة عفلق ـ الحوراني ـ البيطار... فازدادت الضغوط في اتّجاه تبديل الحكومة. ومال سليمان فرنجية إلى تكليف صائب سلام مجدّدًا تشكيل الحكومة، إلاَّ أنَّ ضغوط دمشق وإيحاءاتها رشّحت رشيد الصلح نائب بيروت لهذه المهمّة. ونقل هذا التمنّي إلى كمال جنبلاط الزعيم شوكت شقير رئيس أركان الجيش السوري الأسبق الذي حافظ على علاقاته الوثيقة بالسوريين وعلى الجنسية السورية التي كان يحمل... وكان العماد مصطفى طلاس وزير دفاع دمشق واللواء حكمت الشهابي رئيس الشعبة الثانية (المخابرات) ورئيس الأركان السوري في مرحلة لاحقة، من تلامذة شقير في الكلّية الحربية السورية... وفي بداية تشرين الثاني ١٩٧٤ شكّل فرنجية ورشيد الصلح حكومة من ١٨ وزيرًا شارك فيها خالد جنبلاط (وزيرًا للمالية) وعبّاس خلف (وزيرًا للاقتصاد) ممثّلين لكمال جنبلاط. لكن تراكمات أحداث صيدا (مصرع معروف سعد) ومجزرة بوسطة عين الرمانة وتداعياتها ألقت بثقلها في الميدان. وجاء وقوف الزعماء الموارنة كميل شمعون وريمون إدّه والبطريرك خريش ورئيس الرهبانية اللبنانية الآباتي شربل قسيس ضدّ قرار عزل الكتائب يؤزّم الأوضاع ويجعل من سليمان فرنجيه مؤيّدًا لاستقالة حكومة رشيد الصلح الذي قدّم استقالته إلى فرنجية يوم ١٥ أيار ١٩٧٥ بعد جلسة صاخبة في مجلس النوّاب تخلّلها تبادل كلام قارص ومشادة بالأيدي بينه وبين نجل بيار الجميّل النائب أمين الجميّل...

وإزاء محاولة فرنجية تشكيل حكومة عسكرية برئاسة مدير عامّ قوى الأمن الداخلي السابق نور الدين الرفاعي تأزّم الوضع وقام تكتّل إسلامي واسع ضدّ تخطّي كلّ الأعراف. وأعلن كمال جنبلاط بصراحة، وبإسم الجميع، أنَّ وجود حكومة عسكرية في لبنان هو أمر مرفوض ومستحيل من حيث المبدأ، وعن معارضة الحركة الوطنية لكلّ محاولات فرض الحكم العرفي على لبنان البلد الديمقراطي الوحيد في العالم العربي. أضف إلى أنَّ خطوة فرنجية اعتبرت استهانة بمصالح المسلمين الراغبين في المشاركة المتكافئة في القضايا المصيرية...

ولأول مرّة تدخّلت دمشق علنًا في أزمة لبنان. فأوفد الرئيس السوري حافظ الأسد نائبه رئيس الوزراء ووزير الخارجية عبد الحليم خدّام ومعه اللواء ناجي جميل... وبعد يومين قدّم نور الدين الرفاعي استقالة حكومته. وكلّف فرنجية رشيد كرامي تشكيل حكومة جديدة وذلك بناء لإصرار الأسد ولترشيح الزعماء المسلمين والحركة الوطنية له...

وانفجر الوضع الأمني بشكل واسع وحصل يوم ٣٠ أيار في بيروت ما سمّي (السبت الأسود) وجرى خلاله اختطاف أكثر من ٩٠ شخصًا على الهوية وتعذيبهم وقتلهم بشكل وحشي أحيانًا... وكانت المرّة الأولى التي تطال فيها الاشتباكات منطقة حارة الناعمة الدامور. وعندما أجريت اتّصالاً هاتفيًا بصديقنا رئيس الحكومة رشيد كرامي، وتمنّيت عليه إرسال قوّة من الجيش إلى المنطقة خوفًا من تفاقم الأوضاع أجابني بالقول: أنت تعرف أنَّ القرار في هذه الأمور ليس لي وحدي... وكانت بوادر الانقسام في صفوف الجيش قد لاحت في الأفق...

وذات صباح باكر فيما كانت زوجتي تردّ على هاتف البيت ويحادثها على الجانب الآخر كمال جنبلاط سقطت سمّاعة الهاتف من يدها إثر انفجار صاروخ سقط على أحد أعمدة الباطون في «تصوينة» منزلنا وكان قد سقط غيره فمات مواطنان من أهالي الدامور...أخذت السمّاعة وقلت:

ـ هل تأكّدت الآن يا كمال بك من أنَّ ثمّة صواريخ بين البيوت في حارة الناعمة؟

فقال: هذه صواريخ صغيرة لها صدى كبير لكنّها لا تؤذي كثيرًا.

فقلت: نبدأ بالصغيرة ثمَّ ننتهي بالكبيرة... وإلى سوء المصير...

كنت قد تلقّيت شكاوي عن بعض أصدقائي من أهالي حارة الناعمة الذين ينتمون إلى الطائفة السنّية الكريمة وليس من الشيعة كما ورد في كتاب تيموفييف عن قواعد صواريخ تنصب بين المنازل وعن خشية الأهالي هناك من تداعيات ذلك على عائلاتهم، فأبلغتها إلى كمال بك فقال لي: هذه أخبار مبالغ بها. ثمَّ ثبت العكس.

لم يكن الفلسطينيون صادقين تمامًا مع الرجل. كانت لهم مخطّطاتهم ومصالحهم التي تتناقض معظم الأحيان مع ما تريده وتنشده الحركة الوطنية اللبنانية... أو كمال جنبلاط بالذات. فتلك الحركة ضمّت ما هبّ ودبّ من تنظيمات العديد منها تابع لمخابرات دول

عربية معروفة... وكان كمال جنبلاط أحيانًا يبدو في اجتماعات ولقاءات تلك الحركة وكأنه طائرٌ يغرّد خارج سربه. وكان منزعجًا كثيرًا ممّا يجري داخل اجتماعات "الحركة" من مناقشات موحى بها معظم الأحيان. وكان الأدهى والأكثر ألمًا بالنسبة إليه عندما كان بعض أعضاء الحركة يوجّهون الانتقادات إلى بعض من كانوا حول كمال بك موجّهين إليهم الاتّهامات بأنهم يمثّلون مخابرات دمشق أو بعض مراكز القوى فيها، فاضطرّ هو أكثر من مرّة إلى الطلب من أحدهم الابتعاد والسفر خارج البلاد لأنَّ تصرّفاته لم تعد تطاق أو تحتمل. وتلك محنة، ولا أدهى، احتمل وتحمّل كمال جنبلاط من جرّائها الكثير...

وعندما عاد كمال جنبلاط للاتّصال بنا قائلاً: سوف يمرّ بك النائب فؤاد لحود فاجتمعا بفلان وفلان من أبناء الدامور للتهدئة وترتيب الأمور... قلت: الأمر هنا خرج عن نطاق مسؤولية القوى السياسية التقليدية... ثمّة قوى على الأرض باتت تتحكّم بالوضع... وعندما سألني: ماذا ستفعل؟

أجبت: سوف أغادر مع عائلتي إلى بيت صيفي لنا في بحمدون. وهكذا كان. وعندما حاول مسلّحان منعي من الانطلاق في سيارتي زاعمين أنَّ لديهما الأوامر التي تمنع مغادرتي الدامور على اعتبار أني رهينة لديهم... أدرت محرك السيّارة وسط صراخ الزوجة والأولاد وانطلقت باتّجاه طريق بعورته ـ عبيه فضرب واحد من المسلّحين مقدّمة السيّارة بحديد بندقيته، لكنهما لم يطلقا النار...

ـ إقصاء كمال جنبلاط عن الحكم وبدء التحضير لدخول القوّات السورية

بعد أكثر من زيارة لخدّام إلى بيروت شكّل رشيد كرامي حكومة أُقصي عنها كمال جنبلاط والحركة الوطنية وتولّى هو فيها وزارة الدفاع وكميل شمعون وزارة الداخلية وبدا وكأنَّ الأمور قد استقرّت إلاَّ أنَّ المخطّطات الموضوعة لحرب لبنان وضعت خارج لبنان، والتنفيذ على الأرض يتمّ بواسطة قوى وميليشيات تمّ التغرير بها أو استئجارها، أو دفعها إلى حرب أهلية فيما بين اللبنانيين، ولبنانية فلسطينية هدفها إلهاء الفلسطينيين عن متابعة نضالهم ضدّ العدو الصهيوني وزجّهم في الرمال المتحرّكة اللبنانية للإساءة إلى صورتهم وثورتهم، وإظهارها بصورة من يذبح المسيحيين في لبنان، ومن يسعى لذبح اليهود في فلسطين المحتلّة...

وبدأ التحضير لدخول القوّات السورية إلى لبنان بحجّة الفصل بين المتحاربين الذين يخوضون حربًا تستهدف تدمير لبنان... وقال الأميركيون والفرنسيون وبعض موفدي الفاتيكان للقيادات المسيحية أنَّ القوّات السورية ستدخل لضرب الفلسطينيين وقوّات الحركة الوطنية ومنعها من اقتحام المناطق المسيحية واحتلالها... وكان لا بدَّ من الدخول أولاً بحجّة الدفاع عن المسلمين وعن وجودهم. كانت الميليشيات المسيحية قد احتلّت محلّة الكرنتينا والمسلخ وباتت على مشارف ساحة الشهداء ومداخل المنطقة الغربية من بيروت المسلمة في غالبية سكّانها... فأدخلت القيادة السورية «لواء اليرموك»، وهو لواء من ألوية الجيش السوري النظامي كلّ أفراده من الفلسطينيين إلى الأراضي اللبنانية... وكانت مهمّة هذا اللواء تطويق الدامور وقصفها المتواصل بالمدفعية وضرب كل بناها التحتية تمهيدًا لإخلائها من سكّانها وتسليمها للميليشيات الفلسطينية ولبعض المسلّحين التابعين لميليشيات مسلمة...

قرار احتلال الدامور اتّخذه الرئيس السوري حافظ الأسد مع بعض معاونيه العسكريين...

أمَّا الهدف الاستراتيجي فكان تأديب الموارنة الذي تقدّموا في بيروت ومحاولة ردعهم عن إتمام مخطّطهم، وضرب العيش المشترك في منطقة الشوف التي تعتبر الدامور مدخلها وبوابتها والإساءة إلى كمال جنبلاط وضرب صورته كحام للمسيحيين في مناطق الجبل (الشوف وعاليه والمتن الأعلى). والمجازر البشعة التي ارتكبت داخل الدامور من إحراق مواطنين مسنّين وعاجزين عن الحركة والمشي في أسرتهم وهم أحياء معظم الأحيان... وإطلاق النار على كلّ مواطن بقي في بيته على اعتبار أنه ينتمي إلى عائلة النائب (الدكتور عزيز عون) أو إلى الحزبية الجنبلاطية التي كان تعدادها ثلث أهالي الدامور على الأقلّ...

إنَّ ما ارتكب من مجازر بشرية ومن ثمَّ من نهب منظّم لمحتويات البيوت ولأثاثها، ثمَّ إشعال النيران فيها بحيث بدت الدامور في الليل مشتعلة وكأنها واحدة من بلدات كسروان التي غزاها المماليك في القرن الغابر فنهبوها وأحرقوها...

هل هذه هي الحضارة العربية؟ هل هذه هي قضيّة فلسطين وشعبها العادلة؟ وما زالت ماثلة أمام عيني تلك الشاحنة التابعة للجيش اللبناني التي نقلتنا في صندوقها الخلفي من بيتنا في الدامور الفوقا (المعلّقة كما كان يقال لها) ثمَّ رمتنا مع أفراد العائلة: زوجة وأربعة أطفال على قارعة الطريق المؤدّي إلى كنيسة مار الياس الحي حيث توجد مدافن البلدة... حملت

طفلين من أطفالي الأربعة الذين باتوا بلا ثياب وبلا مأكل وبلا مشرب وسرت بهم نحو بيت لنسيب لنا قرب الكنيسة قيل إنَّه آمن... لنقضي هناك أيامًا سوداء مع حوالي أربعين نسمة من أهلنا تحت القصف المتكرّر ليلاً ونهارًا... كنت أضع عينيّ في الأرض خجلاً من أولادي ومن أهلي الأقربين: والدي وعمومتي والعائلات... هل هكذا يكون مصير من كرّس حياته وأفنى زهرة شبابه في خدمة القضيّة الوطنية والعروبة وقضيّة فلسطين؟

واختنقت في حلقي الكلمات... وسالت في مقلتي عينيّ العبرات... وأنا ألفّ أطفالي بعباءة وضعتها علي، والدنيا في عزّ البرد والشتاء، ما بين ١٠ و ٢٠ من كانون الثاني سنة ١٩٧٦...

مع إطلالة عتمات آخر ليلة قضيناها حيث كنّا، والقذائف قد هدّمت معظم الغرف التي فوقنا، دخل علينا كاهن رعية الدامور الخوري منصور لبكي ليفاجئنا بالقول:

ـ اركعوا جميعًا... وراح بعضنا يتأمّل عيون بعض والملامح في الوجوه. ماذا تريد، سألناه؟

فأجاب: أن أعطيكم «المشحة» الأخيرة... فالمسلّحون الغرباء باتوا على بعد مئة متر أو أقل من هذا المكان... وهم «يمشّطون» البيوت ويقتلون كلّ من يتواجد فيها...

ركعنا وسلّمنا أمرنا لله وتلقّينا «المشحة الأخيرة» وصلّينا... ولم يغمض لواحد منّا جفن طوال تلك الليلة... وما أن انبلج الفجر حتَّى كنّا في سيّاراتنا نقلع ونسير فوق ركام من حجارة البيوت المهدّمة... ونتوجّه إلى حيث لا ندري ولا نعلم: بدون ثياب، بدون مأكل، بدون مشرب... وبيوتنا ملأى بالمؤن وبأكياس القمح التي اشتريناها ليوم الشدّة... وهل ثمّة أشدّ وأكثر إيلامًا من هذا اليوم؟

بعد أيام، وفي منزل كمال جنبلاط في بيروت، قال لي الزعيم شوكت شقير:

ـ لماذا لم ترفع العلم الاشتراكي على بيتك؟

فقلت بحدّة: ارفعه أنت غدًا على منزلك في أرصون؟

كان كمال جنبلاط جالسًا في فراشه يكتب... فتوقّف للحظات ونظر إليّ مستغربًا وقال: وهل تعتقد أنَّ الحرب ستصل إلى أرصون؟

فقلت: هذه ليست بحرب... هذه غزوة من غزوات المماليك وجيوش وعصابات هولاكو وتيمورلنك وجنكيز خان... وهي لن تترك منطقة إلاَّ وبصمات الخراب والموت عليها ظاهرة ونافرة...

وذات يوم من نهايات ربيع سنة ١٩٧٦ هتف هنري كيسنجر للرئيس السوري حافظ الأسد يقول: تستطيع أن تدخل جيوشك إلى لبنان. نحن وإسحق رابين موافقان... شرط أن تتقيّد بالشروط المتّفق عليها...

وكانت الشروط تنصّ أولاً على أن يكون الدخول الشقيق موجّهًا لضرب المقاومة الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات، والحركة الوطنية بقيادة كمال جنبلاط وأن لا يصل الجيش السوري إلى الجنوب وتمّ ما تمّ... وكان ما كان...

أقمنا في بلدة شملان، قضاء عاليه، لبضعة أشهر مع عدد من أهالي الدامور... وكنّا نتابع كلّ ليلة مشاهد من «الفيلم الأميركي الطويل»: راجمات الصواريخ المنصوبة في محلّة «الرادار» في بلدة كيفون، فوق بلدة شملان، والراجمات المركّزة في أعالي عرمون وبشامون تقصف المنطقة الغربية من بيروت، وبالتحديد محلّة الفاكهاني وجامعة بيروت العربية وجوارها حيث مكاتب ومراكز عرفات وقيادته وقيادات بعض المنظّمات الفلسطينية... وكأنها أجزاء من أفلام الرعب التي يتقن إخراجها الأميركيون، والصهاينة اليهود منهم على الأخصّ...

بعد شهرين أو أكثر مرّ بي كمال جنبلاط إلى حيث أقيم. وهرعت زوجتي لإيقاظي من قيلولة ما بعد الغداء. نظرت من النافذة فوجدت سيّارة «تويوتا» يابانية صغيرة، صفراء اللون وليس المرسيدس الزيتية، فقلت لزوجتي: اليوم ليس أوّل نيسان، فلماذا تفعلين بي هذا؟

قالت: أنا لا أفعل بك شيئًا. إنَّه في غرفة الجلوس ومعه شخصان. خرجت فعانقني ثمَّ سألت: أين أصبحنا بالتمام يا كمال بك؟

فابتسم وقال: أصبحنا في قلب المجرور... وممنوع علينا أن نخرج من داخل المجرور...

كان هذا أروع وصف سمعته لما كنّا نعيش ومنه نعاني... ننتظر، ونحن لا نعلم ماذا ننتظر، ولا إلى أين يسير بنا اتّجاه الرياح...

وقبل أن يكمل استأذنته، فأنا أريد أن أبلغه شيئًا ما على انفراد. وقف ورافقني إلى غرفة النوم فقلت له: هل تعرف الشخصين اللذين في رفقتك؟

قال: معرفة سطحية... هما ليسا من منطقتنا... وفلان هو من ألحقهما بي...

فقلت: بصراحة أنهما جاسوسان مدسوسان عليك فحاذر، وانتبه.. وكنت أعرف الشخصين وإلى أية مخابرات ينتميان...

فأجاب: هذه التفاصيل لم تعد مهمّة... لقد انكسرت الجرّة بيننا وبين "الإخوان"، وانفخت الدفّ وتفرّق العشاق... نحن في طريق وهم في طريق آخر...

فأصررت عليه أن يتّخذ أقصى درجات الحيطة والحذر فقال مبسّطًا الأمور:

ـ لم يبق من العمر الكثير... فأنت تعرف أني راحل في الستّين...

قبّلني في جبهتي وخرج... ودخلت قامته المديدة بالكاد في سيّارة "التويوتا الصفراء"... وعندما أقلعت وجدتني أردّد بيت الشعر الذي كتبه:

أموت ولا أموت فلا أُبالي ... فهذا العمر من نسج الخيال

في هذه الأثناء أو الفترة من زمن الحرب القذرة كان الجيش اللبناني قد انقسم على نفسه وتشرذم. فقصف القصر الجمهوري في بعبدا وأصيب... فأرغم الرئيس سليمان فرنجيه إلى مغادرة القصر الرئاسي إلى بلدة الكفور في فتوح كسروان. ولم يعد رئيسًا لجمهورية لبنان بل أصبح عضوًا في ما سمّي "الجبهة اللبنانية" يجلس إلى جانب كميل شمعون وبيار الجميّل وشارل مالك وفؤاد افرام البستاني... وراحت تلك الجبهة تعقد الخلوات وتنادي بالفدرالية أو الكونفدرالية بين اللبنانيين وكأنَّ ما قام ويقوم بين فئات الشعب اللبناني من ميثاق حضارات وثقافات يمكن أن يكون خاضعًا لمنطق التجزئة والتفريق أو لمعيار الكمّ والعدد والإحصاء...

كانت الطائفية حتّى الساعة أخطر مؤامرة على القضيّة اللبنانية التي هي في جوهرها بقاء لبنان وطن الرسالة أو الوطن الرسالة. والرسالة، رسالة لبنان الحقّ أن يبقى مختبر الشعوب بالشمول، مختبر الحضارات والثقافات الذي هو أرفع وأسمى من أن يتحوّل إلى مظاهر تسوية وتوازن ومحاصصات. وأنَّ ما يجمع بين اللبنانيين هو فعل الثقة، ثقة بوفاء الغير، وثقة بوفاء الذات، والانفتاح على الآخر... والطائفية تتغذّى من الانغلاق والتعصّب والاعتصاب.

لذا بدت كلّ محاولات الحلول التي وضعت من مثل ما سمّي «الوثيقة الدستورية» التي أعادت تكريس طائفية الرئاسات، إلى كلّ المحاولات الحوارية الأخرى المصطنعة، وكأنها حلّ مفروض على اللبنانيين. فشرط الحوار الأول أن يقوم بين أحرار يملكون حرّية التكالم، حرّية الأخذ والعطاء فيما بينهم، ويملكون بالتالي حرّية القرار، ولا قرار صائبًا ومعافى عندما تكون الحرّيات مصادرة ومضغوطة وعندما يكون القرار في يد الغير لا في أيدي بناة البلد... وهم في المبتدأ وفي النهاية مجموعة أقلّيات وقوافل قدموا إلى هذه الأرض والجبال وعلى وجوههم غبرة النفي والعذاب. جاؤوا وكلّهم مغلوبون على أمرهم حاملين معهم تراثهم الروحي، وهو آخر ما سَلُمَ لهم من الدمار... وكان همّهم التغلّب على المصيبة والظفر بالكرامة...

بهذه الكلمات يمكن أن نختصر موقف كمال جنبلاط قبل اللقاء السادس والعشرين من آذار سنة ١٩٧٦ والذي انتهى بالقطيعة النهائية بين الرجلين وبقرار الأسد بـ «شطب» كمال جنبلاط من المعادلة السياسية اللبنانية... ومن ثمَّ من معادلة الحياة والتصفية الجسدية، في المرحلة التالية..

قال لي كمال جنبلاط: كان الرجل يريد لبنان ممزّقًا مفرّقًا، مغلوبًا على أمره ليتسنّى له في نهاية الأمر وضع يده عليه نهائيًّا، وإدخاله «السجن الكبير» الذي أعدّه وأنشأه لشعبه. وكان الحلّ الذي قدّمه وتصوّره الرجل ليس حلاً للقضيّة اللبنانية ومخرجًا من الأزمة والمعاناة، بل هو مشروع حروب بين الطوائف والفئات التي يتألّف منها لبنان، لا تنتهي. وأضاف الزعيم التقدّمي يقول: كنّا نرى، كما رأينا ربّما منذ بدء عهد ما سمّي بعهد الاستقلال الأول سنة ١٩٤٤، إنَّ الحلّ في لبنان يكون بإصلاحات دستورية معمّقة تقضي على أسباب النزاعات المتراكمة عبر الزمن، ووضع قانون عصري للانتخابات النيابية يؤمّن صحّة التمثيل الشعبي واستقامة النظام البرلماني الجمهوري الديمقراطي الذي اعتمده لبنان... وتضع هذا البلد في دوره العربي والدولي المتميّز بحيث يستطيع أن يقوم بدوره الطليعي في خدمة القضيّة الفلسطينية باعتباره مثالاً ونموذجًا للحلّ الديمقراطي المقترح لها، وفي إقامة علاقات صحيّة مع المحيط العربي بدءًا من سوريا على قاعدة الاحترام المتبادل لسيادة كلّ وطن أو بلد من بلدانها ولحرّية القرار الوطني المستقلّ لكلّ من دولها... وذلك يكون بأن يجلس ممثّلو الفئات اللبنانية إلى طاولة حوار يقوم على أساس أنهم فرقاء متساوين في المسؤوليّة والحقوق، يتمتّعون بحرّية قرارهم، وبهدف الوصول إلى نظام مدني يبدأ من إلغاء

الطائفيّة السياسية في الوظائف والمحاصصات واعتماد معيار الكفاءة العلمية والخلقية في بناء إدارات الدولة ومؤسّساتها، ويكرّس عروبة لبنان ومبادئ الحرّية والديمقراطية.

لكنّنا ـ أضاف كمال جنبلاط ـ كنّا نتعامل مع من لا يتفهّم حقيقة القضيّة اللبنانية بدءًا من جذورها التاريخية وصولاً إلى ما كنّا فيه من قتال معظمه مفتعل ومغذّى من الخارج... بل إنّ كلّ ما كان يمتلكه والي الشام في مواجهة طروحات الحرّية والديمقراطيّة المتنوّرة هو الحديد والنار يلوّح به ويهدّد منعًا لأيّ حلّ مشرّف وعادل لأزمة لبنان، وحيث يحلّ الاستبداد والتحكّم بقرار الشعب وبحرّيته في صنع هذا القرار يصبح للرفض وللتصدّي لهذا الاستبداد شيء من القدسيّة، وعلى الأخصّ عندما يأتي هذا الاستبداد من خارج الحدود وخروجًا على إرادة التحدّي عند كلّ شعب يتحلّى بالكرامة الوطنية وبتاريخ عريض وعريق في مقاومة كلّ محتلّ وكلّ طامع غاصب.

هي الصورة الصحيحة لما جرى يوم ٢٦ آذار سنة ١٩٧٦. وكلّ ما عداه من تأويلات وروايات صدرت من هذا أو ذاك، أو نشرت في هذا الكتاب أو غيره، إنّما كان توزيع أدوار لخدمة نظام الاستبداد والاستفراد بلبنان وبقضيّته، وبالشعب الفلسطيني وبقضيّته وبمقاومته وبقراره الوطني المستقلّ. وكان هؤلاء المأجورون أو العاملون بالأجرة لدى النظام إيّاه معروفين ومكشوفين لا يستر عوراتهم ادّعاء بطولات دونكيشوتية مموّهة... والثروات التي جناها بعضهم من تجارة الدماء وتجارة الوطنية والعروبة ظاهرة ومعلومة لدى القاصي والداني.

أمّا القول بأنَّ كمال جنبلاط قد تأخّر في اكتشاف حقائق الأمور فذلك أمر مردود ومستغرب ولا يستحقّ الوقوف عنده طويلاً... فكمال جنبلاط كان يعرف حقيقة النظام المعني منذ إبصاره النور سنة ١٩٧٠. ومنذ أيامه الأولى وصفه بأنه «نظام الردّة» و«حزب النكسة» الذي كان يتغنّى بأنه خسر الأرض، أو ربّما باعها، لكنّه حافظ على النظام، وبئس ذلك النظام الذي لم يتمكّن حتّى أيامنا من استعادة الأرض أو المباشرة في العمل الجادّ لتحريرها.

ويوم جاء الموفد الأميركي دين براون بتكليف من الرئيس جيرالد فورد ووزير خارجيّته هنري كيسنجر لاستطلاع الأوضاع عن كثب أدرك كمال جنبلاط أنَّ المهمّة إنّما هي استكمال للتنسيق الأميركي القائم مع نظام دمشق لإدخال ألوية جيشه إلى لبنان

والسيطرة عليه وضرب الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية تنفيذًا للمخطّطات الأميركية ـ الغربية المتعاونة مع "إسرائيل"، الحليف الاستراتيجي لها. لكنّه تعامل مع الرجل كما يتوجّب وقدّم له شرحًا وافيًا للأزمة تاريخيًّا وعملانيًّا كما قدّم له نسخة عن البرنامج المرحلي الإصلاحي للحركة الوطنية ففوجئ بأنَّ الموفد الأميركي يبلغه انَّ هذا هو أقلّ المطلوب لمعالجة أوضاع لبنان ووضعه على سكّة العصر والتقدّم.

في اليوم التالي لزيارة براون قمت بزيارة كمال جنبلاط وسألته عن أجواء اللقاء فابتسم وقال: إنَّ أسوأ ما أبلغني إيّاه الموفد الأميركي براون هو أنَّ أزمتنا في لبنان لن تلقى حلاًّ نهائيًّا لها قبل عام ٢٠٠٦، أي بعد ثلاثين عامًا من موعد اللقاء... وهذا يعني أنَّ قضيّة لبنان تأتي كآخر حلقة في مسلسل واشنطن لحلّ أزمة المنطقة، وبالتالي بقاء هذا البلد داخل عنق الزجاجة التي أُدخل فيها... فإمّا أن تنكسر الزجاجة ويقسم البلد تنفيذًا للطروحات الصهيونية المتحالفة مع الغرب، وإمّا أن نبقى داخل الدوّامة إلى ما شاء الله... وصمت قليلاً ودخل في شبه تأمّل وغياب، ثمَّ أردف يقول لي: ذلك يعني أننا لن نشهد أيّ حلّ لأزمتنا في خلال وجودي بينكم، فانا راحل في خلال عام على أبعد تقدير...

كان موقنًا أنه سيرحل في سنّ الستّين، أي خلال ١٩٧٧، وأنَّ نظام الاستبداد والمملوكيّة قد أصدر حكم الإعدام في حقّه، والباقي تفاصيل، وزمان ومكان محدّدين، يحكى عنها في أوان تحقّقها...

في تلك المرحلة بدأ الإعداد لإجراء انتخابات رئاسية مبكرة ظنًّا في أنها قد تضع حلاًّ أو قد تشكّل فرصة لخروج البلاد من مخطّط استمرار العنف العبثي المستمرّ المتمادي.

رشّحت الكتلة الوطنية، في بيان صدر عنها، عميدها ريمون إدّه لمنصب رئاسة الجمهوريّة. وأعلن إدّه أنَّ سياسته العربية هي العداء لإسرائيل وإقامة علاقات تعاون مع الدول العربية، وخصوصًا مع سوريا، على قاعدة المصالح المشتركة والاحترام المتبادل. وأصدر كمال جنبلاط بيانًا بإسم جبهة الأحزاب الوطنية أعلن فيه تأييد ترشيح ريمون إدّه. وعندما عاد الموفد الأميركي براون لزيارة جنبلاط محاولاً إقناعه بتأييد ترشيح الياس سركيس للرئاسة، أبلغه الزعيم التقدّمي أنَّ ريمون إدّه هو الرجل المناسب للمرحلة ووصفه بأنه ديمقراطي ليبرالي ثابت على مبادئ الحرّية والقانون والديمقراطية. ونصح جنبلاط براون بأن يكون دور واشنطن هو الضغط على نظام دمشق لوقف تدخّله في لبنان والابتعاد ما أمكن عن العمليّة الدستورية لانتخاب رئيس جديد للبنان.

لكن دمشق كانت قد أعدّت العدّة، وبدأت بتسخير كلّ الإمكانات المتاحة لتأييد الياس سركيس، كما استدعت قيادة منظّمة التحرير الفلسطينية وطلبت منها ضرورة قطع كلّ علاقة لها مع كمال جنبلاط وعدم السماح بمرور أيّ سلاح أو ذخيرة له أو للفصائل اليسارية المتعاونة معه. ولمّا عاد المبعوث الأميركي براون لمقابلة كمال جنبلاط ومحاولة طمأنته إلى أنّ جيش حافظ الأسد لن يدخل لبنان ردّ عليه جنبلاط بالقول: معلوماتنا تؤكّد أنكم أنتم من يمهّد لدخول هذا الجيش إلى أرضنا. وبعد خروج براون من لدنه أصدر الزعيم التقدّمي بيانًا حذّر فيه المجتمع الدولي والعربي من استباحة سيادة وطن وكرامة شعب وإدخال الجيش السوري إلى لبنان دون موافقة اللبنانيين. وبدأ ياسر عرفات يحسب للموقف ألف حساب وحساب، وراح يمهّد للتخلّي عن كمال جنبلاط ولمحاولة «غضّ النظر» عن دخول جيش حافظ الأسد إلى الأراضي اللبنانية.

ومن فندق "كارلتون" في بيروت أعلن الياس سركيس في ٢٨ نيسان ١٩٧٦ ترشّحه لرئاسة الجمهوريّة وسط حراسة سورية. وعندما سأله صحافي عن صحّة المعلومات التي تقول إنَّ دمشق هي التي رشّحته وتتبنّى ترشحيه، أجاب بكلّ عفويّة أنه لم يتبلّغ حتّى الساعة وبطريقة رسمية، أنَّ سوريا تؤيّد ترشيحه... ولكنّه يرحّب بهذا التأييد، وسوف يكون شاكرًا وسعيدًا بأن يحصل...

... وسقط الياس سركيس مرّة أخرى في الإمتحان، أو هو وحواريوه من أسقطوه... وحدّد يوم الثامن من أيار ١٩٧٦ موعدًا لانتخاب رئيس جديد للبنان في قصر منصور في محلّة المتحف. وردّ كمال جنبلاط ببيان قال فيه إنَّ ما سيجري في بيروت ليس انتخاب رئيس جمهوريّة للبنان، بل تعيين رئيس وفرضه بالقوّة، وتزوير لإرادة الأكثريّة الساحقة من اللبنانيين، ومحاولة إخضاعهم لوصاية عسكرية يطبّقها نظام طامع بلبنان ومناهض للحرّية والديمقراطيّة وحقوق الإنسان. وحار كمال جنبلاط في تفسير هذا الموقف اللاوطني واللاأخلاقي الذي زجّ به حاكم المصرف المركزي الياس سركيس نفسه ورصيده وفكره في أن يكون رئيسًا مرتهنًا لدى نظام دمشق، وشاهد زور على احتلال لبنان واغتيال رموزه وعناوينه وفي مقدّمتهم كمال جنبلاط نفسه حتّى يسهل من بعده ويتبرّر كلّ اغتيال، أو إلغاء لكلّ من يجرؤ على التمسّك بالسيادة والاستقلال والكرامة الوطنية... ثمَّ أن ينتهي عهده باحتلال جيش إسرائيل لبيروت، وبجلوس شارون في كرسي محافظ بعبدا على مسافة أمتار من القصر؟ الذي كان يقيم فيه الياس سركيس، وانعقدت الجلسة ـ المؤامرة. حضرها

٦٩ نائبًا أو مستنوبًا، صوّت منهم ٦٦ للإذعان الممثّل بترشّح الياس سركيس، ووجدت ثلاث ورقات بيضاء. وقاطع الجلسة ثلاثون نائبًا أبرزهم كمال جنبلاط وصائب سلام وريمون إدّه الذي كان قد ألغى ترشّحه للرئاسة... وتمَّ ذبح ما سمّي "الشهابية" أو "النهج الشهابي" في الطابق السفلي لفندق "كارلتون" بحراسة سورية تمثّلت بمسلّحي منظّمة "الصاعقة" وكلّ مخابرات الشام...

وظهر الياس سركيس مساء على شاشة التلفاز ليخاطب اللبنانيين بالقول: "أنا منكم، أنا لكم، أنا معكم"... لكن أحدًا لم يصدّقه، بل رثوا لحاله. ولم أصدّق أنا شخصيًّا ما أرى وأسمع. فلقد عرفت الرجل عن كثب ورحت أسائل نفسي عن ما أو مَن نصحه أو أقنعه بأن ينهي نفسه وتاريخه على هذا النحو المأساوي المؤسف... وتاريخ ما سمّي الشهابية، وليرحم الله فؤاد شهاب مرّتين... إن لم يكن أكثر...

وأخذ كمال جنبلاط يسأل ويتساءل: ما الذي يريد نظام دمشق أن يفعله بلبنان بعد؟ لديهم الآن رئيسان للجمهوريّة واحد مستمرّ وواحد منتخب. الأول يقيم في بلديّة الذوق في ساحل كسروان والثاني منتخب يقيم في شقة محروسة من أتباع النظام الشامي. وجاء الجواب بعد زيارة قام بها وفد من حزب الكتائب برئاسة بيار الجميل إلى دمشق حيث استقبله الرئيس حافظ الأسد. وصدر نتيجة للزيارة بيان عن رئاسة حزب الكتائب يعلن الموافقة على دخول قوّات سورية إلى لبنان ومن ضمنها قوّات عربية...

والتقى كمال جنبلاط الياس سركيس في منزل النائب الشهابي جوزف أبو خاطر سفيرنا الأسبق لدى عبد الناصر... وسأل سركيس كمال جنبلاط: ألا تعتقد أنَّ التوافق مع شمعون والجميّل ينهي الحرب؟ فأجابه جنبلاط: المسألة لم تعُد بيننا وبين شمعون والكتائب، المسألة صارت بيننا وبين دمشق ـ الأسد. أفهل تجرؤ أنت على إصدار بيان تطلب فيه سحب القوّات السورية من لبنان؟ تلك هي المسألة، وهذا هو الموقف المطلوب.

ولم يستطع الياس سركيس الجواب. لكنّ الجواب جاء من مكان آخر، كان كلّ شيء قد تمّ. فلقد أعطت واشنطن ومعها فرنسا ديستان والغرب الأوروبي الضوء الأخضر لحافظ الأسد بوضع يده على لبنان. وفي الأول من حزيران سنة ١٩٧٦ كانت الدبّابات السورية تقتحم الأراضي اللبنانية من ناحية "المصنع" وتتوغّل فيها في سهل البقاع الذي سمّي ذات يوم "اهراء روما". ودخل والي الشام أرض فخر الدين واستباح كلّ الحرمات وباتت كلّ

منافذ حدودنا تحت سلطة وسلطان جزمته... وأصبح مصير الأمير الجديد معروفًا ومحتومًا: فإمّا الموت مسمومًا على مثال فخر الدين الكبير الثاني، وإمَّا الاغتيال برصاص غادر على يد أجير صغير. وأخذت الأقنعة تسقط عن وجوه بعض الذين كانوا من حول الأمير الجديد كمال جنبلاط. فريق تهرّب وتركه وحيدًا، وفريق وقف إلى جانبه ولو استمرّ وحيدًا، وفريق استمرأ الخيانة وتوغّل في دهاليزها والأنفاق... فآثر العيش في الظلمات والتآمر على الأمير "المهزوم" تمهيدًا للقضاء عليه في يوم آت...

وكلّ ما بقي، وقيل ويقال، وحكي ويحكى: تفاصيل، وفواصل وحروف عليها أو ليس عليها نقاط...

ظنّ الوالي أو خُيِّل إليه أنه انتصر... وأنَّ الأمير انكسر... وأنَّ حكم الوالي المتجدّد سيكون هو هو حكم والي عكّا على جدّه بشير... والتاريخ يعيد نفسه أحيانًا، أو هو يعود إلينا بصور وأشكال أخر:

الوالي هو أبدًا في خدمة الاستبداد والمستبدّين، ولو تغيّرت الأسماء وتبدّلت العناوين. والأمير هو من يمثّل رمز كرامة وعنفوان ومجد لشعب اخترع الأبجديّة، ثمَّ حوّل الموئل إلى المعقل والمنفى إلى الوطن...

فالوالي أبدًا إلى مزبلة التاريخ... أمَّا أمير النور والمعرفة والحقيقة فإلى مجد النور، ونور الكرامة... يتحطّم الجسد منه وينهض الروح...

والروح باقٍ وعفن الولاة إلى بوار وزوال...

* * *

ربع قرن من النضال
وربع قرن من جمع المال!

«الأدب والتأدّب يعني احترام النفس واحترام الآخرين. ومن لا يحترم نفسه ويعتبر فيها، فكيف يصحّ له أن يتوجّه إلى إلى الآخرين بالاعتبار والاحترام، أو أن ينتظر منهم أن يبادلوه بمثل ذلك.

كمال جنبلاط
«أدب الحياة»

خلال سنة ١٩٧٣ طلب كمال جنبلاط من مفوّض التربية والمعارف في الحزب التقدّمي الاشتراكي الدكتور خليل أحمد خليل، إعداد كتاب وثائقي يؤرّخ لمسيرة نضال الحزب خلال ربع قرن من الزمن (١٩٤٩ ـ ١٩٧٤). على أن يُطلق على الكتاب اسم «ربع قرنٍ من النضال».

انكبّ الدكتور خليل على إعداد مخطوطة الكتاب مستعينًا بأرشيف الحزب، أو بمجموعة جريدة «الأنباء» بعض الأحيان. ووضع «المعلّم» كمال جنبلاط، مؤسّس الحزب ورئيسه مقدّمة الكتاب بعنوان: «الجهاد الأكبر»، وهي مقدّمة مستفيضة تكاد تشكّل لوحدها كتيّبًا قيّمًا زاخرًا بالقمم والقيم والمعرفة الراسخة الأصيلة، ولعلّ كمال جنبلاط هو القائد السياسي الوحيد في المشرق العربي الذي مارس النقد الذاتي المنزّه المجرّد لمواقف الحزب ولمواقفه في أكثر من حقبة ومفصل من مفاصل الكفاح والنضال، وهي مزيّة من مزايا الرجل الذي مارس في حياته الصدق مع نفسه ومع الآخرين.

وبعدما اكتمل التأليف والإعداد قام الدكتور خليل بعرض المؤلَّف على بعض مطابع بيروت فطلبوا مبلغًا كبيرًا من المال لقاء إنتاج الكتاب.

وذات صباح يوم كنت، كالعادة، مع كمال جنبلاط في غرفة نومه نكتب، ونحرّر مقالاً للأنباء، وتصريحًا للصحف ووكالات الأنباء المحلّية، عندما فاتحني الإنسان الكبير بالأمر، بلهجة حيّيه وصوت خفيض يغلبه الحياء ربّما والاستحياء، إذ قال: يبدو أننا لن نتمكّن من

طباعة هذا الكتاب وإنجازه قبل الأول من أيار سنة ١٩٧٤ موعد الذكرى الخامسة والعشرين لتأسيس الحزب. فسألت باستغراب: وما هو المانع الذي يحول دون ذلك؟

أجاب بنفس متقطّع وبصوت يكاد لا يُسمع: المطابع طلبت من الدكتور خليل بضعة عشر ألفًا من الليرات اللبنانية لقاء إنتاج الكتاب، ونحن لا نملك ألفًا واحدًا من هذه الألوف المؤلّفة من الليرات!

قلت في عفويّة وشبه تأكيد: حسنًا، لا تهتمّ كثيرًا للأمر، واعتبر الموضوع منتهيًا.

ابتسم وقال: كيف نعتبر الموضوع منتهيًا ونحن لم نتّفق بعد على التفاصيل؟

فقلت بتأكيد وإصرار: سوف أتولّى أنا إنتاج الكتاب. سنشتري الورق المطلوب والكرتون للغلاف، وسندفع بالنصّ إلى المطبعة التي امتلك نصف أسهمها (مطبعة البيان)، وسيكون الكتاب مجلّدًا وجاهزًا للتوزيع قبل الأول من أيار المقبل.

انفرجت أساريره فقال: وماذا تطلب منّا في المقابل؟ أيّ ضمان أو ضمانة؟ وهل تحبّ أن نوقّع لك سندًا بالمبلغ؟

فقلت: لم نتحدّث عن أيّ مبلغ. ولن أتقاضى منكم إلاَّ التكلفة المحدّدة: ثمن الورق والكرتون، وأجرة الصفّ والطباعة. وأنا لا أبغي أيّ ربح من وراء هذا العمل. وأضعف الإيمان أن نؤدّي مثل هذه الخدمة البسيطة لكم وللحزب الذي ترأسون وترعون.

لم يصدّق بادئ الأمر، فعاد وسأل: هل تمازحني؟ أم هل تتكلّم الجدّ والصدق؟

فقلت: أنا لا أمزح. فالصدق هو سبيلي الوحيد في الوفاء بكلّ التزاماتي إزاءك. أمّا الضمانة فنحن من يُطلب منه، ربّما، تقديمها وخطّيا لكم بأن ننجز العمل المطلوب في الموعد المحدّد المضروب.

وعندما بدا أو تراءى أنه لم يقتنع بعد بما أقول عدت إلى الحديث فقلت: ألم تحدّثني مرارًا، يا كمال بك، عن القرية الشوفية الوادعة التي لم يقع فيها حادث سرقة واحدة، وحتّى لا حادثة سطو على ثمرة بستان أو عنقود عنب... وحيث مشترى الأملاك والبيع يتمّ بالقول دونما حاجة إلى سند أو «حجّة»... وحيث يمدّ الناس بعضهم البعض بالمال والاستقراض لقاء شعرة من شارب الرجل المعني بالأمر؟!

ساد الصمت الغرفة للحظات، ثمَّ أضفت قائلاً: إنَّ شعرة من شاربك تساوي الكون كلّه بالنسبة إليّ. لذا فالضمانة الوحيدة ستكون الصدق في القول والأمانة في التعامل والمعاملة.

وأضفت: ألست أنت القائل: "شهادة الصادق صدقه، وشهادة الأمين أمانته، وشهادة الوفيّ وفاؤه".

وما أن وصلت إلى هنا حتّى أشرق وجهه وانفرجت أساريره وارتسمت تباشير السعادة الداخلية على محيّاه، فنظر إليّ وخاطبني بالقول: سبحان من وهبك هذا العقل الراجح، وهذا الطبع الهانئ الهادئ... فلكلّ مشكلة حلّها عندك. بارك الله فيك وأراحك في حياتك وأيامك...

أضفت عندها قائلاً: قال الإمام علي بن أبي طالب، عليه السلام: "ربّي، إذا وهبتني العقل فماذا حرمتني، وإذا حرمتني العقل فماذا وهبتني؟".

وأطلق ثلاثًا من تلك الكلمات التي كان يحلو له أن يردّدها كلّما ارتاح لأمر، أو لنصّ، أو لبيت من الشعر مأثور، فردّ قائلاً: صحيح... صحيح... صحيح...

وانصرفنا صديقي خليل أحمد خليل وأنا إلى العمل متعاونين، متكافلين، متضامنين، فأنجزنا كتاب "ربع قرن من النضال" قبل موعد الاحتفال بذكرى مرور ربع قرن على تأسيس الحزب التقدّمي الاشتراكي بعدما قام "المعلّم"، الذي لا معلّم قبله أو بعده، برسم غلاف الكتاب الخارجي.

وفي صبيحة الأوّل من أيار سنة ١٩٧٤ كان ثمّة أكثر من ألف نسخة من الكتاب قد وصلت إلى قاعة الاجتماعات في فندق بوريفاج في الرملة البيضاء لصاحبه الغيور حسن هرموش يعاونه في الإدارة نجله يوسف وصهره حكمت العيد على ما أذكر، حيث كان يتمّ الاحتفال بذكرى مرور ربع قرن على تأسيس الحزب التقدّمي الاشتراكي.

وكان كمال جنبلاط من اشترى النسخة الأولى من الكتاب ووضع في سلّة جهّزها الدكتور خليل على مدخل القاعة للمناسبة مئة ليرة زرقاء... وكرّت السبحة، وكنت أنا في عداد من اشتروا نسخة منه... ولم ينفضّ عقد الاحتفال إلاَّ وكان قد بيع من الكتاب أكثر من ألف نسخة تمَّ تسديد التكاليف من أصلها، وبقي مبلغ لا بأس به لصندوق الحزب. كما

بقي ثمّة ألفي نسخة منه للبيع والتوزيع في ما بعد على الفروع الحزبية والقرى والبلدات العامرة بالمكرمات وروائع الأخلاق والتقاليد والعادات.

أمّا من تجرّأ واستعار «الربع قرن» ليجعل منه عنوان كتاب كان يجمعه وكمال جنبلاط، فقد كان عليه أن يحترم نفسه أولاً، وأن يلتزم القواعد الآتية:

أولاً ـ أن يصرّح للناس وأن يصارحهم: كم كانت ثروته المادّية، ومقتنياته المنقولة وغير المنقولة، يوم بدأ ربع القرن المعني، وانتسب إلى الحزب؟ وكم بلغت ثروته، من أملاك وأموال مع انقضاء ذاك الربع قرن؟ وما هو مقدار الأموال التي جمعها نتيجة الحرب المدمّرة التي اجتاحت ربوع لبنان وسقط فيها عشرات، بل ومئات ألوف القتلى والضحايا والشهداء الأبرياء. وما هو نوع التجارة التي مارسها حتّى تمكّن من جني الثروة الطائلة التي يملكها في أيامنا هذه؟!

ثانيًا ـ لم يأتِ ذاك الكتاب بأيّ جديد. ولا بدا لنا أنَّ ما تضمّنه يستحقّ الردّ أو الوقوف عنده. فالكاتب أو المؤلّف حافظ من خلاله على أداء الدور الذي مارسه في كتاب إيغور تيموفييف: «كمال جنبلاط: الرجل والأسطورة»، ألا وهو تحميل كمال جنبلاط كلّ أخطاء وارتكابات النظام الدمشقي في لبنان في السياسية اللبنانية.

وزاد على ذلك أنه تجرّأ في هذا الكتاب ومن خلاله، أكثر وأكثر... فحاول تلقين كمال جنبلاط ـ حتّى بعد استشهاده المضيء بنحو ثلث قرن من الزمن ـ دروسًا في الوطنية، وفي حسن أداء السياسة والنضال والعمل العامّ، فاتّهمه بأنه كان يريد الحرب للحرب فيما كان جنابه ضدّها منذ بداياتها... والحقيقة هي نقيض ذلك تمامًا، والشهود على ذلك كثر كثر.

ثمَّ كرّر مرّة جديدة مقولة «الحسم» التي رواها في كتاب تيموفييف على لسان والي الشام، ثمَّ أوردها في كتابه على لسانه هو ـ وكأنَّ اللسانين هما واحد أحد ـ فقال بالحرف في كتاب «الربع قرن»:

«ثمَّ استطردت في حديثي قائلاً لكمال جنبلاط: قلت لك منذ فترة طويلة، وأكرّر الآن ما قلته سابقًا: نحن لا نستطيع أن نحسم كذا... ثمَّ إنَّ الحسم نظريّة خاطئة، فنحن لا نتواجد مع عدوّ، إنَّما نتواجد مع فريق آخر هو خصم لنا في السياسة نعيش معه على أرض واحدة وفي بلد واحد، في مدينة وقرية وأحياء مشتركة. فكيف لنا أن نحسم ضدّه ثمَّ نحكمه؟ أو

كيف له أن يحسم ضدّنا ثمَّ يحكمنا؟ (كذا بالحرف، والله يعلم أنَّ كلّ هذا الزعم هو من نسج خياله)...

ورحم الله امرءًا عَرَف حدّه فوقف عنده. فالكلّ يعرف أنَّ الشخص إيّاه لم يكن يجرؤ على الكلام في حضور مهابة وقامة كمال جنبلاط.

أمّا في كتاب تيموفييف، في الصفحة ٤٢٨ منه بالتحديد، روى الراوي إيّاه ما أسماه حوارًا بين كمال جنبلاط والرئيس حافظ الأسد كالآتي:

"ـ جاء تلفون من البطريرك خريش، وهو لا يزال قلقًا فطمأنته.

ـ لا لا تطمئنه!

ـ لا، يا كمال بك، أنا أطلب منك...

ـ وماذا سأقول للناس في بيروت؟

ـ حمّلني مسؤوليّة. في سبيل السلام لا بدَّ من التضحية.

ـ هذا لا يجوز. أنا أستغرب كيف يقول الرئيس حافظ الأسد نفسه: لن أدعك تحسم. وسأمنعكم، وأؤيّد القوى الانعزالية في لبنان؟

ـ هذا شعبكم وأبناؤكم، فكيف تريدون الحسم؟ تقتلهم ثمَّ تحكمهم؟ هذا لا يجوز.

ـ هذه قوى معادية.

ـ لا، عدوّنا ليس هم. القوّات الانعزالية بعثت لي برسالة تريد أن تدخل معي في اتّحاد فدرالي.

نحن لن ندخل لأنَّ النظام يختلف، ونريد نظامًا آخر".

والمدقّق في النصّين يلاحظ أنَّ العبارات نفسها ترد: إمَّا مرويّة على لسان الرئيس الأسد، وإمَّا منسوبة إلى صاحبنا إيّاه... وهو ما يكشف زيف الدور الذي قام به صاحب "الربع قرنه"، بل وحقيقة هذا الدور المكشوف والمعلوم من الجميع... ولو قَلَب كلام المخاطِب والمخاطَب في الحوار وعَكَسه لصحّ الأمر ولصدّقت الناس بعض ما جاء فيه... ربّما.

أمّا باقي ما ورد في الكتاب المعني من أقوال فمعظمه يخصّ صاحبها وحده، ولا تمتّ إلى الحقيقة أو إلى التاريخ بأية صلة أو نَسَب.

وقد يكون صحيحًا منها ما أورده عن اجتماع عاصف للحركة الوطنية انهالوا خلاله عليه بالاتّهام بأنه مجنّد لخدمة السياسة السورية في لبنان...فنصحه كمال جنبلاط بالسفر، وبالابتعاد عن لبنان، ففعل.

والكلّ يعرف، والذين يعرفون التاريخ والوقائع يعرفون، أنَّ الراوي ارتبط بأجهزة مخابرات دمشق منذ سنة ١٩٥٧، وأنَّ علاقته هناك كانت مع معاون رئيس تلك المخابرات عهد ذاك عبد الحميد السرّاج، ويدعى العقيد برهان أدهم. هذا ما رواه كمال جنبلاط لأكثر من مقرّب ولنا شخصيًّا. وهذا ما قاله لنا ولسوانا الشيخ أمين أبو فخر الدين الذي كان مكلّفًا من كمال جنبلاط الاتّصال بالسرّاج وبأدهم خلال حقبة أحداث سنة ١٩٥٨.

والجدير ذكره هنا أنَّ القائد الشيوعي اللبناني فرج الله الحلو مات تحت التعذيب على أيدي برهان أدهم وبعض معاونيه الذين أوكل إليهم السرّاج مهمّة "التحقيق معه". ثمَّ تولّى أدهم مهمّة تذويب جثّة فرج الله الحلو لإخفاء آثار الجريمة الموصوفة المنكرة...

وما يستحقّ التنويه به، أو عنه، هنا أننا وفي نهايات سنة ١٩٥٩، وبناء لطلب شخصي من كمال جنبلاط، بدأنا ندفع لهذا الشخص إيّاه مبلغ مئة ليرة لبنانية شهريًّا ليتمكّن من تأمين الضروري الملحّ لكفاية العيش...

وأننا، وخلال صيف سنة ١٩٧٥ شاهدناه بأمّ العين، مع العديد سوانا من الأشخاص، يهرول مسرعًا، ذات مساء، نحو منزل السيِّدين حبيب وميشال ثابت الكائن قرب كنيسة الموارنة في بحمدون الضيعة، وهو يتأبّط كيسًا من الورق السميك جمع فيه مبلغ ثلاثين ألف ليرة لبنانية ليشتري منهما قطعة أرض يمتلكانها... فيما كان الناس يذبحون على الهويّة في شوارع بيروت، والضحايا البريئة تتساقط في كلّ حيّ وبيت من أحيائها وبيوتها...

* * *

«الرفيق كمال بك»: مسلسل تلفزيوني؟ أم فولكلور تأريخي... واجتزاء موصوف؟!

«الحرّية ممارسة مناضلة. تنطلق من نفس حرّة وفكر حرّ. بحيث لا يخاف القلم الحرّ سلطانًا مهما علا كعبه. والصحافيّ، في الأصل، رسوليّ في نظرته. يؤثر إيمانه بالحقوق على منافعه من السلطة».

غسان تويني

كان لي صديق اسمه جورج عبد الله غانم، والده عبد الله صحافي منشئ مجلّة «صنّين»، وكاتب وشاعر من بلدة بسكنتا، جارة صنّين.

كان جورج أديبًا وشاعرًا، وقبل هذا وذاك كان إنسانًا خلوقًا. إنسان صادق وشريف، صادق مع نفسه ومع الآخرين. في تلاويح وجهه وجبهته الكثير من شموخ صنّين، وفي أعماق قلبه ووجدانه بصمات من نقاء بياض ثلجه.

يوم تسلّم كمال جنبلاط وزارة التربية الوطنية عام ١٩٦٠، كان جورج عبد الله غانم مدير مكتب الوزير. حاول المغرضون إبعاده واستبعاده، مع زميل له في المكتب اسمه إيلي خير الله من بلدة العدرا في كسروان. لكنّي تدخّلت يومها، وأقنعت الوزير الشاب، صاحب الرؤيا الشاملة والقلب الكبير، بالإبقاء على جورج وإيلي مساعدين له، فباتا له أكثر من مساعدين. أخلصا للمهمّة وللوظيفة ولمن منحهما ثقته فعملا معه بصدق واندفاع، وسهّلا له وأمامه سبل التعاون المجدي مع موظّفي الوزارة كبارًا وصغارًا في الرتبة والمرتبة. فاستحقّا الشكر والثناء مع نهاية تولّي كمال جنبلاط مهام وزارة التربية الوطنية وتسلّمه وزارة أخرى هي وزارة الداخلية.

في نهايات عام ١٩٧٦، وبعد تهجّرنا من بلدتنا الدامور، أصبح جورج عبد الله غانم جارًا لي في بلدة قرنة شهوان المتنية. كنّا نلتقي صباح كلّ يوم تقريبًا في مكتبة مجاورة لمقرّ سكنه، صاحبها من بسكنتا أيضًا، نشتري الصحف ونطالعها، ويسأل واحدنا الآخر عن شؤون الحرب القذرة وشجونها، وعمّا ننتظر مع أولادنا... وعن المصير القاتم والمجهول

الذي يقودنا إليه من تنطّحوا وتقدّموا الصفوف وكانوا ـ أو كان معظمهم ـ كمن يقود حفلات مصارعة الثيران في حلبات الأندلس الجديد: إسبانيا...

وكرّت الأيام، وضاقت بالناس سبل العيش الهنيء السويّ، فارتفع سعر صرف الدولار، وانعدمت جدوى قيمة الليرة اللبنانية الشرائية... فتضايق جورج وضاقت بنا جميعًا مساحة الرؤية والكفاية... فانفجر دماغ جورج. ولمحت اسمه ذات صباح معلّقًا على ورقة نعوة، قرب المكتبة، على مدخل المبنى الذي كان يقيم فيه، فبكيته بصدق وصمت، وافتقدته كثيرًا جدًّا، والإنسان الصادق الخلوق هو كالنقد النادر، أو كالعملة الصعبة، في زمن الانحدار والضياع.

أمّا جورج غانم الآخر، الإعلامي في المؤسّسة اللبنانية للإرسال (L.B.C) فلم أكن أعرفه شخصيًّا قبل سنة ٢٠٠١. بلى، كنت أتابعه أحيانًا يقدّم نشرة الأخبار، بأسلوبه المتفرّد، وأُعجب وأُفاجأ كلّما قدّمت المذيعة كارلا حدّاد النشرة الجوّية أو نشرة الطقس، في نهاية نشرة جورج، بتلك الابتسامة البلهاء التي ترتسم على محيّاه، وكأنه مراهق معقّد تصدمه ثياب كارلا وتسريحة شعرها «المتقدّمة» ربّما...

إلى أن كان العام ٢٠٠١ حين جاءني نجلي مروان، الذي كان يعمل في «الفضائية اللبنانية» التي كانت ملكًا للأ ل.بي.سي، ينبئني بأنَّ جورج غانم طلب أن يزورني لأمر ما يتعلّق بكمال جنبلاط. استقبلته المرّة الأولى في منزلنا في قرنة شهوان مرحّبًا، فأعلمني أنه يعدّ لإطلاق وثائقي تاريخي عن كمال جنبلاط من حلقتين، لكنّه لم يكن بعد قد أحاط بسرّ الرجل ولا بحيثيّات الموضوع، على الرغم من أنه قد اجتمع بكثيرين والتقى بمن قيل له أنهم يعرفون كلّ شيء عن كمال جنبلاط ومسيرة حياته ونضاله.

كنت خلال اللقاء الأول مستمعًا أكثر منّي متحدّثًا. فلقد أردت أن أتعرّف عن قرب إلى شخصيّة هذا الإعلامي المراهق الذي يبتسم «غير شكل»، ويتصرّف على الشاشة بما يوحي أنه يعاني ربّما من أزمات نفسانية بالغة التعقيد. وخرجت بعد اللقاء الأول الذي دام حوالي ساعتين بانطباعات غير مشجّعة ولا تدعو إلى الثقة والاطمئنان، بأن أسلّم ما أملك من معلومات وأسرار عن كمال جنبلاط لهذا الشخص الذي لمست من خلال كلامه المتدفّق، اللاواعي أحيانًا، أنه شمعونيّ «الهوى» (فخامة الملك) «حلو» الميول والخصال (فخامة الكلمة) دعيٌّ متشاوف يتصرّف وكأنه يعرف كلّ شيء عن كلّ شيء، وهو يكاد أن

لا يعرف شيئًا عن أيّ شيء في النهاية... وعلى الأخصّ حقائق الأمور وجوهرها، فيكتفي منها بالقشور وهوامش الأمور...

رجوت ابني مروان أن يعفيني من هذا المنزلق الذي كنت في غنى عن ركوب تعرّجاته. فأنا في النهاية أريد أن أحتفظ بما أملك عن الرجل الذي أحببت ورافقت لأضمّنه كتابًا كنت قد وعدته بكتابته ونشره عندما تسمح الظروف ويحين موسم القطاف والغلال والجنى. لكنَّ جورج غانم عاد وألحّ على مروان بتدبير لقاء ثانٍ معي، وكان نجلي المحبّب إلى قلبي يعرف منزلته عندي، فوافقت على مضض. والتقينا في مقهى قائم في «سانتر سانت إيلي» في ساحة إنطلياس.

صارحت الإعلامي اليحشوشي، الكسرواني الأُفق والمدى، بأنني أرغب في تسهيل مهمّته من زاوية وفائي لكمال جنبلاط وصدقي في رفقته، لذا فأنا على استعداد لأجيب عن كلّ أسئلته تنويرًا له وإسهامًا منّي في سعيه لفهم الرجل وتفهّم أفكاره وسيرة حياته، وليس طلبًا منّي أو حبًّا في أن أظهر في برنامجه الذي يعدّه لتقديمه من على شاشة التلفاز، واتّفقنا على موعد للتسجيل.

وفي الموعد المحدّد جاءنا ومعه فريق عمله، المخرج ابن بلدتنا الدامور ونسيبنا جان عون والمصوّرون وكلّ عدّة الشغل. وراح يسأل، ويسأل، عن محظور وغير محظور، عن معلوم وغير معلوم، ولم أبخل عليه بأيّ جواب. رغم أنَّ نجلي مروان الجالس في مواجهتي، أو وجهًا لوجه كما يقال، كان يعضّ أحيانًا على شفتيه أو يشير بإحدى يديه عليّ بألاَّ أجيب خشية الإحراج أو إغضاب هذا أو ذاك. اتّفقنا على نصف ساعة فسجّل معي ساعتين وأزود. وخرج من اللقاء مزهوًّا كالطاووس عندما ينفخ و«ينفش» ريشه، وهو غالب في حلبة مواجهةٍ أو عراك...

ومرّت السنون. وقيل يومها إنَّ سلطة الوصاية «الشقيقة» والوكيلة عنها عندنا أوصتا بعدم تقديم المسلسل لأنه عن كمال جنبلاط، والعلم عند القيّمين وأهل الغيب...

... إلى أن كان الرابع عشر من شباط ٢٠٠٥، فزلزل الزلزال واغتيل الرجل الكبير رفيق الحريري بذاك الطابع المأساوي الوحشي «الشكسبيري»... ثمَّ حلّ الرابع عشر من آذار وقال شعب لبنان كلمته: نحن نريد الحياة لا الموت، والحرّية لا الاستعباد والاستذلال، وحكم الحديد والنار. وخرج «الإخوان» في نيسان، وبدأت صفحة جديدة من تاريخ بلادنا

تُكتب بدم قانٍ يسيل من أجساد أحرار، إمعانًا في الترهيب ومحاولات التعتيم والتجهيل والترويض...

وفوجئنا في بداية كانون الأول سنة ٢٠٠٥ بصوتٍ وصورة من على شاشة التلفاز "الضاهري ـ الغانمي" تنبئ وتعلم أنَّ مسلسل "الرفيق ـ البك" سيبدأ بالظهور... فلا أعلمنا "الغانم" ولا اتّصل بنا ولا وضعنا في أجواء الصورة ـ أيّة صورة، فبدأت خشيتنا من أن تودي بنا نفخة "الخبرة والخبر" إلى ما لا يوحي بأيّة خبرة أو خبر أو إخبار... والعلم عند الذين يتقنون مهنة الإخبار والاستخبار، أو الذين وصفهم شاعر العراق بدر شاكر السيّاب تحت عنوان "المخبر"، فقال: "أنا كلّ ما تشاء، أنا الحقير، مسّاح أحذية العبيد"...

بُثَّت الحلقة الأولى فقلنا: لا بأس، ننتظر ونراقب فلعلَّ وعسى. إلاَّ أنَّ ابننا مروان جاءني بخبر يقول إنَّ اثنين من أبناء الظلمات اتّصلا بالغانم إيّاه ونصحاه بأن لا يظهرني بعد في مسلسله، فخرّيجو الأنفاق والدهاليز والعتمات يخشون كثيرًا أبناء النور المتسلّحين بقولة حقّ وسعي وراء حقيقة، فالحقّ والباطل، كما النور والظلمة، ضدّان لا يلتقيان إطلاقًا.

تمنّيت من ربّي أن يفعل صاحبنا ذلك فيريحني ويحرّرني من كلّ هواجسي، لكنّه أكمل بثّ الحلقات. وفي الثالثة منها بدأت رحلة الاجتزاء والإخفاق فراح يقدّم أو يؤخّر، يلغي أو يحشر، وكأنَّ الصدق والمصداقيّة والوضوح في الرؤية وممارسة مهنة الإعلام على حقيقة ما يجب أن تكون: رسالة أو وسيلة لإيصال الحقيقة إلى الناس ليست من عالمه وقاموسه، أو كأنَّ بينها وبينه شبه عداء. قدّم في الحلقة الثالثة صورة لكمال جنبلاط مع البطريرك الماروني بولس المعوشي أخذت في الواقع عام ١٩٦٢، وقال إنَّها تعود إلى يوم سعى الكمال لدى البطريرك المهاب في موضوع لجوء الصحافي توفيق المتني إلى بكركي الذي تمَّ في ١٥ أيار سنة ١٩٥٨. ولا رابط بين الصورة وموضوع اللجوء الذي لم يكن لكمال جنبلاط فيه أيّ سعي أو مسعى. فعلاقة الصحافيين نسيب وتوفيق المتني مع الصرح البطريركي والبطريرك عريقة وراسخة، وأخويّة وبنويّة، ومقالات الخالين الأخوين في الدفاع عن مواقف الصرح وسيّده معروفة ومشهودة.

ثمَّ جاء تقديمي بالصورة والصوت لأشرح حكاية اللجوء فكانت كالآتي: "طلعنا لعند البطريرك المعوشي وقلنالو: القصّة يا سيّدنا كذا وكذا وكذا فلا أجاب بنعم أو لا... إلخ" ولم يفهم الناس المتابعون للتلفاز "الضاهري ـ الغانمي": لا ما هي القصّة، ولا ما كان

الموضوع. فقدّمني إلى المشاهدين كمن يتحدّث في الألغاز، أو كمن لا يملك الجرأة للإفصاح عن حقائق الأمور. ويشهد الله أنَّ تلك هي بعض من صفات ألغانم جورج ولم تكن يومًا أسلوبي أو طريقتي في مصارحة الناس وقول الحقيقة مهما كانت مرّة وجارحة. فعل جورج ذلك ليتحاشى إيراد ما كنت قد شرحته له خلال التسجيل الصحيح الكامل الوافي من أنَّ الرئيس كميل شمعون أوفد إلينا النائب إميل البستاني وطلب منّا إمّا وقف "التلغراف" عن الصدور أو ملاحقة توفيق المتني واعتقاله... فكان خيارنا الاستمرار في إصدار جريدة نسيب المتني الذي كان قد اغتيل قبل أيام، وتحمّل كلّ العواقب والنتائج، وقرّرنا أن نطلب لجوء خالي توفيق إلى بكركي وزرنا البطريرك المعوشي فاستجاب لتمنّينا واستضاف توفيق المتني في الصرح البطريركي لمدّة أشهر معزّزًا مكرّمًا كما هي عادات وتقاليد بكركي وبطريركها الكبير...

والاجتزاءات في مسلسل الغانم كثيرة وعديدة لكنّني أورد وأحتجّ وأشهّر بما كان منها أشدّ إيلامًا وأكثر فظاظة، وانعدام صدق ومصداقيّة، ليس بالنسبة إليّ شخصيًّا وحسب، بل بما تفرضه مهنة الصحافة والإعلام من الأمانة والصدق في السعي إلى إيصال الحقيقة والوقائع والمعلومات إلى الناس، فذلك واجبنا وهو حقّ لهم علينا ولا يمكن لأيّ دخيل على المهنة ـ الرسالة أن يهضمه أو يقضمه أو يبتلعه...

واقعة أخرى من الاجتزاء والافتراء آلمتني وأحرجتني بقدر ما أساءت إلى الرجل الكبير الذي نحيّي سيرته ومسيرته النضالية من خلال مسلسل "الرفيق كمال بك"، الذي طلب جورج غانم مشاركتي واشتراكي في حلقاته ووقائعه وحقائقه بإلحاح.

وما حصل في الحقيقة والواقع أنه وخلال التسجيل الذي أُجري معي، أو في منتصفه على الأرجح، لم يرُق الأسلوب المحبّ والصادق والوفيّ الذي كنت أتحدّث به عن سيرة ومسيرة كمال جنبلاط، لم يرُق للغانم الذي لم يكن يكنّ للرجل الكبير أية محبّة أو ودّ فواجهني بسؤال استفزازي قال فيه: أراك تتحدّث عن كمال جنبلاط بحبّ ومحبّة وتأييد لمواقفه. ألستَ حاقدًا عليه لأنه هجّركم من بلدتكم الدامور عام ١٩٧٦؟!

واستفزّني السؤال وآلمني كثيرًا. ويشهد الله أني لم أكن أنوي الحديث عن مأساة الدامور أصلاً لأنها ليست من صلب موضوعنا... فأجبت بوضوح وإصرار: ليس لكمال جنبلاط أية علاقة بقضيّة تهجيرنا من الدامور. الذي اتّخذ القرار باحتلال الدامور كان

الرئيس السوري حافظ الأسد، ولقد قام بتنفيذ المهمّة لواء ينتمي إلى الجيش السوري النظامي اسمه «لواء اليرموك» دفعت به القيادة السورية إلى الأراضي اللبنانية، لكنَّ أفراد هذا اللواء هم من الفلسطينيين.

ثمَّ تحدّثت عن مساعٍ قمنا بها مع قائمقام الشوف عهد ذاك لدى كمال جنبلاط في محاولة لإنقاذ الدامور قبل وقوعها في شرك وشباك التهجير والاحتلال. وكيف تمنّينا على كمال بك إجراء اتّصال هاتفي مع الرئيس كميل شمعون في سعي لفتح طريق الدامور التي كانت مغلقة بأمر شخصي منه، وكان مقيمًا في السعديّات، وكيف أنَّ الجواب جاء سلبيًّا وأدّى إلى ما أدّى إليه في نهاية الأمر...

لكنَّ جورج غانم قدّمني في هذا الجزء من مسلسله غير الوثائقي، وغير الصادق، وغير الأمين على الإطلاق... قدّمني على النحو الآتي: «طلعنا أنا والقائمقام فاضل حمويه لعندو... اتّصل فيه وقلّو: هيدي مش طريق الشوف، هيدي طريق الجنوب والفلسطينيي». ثمَّ أورد مشيرًا إلى الجواب القول: «اتطلعت فيه لقيت وجّو معبّق!».

هكذا بالتمام، وحتّى لا يذكر جورج غانم اسم كميل شمعون في الموضوع، وهو أساسي، قدّمني الشخص وكأنني شخصه بالتمام والكمال، أبله أكتع لا يحسن القول ولا الكلام فألبسني لبوسه وأخرسني خروسه، وخلع على شخصي ما يكتنف شخصه من عقد وتعقيد.

وفي هذا جانب جورج غانم الحقيقة في كلّ أمانتها وقدسيّتها. فلا فهم الناس إلى من قصدنا (لم يذكر اسم كمال جنبلاط) ولا مع من اتّصل وتكلّم (لم يذكر اسم كميل شمعون) ولا ما كان جواب الثاني على طلب الأول وتمنّيه عليه فتح الطريق لتجنّب الأعظم والأظلم والأسوأ.

وهكذا يكون أسلوب جورج غانم في التعتيم والاجتزاء والتعمية والباطنيّة وازدواجيّة الشخصية، الذي يعيشه ويتقنه ويمارسه، ومجانبة الصدق والمصداقيّة والأمانة في نقل الخبرة والخبر وإيصال الحقيقة إلى الناس قد بلغ ذروته. حاولت أن أحتجّ وأبلغ غضبي إلى الناس فكتبت في صحيفة «الأنباء» أكثر من مقال، وفي الكتاب الذي أصدرته «الدار التقدّمية» في ذكرى استشهاد كمال جنبلاط في السادس عشر من آذار سنة ٢٠٠٧ و٢٠٠٨ (الذكرى

الثلاثون) في محاولة للتصحيح والتوضيح في أكثر ما اعتور وتخلّل مسلسل غانم من حشو واجتزاء ومحاولة تعتيم وتحوير لحقيقة مضمون الأحداث وتوجّهاتها... فكانت النتيجة أنَّ جورج غانم أبقى على بعض اجتزاءاته ثمَّ حذف العديد من المقاطع والجمل والمواقف التي كانت موضوع نقد وتصويب منّي من الشريط المعدّ للبيع وللتوزيع في لبنان وأنحاء عالم الانتشار اللبناني... فبقيت التجارة مقصده والاجتزاء السمج المسيء أسلوبه، والعقد والتعقيد والتمويه طمسًا لحقيقة وقائع التاريخ منهجه في العمل الإعلامي الذي يفترض أن يبقى رسالة لا تجارة، وسعيًا وراء الوصول إلى الحقيقة بهدف نشرها وإيصالها إلى الناس كما هي دون تحريف أو تخريف.

ونحن في مسيرة نضالنا كلّها توخّينا قول الحقّ والوفاء للمبادئ وللصدق وللأخلاق، وليس لأشخاص وأسماء أيًّا كانوا ومهما عظمت رتبهم وعلا مقامهم.

ونكتفي بهذا القدر، فنحن لا نريد تكرار ما كتبناه حول هذا الموضوع في الصحف؛ فالرسالة وصلت، وهدفنا أولاً وأخيرًا التصحيح والتوضيح حتّى لا تلتبس الأمور على الناس، فيأخذون الصادق والأمين بجريرة من يلبس لكلّ حالة لبوسها، ومن يتقصّد التمويه والتعتيم على الحقائق والوقائع التي تبقى ملك الحقيقة والتاريخ.

ويقع جورج غانم أحياناً في أخطاء ومغالطات فاضحة نتيجة الانتفاخ بظاهرة "الخبرة والخبر" كقوله في مقابلة أدلى بها إلى "أنباء الشباب" بتاريخ ١٧ آذار سنة ٢٠٠٩ إذ قال: "إنَّ بيت جنبلاط في الجبل هو بيت سياسي عتيق وعريق تعرّض في العشرينات إلى نكسة كبيرة بعد موت بشير جنبلاط، إلاَّ أنَّ الستّ نظيرة والدة كمال جنبلاط كان لها دور كبير في الحفاظ على الزعامة وانتقالها إلى كمال جنبلاط"...

والصحيح أنَّ الستّ نظيرة حافظت على زعامة آل جنبلاط بعد مقتل زوجها فؤاد بك جنبلاط سنة ١٩٢١ وهو والد كمال جنبلاط، في حين أنَّ جدّ فؤاد بك بشير جنبلاط مات قتلاً لدى والي عكّا أحمد باشا الجزّار في القرن التاسع عشر وليس في القرن العشرين...

والأخطاء والمغالطات في أقوال جورج غانم الإعلامي عديدة ومتنوّعة، وليس أقلّها تنبّؤه مع شقيقه مارسيل بفوز قوى الثامن من آذار في الانتخابات النيابية التي جرت في ربيع عام ٢٠٠٩، وبسقوط نديم بشير الجميل وسامي أمين الجميّل ونايله تويني وسواهم في

برنامج "الخبرة والخبر" الذي قدّماه عشيّة صدور نتائج الانتخابات من على شاشة المحطّة اللبنانية للإرسال L.B.C، وشكّل فضيحة كبرى لموقع وسمعة الشقيقين، ولانزلاقهما أحيانًا في متاهات بعيدة كلّ البعد عن "الخبرة والخبر" والنمط الإعلامي الموضوعي الموثّق...

* * *

من هفوات خليل أحمد خليل

في كتابه: «مع كمال جنبلاط»

أصرّ صديقنا الدكتور خليل أحمد خليل على تسمية كمال جنبلاط في كتابه الأخير «مع كمال جنبلاط» بـ«أمير النار». وأنا أفضّل أن يطلق على «المعلّم» لقب «أمير النور» فهو يليق به أكثر...

وأورد الدكتور خليل في كتابه أنَّ النائب والوزير الأسبق علي بزّي هو ابن شقيقة العلاّمة السيّد محمّد حسين فضل الله. والصحيح أنَّ علي بزّي هو خال العلاّمة فضل الله. وأورد أنّ حسن هرموش هو من أهدى كمال بك سيّارة المرسيدس الزيتية التي تسبّبت بأزمة. والصحيح أنَّ من أهدى المرسيدس إلى كمال جنبلاط هو سامي عسّاف من بلدة نيحا الشوفية. وكان شريك حسن هرموش في استثمار فندق كارلتون الكويت لصاحبه عبد العزيز المساعيد (أبو يوسف) النائب في مجلس الأمّة الكويتي وصاحب جريدة «الرأي العامّ» الكويتية.

وأورد خليل في الصفحة ٨٢ من كتابه أنَّ كمال جنبلاط أسقط كميل شمعون في انتخابات سنة ١٩٦٠ الذي لم يعد إلى مقعده البرلماني إلاَّ سنة ١٩٦٨. والصحيح أنَّ شمعون ترشّح سنة ١٩٦٠ عن دائرة المتن الشمالي وفاز، وترشّح سنة ١٩٦٤ عن دائرة الشوف وخسر مقعده.

وقال خليل في الصفحة ١١٤ من كتابه: «بعد انتخابات سنة ١٩٦٨ المظفّرة توفّر في صندوق الحزب مبلغ ٤٠ ألف ل.ل. فقرّر «المعلّم» إصدار «الأنباء» بالفرنسية مع العربية أسبوعيًّا. وهذا القول يخالف الواقع كليًّا. فطوال مدّة تسلّمي مسؤوليّة الأنباء التحريرية والمادّية (١٩٥٩ ـ ١٩٧٥) لم تستلف «الأنباء» من صندوق الحزب ليرة لبنانية واحدة، بل العكس هو الصحيح. وقال خليل في الصفحة ذاتها إنَّ خليل عبد النور النائب بعد شقيقه سالم هو حمو كريم بقرادوني. الصحيح أنَّ إدمون الناشف، صهر سالم وخليل هو حمو البقرادوني.

أمّا عجز «الأنباء» باللغة الفرنسية، التي توقّفت بعد سنة ١٩٧٠، فلقد بلغ زهاء أربعين ألف ل.ل. فقد تولّيت أنا سداده، وبقي في صندوق «الأنباء» وفر قدره أربعين ألف ل.ل. أمّا التبرّعات التي جمعها النائب الأسبق عبد الله الغطيمي (١٣ ألف ل.ل.) فقد ذهبت إلى صندوق الحزب وليس إلى صندوق «الأنباء».

أمّا الذين تولّوا مهمّة رئاسة التحرير والمدير المسؤول في «الأنباء» منذ تاريخ صدورها سنة ١٩٥١ وحتّى سنة ١٩٥٨ فهم: كامل العبد الله، موريس صقر، إيلي مكرزل، مارك رياشي، ديب درغام وعصام كرم. وكان سكرتير التحرير هو عزت صافي. أمّا عند إعادة إصدارها في نهايات سنة ١٩٥٨ فتولّى عزّت صافي وفايق الرجّي مهام التحرير وعزيز المتني المدير المسؤول. ثمَّ تولّى المتني مهام التحرير والإدارة منذ شباط ١٩٥٩ وحتّى شباط ١٩٧٥. ثمَّ تولّى عامر مشموشي مهمّة المدير المسؤول وشارك في التحرير. وسنة ١٩٧٧ وما قبلها تولّى رشيد حسن مهمّة إدارة التحرير. وبعد رحيل كمال جنبلاط تعاقب على إدارة التحرير: سامي ذبيان، خليل أحمد خليل، غازي العريضي وبسّام ضوّ. وربيع سنة ١٩٨٩ عاد عزيز المتني مديرًا مسؤولاً وما زال حتّى تاريخه. وتولّى إدارة التحرير بعد إعادة إصدار «الأنباء» مجدّدًا بسام ضو فرامي الريّس الذي ما زال حتّى تاريخه مفوّضًا للإعلام ورئيسًا لتحرير «الأنباء». أوردنا الأسماء حسب التسلسل التاريخي تصويبًا للأمور ولو لمرّة واحدة.

في الصفحات ١٢٨ إلى ١٣١ من كتابه ظلم صديقنا الدكتور خليل صديقًا لكمال جنبلاط ولنا شخصيًّا هو المرحوم عارف يحيى الذي ربطتنا به وبعائلته الكريمة أواصر الأخوّة والصداقة والعشرة الحلوة. وما أورده خليل في آخر هذه الصفحات من أنَّ الطيران الحربي الإسرائيلي قصف سنة ١٩٨٢ فندق «مونتانا» في عاليه و«بيروت أنترناسيونال» في بيروت (محلّة الرملة البيضاء) اللذين كان يستثمرهما الشيخ عارف يحيى، ثمَّ قامت فرقة من الكوماندوس من جيش العدوان بتفتيش مكاتب فندق بيروت بحثًا عن وثائق ما، هو شهادة لعارف يحيى على وطنيّته الصادقة الموروثة والمورّثة للعائلة.

ونكتفي بهذا القدر، فلقد كتبنا شهادة حقّ في الأخّ عارف ستنشر في كتاب خاصّ به وعنه يجهد نجله إميل والزميل عامر مشموشي على إعداده وتنسيقه، ويتضمّن شهادات عن عارف يحيى صاحب الوجه الباسم أبدًا وصاحب الخلق الرضيّ والعشرة الحلوة المحبّبة.

وقال خليل في الصفحة ١٥٥ من كتابه: خاض كمال بشجاعة معركة الحرّيات

السياسية في وزارة الداخلية وأقدم على حلّ «الجهاز المشترك» بقرار منه وعلى مسؤوليّته القانونية والسياسية. وكان الأصحّ أن يقال هنا إنَّ وزير الداخلية كمال جنبلاط أصدر قراره بحلّ «الجهاز المشترك» بعدما زوّده صديقاه أنطوان بارود وروبير عبده غانم مستشارا الدولة اللبنانية في وزارة العدل (مصلحة الاستشارات والقضايا القانونية) بفتوى قانونية تقول إنَّ من صلاحيّة وزير الداخلية إصدار قرار بحلّ هذا الجهاز، وإنَّ الأمر لا يتطلّب قرارًا من مجلس الوزراء مجتمعًا كما ذهبت بعض النظريّات والاجتهادات الأخرى.

وقال خليل في الصفحة ١٥٧ من كتابه: «إنَّما السرّ أو القطبة الخفيّة في ما حدث لكمال جنبلاط صيف ١٩٧٠، وقوامه وزير الدفاع السوري حافظ الأسد طلب من الرئيس جمال عبد الناصر أن يحثّ كمالاً على تأييد سليمان فرنجيّه ضدًّا على الياس سركيس. وكما ذكرنا كان طلب الرئيس أمرًا لا يُرَدّ عند كمال جنبلاط». وهذا الاستنتاج مناهض للحقيقة كليًّا، فكمال جنبلاط لم يكن يتلقّى أوامر من أحد ولا ينفّذ أوامر أحد، أيًّا كان ومهما كان. ولقد أوردنا في هذا الكتاب «سرّ» موقف «المعلّم» من انتخابات الرئاسة عام ١٩٧٠. ولعلّ أبلغ ردّ على استنتاج خليل هذا هو ما أورده خليل في الصفحة ١٥٦ من كتابه حين قال: «حين سألت كمالاً عن سرّ موقفه هذا لم يجبني ونصحني بالبحث عن الحقيقة بنفسي». فلماذا التأويل الخاطئ إذًا؟ والتجنّي على كمال جنبلاط بالقول: «إنَّ طلب الرئيس عبد الناصر كان أمرًا لا يُرَدّ عند كمال جنبلاط»؟!

أمّا ما أورده خليل في كتابه حول الانتخابات الفرعية التي جرت نتيجة وفاة النائب أنور الخطيب فهو يفتقر إلى الدقّة. فلقد حَسَم كمال جنبلاط مسألة الخلافة في الكلمة العاطفية الرفيعة التي رثى بها أنور إذ قال: سنجد في بيت أنور من يخلفه. ولم يقل في العائلة أو في شحيم أو في الإقليم... وهو ما فاجأ اثنين على الأقلّ هما صهر الراحل المهندس منير الخطيب والقاضي منيف عويدات الذي كان يأمل أن يرشّحه «المعلّم» بعد أنور.

والإشكاليّة التي واجهت كمال جنبلاط هي أنَّ المرشّح المنافس لزاهر الخطيب حسن القعقور لم يكن مرشّح كميل شمعون وحسب، بل كان خال اللواء أحمد الحاجّ رئيس رابطة أصدقاء الرئيس فؤاد شهاب حاليًّا.

وفي اللقاء التشاوري الذي عقده رئيس جبهة النضال الوطني ليلة عيد الميلاد عام ١٩٧٠ في منزله ببيروت، وكنت أنا من المشاركين فيه، فوجئ كمال جنبلاط بأنَّ من أراد

الوقوف على رأيهم أجمعوا على خطورة الانتخاب الفرعي الذي سيفقده أصوات الشهابيين في منطقة الشوف وبالتالي قد تتسبّب في خسارته للمقعد السنّي الذي شغر بوفاة نائب رئيس الحزب أنور الخطيب. لكنّي، وبعد انتهاء الاجتماع خالفت رأي الحضور وطمأنت «المعلّم» إلى أنَّ المعركة ستكون رابحة وسهلة إذ إنّ شيئًا يذكر لم يتغيّر على الأرض. ويكفي أن يشاهد الناخبون المرشّحين المتنافسين على شاشة «التلفاز» أو في الصحف وأن يتأمّلوا ويقارنوا قليلاً ما يمثّل كلّ منهما ويحمل من آمال وتطلّعات ونظرة إلى الحاضر والمستقبل حتّى يقرّروا انتخاب زاهر الخطيب وليس العكس. وهكذا كان وحصل. ولم تسفر المساعي والضغوط التي مارسها البعض من القيادات الشهابية عن نتيجة تذكر، ففاز زاهر الخطيب بفارق كبير وملحوظ في الأصوات.

وأورد خليل في الصفحة ١٤٨ الآتي: «غادرنا بنت جبيل إلى حاصبيا حيث الشمسان: نجيب بك حليف الأمير مجيد وبهجت بك رفيق كمال وقريبه». وهذه لعمري هفوة كبرى، فنجيب شمس هو قريب كمال بك (ابن عمّته) وحليفه ومعتمده في منطقة حاصبيا، وربطتنا به صداقة وأخوّة، وزرناه برفقة كمال جنبلاط مرّات والتقيناه في منزل كمال بك في بيروت وفي المختارة مرّات ومرّات... وتناولنا الغداء في داره العامرة بحاصبيا بحضور سفير عبد الناصر في بيروت اللواء عبد الحميد غالب ووزراء ونوّاب وشخصيّات وطنية... ورقص شباب المنطقة «الدبكة» احتفاءً بالضيوف.

وفي هذا القدر من التصويبات كفاية، فلن نغوص في التفاصيل أكثر من ذلك حتى لا تصدمنا هفوات وأخطاء كان في إمكان صديقنا خليل تلافيها وتجاوزها لو دقّق قليلاً في معلوماته وشحذ أكثر ذاكرته...

نقول ذلك بكلّ محبّة مستذكرًا واقعة تجاهلها خليل ومفادها: إنَّني كنت أنا من قدّم الدكتورين خليل أحمد خليل وفؤاد شاهين ذات يوم أحد إلى كمال جنبلاط في دار المختارة. والله من وراء القصد.

* * *

فهرست المحتويات

* * *

